بشرح كِتَابِ التَّوْحِيدِ

التنضيد

بشرح كِتَابِ التَّوْحِيدِ

الَّذِي هُوَ حَقُّ اللهِ عَلَى العَبِيدِ

الطبعة الأولى

١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

تم الصف والإخراج في

مؤسسة عبدالعزيز الراجحي الوقفية

مجموعة مؤلفات فضيلة الشيخ عبد العزيز بن عبد اللَّه الراجحي (٦٩)

التنضيد

بشرح

كِتَابِ التَّوْحِيدِ

الَّذِي هُوَ حَقُّ اللهِ عَلَى العَبِيدِ

لِلإِمَامِ المجدد الشيخ

مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الوَهَّابِ بنِ سُلَيْمَانَ التَّمِيمِيِّ

شرح

عبدالعزيز بن عبد اللَّه الراجحي

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن موضوع كتاب التوحيد للإمام المُجدِّد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله هو بيان ما بعث الله به رسله من توحيد العبادة، وبيانه بالأدلة من الكتاب والسنة، وذِكْر ما ينافيه من الشرك الأكبر، أو ينافيه من الشرك الأصغر والبدع والمعاصي.

التعريف بالمؤلِّف والكتاب

كتاب التوحيد للإمام المُجدِّد الشيخ العلَّامة محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالى، المجدِّد لما اندرس من معالم التوحيد في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري، المولود سنة خمس عشرة ومائة وألف من الهجرة، والمتوفى سنة ستٍّ ومائتين وألف من الهجرة، رحمة الله عليه[(١)].

وهذا الكتاب كتابٌ عظيم، ألَّفه الإمام رحمه الله تعالى لبيان توحيد العبادة بالأدلة، وما ينافيه أو ينافي كماله الواجب، مع بيان توحيد

(١) انظر: تاريخ ابن بشر (١/ ٦، ٨٩) وفيه نسبه، وأنه توفي عن نحو ٩٢ سنة، وتاريخ نجد الحديث ٢١، وتاريخ ابن غنام (٢/ ١٢٤) وما قبلها، والضياء الشارق لابن سحمان، وفيه نبذ متفرقة من سيرته، والرد على ما افتري به عليه).

الربوبية والأسماء والصفات.

والتوحيد كما قرَّر أهل العلم بالاستقراء أنواعٌ ثلاثة:

١- توحيد الربوبية.

٢- توحيد الألوهية.

٣- توحيد الأسماء والصفات.

وهو كتاب لم يؤلَّف في بابه مثله؛ أي: في موضوع توحيد العبادة، قال شيخنا سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهو كتاب لا نعلم أنه سبق أن أُلِّف مثله في معناه، على صغر حجمه، وكثرة فائدته، فينبغي حفظه، وتأمُّل ما فيه من الآيات والأحاديث؛ لما فيها من العلم النافع، والهدى المستقيم، والدلالة على توحيد الله والإخلاص، وعلى بطلان الشرك، وسائر ما حرَّمه الله من البدع والمعاصي التي نهى الله عنها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. اهـ.

وقد عقد الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الجامع الصحيح» كتاباً في آخر الجامع سمَّاه: كتاب التوحيد، وضمَّن في الأبواب التي بحثها والنصوص التي أوردها إثبات توحيد الربوبية والأسماء والصفات؛ وذلك لأنه في زمانه ظهر أهل البدع، وانتشر مذهب الشيعة، والجهمية، والمعتزلة، فلهذا أراد رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيان معتقد أهل السنة والجماعة في إثبات الأسماء والصفات لله عَزَّوَجَلَّ، والرد على أهل البدع؛ ولهذا سمَّى الكتاب كتاب التوحيد، وقد ضمَّن فيه الردَّ على الجهمية الذين ينكرون الأسماء والصفات؛ فلذلك اعتنى البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تقرير توحيد الربوبية والأسماء والصفات؛ لوجود أهل البدع المُعطِّلة في زمانه.

أما الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنه ألَّف «كتاب

التوحيد»؛ لبيان توحيد العبادة، فموضوعه هو بيان توحيد العبادة بالأدلة، وما ينافيه من الشرك الأكبر أو ينافي كماله الواجب، مع بيان توحيد الربوبية والأسماء والصفات، وسبب ذلك هو انتشار الشرك في زمانه، وهو ما ينافي توحيد العبادة؛ حيث انتشرت القبور التي تُعبد من دون الله في نجدٍ، وفي جزيرة العرب عامَّة، وفي غيرها من البلدان، فكان أصحاب تلك القبور يُدْعَون من دون الله، ويُنذَر لهم، ويُذبَح لهم، وألَّف هذا الكتاب وبوَّبه، وجعل فيه ستةً وستين باباً.

❋ منهج المؤلف رحمه الله

اتَّبع الإمام المجدِّد رحمه الله في كتابه طريقة البخاري رحمه الله؛ من حيث التراجم والاستدلال، فهو يذكر الترجمة - وقد تكون الترجمة آية من كتاب الله - ثم يذكر الآيات، ثم الأحاديث، ويذكر أيضاً الآثار عن الصحابة أو التابعين أو من بعدهم، وأقوال أهل العلم من التابعين أو من غيرهم.

وقد ينقل أقوال شيخ الإسلام، وتلميذه ابن القيم، وغيرهما - رحم الله الجميع - ثم يذكر المسائل في آخر كل باب، وبذا يكون قد أتى بالأدلة من الكتاب، والسُّنة، وأقوال السلف.

كتبه

عبد العزيز بن عبد الله الراجحي

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب التوحيد

وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذّاريَات: ٥٦]. وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النّحل: ٣٦]. وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]. وقوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النِّسَاء: ٣٦]. وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [الأنعَام: ١٥١-١٥٤].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُه فَلْيَقْرَأْ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعَام: ١٥٣] الْآيَةَ(١).

وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ، فَقَالَ لِي: «يَا مُعَاذُ، أتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أعْلَمُ. قَالَ: «فإن حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أفَلَا أُبَشِّرُ

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب «ومن سورة الأنعام»، رقم (٣٠٧٠)، وقال: «حسن غريب».

النَّاسَ؟ قَالَ: «لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا». أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ(١).

الشَّرْح

الابتداء بالبسملة حقيقيٌّ، وبالحمدلة نسبيٌّ إضافيٌّ:

○ **قوله:** «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ».

بدأ المؤلِّف رَحِمَهُ اللَّهُ كتابه بقوله: «بسم الله الرحمن الرحيم»؛ اقتداءً بالكتاب العزيز، وعملاً بحديث: **«كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِبَسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَهُوَ أَقْطَعُ»**(٢)، وله شواهد في المسند والسنن(٣).

واقتصر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في بعض النُّسَخ على البسملة؛ لأنها من أبلغ الثناء والذكر، واقتداءً بالنبي ﷺ، فإنه كان يقتصر عليها في مراسلاته، كما في كتابه ﷺ لهرقل عظيم الروم، فإنه ابتدأ بقوله: **«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ: سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ**

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب «اسم الفرس والحمار»، رقم (٢٨٥٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (٣٠).

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» رقم (١٢١٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال ابن الصلاح: الحديث حسن، انظر: «البدر المنير» لابن الملقن (٧/ ٥٢٩).

(٣) أخرجه أبوداود، كتاب الأدب، باب «الهدي في الكلام»، رقم (٤٨٤٠)، وابن ماجه، كتاب النكاح، باب «خطبة النكاح»، رقم (١٨٩٤): «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِالْحَمْدِ أَقْطَعُ»، وفي لفظٍ لأحمد (٢/ ٣٥٩): «كُلُّ كَلَامٍ أَوْ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُفْتَحُ بِذِكْرِ اللهِ، فَهُوَ أَبْتَرُ أَوْ قَالَ: أَقْطَعُ»، وعند الدارقطني في «السنن» (١/ ٢٢٩) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِذِكْرِ اللَّهِ أَقْطَعُ»، وقال: «وأرسله غيره عن الزهري عن النبي ﷺ، والمرسل هو الصواب». وانظر: «العلل» (٨/ ٢٩).

بِدِعَايَةِ الإِسْلَامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ[(١)] [(٢)]. وفي بعضها ثنَّى بالحمد، والصلاة على النبي ﷺ، فقال: «**الحمد لله، وصلى الله على محمد وآله وسلم**».

وعلى هذا فالابتداء بالبسملة حقيقيٌّ، وبالحمدلة نسبيٌّ إضافيٌّ، أي: بالنسبة إلى ما بعد الحمد يكون مبدوءاً به.

○ **قوله**: «**الْحَمْدُ لله**».

كما مر بنا أن هذه الجملة موجودة في بعض النُّسَخ دون بعض، والحمد معناه: الثناء باللسان على الجميل الاختياري على وجه التعظيم.

والحمد أبلغ من المدح؛ فالحمد هو الثناء على المحمود على فعله الاختياري مع حبه وإجلاله وتعظيمه، بخلاف المدح؛ فهو ثناءٌ عليه بالصفات الموجودة فيه، وقد لا تكون اختيارية، ولا يلزم أن يكون معه حب، فأنت تثني على الأسد بأنه قوي في عضلاته ولكنَّك لا تحبه؛ ولهذا ورد في أول الكتاب الكريم قوله ﷻ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفَاتِحَة: ٢]. فالحمد لا يكون إلا في جناب الرب جلَّ وعلا وحقه، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾. ولم يقل: أمدح الله.

---

(١) «الْأَرِيسِيِّينَ»: جمع أريسي، وهو الفلاح، وقال الخطابي: أراد أن عليك إثم الضعفاء والأتباع إذا لم يسلموا تقليداً له؛ لأن الأصاغر أتباع الأكابر. انظر فتح الباري (١/ ٣٩).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب «كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ»، رقم (٧)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، رقم (١٧٧٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

والحمد يكون بالقلب، وباللسان، وهو أخصُّ من الشكر؛ لأن الشكر يكون باللسان، وبالقلب، وبالجوارح، فهو أعمُّ من الحمد متعلَّقاً، وأخصُّ منه سبباً؛ لأن الشكر يكون في مقابل النعمة، والحمد يكون في مقابل النعمة وغيرها.

أي أن الحمد والشكر بينهما عمومٌ وخصوصٌ وجهيٌّ؛ فهما يجتمعان في النعمة، بينما ينفرد كلٌّ واحدٍ منهما عن الآخر في أن الحمد يكون بالقلب واللسان، والشكر يكون في مقابل النعمة.

وقيل: لا فرق بينهما، وكلٌّ منهما يكون بالقلب، واللسان، والجوارح.

○ **قَوْلُهُ:** «وصلى الله على محمد».

أصحُّ ما قيل في معنى صلاة الله على عبده ما ذكره البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيحه»(١): عن أبي العالية رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «**صَلَاةُ اللَّهِ: ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ عِنْدَ المَلَائِكَةِ، وَصَلَاةُ المَلَائِكَةِ الدُّعَاءُ**».

وقيل: إن الصلاة تشمل الثناء والرحمة، إلا إذا اجتمعتا، كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾ [البَقَرَة: ١٥٧]. فتختص الصلوات بالثناء.

و«**محمد**»: اسم نبيِّنا عليه الصلاة والسلام، وله أسماء كثيرة: محمد، وأحمد والماحي، والحاشر، والعاقب(٢).

الماحي: الذي يمحو الله به الكفر، والحاشر: الذي يُحشر

(١) ذكره البخاري في «صحيحه» (٤/ ١٨٠٢) مُعلَّقًا بصيغة الجزم.
ووصله القاضي أبو إسحاق في «فضل الصلاة على النبي ﷺ» رقم (٩٥).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب «ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ»، رقم (٣٥٣٢)، ومسلم، كتاب الفضائل، رقم (٢٣٥٤) من حديث جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الناس على عقبه، والعاقب: الذي ليس بعده نبي. وله عليه الصلاة والسلام أسماء متعدّدة، ومحمد من أشهرها وأعظمها وأفضلها، وسمي محمداً لكثرة محامده عليه الصلاة والسلام، أي: لكثرة ما يُحمد عليه من الخصال.

○ **قَوْلُهُ:** «وعلى آله، وصحبه».

قيل: إن المراد بـ«الآل» أزواجه وذريته، وقيل: المراد بهم أتباعه على دينه.

والصواب: أن الآل هم أتباعه على دينه، ويشمل الصحابة، ويشمل أزواجه وذريته المؤمنين، ويشمل عمّه العباس وحمزة، ويشمل مَن بعدهم، ولا يدخل غير المسلمين.

وقد يُجمع بينهما فيقال: على محمدٍ وعلى آله وصحبه. فإذا جُمع بينهما صار عطف الآل على الصحب من باب عطف العام على الخاص، وإذا قُدِّم الآل وعُطف عليه الصحب صار من عطف الخاص على العام.

○ **قَوْلُهُ:** «وسلَّم».

دعاء له بالسلامة عليه الصلاة والسلام، فقولك: صلى الله عليه. يعني: أنك تدعو الله أن يثني عليه في الملأ الأعلى عليه الصلاة والسلام، وتدعو الله أن يُسلِّمَه من شرور الدنيا والآخرة عليه الصلاة والسلام.

○ **قَوْلُهُ:** «كِتَابُ التَّوْحِيدِ».

«كتاب» هو مصدر كتب يكتب كتاباً وكتابة وكتْباً، وهذه المادة [ك ت ب] تدور على الجمع، ومنه يقال: تكتَّب بنو فلان. إذا اجتمعوا، ومنه الكتيبة لجماعة الخيل. والكتابة بالقلم سميت كتابة

لاجتماع الكلمات والحروف، وسمّي الكتاب كتاباً لأنه يجمع علوماً متنوعة[١].

و«التوحيد» قسّمه العلماء إلى ثلاثة أقسام: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وهذا التقسيم مأخوذ من استقراء النصوص من الكتاب والسنة، ومن العلماء من قسّمه إلى قسمين - ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله[٢] - قالوا: التوحيد نوعان: توحيدٌ في المعرفة والإثبات، وهذا يشمل توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد في الطلب والقصد، وهذا هو توحيد العبادة.

○ **قَوْلُهُ:** «وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]».

«قول» بالجر معطوف على «التوحيد». والمؤلِّف رَحِمَهُ اللهُ - كما سبق أن بينا - صدّر هذا الكتاب بالآيات ثم بالأحاديث وبأقوال بعض الصحابة، على طريقة البخاري رَحِمَهُ اللهُ.

وهذه الآية فيها بيان الحكمة من خلق الجن والإنس، وأنّ الله تعالى خلق الجن والإنس لعبادته وتوحيده وطاعته، فالعبادة هي التوحيد، وهناك حِكَمٌ أخرى من خلق الجن والإنس؛ وهي: ابتلاؤهم أيُّهم أحسن عملاً، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [المُلك: ٢]. ومنها أيضاً أن يُعرف الربُّ بأسمائه وصفاته، وأنه على كل شيءٍ قدير، وأنه محيطٌ بكل شيءٍ علماً، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ

(١) ينظر لسان العرب (١/٦٩٨)، مادة (ك ت ب).

(٢) ينظر مدارج السالكين (٣/٤٤٩).

يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطّلاق: ١٢].

والجن والإنس هما الثقلان، وقد قُدِّم الجن على الإنس؛ لأنهم أكثر. وسمّي الجن جنّاً من الاجْتِنَان؛ وهو الاستتار[١]، والإنس من النَّوْس؛ وهو الحركة[٢]، فالإنس يُؤْنَسُون ويَظْهَرُون، أما الجن فإنهم يستترون ويختفون، وقد يظهرون أحياناً، لكن الغالب أنهم يختفون، وهم يروننا ونحن لا نراهم، هذا هو الأصل، كما قال تعالى عن الشيطان: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

○ **قَوْلُهُ:** «وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النّحل: ٣٦]».

بيَّن الله تعالى في هذه الآية الحكمة من إرسال الرسل؛ وهي أن يأمروا أممهم بعبادة الله، وإخلاص التوحيد له.

وقوله: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النّحل: ٣٦].

هو معنى (لا إله إلا الله)؛ فإن معناها: لا معبود حقٌّ إلا الله. والتوحيد لا بد فيه من اجتناب الطاغوت والكفر به، والإيمان بالله، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦]. وهذه الآية فيها الأمران: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ هذا هو الإيمان بالله، ﴿وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ هذا هو الكفر بالطاغوت. فقول: (لا إله) تستلزم اجتناب الطاغوت والكفر به، وقول: (إلا الله) تعني: الإيمان بالله، وإثبات التوحيد له وحده.

---

(١) لسان العرب (جنن).

(٢) لسان العرب (نوس).

والطاغوت: كلُّ ما تجاوز به العبد حدّه، وهو على وزن: (فَعَلوت)، وأَصل وَزْن طاغُوت: طَغَيُوت، على فَعَلُوت، ثم قُدِّمَت الياءُ قبل الغين فَصار طَيَغُوت ووَزْنُه فَلَعُوت، ثم قُلبت الياء ألفاً لتَحَرُّكها وانفتاح ما قبلها فصار: طاغُوت، وهو من الطغيان، وهو مجاوزة الحدِّ، فإذا تجاوز حدَّه بأن دعا غير الله، أو رضي أن يُعبد من دون الله، أو حكم بغير ما أنزل الله، فإنه يكون طاغوتاً؛ لتجاوزه حدّه.

وحدّ الإنسان أن يكون عبداً لله، فهو مخلوق لعبادته، ويشمل الكافر والمبتدع والعاصي؛ فإن المبتدع والعاصي عندهما نوعٌ من الطغيان، لكن الطغيان الكامل هو طغيان الكافر؛ فالكافر طاغوت تجاوز حده، وكذلك المبتدع والعاصي عندهما نوعٌ من تجاوز الحد، وإن لم يكن تجاوزاً كاملاً.

والكفر بالطاغوت هو البراءة من كلِّ معبودٍ سوى الله، ونفي عبادة غير الله، وإنكارُها والبراءةُ منها ومن أهلها.

○ **قَوْلُهُ**: «وقول الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ﴾ [الإسراء: ٢٣]».

هذا هو معنى (لا إله إلا الله)؛ لما فيها من نفي العبادة عن غير الله، وإثباتها له وحده.

﴿وَقَضَىٰ﴾ يعني: أمر ووصّى، ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾ يعني: أن تعبدوه وحده دون ما سواه، والتوحيد لا يكون إلا بالنفي والإثبات، أما النفي المحض فلا يكون توحيداً، بل يكون شركاً، وكذلك الإثبات بدون النفي لا يكون توحيداً، فلا يكون التوحيد إلا متضمِّناً للنفي والإثبات.

وهذه الآية الكريمة فيها أوامر ووصايا ابتدأها بالأمر بالتوحيد،

وهو حق الله ﷻ؛ لأنه أعظم الحقوق، ثم أوصى بالوالدين وإعطائهما حقَّهما، فقال: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ يعني: وقضى أن تحسنوا بالوالدين إحساناً، كما قضى بعبادته وحده لا شريك له.

وقرن الله حقَّ الوالدين بحقِّه في آيات كثيرة؛ لعظم حقِّهما، منها هذه الآية، ومنها قوله ﷻ في سورة النساء: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النِّسَاء: ٣٦]. ومنها قوله تعالى في سورة لقمان: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمَان: ١٤].

وفي هذه الآية أوامر ووصايا عظيمة، تدل على عظم حقِّ الوالدين: أولاً قال: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾. هذا مصدر قام مقام الأمر، وهو هنا أمر عام بالإحسان. ثم قال ﷻ موصِّياً الأبناء بأوامر تفصيلية: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ﴾. هذا خطاب للابن، ﴿أَحَدُهُمَآ﴾ يعني: الوالدين. ﴿أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسرَاء: ٢٣-٢٤]، هذه أوامر من الله تعالى للأبناء والبنات، من الذكور والإناث، قال: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾، نهاه عن التأفيف، والمعنى: لا تسمعهما قولاً سيّئاً، حتى التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيّئ. ثم قال: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ يعني: لا يصدر منك إليهما فعلٌ قبيح، ولا ترفع صوتك عليهما، ولا تشح عنهما بوجهك[1].

ثم لما نهاه عن الفعل القبيح، وعن القول القبيح، أمره بالفعل الحسن، والقول الحسن، فقال: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسرَاء: ٢٣-٢٤].

---

(١) أشاح بوجهه عنه: إذا أعرض عنه. انظر: لسان العرب (شيح).

هنا يُلاحظ أن هناك نهيين، وثلاثة أوامر:

النهي الأول: نهي عن القول السيئ، وهو قوله: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾.

النهي الثاني: نهيٌ عن الفعل السيئ، وهو قوله: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾. ويشمل النهي رفع الصوت، ونفض اليدين عنهما.

وأما الأوامر:

فالأول: الأمر بالقول الحسن، وهو قوله: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾. يعني: قولاً ليّناً طيّباً بأدب وتوقير.

والثاني: الأمر بالفعل الحسن، وهو قوله: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾. يعني: تواضع لهما.

والثالث: الأمر بالدعاء لهما، وهو قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾. يعني: ادع الله لهما في كبرهما وعند وفاتهما.

وإنما احتوت الآية على هذه النواهي والأوامر؛ لأن الوالدين هما السبب في وجود الإنسان، فحقُّهما يكون بعد حقِّ الله ﷻ.

○ **قَوْلُهُ**: «وقوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النِّسَاء: ٣٦]».

هذه هي الآية الرابعة التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الترجمة، وهذه الآية تسمى آية الحقوق العشرة؛ لأن الله ذكر فيها عشرة حقوق، وابتدأها بالحق الأعظم؛ وهو حقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قال: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾. وهذا هو معنى كلمة التوحيد؛ أمرٌ بالعبادة، ونهيٌ عن الشرك، فالأمر بالعبادة هو الإيمان بالله، والنهي عن الشرك هو الكفر بالطاغوت.

ومناسبة هذه الآيات للترجمة ظاهرة؛ فإن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ صدّر كتاب التوحيد بهذه الآيات التي فيها الأمر بتوحيد الله المتضمن للنفي والإثبات في جميع الآيات.

فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾، فيه بيان العلة الأولى من خلق الجن والإنس؛ وهي العبادة، والعبادة هي التوحيد والطاعة، والتوحيد لا يكون إلا إذا كان متضمِّناً للنفي والإثبات.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النّحل: ٣٦]، فيه أيضاً النفي والإثبات.

وكذلك قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسرَاء: ٢٣]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النِّسَاء: ٣٦]، فكل هذه الآيات فيها معنى التوحيد، الذي هو نفي العبادة عن غير الله، وإثباتها له وحده.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾.. الآية، تسمى بآية الحقوق العشرة، أما الحق الأول فهو حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في التوحيد، ثم ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك بقيّة الحقوق التسعة، وهي:

٢- ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أمر الله بالإحسان إلى الوالدين.

٣- ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ الإحسان إلى الأقارب.

٤- ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ جمع يتيم؛ وهو من فقد أباه دون البلوغ.

٥- ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ وهم الفقراء.

٦- ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ الجار القريب.

٧- ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ الجار البعيد.

٨- ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ قيل: هي الزوجة، وقيل: هو الصاحب في السفر.

٩- ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو الغريب المنقطع، سمّي ابن السبيل لملازمته للطريق، يعني: ابن الطريق، وهذا إذا كان منقطعاً يُعطى ما يوصله إلى بلده ولو كان من الزكاة، أمر الله تعالى بالإحسان إليه.

١٠- ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ وهم الأرقّاء؛ العبيد من الذكور والإناث.

○ **قَوْلُهُ**: «**وقول الله تعالى**: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ﴾ **إلى آخر الآيات الثلاث** [الأنعام: ١٥١-١٥٣]».

هذه الآيات الثلاث من آخر سورة الأنعام تسمى آيات الوصايا العشر، فيها وصايا عشر وصّى الله بها عباده، إذا عملوا بها وامتثلوها حصلوا على خَيْرَيِ الدنيا والآخرة.

قال سبحانه: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟﴾ قل: خطاب للنبي ﷺ أي: قل يا محمد، ﴿تَعَالَوْا۟﴾ يعني: هلمّوا وأقبلوا، ﴿أَتْلُ﴾ يعني: أقصُّ عليكم، ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ﴾ يعني: حقّاً لا تخرُّصاً ولا ظنّاً، بل وحياً من الله وأمراً.

ثم بين الله تعالى ما وصَّى به عباده:

الوصية الأولى: وهي قوله ﷻ: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ﴾، وهذا نفي للشرك، وهو يستلزم التوحيد، فإذا انتفى الشرك حلَّ محله التوحيد، والمعنى: وحِّدوا الله، وابتعدوا عن الشرك.

الوصية الثانية: وهي قوله ﷻ: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ﴾، وقد سبق

بنا الحديث عن الإحسان إلى الوالدين.

الوصية الثالثة: وهي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ﴾. الإملاق هو الفقر، نهي عن قتل الأولاد خشية الفقر كما كان يفعله أهل الجاهلية، كان منهم من يقتلون أولادهم الذكور خشية الفقر، ومنهم من يقتل البنات، يدفنونهنَّ وهنَّ أحياء خشية العار.

الوصية الرابعة: وهي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ﴾، وهذا نهي عام عن جميع أنواع الفواحش؛ وهي المعاصي، وقوله تعالى: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ حالتان تستوفيان أقسام ما جُعلتا له من الأشياء.

الوصية الخامسة: وهي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ﴾، وهذا نهي عن قتل النفس المعصومة إلا بالحق، والحق بيَّنه النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث المُخرَّج في «الصحيحين»(١) الذي رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ**».

هذه حقوقٌ خمسة ذُكرت في الآية الأولى، وقد ختمها سبحانه بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾، ﴿ذَٰلِكُمْ﴾: إشارة إلى هذه المُحرَّمات، والوصية هي الأمر المؤكَّد المقرَّر، وقوله:

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الديات، باب «قول الله تعالى: ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة: ٤٥] رقم (٦٨٧٨)، ومسلم، كتاب القسامة، رقم (١٦٧٦).

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ لعلَّ: للتعليل، أي: إن الله تعالى وصّانا بهذه الوصايا لنعقلها عنه، ونعمل بها.

الوصية السادسة: وهي قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾، وهذا نهي عام عن القرب من مال اليتيم، وهو يعم وجوه التصرُّف، وفيه سدٌّ للذريعة، ثم استثنى ﷻ ما يَحْسُن؛ وهو السعي في نمائه، وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ المراد به الرشد؛ وهو زوال السفه مع البلوغ.

الوصية السابعة: وهي قوله ﷻ: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ يأمر الله تعالى فيها بإقامة العدل في الأخذ والإعطاء، ولا يكلِّف الله الإنسان إلا على حسب وسعه، فإذا اجتهد في أداء الحق وأخذه، واستفرغ الوسع وبذل جهده، فلا حرج عليه إن حصل خطأ.

الوصية الثامنة: وهي قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾، هذا أمرٌ بالعدل بالقول والفعل، على القريب والبعيد، كما قال الله ﷻ في الآية الأخرى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]. فلا يجور الإنسان على البعيد، ولكنه يقول الحق على القريب والبعيد.

الوصية التاسعة: وهي قوله ﷻ: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾، المعنى: وبوصية الله التي أوصاكم بها أوفوا، وإيفاء الوصية: طاعة الله في أوامره، والانتهاء عن نواهيه، والعمل بكتابه وسنَّة رسوله ﷺ؛ وهذا هو الوفاء بعهد الله.

ثم ختم سبحانه هذه الآية بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعام: ١٥٢]، أي: لعلكم تتعظون وتنتهون عما كنتم

فيه مما يخالف شرع الله.

الوصيّة العاشرة: وهي قوله ﷻ في الآية الثالثة: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعَام: ١٥٣]، أمَر الله تعالى باتباع الصراط المستقيم؛ والصراط المستقيم هو حبل الله ودينه، وهو ما جاء به محمد ﷺ من الشريعة الخاتمة، وهو ما جاء في القرآن والسنة.

وقد وحّد الله ﷻ الصراط؛ لأن دين الله واحد، والحقُّ واحد لا يتعدد، وجَمَع السُّبَل؛ لأن طُرُق الباطل متشعِّبة، وكثيرة متعددة.

ثم ختم الآية بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعَام: ١٥٣]، ولهذا سميت هذه الآيات بالوصايا العشر، ففي الآية الأولى قال: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعَام: ١٥١]. وفي الآية الثانية قال: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعَام: ١٥٢]. وفي الآية الثالثة قال: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعَام: ١٥٣]. وذلك لأنهم إذا تعقَّلوا تذكّروا، ثم عملوا فصاروا مُتَّقِين.

○ **قَوْلُهُ**: «قال ابن مسعود: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُه فَلْيَقْرَأْ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ **الآية**».

هنا ذكر المؤلِّف رحمه الله بعد الآيات الثلاث المشتملات للوصايا العشر قول ابن مسعود رضي الله عنه، ومعنى هذا الكلام أن النبي ﷺ لم يوصِ، ولو أوصى لكانت وصيّته هي وصيّة الله لعباده، والله تعالى وصّى عباده بهذه الوصايا العشر، ولا يمكن أن يوصّي النبي ﷺ أمّته إلا بما وصّاهم الله ﷻ به؛ ولهذا قال ابن مسعود: من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ هذه الآيات؛ لأن

وصية النبي ﷺ هي وصية الله لعباده.

○ **قَوْلُهُ**: «وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ، فَقَالَ لِي: «يَا مُعَاذُ، أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: «لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا». أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ».

هنا ذكر المؤلِّف رحمه الله حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه الذي أخرجه الشيخان، وهذا الحديث فيه تواضع النبي ﷺ؛ حيث أردف معاذاً رضي الله عنه على الحمار، على خلاف عادة المتكبرين الذين يستنكفون أن يكون لهم رديف، فالنبي ﷺ قدوة المتواضعين.

«أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟» أخرج السؤال بصيغة الاستفهام؛ ليكون أوقع في النفس، وأبلغ في فهم المتعلِّم، وفي إحدى روايات الحديث[1]: أن النبي ﷺ كرَّر دعاء معاذ رضي الله عنه، فقال: «**يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ**»، قُلْتُ: «لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ»، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: «**يَا مُعَاذُ**»، قُلْتُ: «لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ»، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: «**يَا مُعَاذُ**»، قُلْتُ: «لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ»، قَالَ: «**هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ؟**» الحديث، والساعة جزء من الزمن؛ وذلك ليتشوّق معاذ رضي الله عنه لما يُلقى إليه.

«قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ» هذا فيه حسن الأدب من المتعلِّم، وأنه ينبغي لمن سُئل عما لا يعلم أن يقول: الله ورسوله أعلم. وهذا

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب اللباس، باب «إرداف الرجل خلف الرجل»، رقم (٥٩٦٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (٣٠).

في حياته ﷺ، أما بعد وفاته فإنه يقال: الله أعلم. فقط؛ لأن الرسول ﷺ لا يعلم الغيب.

«حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً» أي: أن يوحِّدوه بالعبادة؛ بغاية الحب مع غاية الذلّ والخضوع، كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(١):

وعبادة الرحمن غاية حُبِّه حبِّه ... مع ذلِّ عابده هما قطبانِ
وعليهما فلك العبادة دائرٌ ... ما دار حتى قامت القطبانِ
ومداره بالأمر أمر رسوله ... لا بالهوى والنفس والشيطانِ

فأعظم الحقوق: حق الله التوحيد لله رب العالمين.

«وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً» فيه بيان الفرق بين الحقّين: حق الله التوحيد؛ لأن الخصومة فيه، وحق العباد ألا يُعذِّب من لا يُشرك به شيئاً، فحق الله حق إلزام وإيجاب، وحق العباد حق تكرُّم وتفضُّل، قال الشاعر(٢):

ما للعباد عليه حق واجب ... كلا ولا سعيٌ لديه ضائعُ
إن عُذِّبوا فبعدله أو نُعِّموا ... فبفضله وهو الكريم الواسعُ حح

ثم قال معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: «لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا» فيه: استحباب بشارة المسلم بما يسرُّه، وفيه ما كان عليه الصحابة من الاستبشار، فقال النبي ﷺ: «لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا» يعني: فيعتمدوا على ذلك، ويتركوا

(١) القصيدة النونية لابن القيم (ص ٣٥).

(٢) قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في مدارج السالكين (٢/٣٣٨): (فالرب سبحانه ما لأحدٍ عليه حق، ولا يضيع لديه سعى)، ثم أنشد البيتين. وانظر: الوابل الصيب (ص ١٣٨)، وشرح الطحاوية (١/٢٩٦).

التنافس في الأعمال الصالحة، وجاء في رواية: أن معاذاً رضي الله عنه إنما أخبر بها عند موته تأثُّماً[(١)]، يعني: تحرّجاً من الإثم، وهذا الاتّكال إنما يكون من بعض الناس، أمَّا الأكياس والأخيار فإنه لا تزيدهم هذه البشارة إلا نشاطاً وقوَّةً وزيادةً في العمل الصالح.

فِيهِ مَسَائِلُ:

✧ الأُولىٰ: الحِكْمةُ في خَلْقِ الجِنِّ وَالإِنسِ

هذه الحكمة هي أن يعبدوه سبحانه وتعالى، ولا يشركوا به شيئاً، وهناك حكمة أخرى؛ وهي أن يُعْرَفَ الله بأسمائه وصفاته، وأن يُعْلَمَ أنه على كل شيء قدير، وأن علمه محيط بكل شيء، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢]. وهناك حكمة ثالثة؛ وهي الابتلاء والامتحان، أيُّ الناس أحسن عملاً، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [المُلك: ٢].

✧ الثَّانيةُ: أَنَّ العِبادَةَ هي التَّوحيدُ؛ لأَنَّ الخُصُومةَ فيهِ.

فالخصومة إنما وقعت بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين المشركين في تحقيق التوحيد، وإعمال شهادة (لا إله إلا الله).

✧ الثالثة: أنَّ مَنْ لَمْ يأْتِ بهِ لمْ يَعْبُدِ اللهَ، ففيهِ مَعنىٰ قوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾﴾ [الكافرون: ٣، ٥]

أي: أن مَن لم يأت بالتوحيد لم يعبد الله.

(١) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب «من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية أن لا يفهموا»، رقم (٥٩٦٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (٣٢) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

◄ الرابعةُ: الحكمةُ في إرسالِ الرُّسُلِ ـ علَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ.

وهي دعوة الناس إلى عبادة الله واجتناب الطاغوت.

◄ الخامسة: أنَّ الرِّسالةَ عمَّت كُلَّ أُمَّةٍ.

◄ السادسةُ: أنَّ دِينَ الأنبياءِ واحِدٌ.

◄ السابعةُ: المسألةُ الكبيرةُ: أنَّ عِبادَةَ اللهِ لا تَحصُلُ إلَّا بالكُفرِ بالطَّاغوتِ، فَفِيهِ معنىٰ قولِهِ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٦].

لأن التوحيد لا يكون إلا بأمرين: النفي، والإثبات، فالنفي هو الكفر بالطاغوت، والإثبات هو الإيمان بالله، وقد تقدم بيان ذلك.

◄ الثامنةُ: أنَّ الطَّاغوتَ عامٌّ في كُلِّ ما عُبِدَ مِن دُونِ اللهِ.

◄ التاسعةُ: عِظَمُ شأنِ ثلاثِ الآياتِ المُحْكَماتِ في «سُورَةِ الأَنعامِ» عندَ السَّلفِ. وفيها عَشْرُ مَسَائِلَ، أَوَّلُها: النَّهيُ عن الشِّركِ.

وقد مر بنا أن هذه الثلاث آيات تسمى آيات الوصايا العشر؛ لأن فيها عشر وصايا، أوَّلاها: النهي عن الشرك، فالبدء بالأهم، والنهي عن الشرك يلزم منه الأمر بالتوحيد.

◄ العاشرةُ: الآياتُ المُحْكَماتُ في «سُورةِ الإسراءِ»، وفيها ثَمَانِيَ عَشْرَةَ مَسألةً، بدأَهَا اللهُ بِقَوْلِهِ: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسرَاء: ٢٢]. **وخَتَمَها بقولِه:** ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ [الإسرَاء: ٣٩]. **ونَبَّهَنا اللهُ سبحانَهُ عَلَىٰ عِظَمِ شَأْنِ هَذِهِ المسائِلِ بِقَوْلِهِ:** ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ [الإسرَاء: ٣٩].

الآيات المحكمة في سورة الإسراء فيها ثمانِي عشرة مسألة، منها:

١- النهي عن الشرك: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

٢- الأمر ببر الوالدين والوصية بهما: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾.

٣- الأمر بالنفقة: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۝٢٩﴾ [الإسراء: ٢٩].

٤- النهي عن القتل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١]، ويتضمن النهي عن قتل النفس.

٥- النهي عن الْكِبْرِ: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ۝٣٧﴾ [الإسراء: ٣٧] إلى أن قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء: ٣٩]. فقد ابتدأها ﷻ بالنهي عن الشرك، واختتمها بالنهي عنه أيضاً.

الحاديةَ عَشْرَةَ: آيةُ «سورةِ النِّساءِ» التي تُسَمَّىٰ: آيةَ الحُقوقِ العَشْرَةِ، بَدَأَها اللهُ تعالىٰ بقولِهِ: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النِّسَاء: ٣٦].

الثانيةَ عَشْرَةَ: التَّنبيهُ علىٰ وصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عندَ مَوْتِهِ.

لما أراد النبي ﷺ أن يوصي قال: «**ائْتُونِي بِكِتَابٍ أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَاباً لَا تَضِلُّوا بَعْدَهُ**». فَاخْتَلَفُوا وَكَثُرَ اللَّغَطُ، قَالَ: «**قُومُوا عَنِّي وَلَا يَنْبَغِي عِنْدِي التَّنَازُعُ**»[١]. فلو أوصى ﷺ بشيء لكانت هي وصية الله، والله تعالى أوصى بهذه الآيات العشر، فهي وصية الله ووصية رسوله؛ ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: «من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه - فلم تغيَّر ولم تبدَّل - فليقرأ هذه الآيات الثلاث من آخر سورة الأنعام». والمعنى: أن وصية النبي ﷺ هي وصية الله.

(١) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب «كتابة العلم»، رقم(١١٤)، ومسلم، كتاب الوصية، رقم (١٦٣٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

- **الثالثةَ عَشْرَةَ: مَعرِفَةُ حَقَّ اللهِ علينا.**

وهو توحيد الله، وإخلاص الدين له.

- **الرابعةَ عَشْرَةَ: معرفةُ حَقِّ العِبادِ عليهِ إذا أَدَّوْا حَقَّهُ.**

وهو أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً، وفرقٌ بين الحقّين: حق الله حق إيجاب وإلزام، وحق العباد حق تكرُّم وتفضُّل، وقد مر بنا الكلام على ذلك المعنى.

- **الخامِسةَ عَشْرَةَ: أنَّ هذهِ المَسأَلةَ لا يَعْرِفُها أَكثَرُ الصَّحابةِ.**

المراد: لا يعرفها أكثر الصحابة بالنص عليها استقلالاً، وإلا فقد بيَّن النبي ﷺ معناها، وأن من لم يشرك بالله فهو من أهل الجنة، لكن النص على كون هذا حق العباد على الله هو الذي لم يعرفه أكثر الصحابة.

- **السادسةَ عَشْرَةَ: جوازُ كِتمانِ العِلم للمصْلَحَةِ.**

ولهذا قال النبي ﷺ: «لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا». فإذا كانت المصلحة تقتضي كتمان العلم عن بعض الناس كُتم.

- **السابعةَ عَشْرَةَ: استِحبابُ بِشَارَةِ المُسلِم بما يَسُرُّهُ.**

من قوله: أفلا أبشِّر الناس؟

- **الثامنةَ عَشْرَةَ: الخوفُ مِن الاتِّكالِ على سَعَةِ رَحْمَةِ اللهِ.**

من قوله ﷺ: «لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا».

- **التاسعةَ عَشْرَةَ: قولُ المسؤولِ عمَّا لا يَعلَمُ: «اللهُ ورَسُولُهُ أَعْلَمُ».**

وهذا كما سبق في حياة النبي ﷺ، أما بعد وفاته فإنه يقال: الله أعلم. لأن الرسول ﷺ لا يعلم الغيب؛ لهذا ففي يوم القيامة يرد

الناس على الحوض فيُذادون(١) ويُرَدُّون، فيقول الرسول ﷺ: «أَصْحَابِي!». فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: «سُحْقاً(٢) سُحْقاً لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي»(٣). اللهم إلا أن يريد القائل بقوله: الله ورسوله أعلم. يعني: ما أخبر به أمته في حياته من أمور التشريع، فهذا حق، أما أعمال أمته بعده فلا يعلمها إلا الله.

◆ **العِشْرُونَ: جوازُ تَخصِيصِ بعضِ النَّاس بالعِلمِ دُونَ بَعْضٍ.**

كأن يخصص بعض طلبة العلم بدروس خاصة، أو مسائل خاصة، لنباهتهم وحرصهم، والمراد بالعلم: الزائد عن القدر المحتاج إليه، يعني: في إقامة الدين، أما الذي لا بد منه في إقامة الدين فهذا لا بد منه للجميع.

◆ **الحادِيةُ والعِشْرونَ: تَواضُعُهُ ﷺ؛ لرُكُوبِ الحِمارِ مع الإِرْدافِ عليهِ.**

◆ **الثانية والعشرون: جوازُ الإردافِ علىٰ الدَّابةِ.**

◆ **الثالثةُ والعِشرونَ: فضِيلَةُ مُعاذِ بنِ جَبَلٍ رضي الله عنه.**

◆ **الرابعةُ والعِشرونَ: عِظَمُ شَأْنِ هذه المَسْأَلَةِ.**

وهي مسألة التوحيد، التي هي حق الله سبحانه وتعالى على العباد.

---

(١) الذود: الطرد. لسان العرب (ذود).

(٢) أي: بعداً. لسان العرب (سحق).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الفتن، باب «ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]، وما كان النبي ﷺ يحذر من الفتن»، رقم (٧٠٥٠، ٧٠٥١)، ومسلم، كتاب الفضائل، رقم (٢٢٩٠، ٢٢٩١) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

بَابُ فَضْلِ التَّوْحِيدِ وَمَا يُكَفَّرُ مِنَ الذُّنُوبِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] الآيَةَ.

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ». أَخْرَجَاهُ(١).

وَلَهُمَا فِي حَدِيثِ عِتْبَانَ: «فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ»(٢).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرَيِّ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ، عَلِّمْنِي شَيْئاً أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ، قَالَ: قُلْ يَا مُوسَى: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. قَالَ: كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا؟ قَالَ: يَا مُوسَى، لَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي، وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ، مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ». رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ(٣).

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب «قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ [النساء: ١٧١]»، رقم (٣٤٣٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (٢٨).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب «المساجد في البيوت» رقم (٤٢٥)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، (١/ ٤٥٥، ٤٥٦).

(٣) «صحيح ابن حبان» رقم (٦٢١٨)، و«المستدرك» (١/ ٧١٠). =

وَلِلتِّرْمِذِيِّ وَحَسَّنَهُ عَنْ أَنَسٍ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئاً لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»[(١)].

الشَّرْح

المراد بالتوحيد: توحيد العبادة؛ وهو إفراد الله تعالى بأنواع العبادة الباطنة والظاهرة؛ كالدعاء والنذر والذبح ونحوه، كما قال الله تعالى: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [غافر: ١٤]. وقال تعالى: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: ٦٥].

فهذا الباب معقود لفضل توحيد العبادة، وما يكفِّر من الذنوب.

○ **قَوْلُهُ**: «وقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢]».

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: الذين وحَّدوا الله، وأخلصوا له العبادة، ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟﴾ ولم يخلطوا، ﴿إِيمَـٰنَهُم﴾ توحيدهم، ﴿بِظُلْمٍ﴾ بشرك، ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ لهم الأمن من العذاب في الآخرة، وهم مهتدون في الدنيا.

والمراد بالظلم هنا: الشرك، هكذا فسَّر النبي ﷺ هذه الآية للصحابة، **فعن عَبْدِ اللَّهِ** رضي الله عنه، **قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ** ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ

= وأخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٦/٢٠٨)، وصحح إسناده ابن حجر في «فتح الباري» (١١/٢٠٨).

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الدعوات، باب «في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده»، رقم (٣٥٤٠). وقال: «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه». وقال ابن رجب: «إسناده لا بأس به». «جامع العلوم والحكم» (ص ٣٩١).

يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ قَالَ: «**لَيْسَ كَمَا تَقُولُونَ،** ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ بِشِرْكٍ، أَوَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ لِابْنِهِ: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣]»(١).

فالصحابة ظنوا أن الظلم المشروط عدمه هو ظلم العبد نفسه الذي هو دون الشرك، وأنه لا أمن ولا اهتداء إلا لمن لم يظلم نفسه، فأوّل لهم النبي ﷺ هذا الظاهر العام «الظلم»، وبيَّن أن هذا العموم غير مراد، بل المراد هو معنى خاص من الظلم؛ وهو «الشرك»، فلا يحصل الأمن ولا الاهتداء إلا لمن لم يلبس إيمانه بهذا الظلم.

فمن لم يلبس إيمانه بهذا الظلم كان من أهل الاهتداء، كما أنه يكون من أهل الاصطفاء الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر: ٣٢].

والظلم ثلاثة أنواع: ظلم الشرك، وظلم العباد في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، وظلم العبد نفسه فيما بينه وبين الله دون الشرك.

فمن سَلِم من هذه الأنواع الثلاثة كان له الهداية التامة في الدنيا، والأمن التام من عذاب النار في الآخرة، ومن سَلِم من الظلم الأكبر وهو الشرك، ولم يَسْلَم من ظلم العبد لنفسه، كان له مطلق الهداية في الدنيا، ولكنها ليست الهداية التامة، وله مطلق الأمن في الآخرة؛ إذ أنه أمن من الخلود في النار وقد يدخلها، لكنه إذا دخلها

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب «قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥]» رقم (٣٣٦٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (١٢٤).

بذنوبه فإنه يعذَّب بقدر ذنوبه ومعاصيه، ثم يخرج منها إلى الجنة؛ لذلك فإن النبي ﷺ أجاب الصحابة لما أشكل عليهم الأمر بأن الظلم الرافع للأمن والهداية على الإطلاق هو الشرك، وهذا هو الجواب السديد؛ لأن الشرك - وهو وضع العبادة في غير موضعها - هو الظلم المطلق التام، رافعٌ للأمن التام، وللاهتداء التام، أما مطلق الظلم - بأن يقع الإنسان في الظلم الذي هو دون الشرك - فلا يرفع مطلق الأمن، ولا يرفع مطلق الاهتداء، ولا يمنع أن يكون مطلق الظلم مانعاً من مطلق الأمن، ومطلق الهدى، فالمطلق للمطلق، والحصة للحصة(١).

○ **قَوْلُهُ**: «عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ». أَخْرَجَاهُ».

قوله ﷺ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» يعني: أقرّ بهذه الكلمة، فتكلّم بها عارفاً لمعناها، عاملاً بمقتضاها باطناً وظاهراً، فلا بد في الشهادة من العلم واليقين، والعمل بمدلولها، كما قال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]. وقال سبحانه: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝٨٦﴾ [الزخرف: ٨٦]. أما النطق بها من غير معرفة لمعناها ولا يقين، ولا عمل بما تقتضيه من البراءة من الشرك وإخلاص القول والعمل، فغير نافع بالإجماع.

وقوله ﷺ: «وَحْدَهُ» تأكيد للإثبات «لَا شَرِيكَ لَهُ» تأكيد للنفي.

---

(١) ينظر: الصواعق المرسلة (٣/١٠٥٨).

وقوله: «وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ» يعني: وشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، وقد أتى بهاتين الصفتين وجمعهما دفعاً للإفراط والتفريط، فإنّ كثيراً ممن يدَّعي أنه من أمته ﷺ أفرط بالغلو قولاً وعملاً، وفرَّط بترك متابعته، فلا بد أن يشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، هو عبد ورسول، يُطاع ويُتبع، ليس ربّاً ولا إلهاً، وليس كسائر الناس، بل هو ﷺ خصّه الله بالنبوة والرسالة، فهو نبيٌّ كريم يطاع ويُتّبَع ويُحب، وتُصدَّق أخباره، وتنفَّذ أوامره، ويتعبَّد لله بما شرعه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ.

قَوْلُهُ: «وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ» يعني: وشهد أن عيسى عبد الله ورسوله، خلافاً لما يعتقده النصارى أن عيسى هو الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة، تعالى الله عما يقولون علوّاً كبيراً، قال الله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]. فلا بد أن يشهد أن عيسى عبد الله ورسوله على علم ويقين بأنه مملوك لله، خلقه الله من أنثى بلا ذكر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عِمرَان: ٥٩]. فليس ربّاً ولا إلهاً، ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الطُّور: ٤٣، والحشر: ٢٣].

وقوله: «وَكَلِمَتُهُ» إنما سمِّي عيسى كلمةً لوجوده بكلمة «كن»؛ لأن الله خلقه بكلمة «كن»، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾. وكما بيَّن ذلك السلف من المفسِّرين وغيرهم(١)، كما قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ في الرد على الجهمية: فالكلمة التي ألقاها إلى مريم حين قال له: كن.

(١) انظر خلق أفعال العباد للإمام البخاري (ص ٤٤).

ولكنه بـ«كن» كان، فعيسى خلقه الله بكلمة «كن»، فـ«كن» من الله تعالى قول، وليس «كن» مخلوقاً كما تزعم النصارى والجهمية، فعيسى خلقه الله بكلمة «كن»، وليس عيسى «كن» كما تقول النصارى، فالنصارى يقولون: عيسى نفس الكلمة، فيجعلوه جزءاً من الله - نعوذ بالله -، والجهمية يقولون: كلمة «كن» مخلوقة(١).

والذي عليه المسلمون أن عيسى مخلوق بكلمة «كن»، ليس هو الكلمة ولكنه مخلوق بها، سمّاه الله كلمةً؛ ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [النِّسَاء: ١٧١] يعني: خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل إلى مريم، فنفخ فيها من روحه بأمر الله ﷻ، كما ذكر الحافظ ابن كثير(٢) وغيره.

وقوله: «وَرُوحٌ مِنْهُ» المعنى: أن عيسى روحٌ من الأرواح التي خلقها الله واستنطقها، كما قال الله ﷻ حينما استخرج ذرية آدم أمثال الذر: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعرَاف: ١٧٢]. بعثه الله إلى مريم فدخل فيها، والمعنى أنه كائن منه، كما قال الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣].

وَقَوْلُهُ: «وَالْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ» يعني: وشهد أن الجنة حق، والنار حق، يعني: شهد أن الجنة التي أخبر بها في كتابه أنه أعدّها للمتقين حق، أي: ثابتة لا شك فيها، وشهد أن النار التي أخبر بها في كتابه أنه أعدها للكافرين ثابتة لا شك فيها.

وَقَوْلُهُ: «أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ» هذه الجملة جواب شرط، وفي لفظ: **«أَدْخَلَهُ اللهُ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ**

(١) الرد على الزنادقة والجهمية للإمام أحمد رحمه الله (١/ ١٢٥)، وانظر الحجة في بيان المحجة (٢/ ٢٨٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/ ٤٧٧).

شَاءَ»[(١)] «أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ»، قيل: المعنى من صلاح أو فساد؛ لأن أهل التوحيد لا بد لهم من دخول الجنة، ويحتمل أن يكون معنى قوله: «**على ما كان من العمل**». أي: أن يدخل أهل الجنة على حسب أعمال كل واحد منهم في الدرجات.

ثم قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَلَهُمَا» يعني: الشيخين: البخاري ومسلما في «صحيحيهما»، «فِي حَدِيثِ عِتْبَانَ: «فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ»، اشترط الإخلاص.

ومن هذا يتبين مناسبة هذه النصوص للترجمة، وفضل التوحيد وأنه يكفِّر الذنوب؛ فالذين آمنوا ولم يخلطوا إيمانهم بشرك لهم الأمن من العذاب في الآخرة، ولهم الهداية في الدنيا، ومن وحّد الله، وأخلص له العبادة، وشهد أن لا إله إلا الله، وشهد أن محمداً رسول الله، وشهد أن عيسى عبد الله ورسوله، وشهد أن الجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة، دلّ على أن أهل التوحيد هم أهل الجنة، فإن مات على توحيد خالص من الشرك والبدع والكبائر حرَّمه الله على النار تحريم دخول، وإن مات على توحيدٍ مُلطَّخٍ بالمعاصي والكبائر حرَّمه الله على النار تحريم خلود، قد يدخل النار، وقد يُعفى عنه.

○ **قَوْلُهُ**: «وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ، عَلِّمْنِي شَيْئاً أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ» يعني: أثني عليك، وأسألك به.

○ **قَوْلُهُ**: «قَالَ: قُلْ يَا مُوسَى: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» لأن الذاكر يقولها كلها: لا إله إلا الله، ولا يقتصر على لفظ الجلالة، ولا على

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب «قوله ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النِّسَاء: ١٧١]»، رقم (٣٤٣٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (٢٨).

«هو» كما يقول الصوفية، فالصوفية ذكرهم «الله، الله» هذا للخاصة، وخاصة الخاصة ذكرهم «هو، هو»، وهذا من جهلهم وضلالهم، لا يقولون: لا إله إلا الله.

○ **قَوْلُهُ:** «قَالَ: كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا؟» يعني: وإنما أُرِيدُ شيئاً تخصني به.

○ **قَوْلُهُ:** «قَالَ: يَا مُوسَى، لَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي، وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ» يعني: في كفة الميزان.

○ **قَوْلُهُ:** «مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» أي: رجحت، فكلمة التوحيد ترجح بالسماوات السبع، والأرضين السبع؛ وذلك لما اشتملت عليه من نفي الشرك، وتوحيد الله الذي هو أفضل الأعمال، وأساس الملة والدين، فمن قالها بإخلاص ويقين، وعَمِلَ بمقتضاها ولوازمها وحقوقها، واستقام على ذلك، فهذه الحسنة لا يوازنها شيء، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأحقاف: ١٣].

ودلّ هذا الحديث على أن كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) أفضل الذكر، فيؤخذ بها، كما في حديث عبد الله بن عمرو: «**خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**»[1].

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الدعوات، باب «في دعاء يوم عرفة»، رقم (٣٥٨٥).
وقال: «هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وحماد بن أبي حميد المذكور في إسناده هو أبو إبراهيم المدني الأنصاري، وليس هو بالقوي عند أهل الحديث».

فأفضل الكلام هي كلمة التوحيد بعد كلام الله ﷻ، وفي هذا الحديث المناسبة الظاهرة للترجمة وفضل التوحيد، وأن كلمة التوحيد ترجح بالسماوات والأرض مع ثقلهما.

○ **قَوْلُهُ**: «وَلِلتِّرْمِذِيِّ وَحَسَّنَهُ عَنْ أَنَسٍ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئاً لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»».

هذا حديث قدسي من كلام الله ﷻ لفظاً ومعنى، وهو مثل القرآن كلام الله لفظاً ومعنى، إلا أن له أحكاماً تختلف عن أحكام القرآن.

قول الله: «لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ» يعني: بملء الأرض أو ما يقارب ملؤها، «خَطَايَا» يعني: ذنوباً، «ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئاً لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً» يعني: أتيتك بملئها مغفرة، لكن بهذا الشرط: «ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئاً»، شرط ثقيل للوعد بحصول المغفرة، وهو السلامة من الشرك كثيره وقليله، صغيره وكبيره، ولا يسلم من ذلك إلا من سلَّمه الله تعالى، وهو القلب السليم الذي سَلِم من الشهوات والشبهات، كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٨-٨٩] يعني: كمّل توحيده وإخلاصه لله تعالى، وقام بشروطه بقلبه ولسانه وجوارحه، أو بقلبه ولسانه عند الموت، فإنه يوجب له ذلك مغفرة ما قد سلف من الذنوب كلها، ويمنعه من دخول النار بالكلية.

فمن حقق التوحيد بقلبه، أخرج منه كل ما سوى الله محبةً وتعظيماً وإجلالاً ومهابةً وخشيةً وتوكلاً، وحينئذٍ تُحْرِق الشبهاتِ والشهواتِ فتُحرِق ذنوبَه وخطاياه كلَّها وإن كانت مثل زبد البحر، وإذا ضعف التوحيد والإخلاص في القلب جاءت الشبهات

والشهوات، فالصادق بإيمانه وتوحيده لا يبقى معه شبهةٌ ولا شهوة، فإن الله ﷻ يغفر ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر.

فالمحقق للتوحيد، الصادق في إيمانه لا يمكن أن يصر على معصية، ولا يمكن أن يصر على كبيرة، بخلاف ضعيف التوحيد والإيمان فإنه قد يصر على المعاصي وعلى الكبائر؛ بسبب ضعف توحيده وإيمانه.

وبهذا يتبين مناسبة هذه الترجمة، وأن التوحيد فضله عظيم، وأنه يكفِّر الذنوب، إذا قوي التوحيد والإيمان والصدق والإخلاص في القلب، فإنه يحرق الشبهات والشهوات، وإذا لقي الله به فإن الله تعالى يلقاه بالمغفرة، والجزاء من جنس العمل، من لقي الله لا يشرك به شيئاً فإن الله تعالى يغفر ذنوبه إذا حقق التوحيد والإخلاص؛ ولهذا قال الرب سبحانه في هذا الحديث القدسي: «لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا» يعني: مِلْأَها أو ما يقارب مِلْأَها، «ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئاً لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً» وهذا لا يحصل لمن نقص توحيده؛ لأن التوحيد الخالص الذي لا يشوبه شرك لا يبقى معه ذنب؛ لأنه يتضمن محبة الله، وإجلاله، وتعظيمه، وخوفه، ورجاءه وحده، ما يوجب غسل الذنوب ولو كانت بقراب الأرض، فالنجاسة عارضة والدافع لها قوي.

وفي هذا الحديث: كثرة ثواب التوحيد، وسعة كرم الله وجوده ورحمته.

وفي هذا الحديث: الرد على الخوارج الذين يكفِّرون المسلمين بالمعاصي، والرد على المعتزلة القائلين بأنه يخرج من الإيمان ولا يدخل في الكفر، ويكون في منزلة بين المنزلتين، فيسمى عندهم

فاسقاً، لا مؤمناً ولا كافراً. والصواب قول أهل السنة والجماعة: أنه لا يُسلب عنه مطلق الإيمان، ولا يعطى الإيمان المطلق، فلا يقال: ليس بمؤمن. ولا يقال: هو مؤمن كامل الإيمان. بل يعطى مطلق الإيمان فيقال: مؤمنٌ عاصٍ، مؤمنٌ بإيمانه فاسقٌ بكبيرته. وفي النفي يقال: ليس بمؤمن حقّاً، ليس بصادق الإيمان. وعلى هذا دلّ الكتاب والسنة، وإجماع سلف الأُمَّة.

فِيهِ مَسَائِلُ:

- **الأولىٰ: سَعَةُ فَضْلِ اللهِ.**

حيث إنه ﷻ غفر للموحدين، وإن التوحيد يكفر الذنوب، فهذا يدل على سعة فضل الله، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

- **الثَّانِيةُ: كَثْرَةُ ثوابِ التَّوحيدِ عِنْدَ اللهِ.**

لقوله تعالى في الحديث القدسي: «لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئاً لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً».

- **الثالثةُ: تَكْفِيرُهُ مَعَ ذَلِكَ للذُّنُوبِ.**

فالتوحيد يكفِّر الذنوب.

- **الرَّابِعَةُ: تَفْسِيرُ الآيةِ التي في «سُورةِ الأَنْعَامِ».**

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾، فيه أن الأمن والهداية مشترطان بترك الشرك.

- **الخامِسةُ: تَأَمُّلُ الخَمْسِ اللَّوَاتِي في حَدِيثِ عُبادَةَ.**

وهذه الخمس هي: شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، والجنة

حق، والنار حق.

❖ **السَّادِسَةُ: أَنَّكَ إِذَا جَمَعْتَ بَيْنَهُ وبَيْنَ حَدِيثِ عِتبانَ وما بَعْدَهُ تَبَيَّن لَكَ مَعْنَىٰ قَوْلِ: «لا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ»، وَتَبَيَّنَ لَكَ خَطَأُ المَغْرُورِينَ.**

والمغرورون هم الذين ظنوا أن مجرد النطق بقول: (لا إله إلا الله) ينفع، فالأحاديث يضم بعضها إلى بعض، حديث عبادة ذكر خمساً: أن يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ويشهد أن محمداً عبده ورسوله، ويشهد أن عيسى عبد الله ورسوله، ويشهد أن الجنة حق، وأن النار حق، هذا هو معنى: (لا إله إلا الله)، و(لا إله إلا الله) معها الشهادة ببقية الخمس، فمن شهد أن لا إله إلا الله ولم يشهد ببقية الخمس، لا ينتفع بـ(لا إله إلا الله).

فإذا جمعت بين الحديثين تبين لك أن معنى شهادة أن لا إله إلا الله: أنه لا بد فيها من أن يشهد لله بهذه الخمس، وتبين لك خطأ المغرورين الذين يظنون أن شهادة أن لا إله إلا الله يكفي نطقها باللسان، ولو لم يؤمن بأن الجنة حق، والنار حق، ولم يشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله.

❖ **السَّابِعَةُ: التَّنْبِيهُ للشَّرْطِ الذي في حَدِيثِ عِتْبَانَ.**

بقوله: «**يبتغي بذلك وجه الله**». وهذا شرط الإخلاص، ولا بد من هذا الشرط، هذا يدل على أنه لا يكفي مجرد القول باللسان.

❖ **الثَّامِنَةُ: كَوْنُ الأَنْبِياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ يَحْتاجُون للتَّنْبِيهِ عَلَىٰ فَضْلِ لا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ!**

من سؤال موسى قال: يا رب، علمني دعاء أذكرك به. فلما قال الرب له: قل: لا إله إلا الله. قال: يا ربُ كل عبادك يقولون هذا

يعني: أريد شيئاً تخصني به.

❖ **التَّاسِعَةُ: التَّنْبِيهُ لِرُجْحَانِهَا بِجَمِيعِ المَخْلُوقَاتِ، مَعَ أَنَّ كَثِيراً مِمَّنْ يَقُولُهَا يَخِفُّ مِيزَانُهُ.**

لأن هذا الشخص الذي رجحت به قالها عن صدق وإيمان، فقوي تصديقه وإيمانه، فأحرقت الشبهات والشهوات، فلم يبق معه شبهة ولا شهوة، فتاب من جميع الذنوب والمعاصي؛ قال: (لا إله إلا الله). فلم يصر على معصية حتى موته، وعند موته قالها عن قوة إيمان، وصدق جازم.

❖ **العاشِرَةُ: النَّصُّ عَلَىٰ أَنَّ الأَرَضِينَ سَبْعٌ كالسَّماواتِ.**

لقوله تعالى في الحديث القدسي: «**لو أن السماوات السبع وعامرهن غيري، والأَرَضِين السبع في كفة**». وهذا كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]. وقوله ﷺ: «**مَنْ ظَلَمَ مِنَ الأَرْضِ شَيْئاً طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ**»[(١)] والأدلة على ذلك كثيرة.

❖ **الحاديةَ عَشْرَةَ: أنَّ لَهُنَّ عُمَّاراً.**

من قوله: «**لو أن السماوات السبع وعامرهن غيري**». وهؤلاء العمار هم الملائكة الذين يعمرونها في طاعة الله وعبادته، وأرواحهم وأرواح المؤمنين تتنعّم في الجنة، والجنة في السماء، في أعلى عليين.

❖ **الثانيةَ عَشْرَةَ: إثباتُ الصِّفاتِ، خِلافاً للأشعَرِيَّةِ.**

لأن الذي يؤمن بالجنة والنار لا بد له من الخوف والرجاء،

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المظالم، باب «إثم من ظلم شيئًا من الأرض»، رقم (٢٤٥٢) من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه.

والخوف لا بد فيه من إثبات الأسماء والصفات؛ قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٩٨﴾ [المائدة: ٩٨] الغفور الرحيم اسمان مشتملان على صفتي المغفرة والرحمة، ومن الآيات الدالة على الخوف قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ مما يفيد أن المؤمن يخاف ربه، ويخشى عقوبته، فلا بد له أن يكون خائفاً راجياً، والخوف من الله ورجاؤه يقتضي أن له أسماء وصفات، يُخاف ويُرجى، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الفاتحة: ٢-٣] يفيد الرجاء، ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: ٤] يفيد الخوف.

والنصوص والآيات التي فيها إثبات الأسماء مشتملة على الصفات، فمن لا يثبت أسماء الله وصفاته لا يخافه ولا يرجوه.

فلا بد من إثبات الصفات خلافاً للأشعرية، وكذلك من باب أولى خلافا للمعتزلة؛ فالأشعرية يثبتون سبع صفات، ويؤولون بقية الصفات.

❖ الثالثةَ عَشْرَةَ: أنكَ إذَا عَرَفْتَ حديثَ أَنَسٍ، عَرَفْتَ أَنَّ قولَهُ في حديثِ عِتْبَانَ: «فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ علىٰ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ» أَنَّهُ تَرْكُ الشِّرْكِ، ليسَ قَوْلَهَا باللِّسانِ.

يعني: إذا جمعت بين حديث أنس رضي الله عنه: «**لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، لأتيتك بقرابها مغفرة**». وفيه ترك الشرك، وحديث عتبان رضي الله عنه: «**إن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله**». وفيه الإخلاص. فإن هذا الجمع يدل على أن الإخلاص لا بد فيه من ترك الشرك، ولا يكفي

قول: (لا إله إلا الله) باللسان.

- **الرابعةَ عَشْرَةَ: تَأَمَّلُ الجَمْعَ بينَ كَوْنِ عِيسىٰ وَمُحمَّدٍ ـ عَلَيْهِمَا الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ عَبْدَيْهِ وَرَسُولَيْهِ..**

لقوله ﷺ فيما رواه عن ربه ﷻ: «وأن محمداً عبد الله ورسوله، وأن عيسى عبد الله». كل منهما عبد ورسول، وليسا بإلهين.

- **الخامِسَةَ عَشْرَةَ: مَعْرِفَةُ اختِصَاصِ عيسىٰ ﵇ بكونهِ كَلِمَةَ اللّهِ.**

يعني: مخلوق بكلمة «كن»، أرسل الله بها جبرائيل، نفح في جيب مريم، واختصاصه بكونه بكلمة «كن» يعني: أنه مخلوقٌ بكلمة «كن»، ليس له أب.

- **السادِسةَ عَشْرَةَ: معرفةُ كونِهِ رُوحاً مِنهُ.**

فعيسى ﵇ هو روح منه، يعني: روح من الأرواح التي خلقها، فالإضافة للتشريف والتكريم.

- **السابِعَةَ عَشْرَةَ: معرفةُ فَضْلِ الإيمانِ بالجنَّةِ والنارِ.**

وذلك من حديث عبادة: «**والجنة حق، والنار حق**». فلا بد منه، وأنه لا يصح الإيمان إلا بذلك، حيث جعل الإيمان بالجنة والنار من الخمس.

- **الثامِنَة عَشْرَةَ: معنىٰ قولهِ: «عَلَى ما كانَ مِن العَمَلِ».**

يعني: من مات على التوحيد أدخله الله الجنة على ما كان من العمل من صلاح أو فساد، لكن من مات مصرّاً على الكبائر فهو تحت مشيئة الله، وإن مات على إيمان لا يصر فيه على المعاصي والكبائر دخل الجنة من أول وهلة.

❖ التاسِعَةَ عَشْرَةَ: معرفةُ أَنَّ الميزانَ لهُ كِفَّتانِ.

خلافاً للمعتزلة القائلين بإنكار الميزان، ويقولون: ليس هناك ميزان حسي، ولا يحتاج إلى الميزان الحسي إلا البقّال والفوّال، أما الرب فلا يحتاج إلى ميزان حسي، وإنما المراد به العدل[1]. فقوله ﷺ: «لَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي، وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ». يرد عليهم، فهو ميزان حسي له كفتان حسيتان.

❖ العِشْرُونَ: معرفةُ ذِكرِ الوَجْهِ.

من قوله ﷺ: «**يبتغي بذلك وجه الله**». ففيه إثبات الوجه لله، والمراد الإخلاص لله ﷻ.

(١) انظر شرح الطحاوية - ط الأوقاف السعودية (١/ ٤١٩).

بَابُ مَنْ حَقَّقَ اَلتَّوْحِيدَ دَخَلَ اَلْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ

وَقَوْلُ اَللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: ١٢٠]. وَقَالَ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [المؤمنون: ٥٩].

وَعَنْ حُصَيْنِ بْنِ عبدالرحمن قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ رَأَى اَلْكَوْكَبَ اَلَّذِي اِنْقَضَّ اَلْبَارِحَةَ؟ فَقُلْتُ: أَنَا. ثُمَّ قُلْتُ: أَمَّا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ؛ وَلَكِنِّي لُدِغْتُ. قَالَ: فَمَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: اِرْتَقَيْتُ. قَالَ: فَمَا حَمَلكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قُلْتُ: حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ اَلشَّعْبِيُّ. قَالَ: وَمَا حَدَّثَكُمْ؟ قُلْتُ: حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ اَلْحُصَيْبِ أَنَّهُ قَالَ: «لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ». قَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَنِ اِنْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ؛ وَلَكِنْ حَدَّثَنَا اِبْنُ عَبَّاسٍ عَنْ اَلنَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ اَلْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ اَلنَّبِيَّ وَمَعَهُ اَلرَّهْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ اَلرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفاً يَدْخُلُونَ اَلْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ»، ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَخَاضَ اَلنَّاسُ فِي أُولَئِكَ؛ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمْ اَلَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اَللَّهِ ﷺ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمْ اَلَّذِينَ وُلِدُوا فِي اَلْإِسْلَامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاَللَّهِ شَيْئاً، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: «هُمُ اَلَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ». فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مُحْصَنٍ فَقَالَ: اُدْعُ اَللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. فَقَالَ: «أَنْتَ

مِنْهُمْ». ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ: اُدْعُ اَللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. فَقَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ»[1].

الشَّرْح

تحقيق التوحيد: تخليصه وتنقيته من شوائب الشرك والبدع، فمن حصَّل ذلك ومات على توحيد خالص، فإنه يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب، فضلاً من الله وإحساناً، أما من خلط توحيده بشيء من البدع والمعاصي، وسَلِم من الشرك الأكبر، فهذا تحت مشيئة الله؛ إن شاء الله عذَّبه، وإن شاء غفر له بتوحيده وإيمانه وإسلامه.

○ **قَوْلُهُ:** «وَقَوْلُ اَللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٢٠﴾ [النّحل: ١٢٠]».

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ يعني: قدوة ومُعَلِّماً للخير، وإماماً يُقتدى به.

﴿قَانِتًا﴾ يعني: مُديماً للطاعة، مستمرّاً عليها.

﴿حَنِيفًا﴾ يعني: مائلاً عن الشرك إلى التوحيد، هو حنيف بانحرافه وميله عن الشرك إلى التوحيد، ومقبل على الله ﷻ، مقبلٌ على توحيده وطاعته، منحرفٌ عن الشرك؛ ولهذا تسمى هذه الملَّة بالملَّة الحنيفية[2]؛ لميلانها عن الشرك والبدع والمحدثات، وتسمى الملَّة العوجاء[3]؛ وإن كانت هي في نفسها مستقيمة، لكنها عوجاء

(١) أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب «من لم يرق»، رقم (٥٧٥٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (٢٢٠).

(٢) ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (حنف).

(٣) ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (عوج) ٣/ ٣١٥.

بالنسبة لميلها عن الملل الأخرى، وانحرافها عن البدع، وهذا الدِّين دين قيّم ومستقيم، ولهذا وصف الله نبيه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه حنيف، يعني: مائل عن الشرك والبدع إلى التوحيد، مقبل على طاعة الله.

ثم وضّح ذلك بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٢٠﴾ أي: ليس من أهل الشرك في شيء، بل هو من أهل التوحيد والإيمان، وهذا هو شاهد الترجمة: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٢٠﴾ [النّحل: ١٢٠]؛ لأن من حقّق التوحيد، وسَلِم من الشرك والبدع، دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب، وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ممن حقّق التوحيد، بل هو أُمَّة في هذا يقتدى به، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٢٣﴾ [النّحل: ١٢٣] فهو أُمّة، يعني: قدوة ومُعلِّم للناس الخير، يقتدى به، وقد كان وحده كذلك؛ لأنه قاطع أهل الشرك وأهل الأوثان جميعاً، وعاداهم في الله ﷻ، حتى أباه عاداه، فبقي وحده، فشكر الله له فجعله أمة قانتاً.

فإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وآله، هم أئمة أهل التوحيد، وأئمة الحنفاء، وفرعون وآله، هم أئمة أهل النار، وأئمة أهل الضلال.

فمن كان مُعلِّما للخير، مديماً لطاعة الله، مستمرّاً عليها، مقبلاً على توحيد الله، مائلاً عن الشرك والبدع، ولم يقع في عمله شرك، دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب.

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في ختام وصف عباده المؤمنين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١] هؤلاء هم السابقون، وهم المسارعون في الخيرات، الذين حققوا التوحيد،

وهجروا الشرك وأسبابه، فكان جزاؤهم أنهم يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب.

○ **قَوْلُهُ**: «وَعَنْ حُصَيْنِ بْنِ عبدالرحمن قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ».

يعني: في مجلس سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللَّهُ، حضر حصين رَحِمَهُ اللَّهُ[1]، فتحدَّث سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللَّهُ التابعي الجليل المعروف «أَيُّكُمْ رَأَى اَلْكَوْكَبَ اَلَّذِي اِنْقَضَّ اَلْبَارِحَةَ؟» انقضَّ النجم: سقط، والمعروف أن انقضاض النجم سقوطه في السماء، فقال حصين بن عبد الرحمن: «فَقُلْتُ: أَنَا» أي: أنا رأيت الكوكب الذي انقض، فلما كان انقضاضه في منتصف الليل، ثم فطن حصين بن عبد الرحمن رَحِمَهُ اللَّهُ، فخشي أن يظن الناس أنه يصلي، فيُمدح بما ليس فيه، وهذا يدل على كثرة علم السلف وورعهم وتقواهم، لا يريد أن يُمدح بشيء ليس فيه، على عكس الذين قال الله فيهم: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوْاْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٨٨﴾ [آل عِمرَان: ١٨٨]. فقال لسعيد - صاحب المجلس -: «ثُمَّ قُلْتُ: أَمَّا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ؛ وَلَكِنِّي لُدِغْتُ» أي: فلما لدغتني عقرب فاستيقظت فرأيت الكوكب الذي انقضَّ. فقال له سعيد: «فَمَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: اِرْتَقَيْتُ» يعني: طلبت من يرقيني ويقرأ عليَّ قراءة شرعية، فالظاهر أنه طلب أحداً يرقيه، ولم يرقِ نفسه، لو كان رقى نفسه لقال: رقيت نفسي. ولكنه قال: ارتقيت؛ لأن السين

(١) هو السلمي، أبو الهذيل الكوفي، ثقة، مات سنة ست وثلاثين ومائة، وله ثلاث وتسعون سنة. انظر في ترجمته: طبقات ابن سعد (٦/ ٣٣٨)، وتهذيب الكمال (٣٠٢)، وتاريخ الإسلام (٥/ ٢٣٧)، وتذكرة الحفاظ (١/ ١٤٣).

والتاء للطلب، مثل قولهم: استقيت الماء. يعني: طلبت من يسقيني.

والرُّقية: هي العوذة التي يرقى بها صاحب الآفة؛ كالحمى والصرع وغير ذلك من الآفات[(١)]، فإن كانت مما ورد به الشرع عن النبي ﷺ، فهي رقية شرعية، مثل قوله ﷺ: «**اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ، أَذْهِبِ البَاسَ، اشْفِهِ وَأَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَماً**»[(٢)]. وقوله ﷺ: «**بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ، اللهُ يَشْفِيكَ، بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ**»[(٣)].

فقال له سعيد: «فَمَا حَمَلكَ عَلَى ذَلِكَ؟» هذا فيه مطالبة الإنسان إذا فعل شيئاً أن يأتي بالدليل «قُلْتُ: حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ اَلشَّعْبِيُّ. قَالَ: وَمَا حَدَّثَكُمْ؟ قُلْتُ: حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْبِ أَنَّهُ قَالَ: «لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ» يعني: إذا أصيب الإنسان بعين، فالعين حق، العائن فيخرج من نفسه الشريرة نَفَساً، فتساعده الأرواح الشيطانية، فيصاب الْمَعِين بالعين، ففي هذه الحالة يرتقي، فتؤثر الرقية في العين، وكذلك أيضاً إذا عُرِف العائن، فإنه يُطلب منه أن يغتسل له، وهو أن يغسل قدميه وركبتيه وداخلة إزاره ويُصبّ عليه، وكذلك أيضاً فإنه يؤخذ شيء من آثاره - أي: من آثار أكله أو شربه - هذا مجرَّب ويفيد بإذن الله، كذلك أن يأتي العائن وينفث عليه فيفيده أيضاً.

واختلف العلماء فيما إذا عان شخص شخصاً بعينه وقتله، هل

(١) تحفة الأحوذي (٦/ ١٧٩).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب «رقية النبي ﷺ»، رقم (٥٧٤٣)، ومسلم، كتاب السلام، رقم (٢١٩١) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب السلام، رقم (٢١٨٦) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

يقتص منه أو لا يقتص؟ من العلماء من قال: يقتص منه إذا تعمَّد؛ لأن بعض الناس قد تخرج منه العين باختياره، وبعضهم تخرج بغير اختياره، وهذا لا يُعرف إلا بالإقرار، لو أقر واعترف بأنه قتله باختياره يُقتص منه عند بعض العلماء، أما إذا كان بغير اختياره وأقرّ، فيكون عليه الدية[1]، وهذا يوجد، هناك أخبار قد تكون متواترة عن بعض الناس، أنه تخرج العين منه، وأنها تخرج باختياره وقد يمنعها، ذُكِرَ أن بعض الناس كان يقول: لولا أني أذكر الله لهلك كل ما يقع عليه بصري.

ويحكى أن بعض الناس من الذين يُعرفون بالعين، كانوا يتحالفون فيما بينهم ألا يضر أحدهم الآخر، فالمقصود أن العين حق؛ قال ﷺ: «**الْعَيْنُ حَقٌّ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ**»[2]. والله تعالى يقول: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ﴾ [القَلَم: ٥١].

لكن بعض الناس عنده غلو في هذا، كلما أصابه شيء قال: عين! ولو أحس بوجع في رأسه قال: هذه عين أصابتني. ولو أصاب ولدَه شيء قال: هذه عين. فهذا غلو، العين حق، لكن ليس كل شيء يكون من العين.

○ **وَقَوْلُهُ**: «أو حُمَةٍ» الْحُمَة: ذوات السموم، لدغة الحية أو العقرب، ومعنى الحديث: يعني لا رقية أشفى وأولى وأحسن من الرقية من العين أو الحُمَة، وليس المراد الحصر، بل يجوز الرقية في غير العين والحُمَة، بدليل الحديث الآخر، فالنبي ﷺ قال: «**اعْرِضُوا**

(١) ينظر: فتح الباري (١٠/ ٢٠٥)، ونيل الأوطار (٩/ ٨٨).
(٢) أخرجه مسلم، كتاب السلام، رقم (٢١٨٨) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

عَلَيَّ رُقَاكُمْ، لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ»[(١)] .

إذن يجوز الرقية من الْحُمَة، ومن وجع العين، ومن وجع الضرس، لكن الأفضل والأولى تكون الرقية في هذين الأمرين: في العين، والحمة، من أصيب بالعين، ومن لدغته ذوات السموم الحية أو العقرب، هذه الرقية أحسن شيء، فيكون معنى الحديث: لا رقية أشفى وأولى وأحسن من الرقية في العين أو الحمة. وإلا فهي تجوز في غير هذين الأمرين، ويكون قوله ﷺ: «**اعرضوا عليَّ رقاكم...**» الحديث، مستثنى من حديث: «**إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ**[(٢)] **شِرْكٌ**»[(٣)] فيستثنى من هذا ما لم يكن فيه شرك، أما التمائم فلم يأت فيها استثناء، فهي على عمومها.

قال سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللَّهُ عندما ذكر له حصين رَحِمَهُ اللَّهُ الدليل: «قَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَنِ اِنْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ» أي: من بلغه شيء من العلم فعمل به فقد أحسن؛ لأنه انتهى إلى الدليل وعمل به.

قال سعيد: «وَلَكِنْ» استدراك منه؛ لأن لديه دليلاً آخر «حَدَّثَنَا اِبْنُ عَبَّاسٍ عَنْ اَلنَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ اَلْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ اَلنَّبِيَّ وَمَعَهُ اَلرَّهْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ اَلرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ».

وهذا العرض كان في النوم والله أعلم، فرؤيا الأنبياء حق ووحي، كما قال الله تعالى في قصة إبراهيم أنه قال لابنه إسماعيل:

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب السلام، رقم (٢٢٠٠) من حديث عوف بن مالك الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) التِّوَلَة: بكسر التاء وفتح الواو، ما يُحبّب المرأة إلى زوجها من السّحر وغيره. النهاية (تول) ١/ ٢٠٠.

(٣) يأتي تخريجه.

﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ [الصَّافات: ١٠٢]. قال ابن كثير: قال عبيد بن عمير: رؤيا الأنبياء وحي[(١)]. وهو حديث أخرجه البخاري[(٢)] عن عبيد بن عمير قال: إِنَّ رُؤْيَا الأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾.

قال ﷺ: «فَرَأَيْتُ اَلنَّبِيَّ وَمَعَهُ اَلرَّهْطُ» الرهط: من ثلاثة إلى عشرة[(٣)]، والمعنى: أنه رأى بعض الأنبياء أتباعه رهط، من ثلاثة إلى عشرة، هؤلاء أتباعه، ما تبعه إلا العدد القليل.

«وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ اَلرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ»، فبعض الأنبياء لا يؤمن به إلا اثنان يأتيان معه يوم القيامة، وبعضهم لا يأتي معه مؤمناً به إلا واحد.

«وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»، بعض الأنبياء ما تبعه أحد، بل بعض الأنبياء قُتلوا مثل زكريا ويحيى عليهما السلام، قتلهم قومهم، قال الله تعالى عن اليهود: ﴿فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ٨٧﴾ [البَقَرَة: ٨٧].

ونوح عليه الصلاة والسلام أول أولي العزم، وأول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠﴾ [هُود: ٤٠]. رغم هذه المدة الطويلة التي قضاها في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، ولم يقصّر عليه الصلاة والسلام، بل بذل الجهود تلو الجهود، واستغل جميع الأوقات وجميع الأساليب، كما قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٢٣).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الوضوء، باب «التخفيف في الوضوء»، رقم (١٣٨).

(٣) انظر المصباح المنير (ص: ١٢٦)، ولسان العرب (٧/ ٣٠٥)، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس (٢/ ٤٥٠).

وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾ [نُوح: ٥-٩]. فقد دعا قومه جهاراً وإسراراً، وليلاً ونهاراً، ولكن الهداية بيد الله، فما آمن معه إلا قليل.

وهذا فيه تسلية للداعية؛ فعلى الداعية والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ألا ييأس ولا يمل، فما عليه إلا النصح والإرشاد، وليس عليه هداهم؛ إذ إن الهداية بيد الله ﷻ، كما قال الله تبارك وتعالى للنبي ﷺ: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشّورىٰ: ٤٨]. وقال ﷻ: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البَقَرَة: ٢٧٢].

فأنت تدعو إلى الله، وتبلغ رسالته، فإن اسْتُجِيب لك فالحمد لله، وإن لم يُسْتَجَبْ لك فقد أدّيت ما عليك، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف: ٦].

فالرسل عليهم الصلاة والسلام هم أفضل الناس، وأكثرهم اجتهاداً في الدعوة إلى الله ﷻ، ورغم ذلك فإن هذه حالهم يوم القيامة؛ منهم من لم يتبعه أحد، ومنهم من قُتِل، ومنهم من تبعه رجل، ومنهم من تبعه رجلان، ومنهم من تبعه الرهط.

ثم قال النبي ﷺ: «إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ» في الأفق «فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ» هذا فيه دليل على كثرة أتباع موسى عليه السلام، وأن أتباع موسى من بني إسرائيل سواد عظيم، «فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ» يعني: أعظم من الأول، «فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفاً يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ» هذا الحديث فيه دليل على أن أتباع النبي ﷺ هم أكثر أتباع الأنبياء، كما

يدل على ذلك أن النبي ﷺ قال: «**ما من الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إلا أُعْطِيَ** - يعني من الآيات - **مَا مِثْلُهُ آمن عليه الْبَشَرُ، وإنما كان الَّذِي أُوتِيتُ وَحْياً أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فأرجو أن أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[(١)]. وجاء في حديث **أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ** رضي الله عنه، **عَنِ النَّبِيِّ** ﷺ، **قَالَ**: «**يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ**». **قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَيُّنَا ذَلِكَ الوَاحِدُ؟ قَالَ**: «**أَبْشِرُوا، فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلاً وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفاً. ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ**»، **فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ**: «**أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ**»، **فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ**: «**أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الجَنَّةِ**»، **فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ**: «**مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلَّا كَالشَّعَرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَبْيَضَ، أَوْ كَشَعَرَةٍ بَيْضَاءَ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ**»[(٢)]. وجاء في حديث ابن بريدة عن أبيه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ، هَذِه الأُمَّةُ مِنْ ذَلِكَ ثَمَانُون صَفا**»[(٣)]. هذا كله فيه دليل على أنّ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب «كيف نزول الوحي وأول ما نزل»، رقم (٤٩٨١)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (١٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب «قصة يأجوج ومأجوج»، رقم (٣٣٤٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (٢٢٢).

(٣) أخرجه الترمذي، كتاب صفة الجنة، باب «ما جاء في صف أهل الجنة»، رقم (٢٥٤٦)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب «صفة أمة محمد ﷺ»، رقم (٤٢٨٩)، وأحمد (٥/ ٣٥٥).

قال الترمذي: «هذا حديث حسن». =

أتباع نبينا محمد ﷺ أكثر أتباع الأنبياء.

«ثُمَّ نَهَضَ النبي ﷺ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَخَاضَ اَلنَّاسُ فِي أُولَئِكَ» الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب «فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمْ اَلَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اَللَّهِ ﷺ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمْ اَلَّذِينَ وُلِدُوا فِي اَلْإِسْلَامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاَللَّهِ شَيْئاً، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ» هذا فيه حرص الصحابة على الخير، يريدون أن يعرفوا أوصافهم حتى يعملوا بها، «فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: «هُمُ اَلَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ».

هذه أربعة أوصاف: «هُمُ اَلَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ». وجاء في حديث آخر أن النبي ﷺ قال: **«وَعَدَنِي رَبِّي أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفاً، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفاً»**[(١)]. وهذا ثابت، وجاء في حديث آخر: **«فَاسْتَزَدْتُ رَبِّي ﷻ، فَزَادَنِي مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ سَبْعِينَ أَلْفاً»**[(٢)]. لكن فيه ضعف[(٣)].

وجاء في «صحيح مسلم»[(٤)] أنه قال: **«هُمُ الَّذِينَ لَا يَرْقُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»**. لكن هذه الرواية:

= وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه». «المستدرك» (١/ ١٥٥).

(١) أخرجه الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب (١٢)، رقم (٢٤٣٧)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب «صفة أمة محمد ﷺ»، رقم (٤٢٨٦)، أحمد (٥/ ٢٦٨) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب».

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٦) من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٣) قال الهيثمي: «رواه أحمد وأبو يعلى، وفيهما المسعودي وقد اختلط، وتابعيه لم يسم، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح». «مجمع الزوائد» (١٠/ ٤١٠).

(٤) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، رقم (٢٢٠).

«هم الذين لايرقون» وهْمٌ من بعض الرواة - كما حقق ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية[(١)] وغيره من أهل التحقيق، أعني: زيادة: «**هم الذين لا يرقون**». وصواب الحديث هو ما ساقه المؤلف هنا: «**هم الذين لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون**»، ليس فيه: «**لا يرقون**»؛ والسبب في ذلك أن الراقي مُحسن، و﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ [التوبة: ٩١]. وقد قال ﷺ - وقد سئل عن الرُّقى- قال: «**مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَفْعَلْ**»[(٢)]. بخلاف المسترقي؛ فإنه مُستجدٍ يطلب غيره ويميل إليه، فكيف يكون الراقي ليس منهم؟! هذا هو الصواب، كما حققه شيخ الإسلام وغيره[(٣)]؛ أن هذه الرواية وهم، وإن كان الحافظ ابن حجر اعترض على شيخ الإسلام في هذا[(٤)]، لكن المعتمد كلام شيخ الإسلام.

«يَسْتَرْقُونَ»: الهمزة والسين والتاء للطلب، أي: يطلبون أحداً يرقيهم.

والمراد من الرُّقية - كما ذكرنا قبل ذلك - أنها الرُّقية الشرعية، وهي القراءة على المريض، يقرأ عليه آيات من القرآن؛ يقرأ عليه آية الكرسي، والمعوذتين، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١]، أو بشيء يرقيه من السنة النبوية؛ كدعاء: «**اللهم ربّ الناس، أذهب الباس، اشفه أنت الشافي**»[(٥)]. أو: «**بسم الله أرقيك، من كل شيء**

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١/ ٣٢٨).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب السلام، رقم (٢١٩٩) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٣) ينظر: اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٤٤٨)، والرد على البكري (١/ ٣٨٣)، ومفتاح دار السعادة (ص ٥٨٠).

(٤) ينظر: فتح الباري (١١/ ٤٠٨، ٤٠٩).

(٥) تقدم تخريجه.

يؤذيك، ومن كل نفس أو عين حاسد، الله يشفيك، بسم الله أرقيك»[(١)]. هذه هي الرُّقية، ومن استرقى من غيره فطلب الرقية فقد أخل بشرط السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب.

والمعنى: أن هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب هذه أوصافهم، يعني: مع الإيمان بالله، فهم مؤمنون، موحدون، آمنوا بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، أدّوا الفرائض، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصاموا رمضان، وحجوا بيت الله الحرام، وامتنعوا عن المحارم، ليس المراد أنه يقتصر على هذه الصفات ولا يؤدي ما وجب، هذا معلوم من نصوص أخرى؛ ومع ذلك فإنهم ابتعدوا عن الأشياء التي هي خلاف الأولى.

ومن تحقيقهم للتوحيد، وأدائهم الفرائض، وانتهائهم عن المحارم، زادوا على ذلك فتركوا الأشياء المكروهة أو الأشياء التي هي خلاف الأولى؛ بسبب تحقيقهم للتوحيد، فصاروا لا يسترقون، رغم أن الرقية جائزة، كما سبق بنا قول النبي ﷺ: «**اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ، لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ**»[(٢)]. لكنَّ هؤلاء السبعين ألفاً لا يميلون إلى غير الله بقلوبهم، والمسترقي إذا طلب أحداً أن يرقيه مالت إليه شعبة من قلبه، مال إلى المخلوق ولو بالطلب.

وهذا خاص بالرقية، وليس عامّاً في جميع الأسباب، فالعلاج عند الأطباء لا يدخل في هذا، والأسباب الأخرى مثل: البيع والشراء، والأكل والشرب، والمعاملات، هذه كلها أسباب لا تدخل في هذا الأمر.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

«وَلَا يَكْتَوُونَ» يعني: لا يستعملون الكيّ، والكيّ جائز، وقد يكون فيه الشفاء، كما جاء في الحديث عنه ﷺ أنه قال: «**الشِّفَاءُ فِي ثَلَاثَةٍ: شَرْبَةِ عَسَلٍ، وَشَرْطَةِ مِحْجَمٍ، وَكَيَّةِ نَارٍ، وَأَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الكَيِّ**»(١).

وفي لفظ: «**وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَكْتَوِيَ**»(٢). والكي مكروه؛ لما فيه من التعذيب بالنار، وهو جائز؛ لكن ينبغي أن يكون آخر شيء(٣)، كما يقال: آخر الطب الكي(٤). فأما إذا لم يوجد غيره فلا بأس، وإذا وجد غيره فينبغي تركه، فهؤلاء من تحقيقهم للتوحيد يتركون الأشياء المكروهة كالكي.

«وَلَا يَتَطَيَّرُونَ» التطير: التشاؤم بالمرئيات أو بالمسموعات؛ بالطيور أو بالبقاع أو بالأشخاص أو بالألفاظ، والطِّيَرَة من الشرك، يعني: من الشرك الأصغر، وهي من عمل الجاهلية، ومن عمل قوم فرعون أعداء الرسل: قال الله تبارك وتعالى عنهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾ [يس: ١٨]. وقال جل ثناؤه: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا

---

(١) أخرجه البخارى، كتاب الطب، باب «الشفاء في ثلاث»، رقم (٥٦٨٠) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب الدواء بالعسل، رقم (٥٦٨٣)، ومسلم، كتاب السلام، رقم (٢٢٠٥) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) ينظر زاد المعاد (٤/ ٥٨).

(٤) قال العجلوني في كشف الخفاء (١/ ١٥): « هو من كلام بعض الناس، وليس بحديث، والمراد أنه بعد انقطاع طُرق الشفاء يعالج بالكي؛ ولذا حمل العلماء قوله ﷺ: «وأنهى أمتي عن الكي» على ما إذا وجد طريق غيره مرجو للشفاء. وقال القاري في موضوعاته الكبرى: والمشهور كما قال العسقلاني في أمثلة العرب: آخر الداء الكي، والمعنى: آخر الشفاء من الداء الكي».

طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ [الأعراف: ١٣١]. وهي من إلقاء الشيطان ووسوسته وتخويفه، فهم يتركون الأسباب الشركية، ويتركون الأسباب المكروهة.

«وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» يعني: يعتمدون على الله بقلوبهم، ويفوِّضون أمورهم إليه في حصول النتائج مع فعل الأسباب، فهؤلاء السبعون ألفاً يتركون ما هو خلاف الأولى كالرقية، ويتركون الأسباب المكروهة كالكي، ويتركون الأسباب المحرمة كالطِّيَرَة، وختام ذلك أنهم يتوكلون على الله؛ إذ يعتمدون عليه، ويفوضون أمورهم إليه في حصول ما يطلبون.

«فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مُحْصَنٍ فَقَالَ: اُدْعُ اَللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. فَقَالَ: «أَنْتَ مِنْهُمْ» وفي لفظ أنه قال: أمنهم أنا يا رسول الله؟ قال: «**نعم**»[1].

«ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ: اُدْعُ اَللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. فَقَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ» قال العلماء: هذا سدّ للباب، يحتمل أن الرجل الثاني منهم، لكن النبي ﷺ سد الباب؛ حتى لا يأتي أحد ليس منهم، لأنه لو قال للثاني: أنت منهم. قام ثالث ورابع وخامس... إلى ما لا نهاية، كل الصحابة يودّون هذا، لكن النبي ﷺ سدّ الباب فقال: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ» فوقف القوم، وهذا فيه منقبة لعكاشة بن محصن، والشهادة له بأنه من أهل الجنة، وأنه من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب.

ومناسبة هذا الحديث للترجمة واضحة؛ لأن هؤلاء السبعين ألفاً من تحقيقهم للتوحيد يتركون - كما ذكرنا - الأسباب التي هي خلاف

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب «من اكتوى أو كوى غيره، وفضل من لم يكتو»، رقم (٥٧٠٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الأولى كالرقية، ويتركون الأسباب المكروهة كالكي، ويتركون الأسباب المحرمة كالطِّيَرَة، وختام ذلك اعتمادهم على الله، وتفويضهم الأمور إليه، وهذا بعد أداء الفرائض، والانتهاء عن المحارم.

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولىٰ: معرفةُ مَراتِبِ الناسِ في التَّوحيدِ.

لا شك أن الناس في توحيدهم لله ﷻ على مراتب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النّحل: ١٢٠]. فإبراهيم في المرتبة الأولى هو إمام الحنفاء، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧-٥٩]. فهم مراتب، ومنهم العصاة، وهم موحدون لكن توحيدهم ناقص، كما قد يكون إيمانهم ناقصاً، ولهذا قال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

الثانيةُ: ما معنىٰ تَحْقِيقِهِ.

تخليصه وتنقيته من شوائب الشرك والبدع والمحدثات.

الثالثةُ: ثناؤُهُ سبحانهُ علىٰ إبراهيمَ بكَوْنِهِ لَمْ يَكُ مِنَ المُشركينَ.

وصفه بصفات ختمها بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النّحل: ١٢٠].

الرابعةُ: ثناؤُهُ علىٰ ساداتِ الأَولياءِ بِسَلامَتِهِمْ مِنَ الشِّرْكِ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧]، ثم قال في آخر صفاتهم: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [المؤمنون: ٥٩].

الخامسةُ: كَوْنُ تَرْكِ الرُّقيةِ والكَيِّ مِنْ تَحْقِيقِ التَّوحيدِ.

لأن الرقية خلاف الأولى، والكي سبب مكروه، فتركهم ذلك من تحقيق تمام التوحيد.

السادسةُ: كونُ الجامِعِ لِتِلْكَ الخِصَالِ هُوَ التَّوكُّلُ.

لما قال ﷺ: «**هم الذين لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون**». ختمها بقوله: «**وعلى ربهم يتوكلون**». وهذا التوكل هو بمثابة الصفة المشتركة والعلة المتحدة لكل ما سبق من الصفات، فلتمام توكلهم على الله لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون.

السابعةُ: عُمْقُ عِلْمِ الصَّحابَةِ؛ لِمَعْرِفَتِهِمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَنَالُوا ذَلِكَ إِلَّا بِعَمَلٍ.

لما قال النبي ﷺ: «معهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب». أخذ الصحابة يخوضون: من هم؟ وماذا يعملون؟ يقيناً منهم أنه لا بد من عمل يتميزون به عن غيرهم؛ لينالوا هذه المكانة، وهذا الأجر العظيم، حتى خرج النبي ﷺ وأخبرهم بأعمالهم، فهذا يدل على عمق علم الصحابة.

الثامنةُ: حِرْصُهُمْ علىٰ الخَيْرِ.

التاسعةُ: فضيلةُ هَذِهِ الأُمَّةِ بالكَمِّيَّةِ والكَيْفِيَّةِ.

بالكمية: وذلك بأنهم أكثر أهل الجنة عدداً، فأهل الجنة مائة وعشرون صفّاً، وهذه الأمة ثمانون صفّاً، كما سبق ذكر الحديث الدال على ذلك. وبالكيفية: كما في قوله ﷻ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عِمرَان: ١١٠]. فالكمية: العدد، والكيفية: الوصف.

العاشرةُ: فضيلةُ أَصحابِ مُوسىٰ عليه السلام.

حيث إن النبي ﷺ رُفع له سوادٌ عظيم ظن أنهم أمته، فقيل:

هذا موسى وقومه. فموسى عليه الصلاة والسلام وأتباعه كثيرون.

❖ **الحاديةَ عَشْرَةَ: عَرضُ الأُممِ عليهِ ﷺ.**

يحتمل أن يكون هذا ليلة الإسراء[1]، أو في رؤيا المنام، ورؤيا الأنبياء وحي[2].

❖ **الثانيةَ عَشْرَةَ: أنَّ كُلَّ أُمةٍ تُحْشَرُ وَحْدَهَا مَعَ نَبِيِّها.**

لقوله ﷺ: «عرضت عليّ الأمم». هذا ظاهر في أن كل أمة تحشر مع نبيها.

❖ **الثالثةَ عَشْرَةَ: قِلَّةُ مَن استَجَابَ للأَنبياءِ.**

فيأتي النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد، فنوح عليه السلام مكث ألف سنة إلا خمسين عاماً، ورغم هذه المدة الطويلة إلا أننا نجد في كتاب الله سبحانه وتعالى تقرير عدد من آمن معه بقوله عز وجل: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ [هود: ٤٠].

❖ **الرابعةَ عَشْرَةَ: أَنَّ مَن لَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ يأتي وَحْدَهُ.**

ولهذا لما عرضت الأمم على النبي، رأى ﷺ بعض الأنبياء وحده وليس معه أحد، فهذا النبي سيحشر وحده.

❖ **الخامسةَ عَشْرَةَ: ثَمَرَةُ هذا العِلمِ، وهوَ عَدَمُ الاغتِرَارِ بالكَثْرَةِ، وعَدَمُ الزُّهدِ في القِلةِ.**

إذا كان بعض الأنبياء يأتي وليس معه أحد، وبعضهم يأتي وليس معه إلا واحد، وبعضهم معه اثنان، وبعضهم معه الرهط، فلا

(١) سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب (٦١)، رقم (٢٤٤٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) ينظر: فتح الباري (١١/٤٠٧).

يغتر الإنسان بالكثرة، العبرة بالحق، الزم الحق ولو كان أهله قلة؛ ولهذا قال بعض أهل العلم: أنت الجماعة ولو كنت وحدك. قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]. وقال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾ [البقرة: ٢٤٣]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف: ١٨٧]، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبإ: ١٣].

- **السادسةَ عَشْرَةَ: الرُّخصةُ في الرُّقيةِ مِنَ العَيْنِ والحُمَةِ.**

فهذا جائز، لكن الكمال عدم طلب الرقية، كما بينا من قبل.

- **السابعةَ عَشْرَةَ: عُمقُ عِلْمِ السَّلفِ؛ لِقَوْلِهِ: «قَدْ أَحْسَنَ مَنْ انتَهىٰ إِلىٰ مَا سَمِعَ، ولكن كَذَا وَكَذَا». فَعُلِمَ أنَّ الحديثَ الأَوَّلَ لا يُخَالِفُ الثاني.**

أي: من عمل بالدليل قد أحسن؛ لكن هناك دليل آخر، لكن لا يوجد تعارض بين الحديثين؛ «لا رقية إلا من عين أو حمة»، لا يخالف حديث السبعين؛ لأن هذا معناه: أنه لا رقية أشفى وأولى من العين والحمة.

- **الثامنةَ عَشْرَةَ: بُعْدُ السَّلفِ عن مَدْحِ الإنسانِ بِمَا لَيْسَ فِيهِ.**

لما قال: إني لم أكن في صلاة، ولكني لدغت.

- **التاسعةَ عَشْرَةَ: قولُهُ ﷺ: «أَنْتَ مِنْهمْ» عَلَمٌ مِنْ أعلامِ النُّبُوَّةِ.**

لأنه قالها ﷺ بوحي من الله سبحانه وتعالى.

- **العِشرُونَ: فضيلةُ عُكَّاشَةَ رضي الله عنه.**

لأنه رضي الله عنه مشهود له أنه من السبعين ألفاً.

◆ **الحادِيَةُ والعِشْرونَ: استِعْمَالُ المَعَارِيضِ.**

من التَّعْرِيض، وهو خِلافُ التَّصْرِيح[1]، وذلك في قوله ﷺ للرجل الثاني: «**سبقك بها عكاشة**».

◆ **الثانيةُ والعِشْرونَ: حُسْنُ خُلُقِهِ ﷺ.**

استعمال المعاريض يؤخذ منه حسن الخلق.

---

(١) انظر: غريب الحديث لأبي عبيد ابن سلام (٤/ ٢٨٧)، النهاية في غريب الأثر (٣/ ٤٣٩).

بَابُ الْخَوْفِ مِنَ الشِّرْكِ

وَقَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّسَاء: ٤٨].

وَقَالَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وَفِي الْحَدِيثِ: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ»، فَسُئِلَ عَنْهُ فَقَالَ: «الرِّيَاءُ»(١).

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ نِدّاً دَخَلَ النَّارَ»، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٢).

وَلِمُسْلِمٍ(٣) عَنْ جَابِرٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً دَخَلَ النَّارَ».

الشَّرْح

عقد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الباب ضمن هذا الكتاب الفريد في مجاله؛ لبيان أنه ينبغي للإنسان أن يخاف على نفسه من الوقوع في الشرك، وينبغي للمسلم أن يخاف على نفسه من الشرك، والحذر

(١) أخرجه أحمد (٥/٤٢٨) من حديث محمود بن لبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
قال المنذري: «رواه أحمد بإسناد جيد». «الترغيب والترهيب» (١/ ٣٤)
وقال الهيثمي: «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح». «مجمع الزوائد» (١/ ١٠٢).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب «قوله ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ [البَقَرَة: ١٦٥]» رقم (٤٤٩٧)، وكذا مسلم، كتاب الإيمان، رقم (٩٢).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، رقم (٩٣).

من أسبابه وذرائعه الموصلة إليه؛ حتى لا يقع في الشرك وهو لا يشعر، فالخوف من الشرك يلزم منه البعد عن الشرك الأكبر، والشرك الأصغر، وذرائعه ووسائله المفضية إليه، والتضرع إلى الله ﷻ، وصدق اللجوء إلى الله بأن يجنبه الشرك وأسبابه وذرائعه.

○ وَقَوْلِ اَللَّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّسَاء: ٤٨].

في هذه الآية الكريمة بيان أن الله ﷻ لا يغفر الشرك، وأما ما دونه من الذنوب فتحت المشيئة، وهذا يفيد المسلم الخوف من الشرك الذي هذا شأنه، وذلك أن الله ﷻ خصّ وعلّق، أي: خصّ الشرك بأنه غير مغفور، وعلّق ما دون الشرك على المشيئة، والذي يُعلَّق هو الجائز.

وكما قال ابن خزيمة[١]: «إن كل وعيد في الكتاب والسنة لأهل التوحيد، فإنما هو على شريطة، أي: إلا أن يشاء الله أن يغفر ويصفح، ويتكرم ويتفضل، فلا يعذب على ارتكاب تلك الخطيئة؛ إذ الله ﷻ قد خبّر في محكم كتابه أنه قد يشاء أن يغفر ما دون الشرك من الذنوب». ا.هـ.

وقال ابن أبي العز[٢]: «فالمشرك لا ترجى له المغفرة؛ لأن الله نفى عنه المغفرة، وما سواه من الذنوب في مشيئة الله، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه». ا.هـ.

وقال ﷻ في موضع آخر من سورة الزمر: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ

(١) التوحيد لابن خزيمة (٢/ ٨٦٩).
(٢) شرح الطحاوية (ص ٣٢٦).

﴿هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣﴾ [الزُّمَر: ٥٣]. وهذه في التائبين تعميم وإطلاق، فالتوبة عامة مطلقة، كل من تاب من أي ذنب حتى الشرك تاب الله عليه، أما في هذه الآية التي ذكرها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ترجمة الباب فخصّ الشرك بأنه غير مغفور، وعلّق ما دونه من الذنوب تحت المشيئة، فهذه الآية في غير التائبين من الشرك، وهذا يفيد الحذر من الشرك الذي هذا شأنه، أن من لقي الله به فهو غير مغفور، أما ما دونه فهو تحت المشيئة.

وقوله تعالى عن الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه قال داعياً: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ۝٣٥﴾ [إبراهيم: ٣٥].

فسأل عليه الصلاة والسلام الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام والأوثان، وأبناؤه أنبياء عليهم الصلاة والسلام، رزقه الله إسماعيل، وهذا هو بكره من هاجر، ثم رُزق بعد مُدّة اثنتي عشرة سنة إسحاق من زوجته سارة، وهما نبيان كريمان، ومن سلالة إسماعيل نبينا محمد ﷺ، ومن سلالة إسحاق يعقوب، ويعقوب هو إسرائيل، وأنبياء بني إسرائيل كلهم من سلالته، آخرهم عيسى ﷺ، فأولاده أنبياء وهو نبي كريم، كسّر الأصنام بيديه، ومع ذلك يسأل الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أن يجنِّبه وبنيه أن يعبد الأصنام.

وهذا يدل على شدة خوفه عليه الصلاة والسلام من الله عَزَّ وَجَلَّ، وصدق لجوئه إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، وشدة حذره وإخلاصه، فإذا كان الخليل ﷺ أبو الأنبياء ووالد الحنفاء، والذي كسر الأصنام بيديه، وقاطع الناس جميعاً حتى أباه، من أجل الشرك؛ إخلاصاً لله، ومحبةً وموالاةً له عَزَّ وَجَلَّ، ومقاطعةً للمشركين، وبراءة منهم، وقد وصفه الله بأنه الذي وفّى، ومع ذلك يخاف ويسأل الله أن يجنبه وبنيه أن يعبدوا

الأصنام، فكيف بغيره؟!

ولهذا قال إبراهيم التيمي: ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم ﷺ[(١)]؟!

○ وَفِي اَلْحَدِيثِ: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ اَلشِّرْكُ اَلْأَصْغَرُ»، فَسُئِلَ عَنْهُ فَقَالَ: «اَلرِّيَاءُ».

هذا الحديث عن محمود بن لبيد، ومحمود بن لبيد من صغار الصحابة[(٢)]، فهو مرسل، لكنه مرسل صحابي، ومراسيل الصحابة حجة[(٣)].

ولو ذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ حديث ابن مسعود: **قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدّاً وَهُوَ خَلَقَكَ». قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَأْكُلَ مَعَكَ». قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «أَنْ تُزَانِيَ[(٤)] حَلِيلَةَ جَارِكَ»**[(٥)]. لكان أولى، ولكن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ ذكر حديث محمود بن لبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفيه: أن الرياء من الشرك، وهو الشرك الأصغر إذا صدر من

---

(١) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (١٣/ ٢٢٨).

(٢) ينظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ٤٨٣)، ومعجم الصحابة للبغوي (٥/ ٤٢٧)، ومعرفة الصحابة لأبي نعيم (٥/ ٢٥٢٤).

(٣) ينظر: التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح، المكتبة السلفية (ص ٧٥)، والمنهل الروي (ص ٤٥)، والنكت على مقدمة ابن الصلاح (١/ ٥٠٣)، وتدريب الراوي (١/ ٢٠٢)، وتوضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار (١/ ٢٦٤).

(٤) أي: تزني بها برضاها، وذلك يتضمن الزنا، وإفسادها على زوجها، واستمالة قلبها إلى الزاني، وذلك أفحش. شرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ٨١).

(٥) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب «قوله تعالى ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٢]»، رقم (٤٤٧٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، (رقم ٨٦).

المسلم، أما المنافقون فإنه يصدر منهم الرياء الأكبر.

○ وَعَنْ اِبْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ ٱللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ ٱللَّهِ نِدّاً دَخَلَ ٱلنَّارَ»، رَوَاهُ ٱلْبُخَارِيُّ.

هذا الحديث فيه دليل على أن من مات وهو يدعو من دون الله ندّاً دخل النار، ومعنى اتخذ لله ندّاً: أي جعله شريكاً لله سبحانه وتعالى، يحبه محبة العبادة، ويرجوه، ويخافه، أو ينذر له، أو يذبح له. ومثله لو جعل لله ندّاً في الربوبية، أو في الأسماء والصفات، هذا هو الشرك، والشرك قد يكون أصغر، وقد يكون أكبر، فالأكبر هو أن يدعو من دون الله ندّاً، والأصغر هو الرياء والتشريك بين الخالق والمخلوق بالواو؛ لما قال رجل للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت. قال: «**أجعلتني لله ندّاً؟! قل: ما شاء الله وحده**»[(١)]. فهذا من الشرك الأصغر، ومثله قولهم: لولا الله وأنت، ما لي إلا الله وأنت، لولا الله وفلان. ومثله الحلف بغير الله، فكل هذا وأشباهه من الشرك الأصغر، أما إذا دعا غير الله أو ذبح لغير الله، فهذا من الشرك الأكبر.

والمذكور في هذا الحديث هو من الشرك الأكبر: «**من مات وهو يدعو من دون الله ندّاً دخل النار**». فهو من أهل النار المخلدين فيها - نعوذ بالله.

○ وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ؛ أَنَّ رَسُولَ ٱللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ لَقِيَ ٱللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً دَخَلَ ٱلْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً دَخَلَ ٱلنَّارَ».

وهذا الحديث فيه بيان أهل الجنة من أهل النار، وأن أهل الجنة من مات على التوحيد سالماً من الشرك، «**من لقي الله لا**

---

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب الكفارات، باب «النهي أن يقال: «ما شاء الله وشئت»»، رقم (٢١١٧)، وأحمد (١/ ٢١٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

يشرك به شيئاً» هذا هو الموحّد، «**دخل الجنة**»، فمآل الموحّد إلى الجنة.

فالمؤلِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى عرَّف التوحيد، وبيَّن فضله، ثمَّ بيَّن تحقيقه، ثمَّ بعد ذلك بيَّن الخوف من ضدِّه؛ وهو الشرك.

فِيهِ مَسَائِلُ:

- **الأولىٰ: الخوفُ مِن الشِّركِ.**

يعني: ينبغي للإنسان أن يخاف على نفسه، ويحذر أسباب الشرك، والخوف الصحيح هو الخوف المحمود الذي يحمل صاحبه على البحث والسؤال عن أسباب الشرك وذرائعه ووسائله؛ حتى يحذرها، ويحمله أيضاً على التضرُّع إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والابتهال إليه بأن يجنبه الشرك وأسبابه، كما قال إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم: ٣٥].

- **الثانيةُ: أنَّ الرِّياءَ مِنَ الشِّركِ.**

وهو من الشرك الأصغر إذا صدر من المؤمن، أما الرياء الذي يصدر من المنافقين فهذا شرك أكبر؛ لأن المنافقين أسلموا لأجل الدنيا رياءً، فهم كفار، رياؤهم رياءٌ أكبر يخرج من الملة؛ لأنهم دخلوا في الإسلام نفاقاً.

- **الثالثةُ: أنهُ مِن الشِّركِ الأَصغَرِ.**

من الشرك الأصغر الذي يصدر من المؤمن.

- **الرابعةُ: أنهُ أَخْوَفُ ما يُخَافُ مِنهُ علىٰ الصَّالِحِينَ.**

ذلك لأن الرياء قد يغلب على الصالحين بخلاف فتنة المسيح الدجال؛ لأنهم عرفوا علاماته، أما الرياء فيخفى.

ولهذا قال: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**». وفي لفظ آخر: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟» قَالَ: قُلْنَا: بَلَى، فَقَالَ: «الشِّرْكُ الْخَفِيُّ؛ أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي، فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ، لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ**»(١).

ويُخاف على الصالحين أكثر من غيرهم، فلا يُخاف على العصاة؛ لأن العاصي قد أُتِيَ من قِبل التقصير والجفاء، وهو لا يبالي بالصالحات، ولا يكلِّف نفسه التصدي لوساوس الشياطين، بل هو ساع فيها، لكن الصالح قد أدّى العمل، وربما اجتهد في تحسينه، ولكنه يُخشى عليه أن يقع في قلبه شيء من الرياء.

وفي الحديث الآخر: أنه أشد من الخوف عليهم من المسيح الدجال، فالمسيح الدجَّال وإن كانت فتنته عظيمة، إلا أن الرسول عليه الصلاة والسلام بيَّن أمره، وهو يعرف أن الدجال كذَّاب ولا يتبعه، لكن المصيبة في الشرك الذي يقوم في القلوب، فلا يستطيع الإنسان أن يتخلَّص منه إلا بالجهاد لمن وفَّقه الله وجاهد.

❖ **الخامسةُ: قُرْبُ الجنةِ والنارِ.**

كما قال رسول الله ﷺ: «**الجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ**»(٢). وكما قال ﷺ: «**من مات وهو يدعو لله**

---

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب «الرياء والسمعة»، رقم (٤٢٠٤)، وأحمد (٣/ ٣٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه». «المستدرك» (٤/ ٣٦٥).
وقال البوصيري: «هذا إسناد حسن». «مصباح الزجاجة» (٤/ ٢٣٧)

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك»، رقم (٦٤٨٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

نداً دخل النار»(١). وبمفهوم التضاد فإن من مات لا يدعو من دون الله نداً دخل الجنة، أي: أن من مات على التوحيد دخل الجنة، ومن مات على الشرك دخل النار. والشِّرَاك: السير الذي في ظهر النعل، ما بينه وبين دخول الجنة أو النار إلا أن يقال: فلان مات.

فالجنة قريبة، والنار قريبة، فالمؤمن تنقل روحه إلى الجنة - نسأل الله الكريم من فضله - كما ثبت في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّمَا نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يُرْجِعَهَا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ**»(٢). ولها صلة بالبدن، الله أعلم بكيفيتها، فالروح منعَّمة، والجسد يناله ما قُدِّرَ له. والكافر تنقل روحه إلى النار - نعوذ بالله - فهي معذَّبة، والجسد يناله ما قُدِّر له.

❖ السادسةُ: الجمعُ بينَ قُرْبِهِما في حَدِيثٍ واحِدٍ علىٰ عَمَلٍ مُتَقارِبٍ في الصُّورَةِ.

وهو قوله ﷺ: «**من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار**»(٣). وفي الحديث الآخر: «**الجنة أقرب لأحدكم من شِرَاك نعله، والنار مثل ذلك**»(٤).

❖ السابعةُ: أنَّ مَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شيئاً دخلَ النارَ ولَو كانَ مِنْ أَعْبَدِ الناسِ.

فالمشرك مهما بذل من عبادة فإن ما يبذله لا ينفعه، فإذا لقي

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب فضل الجهاد، باب «ما جاء في ثواب الشهداء»، رقم (١٦٤١)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب «ذكر القبر والبلي»، رقم (٤٢٧١)، والنسائي، كتاب الجنائز، باب «أرواح المؤمن»، (٤/ ١٠٨)، وأحمد (٣/ ٤٥٥) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه. وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

الله يشرك به شركاً أكبر فسدت عبادته، مثل النصارى الذين يتعبدون في الصوامع والديارات، وهم من أهل النار، يبني العابد منهم صومعة، وينعزل فيها عن الناس، ويزهد في الدنيا، ويتصدَّق بكل ما أوتي من الدنيا، ولا يؤذي أحداً، ويتعبّد ويصلي صلاته الليل والنهار، وهو من أهل النار؛ لأنه يعتقد أن الله ثالث ثلاثة - نعوذ بالله -.

◄ الثامنةُ: المسألةُ العَظِيمَةُ: سُؤالُ الخَلِيلِ لهُ ولِبَنِيهِ وِقَايةَ عَبادَةِ الأَصنامِ!

يعني: قول الله ﷻ عن الخليل ﷺ: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم: ٣٥]. فإذا كان الخليل - الذي هو أبو الأنبياء ووالد الحنفاء - يسأل ربَّه أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام، وهو الذي كسر الأصنام بيديه، فإن غيره يلزمه ذلك الخوف من باب أولى.

◄ التاسعةُ: اعتِبَارُهُ بحَالِ الأَكثرِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

يعني: خشي على نفسه وبنيه أن ينجرفوا مع الأكثر، فقال: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥-٣٦] فكثير من الناس ضلوا بعبادة الأصنام - نسأل الله العافية -.

والمشركون حكمهم حكم عبَّاد الأصنام، وكثير من الناس الآن وقعوا في الشرك؛ مثل عبَّاد البدوي، وعبَّاد الحسين، وعبَّاد عبد القادر الجيلاني، وغيرهم، ومن يدعو غير الله في أي مكان كُثر - نسأل الله السلامة والعافية -؛ فالأكثر ضلُّوا بالشرك وعبادة الأصنام.

❖ **العاشرةُ: فيهِ تفسيرُ «لا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ» كَما ذَكَرَهُ البُخارِيُّ.**

ومعناها: لا معبود بحق إلا الله. أي: إخلاص العبادة لله ﷻ.

❖ **الحاديةَ عَشْرَةَ: فضيلةُ مَن سَلِمَ مِن الشِّركِ.**

فمن سَلِمَ من الشرك هو الموحِّد الحق، فمآله الجنة.

❁ ❁ ❁

بَابُ اَلدُّعَاءِ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يُوسُف: ١٠٨].

وَعَنْ اِبْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذاً إِلَى اَلْيَمَنِ؛ قَالَ لَهُ: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْماً مِنْ أَهْلِ اَلْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ»(١). وَفِي رِوَايَةٍ: «إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اَللَّهَ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اَللَّهَ اِفْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اَللَّهَ اِفْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ اَلْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اَللَّهِ حِجَابٌ»(٢) أَخْرَجَاهُ.

وَلَهُمَا عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: «لَأُعْطِيَنَّ اَلرَّايَةَ غَداً رَجُلاً يُحِبُّ اَللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اَللَّهُ وَرَسُولُهُ، يَفْتَحُ اَللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ»، فَبَاتَ اَلنَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ، أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحُوا، غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اَللَّهِ ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا فَقَالَ: «أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟» فَقِيلَ: هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ، فَأُتِيَ بِهِ، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب «لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة»، رقم (١٤٥٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (١٩).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب «ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى»، رقم (٧٣٧٢).

وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، فَقَالَ: «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ، حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ، فَوَاللَّهِ، لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»[(١)]. (يَدُوكُونَ) أَيْ: يَخُوضُونَ.

الشَّرْح

بعد أن ذكر الشيخ رحمه الله بيان التوحيد وحقيقته، وذكر فضله، وأنه يكفِّر الذنوب، وذكر فضل تحقيقه وتخليصه، وأنّ من حققه وخلَّصه من شوائب الشرك دخل الجنة بغير حساب، وذكر الخوف من ضده، ذكر هنا الدعاء إلى التوحيد، وأنّ مَنْ مَنَّ الله عليه بالتوحيد، وحقق التوحيد، وسَلِم من الشرك، فعليه أن يدعو إلى هذا الخير الذي وفَّقه الله له، ولا ينبغي أن يقتصر على نفسه، بل يدعو إلى التوحيد، ولهذا بوَّب فقال: «**باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله**».

فعلى من اهتدى للحق أن يكون من الدعاة إلى الله؛ اقتداءً بالرسل عليهم الصلاة والسلام، ولا سيما أفضلهم وخاتمهم نبينا محمد ﷺ، ولهذا صدَّر المؤلف رحمه الله هذا الباب بآية يوسف: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يُوسُف: ١٠٨].

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ﴾ أي: الدعوة إلى التوحيد، ﴿سَبِيلِىٓ﴾ يعني: طريقي وطريق أتباعي، ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ لا إلى غيره، ولا إلى نفسي، ولا إلى غرض من أغراض الدنيا، أدعو إلى الله، ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ على

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب «فضل من أسلم على يديه رجل»، رقم (٣٠٠٩)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، رقم (٢٤٠٦).

علم، ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ يعني: أنا وأتباعي، ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ تنزيهاً لله عما لا يليق به، ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨﴾ [يُوسُف: ١٠٨] يعني: أنا بريءٌ من المشركين، وهم برآء منّي، لست منهم، وليسوا منّي.

قد دلّت هذه الآية على أنه ينبغي للمسلم أن يكون من الدعاة إلى الله ﷻ، لكن على بصيرة، وعلى علم، لا يدعو على جهل، أو إلى شيء لا يعلمه، إنما يدعو بالعلم، والبصيرة إلى الشيء الذي يعلمه، فيدعو إلى التوحيد، وينهى عن الشرك، ويُحذِّر من كبائر الذنوب، ويحثّ على المحافظة على الصلوات؛ لهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يُوسُف: ١٠٨]: البصيرة هي العلم والنور.

فالدعوة إلى الله على بصيرة هي طريقة الرسول وطريقة أتباعه، هذا هو مناسبة الآية للترجمة، فالدعاة إلى الله هم الذين يدعون إلى الله على بصيرة، يتبعون الرسل، ولا سيما خاتمهم نبينا محمد ﷺ، وأعظم ما يُدْعَى له التوحيد، فهو أصل الدين، وأساس الملة، كما سيأتي في الأحاديث والنصوص الأخرى.

وهذه الآية واضحة الدلالة أنه ينبغي للمسلم أن يكون من الدعاة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن تكون دعوته على بصيرة، وعلى علم، مع ما يستلزمه ذلك من الحلم والرفق، ومعرفة حال المدعوين، كما سيأتي في حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

○ قوله: «وَعَنْ اِبْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذاً إِلَى اَلْيَمَنِ؛ قَالَ لَهُ: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْماً مِنْ أَهْلِ اَلْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ». وَفِي رِوَايَةٍ: «إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اَللَّهَ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اَللَّهَ اِفْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ

أَنَّ اَللَّهَ اِفْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ اَلْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اَللَّهِ حِجَابٌ» أَخْرَجَاهُ.

هذا الحديث أخرجه الشيخان، وذلك أن النبي ﷺ بعث معاذاً إلى اليمن مفتياً ومبلغاً وداعياً إلى الله، وقاضياً حاكماً، وكذلك أرسل أبا موسى الأشعري، كلٌّ منهما على مِخْلَاف[1]، ففي اليمن مِخْلَافَان، فأرسل النبي ﷺ معاذاً يدعو إلى الله، ويبلِّغ دعوة النبي ﷺ ويقضي بينهم ويفتيهم، وقال له عليه الصلاة والسلام: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْماً مِنْ أَهْلِ اَلْكِتَابِ». يعني: اليهود والنصارى؛ لأنه كان في اليمن يهود، قال: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْماً مِنْ أَهْلِ اَلْكِتَابِ». يعني: أهل علم، ليسوا جُهالاً كمشركي العرب، يعني: فاستعد لمناظرتهم.

وفيه دليل على أنه ينبغي للإنسان أن يعرف حال المدعوين، حتى يستعد لهم، ويتهيأ لهم بما يناسبهم من الحُجج؛ ولهذا قال له: «**إنك تأتي قوماً أهل كتاب**». يعني: فاستعد لمجادلتهم ومقارعتهم بالحُجة، حتى تقوم عليهم الحُجة، وأهل الكتاب ليسوا كالعرب الأميين الذين لا يعلمون، بل عندهم كتب منزَّلة، ولكنهم انحرفوا.

ثم قال له ﷺ: «فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ» فيه دليل على البداءة بالأهم فالمهم، وأنّ أول ما يبدأ به الداعية الدعوة إلى التوحيد؛ شهادة أن لا إله إلا الله، وفي رواية: «**إلى أن يوحِّدوا الله**»[2]. هذا تفصيل لقوله: «فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةُ

(١) المِخْلافُ: بكسر الميم بلغة اليمن الكورة (القرية). ينظر: المصباح المنير (خلف).

(٢) تقدَّم تخريجها.

أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» لأن المراد دعوتهم إلى توحيد الله، ليس المراد قول هذه الكلمة فقط؛ لأنهم يؤمنون بالله؛ ولكن ينكرون رسالة محمد ﷺ، ولا يصح إيمانهم بالله وهم ينكرون نبوّة نبينا محمد ﷺ ورسالته؛ ولهذا نفى الله عنهم الإيمان وهم يدّعون الإيمان، قال سبحانه: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ۝٢٩﴾ [التوبة: ٢٩].

فنفى سبحانه وتعالى عنهم الإيمان بالله واليوم الآخر، وهم يدّعون أنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر؛ لأنهم لمَّا لم يؤمنوا بالرسول ﷺ لم ينفعهم إيمانهم بالله، فدلّ على أن المراد المعنى والعمل، وليس المراد قول: (لا إله إلا الله) باللفظ؛ ولهذا قال: «فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» وفي رواية: «**إلى أن يوحدوا الله**». والمراد: ادْعُهُم إلى توحيد الله، والإيمان به وبرسوله ﷺ.

وفيه: أنّ أول ما يبدأ به الداعية هو الدعوة إلى التوحيد؛ لأنه أول واجب على الإنسان لله سبحانه وتعالى.

وفيه: الرد على المتكلمين؛ كالأشاعرة وغيرهم الذين يقولون: أول واجب على الإنسان النظر أو الشك، تشك فيمن حولك، ثم تنتقل من الشك إلى اليقين والتوحيد، فهذا من أبطل الباطل، فدعوة الرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم توحيد الله، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٢٣﴾ [المؤمنون: ٢٣]، ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ﴾ [الأعراف: ٦٥، هود: ٥٠]، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾ [الأعراف: ٧٣، هود: ٦١]،

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨٥، هود: ٨٤]، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٣٦﴾ [النّحل: ٣٦].

○ **قَوْلُهُ**: «فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ» فوحّدوا، وآمنوا بالله ورسوله، «**فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة**» .فيه دليل على أنّ الصلاة أوجب الواجبات، وأفرض الفرائض بعد التوحيد والإيمان بالله ورسوله، وتأتي في المرتبة الثانية.

○ **قَوْلُهُ**: «فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اَللَّهَ اِفْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتَرُدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ» الزكاة تأتي في المرتبة الثالثة بعد الصلاة، وهذا فيه دليل على أن الداعية يبدأ بالأهم فالمهم، فالصلاة هي حق الله ﷻ، والزكاة حق المال، وإذا استجابوا وأدّوا الصلاة وأقاموها، فقد أحسنوا في عبادة الله، وإذا استجابوا وأدّوا الزكاة، فقد أحسنوا إلى الخلق، فجمعوا بين الإحسان في عبادة الله، والإحسان إلى الخلق.

○ **قَوْلُهُ**: «تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتَرُدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ» هذا نوع من الأنواع الثمانية الذين تصلح فيهم الزكاة، وإنما خصهم ﷺ بالذكر؛ لأنهم أهم الأنواع الثمانية، وإلا فالزكاة تصرف للأصناف الثمانية.

○ **قَوْلُهُ**: «فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ» يعني: لا تأخذ من خيار أموالهم، وإنما تأخذ من وسط المال، فهي لا تؤخذ من خياره، ولا من شراره، ولهذا قال: «**وإياك وكرائم أموالهم**». الكريمة: الشريفة، إلا إذا سمح بها ربّ المال عن طيب نفس

فلا بأس[(١)].

○ **قَوْلُهُ**: «وَاتَّقِ دَعْوَةَ ٱلْمَظْلُومِ» فيه: دليل على أن الأخذ من خيار الأموال ظلم لصاحب المال؛ ولذلك قال: «**وَاتَّقِ دَعْوَةَ ٱلْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ ٱللَّهِ حِجَابٌ**». وفيه التحذير من الظلم، وأن المظلوم تجاب دعوته، ولو كان كافراً، فعن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، وَإِنْ كَانَ كَافِراً، فَإِنَّهُ لَيْسَ دُونَهَا حِجَابٌ**»[(٢)]، كما جاء في اللفظ الآخر: أن الله تعالى يقول لدعوة المظلوم: «**لَأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ**»[(٣)] فالواجب الحذرُ من الظلم والبعدُ عنه، ومن ذلك: أخذ المُصَدِّق من خيار المال، كما أن أخذه من شرار المال بخس لحق الفقراء، وإنما يأخذ من الوسط، لا يأخذ من خياره، ولا من شراره.

○ **قَوْلُهُ**: «وَلَهُمَا عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ ٱللَّهِ ﷺ قَالَ

---

(١) ينظر: المغني (٢/ ٧١٢) وما بعدها، والشرح الصغير (١/ ٦١٩)، ومغني المحتاج (١/ ٣٨٤)، والشرح الكبير مع الدسوقي (١/ ٤٥٤) وما بعدها.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٥٣) من طريق أبي عبد الله الأسدي، قال: سمعت أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا.
قال المنذري: «رواه أحمد، ورواته إلى عبد الله محتج بهم في الصحيح، وأبو عبد الله لم أقف فيه على جرح ولا تعديل». «الترغيب والترهيب» (٣/ ١٣٠).
وقال الهيثمي: «رواه أحمد، وأبو عبدالله الأسدي لم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح». «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٥٢).

(٣) أخرجه الترمذي، كتاب الدعوات، باب «في العفو والعافية»، رقم (٣٥٩٨) وابن ماجه، كتاب الصيام، باب «في الصائم لا ترد دعوته»، رقم (١٧٥٢)، وأحمد (٢/ ٤٤٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
وقال الترمذي: «هذا حديث حسن».
وقال ابن الملقن: «هذا الحديث صحيح». «البدر المنير» (٥/ ١٥٢).

يَوْمَ خَيْبَرَ: «لَأُعْطِيَنَّ اَلرَّايَةَ غَداً رَجُلاً يُحِبُّ اَللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اَللَّهُ وَرَسُولُهُ، يَفْتَحُ اَللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ» فيه: دليل على مشروعية عقد الألوية، وجعل الراية، وأنّ هذا ممّا فعله النبي ﷺ في غزواته وسراياه، وقيمة الراية في الحرب أنها يجتمع حولها الناس ويعرفونها ويرجعون إليها، وتكون علامة عليهم، ولا يتركونها حتى يُقتلوا عن آخرهم.

○ **قَوْلُهُ**: «فَبَاتَ اَلنَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ، أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا» يدوكون أي: يخوضون في الحديث، فقضوا تلك الليلة ما ناموا، وأنهم سهروا يبحثون، كلُّهم يتمنى أن يُعطاها، هذا هو الظاهر.

○ **قَوْلُهُ**: «فَلَمَّا أَصْبَحُوا، غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اَللَّهِ ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا» كلٌ يتطلَّع، لا محبةً في الإمارة، ولكن محبةً في هذا الوصف: «**يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله**». ومعلوم أن كل مؤمن له أصل هذه المحبة، مَنْ لم يحب الله ورسوله فليس بمؤمن، لكن كون النبي ﷺ ينص على شخص بأنه يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، فهذه منقبة عظيمة، كل يحرص عليها، حتى تطلَّع لها الصحابة جميعاً، ومن بينهم الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه(١).

وفيه: حرص الصحابة على الخير، رضوان الله عليهم، فمن حرصهم على الخير أنهم باتوا يدوكون أيهم يُعطاها.

فلما غدوا إلى النبي ﷺ كلهم يرجو أن يُعطاها، قال النبي ﷺ: «أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟» فَقِيلَ: هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ» أي: أرمد، فطلب النبي ﷺ الإتيان به، فجاءوا به يقودونه، لا يُبصر، فلما جاء إلى النبي ﷺ تفل في عينيه، فبرأ في الحال، كأن لم يكن به وجع.

---

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، رقم (٢٤٠٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهذا فيه دليل على إثبات القدر، وأن قدر الله ماض، وأنّ مَن قُدِّر له شيء فلا بد أن يحصل له، حيث إنّ الراية أُعْطيت لعلي وهو لم يطلبها، والذين حرصوا عليها وباتوا يخوضون ليلتهم لم تحصل لهم؛ لأن الله ما قدر لهم ذلك، بينما الأرمد الذي لم يحضر بشرى النبي ﷺ، ولا توقَّع أن يُعطاها أُعطيت له.

وفي كون النبي ﷺ تفل في عينيه فبرأ في الحال، في هذا دلالة عظيمة على قدرة الله ووحدانيته.

وفيه دليل على إثبات الشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنّ الله تعالى هو المستحق لِأَنْ يُعبد، حيث إنّ الله أبرأه في الحال. وفيه إثبات شهادة أن محمداً رسول الله، حيث جعل الله هذه معجزة لنبيه عليه الصلاة والسلام لم يكن بسبب من أسباب الشفاء؛ لا عملية جراحية، ولا قطرة، بل في الحال تفل في عينيه فبرأ كأن لم يكن به وجع، وأخذ الراية.

فقال له النبي ﷺ: «اُنْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ، حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ اُدْعُهُمْ إِلَى اَلْإِسْلَامِ» فيه: دليل على مشروعية تكرار الدعوة، أهل خيبر بَلَغتْهم الدعوة، لكن قوله ﷺ: «**ثم ادعهم إلى الإسلام**». هذا من باب تكرار الدعوة، وهذا من باب الاستحباب، وإلا فإنه يجوز قتالهم إذا بلغتهم الدعوة ولو لم يُبَلَّغوا الدعوة مرة ثانية، كما ثبت أن النبي ﷺ أغار على بني المصطلق، وهم غارّون؛ يعني: غافلون، وأنعامهم تُسقى على الماء، فقتل مقاتلتهم، وسبى ذراريهم(١)؛ لأن الدعوة بَلَغتْهم، فأغار عليهم ولم يُعِدِ الدعوة مرة ثانية، وهم قوم

(١) أخرجه البخاري، كتاب العتق، باب «من ملك من العرب رقيقًا فوهب وباع وجامع وفدى وسبى الذرية»، رقم (٢٥٤١)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، رقم (١٧٣٠) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

من العرب، ومنهم جويرية بنت الحارث أم المؤمنين، والتي قد أصابها ﷺ، يوم غزوة بني المصطلق المذكورة.

وأما أهل خيبر فأمره النبي ﷺ أن يدعوهم إلى الإسلام مرة أخرى، من باب الاستحباب، قال: «ثُمَّ اُدْعُهُمْ إِلَى اَلْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اَللَّهِ تَعَالَى فِيهِ». ثم قال له: «فَوَاَللَّهِ، لَأَنْ يَهْدِيَ اَللَّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ اَلنَّعَمِ». حلف عليه الصلاة والسلام وهو الصادق وإن لم يحلف، إن هدى الله على يديك واحداً، فذلك «خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ اَلنَّعَمِ». وهي الإبل الحمر، وهي أنفس أموال العرب، وهذا مثال، والمعنى: خير من الدنيا وما فيها، والدنيا كلها لا تساوي شيئاً؛ لكن هذا من باب المثال للشيء الذي يعرفونه، والتقريب للأذهان وللأفهام بما يعرفونه، والقصد هو بيان الفضل العظيم لمن هدى الله على يديه شخصاً واحداً.

وفي هذا الحديث وفي حديث معاذ رضي الله عنه: فضل الدعوة إلى الله ﷻ، حيث إن النبي ﷺ بعث معاذاً رضي الله عنه مُبلغاً، وداعياً، ومفتياً، وقاضياً، وكذلك علي رضي الله عنه عقد له اللواء، وأمره بأن يدعو إلى الله، وأخبره بفضل الدعوة إلى الإسلام، وأنّ من هدى الله على يديه شخصاً واحداً فهو خير له من الدنيا وما فيها.

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَىٰ: الدَّعوَةُ إلىٰ اللهِ طَرِيقُ مَن اتَّبَعَهُ ﷺ.

لقوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يُوسُف: ١٠٨] فالدعوة إلى الله هي طريقة الرسول وطريقة أصحابه وأتباعه، لكن تكون على بصيرة وعلى علم، لا تكون على جهل، أما الشيء الذي لا يعلمه الإنسان فعليه أن يسكت ولا يتكلم

فيه، لا يدعو إلى شيء حتى يعلم الذي يدعو إليه، كما عليه أن يعلم بحال المخاطبين حتى تكون الدعوة مناسبة لحالهم.

◄ الثانيةُ: التَّنبيهُ على الإخلاصِ؛ لأنَّ كثيراً لَوْ دَعَا إلى الحَقِّ فهوَ يَدْعُو إلى نَفْسِهِ.

قوله: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ تنبيه على الإخلاص، فيدعو الإنسان إلى الله لا إلى نفسه، ولا إلى شيء آخر.

◄ الثالثةُ: أنَّ البصيرَةَ مِنَ الفَرَائِضِ.

وهي العلم، فلا ينبغي أن يدعو الإنسان على جهل، بل فَرْضٌ عليه أن يتعلم ثم يدعو، ولا يدعو بجهل، أما الذي يدعو بغير علم فهو يفسد أكثر مما يصلح، فلا بد أن تكون الدعوة على بصيرة.

◄ الرابعةُ: مِنْ حُسْنِ التَّوحيدِ: أَنَّهُ تَنْزِيهٌ له تعالى عن المَسَبَّةِ.

فالشرك بالله تعالى مسبة له وتَنَقُّص، واعتداء على حقه سبحانه وتعالى، وهو تعالى المستحق للعبادة، فالمشرك الذي عبد غير الله تنقّص الله، وصرف محض حقه لغيره، وهذه مسبة لله حيث ساوى المخلوق الناقص الضعيف بالله.

◄ الخامسةُ: أنَّ مِنْ قُبْحِ الشِّركِ كونُهُ مَسَبّةً للهِ.

يعني: تنقّصاً لله عز وجل؛ لأنه إذا عبد غير الله ساوى غير الله بالله، وإذا ساوى غير الله بالله تنقّص الله، فالكمال لله سبحانه وتعالى في أنه هو المستحق للعبادة وحده، فإذا عُبد غيره يكون هذا الذي تعبّد غيرَه تنقّص الله، حيث ساوى غيرَه به، تعالى الله عما يشركون.

◄ السادسةُ: ـ وهي مِن أَهَمِّهَا ـ إبعادُ المسلِمِ عن المُشْرِكينَ لا يَصِيرُ منهم ولَوْ لَمْ يُشْرِكْ.

وذلك من قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

✧ **السابعةُ: كَوْنُ التَّوحيدِ أوَّلَ واجبٍ.**

لأنه أول دعوة الرسل، وهذا لا شك فيه؛ ولهذا لما بعث النبي ﷺ معاذاً رضي الله عنه قال: «فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله». فالتوحيد هو أول واجب.

✧ **الثامنةُ: أنهُ يُبْدَأُ بِهِ قَبْلَ كُلِّ شيءٍ، حتىٰ الصَّلاة.**

كما فعل الرسل عليهم الصلاة والسلام.

✧ **التاسعةُ: أنَّ معنىٰ: «يُوَحِّدُوا اللّٰه»، هو معنىٰ شهادَةِ: أنْ لا إِلٰهَ إلَّا اللّٰهُ.**

لأنه في حديث معاذ رضي الله عنه فسّر الشهادتين بالتوحيد، فدلّ على أن المراد التوحيد.

✧ **العاشرةُ: أنَّ الإنسانَ قد يكونُ مِنْ أهلِ الكتابِ، وهوَ لا يَعْرِفُها، أو يَعْرِفُها ولا يَعْمَلُ بها.**

ولهذا قال النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: «إنك تأتي قوماً أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله». ولو كانوا يعرفونها، ثم أهل الكتاب عندهم علم لكن مع ذلك يُدْعَون إلى التوحيد، فقد يكون جاهلاً، وقد يكون عالماً لكن لا يعمل بها، فيُدْعَى إلى العلم والعمل بها.

✧ **الحاديةَ عشرةَ: التَّنْبيهُ علىٰ التَّعليمِ بالتَّدْريجِ.**

حيث أمر معاذاً رضي الله عنه بالتدرّج في دعوة أهل الكتاب، فهو أولاً يدعوهم إلى التوحيد، ثم إلى الصلاة، ثم الزكاة، ثم نهاه عن الظلم وأخذ كرائم الأموال، فالإنسان يتدرّج في الدعوة، فإذا خاطب قوماً من المشركين لا يأمرهم بالصلاة ولا بالزكاة ولا بالصوم، يأمرهم بالتوحيد أولاً؛ لأنه لا تصح الأعمال إلا بالتوحيد، ولهذا مكث

النبي ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة يدعو إلى التوحيد، بل لما فرض الله الصلاة قبل الهجرة بثلاث سنين لم يدعهم ﷺ إليها، وأما الزكاة والصوم والحج فقد نزل تشريعها بعد الهجرة، لمّا ثبت التوحيد في قلوب المؤمنين.

- **الثانيةَ عَشْرَةَ: البداءَةُ بالأَهَمِّ فَالأَهَمِّ.**

فبدأ بالتوحيد، ثم الصلاة، ثم الزكاة... وهكذا.

- **الثالثةَ عَشْرَةَ: مَصْرِفُ الزَّكاةِ.**

وأنها تؤخذ من الأغنياء فترد إلى الفقراء، وهذا أحد مصارف الزكاة الثمانية كما في آية التوبة.

- **الرابعةَ عَشْرَةَ: كَشْفُ العالِمِ الشُّبْهَةَ عَنِ المُتَعَلِّمِ.**

المراد بالشبهة هنا شبهة العلم - أي: يكون عنده جهل - تؤخذ من قوله ﷺ: «إن الله افترض عليهم صدقة، تؤخذ من أغنيائهم فتردّ على فقرائهم». فبيّن أن هذه الصدقة تؤخذ من الأغنياء، وأن مصرفها الفقراء.

وكذلك قد تؤخذ من قوله ﷺ: «واتق دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينها وبين الله حجاب». لكن أتى بها بعد، وقد يأتي من الكلمة الواحدة عدة مسائل، كل هذا محتمل، كلها فيها كَشْف لمعاذ رضي الله عنه، ولمن بُعث إليهم.

- **الخامسةَ عَشْرَةَ: النَّهيُ عَنْ كَرائِمِ الأَموالِ.**
- **السادسةَ عَشْرَةَ: اتِّقاءُ دَعوةِ المَظْلُومِ.**
- **السابعةَ عَشْرَةَ: الإخبارُ بأنَّها لا تُحْجَبُ.**

أي: دعوة المظلوم لا تُمنع.

- **الثامنةَ عَشْرَةَ: مِنْ أَدِلَّةِ التوحيدِ ما جَرَىٰ علىٰ سيِّدِ**

المُرْسَلِينَ ﷺ وساداتِ الأولياءِ مِنَ المَشَقَّةِ والجُوعِ والوَبَاءِ.

فالصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - هم سادات الأولياء، حصل لهم مشقة عظيمة من الفقر والأمراض، ومن ذلك ما جرى لعلي رضي الله عنه يوم خيبر من الرمد، ومنها ما جرى لهم في فتح خيبر؛ حتى إنهم أوقدوا ناراً وطبخوا اللحوم - لحوم الحمر الأهلية، فقال ﷺ: «**ما هذه النار؟**». قالوا: توقد على اللحم. قال ﷺ: «**أي لحم؟**». قالوا: لحم الحمر الإنسية، قال ﷺ: «**أهريقوها واكسروها**». فقالوا: أوَ نغسلها؟ من شدة تحذيره منها أمر بكسرها، قال ﷺ: «**أو ذاك**»[(١)] وفي هذا بيان شدة ما أصابهم من الجوع مما اضطرهم لذبح الحمر الإنسية، وشدة أخرى؛ وهي نهيهم عن أكلها وقد غلت بها القدور، ولكنهم امتثلوا للنهي وصبروا، وهذا لا شك يدل على إخلاصهم وتوحيدهم لله عز وجل.

وفي تعرضهم للشدائد والابتلاءات يدل على أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً، كما أن رسول الله ﷺ وهو أفضل الخلق لم يدفع الجوع عن نفسه، ولا دفعه عن الصحابة، فلو كان له شيء من التصرف لفعل ذلك، كما أنه لم يدفع عن نفسه يوم أحد ما أصابه، ولمّا دعا على بعض المشركين أنزل الله قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عِمرَان: ١٢٨].

✧ **التاسعةَ عَشْرَةَ: قولُهُ: «لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ» إلىٰ آخِرِهِ. عَلَمٌ مِنْ أَعلامِ النُّبُوَّةِ.**

حيث قال ﷺ: «**لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله،**

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب «غزوة خيبر»، رقم (٤١٩٦)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، رقم (١٨٠٢) من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه.

ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه». فوقع كما أخبر، وفتح الله خيبر على يدي علي رضي الله عنه، مما دل على أن هذا من أعلام النبوة؛ لأن هذا من علم الغيب، بوحي من الله.

❖ **العِشْرُونَ: تَفْلُهُ في عَيْنَيْهِ عَلَمٌ مِنْ أَعلامِها أيضاً.**

حيث تفل النبي ﷺ في عيني علي رضي الله عنه، فبرأ في الحال مما كان بهما من الرمد.

❖ **الحاديةُ والعِشرونَ: فضِيلةُ عليٍّ رضي الله عنه.**

حيث نص عليه النبي ﷺ بأنه يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، ومعلوم أن هذا وصف مطلق لكل مؤمن، لكن كونه ينص على شخص بعينه بأنه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، هذه منقبة خاصة، وفضيلة خاصة؛ ولهذا تطلّع الصحابة لها، لا حُبّاً في الإمارة، بل حبّاً في هذا الوصف.

❖ **الثانيةُ والعِشرونَ: فضائلُ الصَّحابةِ في دَوْكِهمْ تِلْكَ اللَّيلةَ، وشُغْلِهمْ عنْ بِشَارَةِ الفَتْحِ.**

يخوضون أيهم يعطى هذه الراية، حتى يحصل على هذا المقام، فانشغلوا عن الفتح بهذا الوصف؛ فكل واحد يرجو الله ويتطلع أن يكون هو المعني بهذا الوصف، حتى من لا يحب الإمارة تطلع لها، وهذا يدل على فضلهم ومحبتهم للخير.

❖ **الثالثةُ والعِشْرونَ: الإيمانُ بالقَدَرِ، لِحُصُولِهَا لِمَنْ لَمْ يَسْعَ، ومَنْعِهَا عمَّنْ سَعَىٰ.**

فعلي رضي الله عنه لم يسع لها حيث كان أرمد، مما منعه من الحضور إلى مجلس النبي ﷺ في الليلة التي نبه ﷺ على أنه سيفعل كذا وكذا، وكان في المجلس مع النبي ﷺ كثير من الصحابة، الذين

تطلعت نفوسهم لهذه البشرى، لكن النبي ﷺ لم يعطهم الراية، بل قال: «أين علي بن أبي طالب؟». لأنه مُقدَّر ألا يأخذها إلا هو.

- **الرابعةُ والعِشْرونَ: الأدبُ في قولِهِ: «عَلَىٰ رِسْلِكَ».**

أي: تمهل، ووجهه أن المشي على مهل فيه أدب.

- **الخامسةُ والعِشرونَ: الدَّعوةُ إلىٰ الإسلامِ قَبْلَ القِتَالِ.**

فعلي رضي الله عنه أُرسل إلى أهل خيبر وهم أهل كتاب، قد بلغتهم الدعوة، لكن طلب منه النبي ﷺ أن يكرِّر الدعوة قبل القتال، وهذا محل نظر للداعية لمن بلغتهم الدعوة، هل يعيدها مرة أخرى للاستحباب أو يكتفي بالدعوة الأولى.

- **السادسةُ والعِشْرونَ: أنَّهُ مشروعٌ لِمَنْ دُعُوا قَبْلَ ذَلِكَ وقُوتِلُوا.**

مشروع على سبيل الاستحباب.

- **السابعةُ والعِشْرونَ: الدَّعوةُ بالحِكْمةِ، لقولِهِ: «أَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عليهم».**

ولقوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ﴾ [النّحل: ١٢٥].

- **الثامنةُ والعِشْرونَ: المعرِفةُ بحَقِّ اللهِ في الإسلامِ.**

لقوله ﷺ: «فأعلمهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه».

- **التاسعةُ والعِشْرونَ: ثوابُ مَن اهتَدَىٰ على يَدَيْهِ رَجُلٌ واحِد.**

لقوله ﷺ: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حمر النعم» يعني: خير من الدنيا وما فيها.

- **الثَّلاثونَ: الحَلِفُ علىٰ الفُتْيا.**

لقوله ﷺ: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً». فالحَلِف لا بأس به على الفتيا خاصة إذا كان لتعظيم أمرٍ ما.

بَابُ تَفْسِيرِ التَّوْحِيدِ وَشَهَادَةِ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

وقول الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٧].

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٧] الآية.

وقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١].

وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ [البقرة: ١٦٥].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله؛ حرم ماله ودمه، وحسابه على الله ﷻ»(١).

وشرح هذه الترجمة: ما بعدها من الأبواب.

الشَّرح

○ قَوْلُهُ: «وَشَهَادَةِ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

من عطف الدال على المدلول، فالمدلول هو التوحيد، والدال

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، رقم (٢٣) من حديث طارق بن أشيم رضي الله عنه.

هي الشهادة، فشهادة أن لا إله إلا الله معناها التوحيد، والمراد هو توحيد الله، وإخلاص العبادة له؛ ولهذا لا يكفي قولها باللسان، بل لا بد من قولها عن توحيد وإخلاص، فإذا قالها عن غير إخلاص فإنه لا يكون موحِّداً، ولهذا قال: «باب تفسير التوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله».

ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أربع آيات في بيان الشرك، وإنما ذكرها لأن الشرك ضدّ التوحيد، فإذا تبيّن الضد تبيّن ضدّه، كما قال الشاعر(١): والضدّ يُظهر حُسْنه الضد

وكما قيل: وبضدها تتميز الأشياء.

ففسّر التوحيد ببيان الشرك؛ لأن من اجتنب الشرك فهو موحِّد، ومن وحَّد فلا بد أن يكون مجتنباً للشرك.

فذكر الآية الأولى وهي آية الإسراء: «﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ٥٧﴾ [الإسرَاء: ٥٧]». وقبلها: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ٥٦﴾ [الإسرَاء: ٥٦].

﴿قُلۡ﴾ يا محمد للمشركين، ﴿ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ أنهم يستحقّون شيئاً من العبادة: ﴿فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ﴾ الذي ينزل بالإنسان، فلا يملك كشف الضر عن أحد إلا الله، ولا يملك تحوله من حال إلى حال إلا الله، قل ادعوا الذين تدعونهم من دون الله فتصرفون لهم شيئاً من أنواع العبادة، هل يستطيعون كشف الضر عنكم؟! لا يستطيعون، هل يستطيعون تحويله من حال إلى حال،

(١) عجز بيت صدره: ضدان لما استجمعا حسنًا.
وهو بلا نسبة في صبح الأعشى ٢/٥٠٣.

ونقْله من مكان إلى مكان، أو تخفيفه؟! لا يستطيعون.

ثم قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ٥٧﴾ [الإسراء: ٥٧]. هذه نزلت في قوم مشركين يعبدون أُناساً صالحين، فقال ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ يعني: أولئك الذين يدعوهم هؤلاء المشركون، ﴿يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ هم يطلبون الوسيلة والقرب إلى الله بطاعته واتباع مرضاته، وتوحيده وإخلاصه، فهم يعبدونهم، والمعبودون الصالحون يبتغون إلى الله الوسيلة بشريعته والعمل بما يرضيه.

وقيل: إن هذه الآية نزلت في قوم من الإنس عبدوا ناساً من الجنّ، فأسلم الجن ولم يعلم بهم الإنس، فأنزل الله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الجن، ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يدعوهم هؤلاء الإنس(١)، ﴿يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ وهو القرب إلى الله، أي: يبتغون التقرُّب إلى الله بطاعته واتباع مرضاته، وتوحيده وإخلاصه، ﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ إلى الله، ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ هذا هو التوحيد، الذي لا بد فيه من الرجاء والخوف، ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ٥٧﴾ [الإسراء: ٥٧]. وهؤلاء الذين يعبدون غير الله أشركوا مع الله، الذين يدعونهم ويعبدونهم من دون الله، ويسألونه قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، وهذا هو الشرك، فإذا اجتنب الإنسان الشرك فإنه يكون موحِّداً.

والآية الثانية وهي قوله تعالى: «﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب «﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ٥٦﴾ [الإسراء: ٥٦]»، رقم (٤٧١٤)، ومسلم، كتاب التفسير، رقم (٣٠٣٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه موقوفًا.

بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٧]».
إبراهيم الخليل ﷺ قال لأبيه وقومه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾. تبرّأ من معبوداتهم التي يعبدونها من دون الله، ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ وهذا هو معنى كلمة التوحيد، ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ﴾ هذا معنى «لا إله» وهو نفي، ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ هذا معنى «إلا الله» وهذا هو الإثبات؛ أي أن معنى الآية هو نفسه معنى (لا إله إلا الله).

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٨] أي: جعل إبراهيم عليه الصلاة والسلام هذه الكلمة ﴿بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾، أو جعلها الله سبحانه وتعالى ﴿بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ أي: في ذُرّيته، فلا يزال فيهم من يوحد الله ويقول: لا إله إلا الله. ملتزماً بها، عاملًا بمقتضاها، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِىۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤].

وهذا فيه بيان التوحيد، وأنه لا بد فيه من البراءة من المشركين، وإثبات العبادة لله وحده سبحانه وتعالى.

والآية الثالثة وهي قوله تعالى: «﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١]» هذه الآية نزلت في أهل الكتاب، والأحبار هم علماؤهم، والرهبان هم عُبّادهم[(١)].

ومعنى الآية: أن أحبار أهل الكتاب ورهبانهم كانوا يُحِلُّون لهم

(١) ينظر: أحكام القرآن لابن العربي (٤/ ٢٢١)، وأحكام القرآن للجصاص (٢/ ٢٩٧)، وغريب القرآن (ص ١٨٤)، ومعاني القرآن للنحاس (٣/ ٢٠٢).

الحرام، ويُحَرِّمون لهم الحلال، فيُطيعهم أتباعهم في التحليل والتحريم، والتحليل والتحريم من خصائص الله، فمن اتخذ مخلوقاً غير الله يحلل له الحرام ويحرم له الحلال، يُطيعه في التحليل والتحريم فقد اتخذه ربّاً من دون الله، وجعله شريكاً مع الله، شاء أم أبى، فالطاعة في التحليل والتحريم هي من خصائص الله، هو المُحلِّل والمُحرِّم، والرسول ﷺ المُبَلِّغ عن الله ﷻ؛ ولهذا جاء في الحديث أن النبي ﷺ كان يتلو هذه الآية، وجاء عدي بن حاتم رضي الله عنه - وكان نصرانيّاً - ثم أسلم، والنبي ﷺ يقرأ هذه الآيات، فقال عدي: لسنا نعبدهم. ظنّ عَدِي رضي الله عنه أن المراد: نسجد لهم ونركع لهم، فقال النبي ﷺ: «**أليسوا يُحلُّون ما حرّم الله فتُحلُّونه، ويُحرِّمون ما أحلّ الله فتحّرِّمونه؟**». قال: بلى. قال: «**فتلك عبادتهم**»[1]. فبيّن له النبي ﷺ أنّ طاعتهم في التحليل والتحريم هي عبادة لهم.

والآية الرابعة وهي قول الله تعالى: «﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ١٦٥]». والمراد بالمحبة هنا محبة العبادة، وهي المحبة الخاصة التي تقتضي الذلّ، والخضوع، والطاعة، فمن اتخذ من دون الله ندّاً يحبه كحب الله، ويذل له ويخضع ويطيعه، فقد اتخذه ربّاً من دون الله، ولا يدخل في هذا المحبة الطبيعية، كمحبة الطعام والشراب، ومحبة الولد والوالد والزوجة.

فهذه الآيات الأربع كلها في بيان الشرك الذي هو ضدّ

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب «ومن سورة التوبة»، رقم (٣٠٩٥). وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث».

التوحيد، وإذا تبيّن الشرك تبيّن التوحيد؛ لما بينهما من علاقة تضاد.

○ **قَوْلُهُ**: «**وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله، حرم ماله ودمه، وحسابه على الله ﷻ**».

لا بد من أمرين: «**من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله**». نفي وإثبات، «**كفر بما يعبد من دون الله**» يعني: تبرّأ من كلِّ معبود سوى الله، فلا بد من البراءة، كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) «لا إله»، فيها البراءة من كل معبود سوى الله؛ «إلا الله» إثبات العبادة لله وحده، فلا بد من الأمرين: توحيد، وبراءة من كل معبود سوى الله، ولا يكفي - كما ذكر المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ - أن يقول الإنسان: (لا إله إلا الله). بلسانه، ولا يكفي أيضاً أن يقولها بلسانه ويعرف معناها، وأنها مشتملة على النفي والإثبات، ولا يكفي مع ذلك كونه مُقِرّاً بها، ولا يكفي مع ذلك ألا يعبد إلا الله، بل لا بد أن يضيف أمراً خامساً؛ وهو البراءة من كل معبود سوى الله، فهذه خمسة شروط لا بد من توافرها ليكون المرء محققاً الشهادة، معصوم الدم والمال.

ولهذا ذكر المؤلِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: أن هذه المسألة مسألةٌ عظيمة، قلّ من ينتبه لها، فإنه لم يجعل التكلُّم بالتوحيد عاصماً للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع التكلُّم بها، بل ولا الإقرار بها، بل ولا كونه لا يعبد إلا الله، بل لا بد أن يضيف أمراً خامساً؛ وهو البراءة من كل معبود سوى الله، لا يكون معصوم الدم والمال إلا بهذه الأمور الخمسة.

○ قوله: «**وشرح هذه الترجمة ما بعدها من أبواب**» أي: أن ما يأتي بعد هذه الترجمة من الأبواب شرحاً للتوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله، وما بعد هذا من الأبواب بيان لأنواع من العبادات

والاعتقادات التي يجب إخلاصها لله تعالى، وذلك هو معنى التوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله.

فِيهِ مَسَائِلُ:

◄ فيهِ أَكْبَرُ المسائِلِ وأَهمُّهَا: وهيَ تفسيرُ التَّوحيدِ، وتفسيرُ الشَّهادَةِ، وبيَّنَهَا بأُمُورٍ واضِحَةٍ: منها: آيةُ الإسراءِ، بيَّنَ فيها الرَّدَّ علىٰ المُشْرِكينَ الذينَ يَدْعُونَ الصَّالحِينَ، ففيها بيانُ أنَّ هذا هو الشِّرْكُ الأَكْبَرُ.

يعني: أن قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [الإسرَاء: ٥٧] في هذه الآية أن الذين يدعون غير الله، دعوتهم منافية للتوحيد؛ لأن دعوتهم لغير الله شرك، فتفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله هو البراءة من الشرك والمشركين، وإخلاص التوحيد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومنها: آيةُ براءَةَ، بيَّنَ فيها أنَّ أهلَ الكِتابِ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

حيث أطاعوهم في التحليل والتحريم.

وبيَّنَ أنَّهُم لَمْ يُؤْمَرُوا إلَّا بِأَنْ يَعْبُدُوا إلٰهاً واحِداً، مَعَ أنَّ تَفْسِيرَها الذي لا إِشْكَالَ فيهِ: طاعةُ العُلَماءِ والعُبَّادِ في المعصيةِ، لا دُعَاؤُهُمْ إيَّاهُمْ.

والمعصية المقصودة هنا هي: تحليل الحرام، وتحريم الحلال.

ومنها: قول الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ للكُفَّارِ: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧].

هذه الآية فسرت كلمة التوحيد التي هي شهادة أن لا إله إلا

الله، وهي البراءة من كل معبود سوى الله، وإثبات العبادة لله وحده، وليس المراد قولها باللسان.

فاستثنىٰ مِنَ المَعْبُودِينَ رَبّهُ، وذَكَرَ سُبحانَهُ أَنَّ هذهِ البراءَةَ وهذهِ المُوالاةُ هي شهادَةُ أنْ لا إِلٰهَ إلّا اللّه. فقال: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢٨﴾ [الزّخرُف: ٢٨].

فهذه البراءة والموالاة اللتان أعلنها الخليل ﷺ هي تفسير (لا إله إلا الله)، فهو يوالي ربه، ويتبرّأ من عبادة كل معبود سوى الله. وذكر ﷻ أن هذه البراءة وهذه الموالاة هي تفسير شهادة أن لا إله إلا الله؛ فقال: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢٨﴾.

ومنها: آيةُ البقرةِ في الكُفَّارِ الذينَ قالَ اللهُ فيهم: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧] **ذَكَرَ أَنَّهُم يُحِبُّونَ أَنْدادَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ، فَدَلَّ علىٰ أَنَّهُم يُحِبُّونَ اللهَ حُبّاً عَظِيماً، ولمْ يُدْخِلْهُمْ في الإسلامِ، فكيفَ بِمَنْ أَحَبَّ النِّدَّ حُبّاً أكبرَ مِنْ حُبِّ اللّهِ؟!.**

فإذا كان الذي يحب الله لا يدخل في الإسلام إذا كان يحب نداً مع الله ﷻ، فكيف بمن لا يحب إلا الندّ؟! أي: يفرد هذا الند بالحب من دون الله، فهذا يكون فعله أعظم وأخطر.

فَكَيْفَ بِمَنْ لمْ يُحِبَّ إِلَّا النِّدَّ وَحْدَهُ، ولم يُحِبَّ اللّهَ؟!

هذا أيضا فعله أخطر وأعظم ذنباً.

ومنها: قولُهُ ﷺ: «مَنْ قالَ: لا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ حَرُمَ مالُهُ وَدَمُهُ...». **وهذا مِنْ أَعْظَمِ مَا يُبيِّنُ معنىٰ: «لا إِلٰهَ إلا الله»، فإنّهُ لَمْ يَجْعَل التَّلَفُّظَ بها عاصِماً للدَّمِ والمالِ، بلْ ولا معْرِفَةَ معناها مع لَفْظِها، بل ولا الإقرارَ بذلِكَ، بل ولا كَوْنَهُ لا يَدْعُو إلَّا اللّهَ وحدَهُ لا شريكَ لَهُ، بل لا يَحْرُمُ مالُهُ ودَمُهُ حتى يُضِفُ**

إلىٰ ذلك الكُفرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللّهِ،

يعني: لا بد من هذه الأمور الخمسة - كما تقدم -:

١- التلفظ بهذه الكلمة.

٢- معرفة معناها.

٣- الإقرار بها.

٤- كونه لا يعبد إلا الله.

٥- أن يكفر بما يعبد من دون الله، أي: البراءة من كل معبود سوى الله ﷻ.

فإن تردد أو شك في شيء من هذه الخمسة فلا يكون موحِّداً.

فإنْ شَكَّ أو تَوَقَّفَ لَمْ يَحْرُمْ مالُهُ وَدَمُهُ.

يعني: إن شك في البراءة من كل معبود سوى الله، أو تردد في هذا الأمر في المعبودات من دون الله؛ هل هي حق أو ليست بحق، أو توقف، لم يحرم ماله ودمه.

فَيا لَهَا مِنْ مَسْأَلَةٍ؛ ما أَجَلَّها! ويا لَهُ مِنْ بَيَانٍ؛ ما أَوْضَحَهُ! وحجَّةٍ ما أَقْطَعَها للمُنَازِعِ!

بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ لُبْسُ الْحَلْقَةِ وَالْخَيْطِ وَنَحْوِهِمَا لِرَفْعِ الْبَلَاءِ أَوْ دَفْعِهِ

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ [الزُّمَر: ٣٨] الْآيَةَ.

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى رَجُلاً فِي يَدِهِ حَلَقَةٌ مِنْ صُفْرٍ، فَقَالَ: «مَا هَذِهِ؟» قَالَ: مِنَ الْوَاهِنَةِ. فَقَالَ: «انْزَعْهَا؛ فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْناً، فَإِنَّكَ لَوْ مِتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ؛ مَا أَفْلَحْتَ أَبَداً». رَوَاهُ أَحْمَدُ[(١)] بِسَنَدٍ لَا بَأْسَ بِهِ.

وَلَهُ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ مَرْفُوعاً: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً؛ فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدْعَةً؛ فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ»[(٢)].

وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً؛ فَقَدْ أَشْرَكَ»[(٣)].

وَلِابْنِ أَبِي حَاتِمٍ[(٤)] عَنْ حُذَيْفَةَ «أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً فِي يَدِهِ خَيْطٌ مِنَ

---

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب الطب، باب «تعليق التمائم» رقم (٣٥٣١)، وأحمد (٤/ ٤٤٥) - واللفظ له - قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه». «المستدرك» (٤/ ٢٤٠). وقال البوصيري: «هذا إسناد حسن». «مصباح الزجاجة» (٣/ ٧٧).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٤). قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه». «المستدرك» (٤/ ٢٤٠). وقال المنذري: «رواه أحمد وأبو يعلى بإسناد جيد». «الترغيب والترهيب» (٤/ ١٥٦).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٦). قال الهيثمي: «رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد ثقات». «مجمع الزوائد» (٥/ ١٠٣).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٧/ ٢٢٠٨).

الْحُمَّى، فَقَطَعَهُ وَتَلَا قَوْلَهُ ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يُوسُف: ١٠٦]».

الشَّرْح

ترجم المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأن من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء - أي: بعد نزوله - أو دفعه - أي: قبل نزوله - فإذا لبس حلقةً أو خيطاً لهذا الغرض، فهذا من الشرك.

والأصل أنه من الشرك الأصغر إذا اعتقد أن لبس الحلقة والخيط من الوسائل ومن الأسباب التي تدفع العين، هذا هو الأصل والغالب، فإن اعتقد أن الخيط والحلقة تدفع الضر بنفسها فهذا شرك أكبر، فالمسلم يعلم أن الذي يدفع الضر هو الله، والذي يجلب النفع هو الله.

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزُّمَر: ٣٨]».

﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم﴾ الخطاب للمشركين ﴿مَّا تَدْعُونَ مِن خَلَقُوا۟ ٱللَّهِ﴾ تعبدونها؛ وتذبحون وتنذرون لها، وتدعونها من دون الله، ترجون شفاعتهم، ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾. يعني: هل تستطيع هذه المعبودات كشف الضر؟ لا تستطيع، ﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ هل تمسك الرحمة؟ أو تجلب الخير؟ لا تستطيع ذلك، فإذا كانت المعبودات لا تكشف الضر ولا تجلب النفع، فعبادتها باطلة، فالذي لا يستطيع أن يدفع ضرّاً، ولا يستطيع أن يجلب نفعاً، فلا يستحق العبادة؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزُّمَر: ٣٨].

ولبس الحلقة والخيط على أنها وسيلة، وأنها سبب - وإن كان

من الشرك الأصغر - داخلٌ في الآية؛ لأن السلف يستدلون على الشرك الأصغر بما نزل في الشرك الأكبر، وهذه الآية في الشرك الأكبر: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾، فكما أن عبادة الأصنام والأوثان التي لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضراً عبادة باطلة، كذلك أيضاً فعل من لبس الحلقة والخيط لرفع البلاء أو دفعه، وإن كان يعتقد أنها وسيلة. فبما أن الشرع لم يجعلها وسيلة فهي باطلة، وإنما يُعَلِّق الإنسان رجاءه وأمله في الله، فهو النافع الضار؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزُّمَر: ٣٨]. ومن التعلق بالله ﷻ فعل الأسباب التي شرعها لجلب النفع أو دفع الضر.

○ **قَوْلُهُ**: «عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنهما، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى رَجُلاً فِي يَدِهِ حَلَقَةٌ مِنْ صُفْرٍ، فَقَالَ: «مَا هَذِهِ؟» قَالَ: مِنَ الْوَاهِنَةِ.».

استفهام، يعني: لماذا وضعتها؟ قال: من الواهنة. الوَاهِنَة: عِرْقٌ يأخُذ في المَنْكِب وفي اليَدِ كُلِّها فَيُرْقَى منها. وقيل: هُو مَرَضٌ يأخُذ في العَضُد[1]. يعني: جعلتها لدفع هذا المرض.

○ **قَوْلُهُ**: «فَقَالَ: «انْزَعْهَا؛ فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهَناً».

يعني: لا تزيدك إلا مرضاً، ««فَإِنَّكَ لَوْ مِتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ؛ مَا أَفْلَحْتَ أَبَداً». رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ لَا بَأْسَ بِهِ».

فإذا كان الصحابي لو فعلها لا يفلح أبداً، فكيف بغيره؟! والحديث وإن كان في سنده لين إلا أن له شواهد؛ ولهذا قال

---

(١) جامع غريب الحديث (٢/ ٥٠٠).

المؤلف: رواه أحمد بسند لا بأس به.

وفيه أن النبي ﷺ لم يعذره في هذا، وسيأتي أن المصنف استنبط أنه لا يُعذر بالجهالة، ما عذره في هذا؟ لأنه يمكن أن يسأل النبي ﷺ في هذا، فالجاهل إذا كان يستطيع أن يسأل فليس بمعذور.

○ **قَوْلُهُ**: «وَلَهُ» - يعني الإمام أحمد - عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ مَرْفُوعاً: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً، فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً، فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ».

هذا دعاء من النبي ﷺ على من تعلق تميمة، والتميمة هو ما يعلق من الحروز أو الخيوط، أو من شعر الذئب أو العظام؛ لأجل دفع العين، يجعله الإنسان في رقبته، أو في يده، أو في أصبعه، أو على الصبيان، أو على النساء، أما الذي يعلق على الحيوان يسمى وتراً، وهي من وسائل الشرك الأكبر إذا اعتقد أنها سبب، والنبي ﷺ دعا عليه: «**من تعلق تميمة فلا أتمّ الله له**». يعني: من تعلّق تميمة فإن الله لا يتم له أموره، وهذا يدل على بطلانها.

«ومن تعلق ودعة»: شيء من الودع الذي يستخرج من البحر أو من غيره؛ لأجل أن يسكن المرض والألم، دعا عليه النبي ﷺ بأن الله لا ودع له، يعني: لا جعله في سكون وراحة.

○ قوله: «وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً؛ فَقَدْ أَشْرَكَ». فدل على أن تعليق التمائم من الشرك الأصغر، حتى ولو كان من القرآن على الصحيح كما سيأتي.

○ **قَوْلُهُ**: «وَلِابْنِ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ حُذَيْفَةَ «أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً فِي يَدِهِ خَيْطٌ مِنَ الْحُمَّى».

يعني: وضعه لأجل دفع الْحُمَّى، يعني: لاعتقاده أن هذا

الخيط وسيلة وسبب لدفع الحمى.

○ **قَوْلُهُ**: «فَقَطَعَهُ وَتَلَا قَوْلَهُ ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يُوسُف: ١٠٦]».

فيه: إنكار المنكر باليد إن استطاع ذلك، فحذيفة رضي الله عنه أنكر المنكر باليد وقطعه، فإذا كان الإنسان يستطيع أن ينكر المنكر باليد فليغيره، وإن كان لا يستطيع، أو يستطيع ولكن يترتب على التغيير مفسدة أكبر فإنه يغير باللسان والنصيحة، وهنا كان حذيفة رضي الله عنه يستطيع التغيير، فأنكر المنكر بيده، وتلا قول الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٥﴾﴾. وهذه الآية نزلت في المشركين الشرك الأكبر، فإيمانهم بالله هو توحيد الربوبية، وشركهم شرك في العبادة، والمعنى: أنهم جمعوا بين توحيد الربوبية وبين الشرك، ولبس الخيط من الشرك الأصغر.

فهذا الحديث فيه دليل على أن الصحابة يستدلون على الشرك الأصغر بما نزل في الشرك الأكبر، لدخول الشرك الأصغر في عموم الشرك، ولأنه من وسائله.

وفيه دليل على أنه لا يجوز للإنسان أن يعلق خيطاً من أجل أن يكون سبباً، وأن هذا الفعل من الشرك.

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولىٰ: التَّغلِيظُ في لُبْسِ الحَلْقَةِ والخَيْطِ ونَحْوِهِمَا لِمِثْلِ ذَلِكَ.

يعني: أنه من الشرك؛ ولهذا غلّظ النبي ﷺ على هذا الرجل الذي في يده حلقة من صُفر، قال: «**انْزَعْهَا؛ فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا**

وَهَناً، فَإِنَّكَ لَوْ مِتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ؛ مَا أَفْلَحْتَ أَبَداً»، فإن كان جاهلاً فيمكنه السؤال.

الثانيةُ: أنَّ الصَّحابي لَوْ ماتَ وهيَ عليهِ ما أَفْلَحَ، فيهِ شاهِدٌ لكلامِ الصَّحابةِ: أنَّ الشِّركَ الأَصغَرَ أكبرُ مِن الكبائرِ.

لأن الله سمَّاه شركاً، بخلاف الكبائر فلم يسمها شركاً؛ ولهذا قال بعض العلماء: إن الشرك ولو كان أصغر لا يُغفر، بخلاف الكبائر فإنها تحت المشيئة.

الثالثةُ: أنهُ لَمْ يُعْذَرْ بالجَهَالَةِ.

وذلك لأن الجاهل إذا كان يمكنه أن يسأل فلا يعذر، أما إذا كان لا يمكنه أن يسأل، أو لم يَدُرْ في ذهنه أن هذا الشيء محرم، فهذا معذور.

الرابعةُ: أنها لا تَنْفَعُ في العاجِلَةِ؛ بل تَضُرُّ؛ لقولِهِ: «لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْناً».

فلا ينفع اعتقاده أنها تدفع الوهن والضعف، ولا تفيده في العاجلة ولا في الآجلة، بل تزيده وهناً ومرضاً، نسأل الله السلامة والعافية، فالشرك يزيد المرض ولا ينقصه.

الخامسةُ: الإنكارُ بالتَّغليظِ علىٰ مَنْ فَعَلَ مِثْلَ ذلك.

ولهذا قال لعمران رضي الله عنه: «فَإِنَّكَ لَوْ مِتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ؛ مَا أَفْلَحْتَ أَبَداً». وهذا تغليظ؛ لأن الشرك أكبر من الكبائر، ولأنه يمكنه أن يسأل عما جهله.

السادسةُ: التَّصريحُ بأنَّ من تعلَّقَ شيئاً وُكِلَ إليهِ.

من علق قلبه بغير الله وكله الله إلى هذا الشيء، ومن علق قلبه بالله كفاه الله ما أهمه من أمر دينه ودنياه.

❖ السابعةُ: التَّصريحُ بأنَّ مَن تعلَّقَ تَمِيمةً فقد أَشْرَكَ.

أي: من الشرك الأصغر، وهذا صريح في الحديث.

❖ الثامنةُ: أنَّ تعلِيقَ الخَيْطِ مِن الحُمَّىٰ مِنْ ذلك.

تعليق الخيط لدفع الحمّى من التميمة المنهي عنها، كما فعل حذيفة رضي الله عنه حينما قطع هذا الخيط الذي في عضد الرجل وتلا الآية.

❖ التاسعةُ: تِلاوَةُ حُذَيْفَةَ الآيةَ دليلٌ علىٰ أنَّ الصَّحابةَ يَسْتَدِلُّونَ بالآياتِ التي في الأكبرِ علىٰ الأَصغَرِ، كما ذَكَرَ ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما في آيةِ البقرةِ.

هذا دليل على أنهم يستدلون على الشرك الأصغر كتعليق الخيط والتميمة بما نزل في الشرك الأكبر، وهي الآية: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يُوسُف: ١٠٦]. ومثل ما فعل ابن عباس رضي الله عنهما في آية البقرة ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٢]. فاستدل بهذه الآية على الشرك الأصغر، وهو أن تقول: (والله وحياتك يا فلان)، (وحياتي)، وتقول: (لولا كلبة هذا لأتى اللصوص)، و(لولا البط في الدار لأتى اللصوص)، و(لولا الله وفلان). هذا كله من الشرك الأصغر، والآية في الأنداد: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾. فالأنداد شرك أكبر.

فإن قيل: إن النبي ﷺ قال في قصة أبي طالب: «**هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**»(١). كيف نوجهه؟

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب «قصة أبي طالب»، رقم (٣٨٨٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (٢٠٩) من حديث العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه.

فنقول: يحتمل أنه كان أول الإسلام؛ لأنه في أول الإسلام كانوا يقولون: ما شاء الله وشئت. وكانوا يحلفون بآبائهم، ثم نهي عنه، أو أنه من تصرف بعض الرواة.

العاشرةُ: أنَّ تعليقَ الوَدَعِ من العَينِ مِن ذلك.

والودعة هي شيء يستخرج من البحر من أجل العين، وهي من التمائم المنهي عنها.

الحاديةَ عَشْرَةَ: الدُّعاءُ علىٰ مَن تعلَّقَ تَمِيمةً أنَّ اللهَ لا يُتِمَّ لهُ، «ومَن تعلَّقَ وَدْعَةً، فَلا وَدَعَ اللهُ لهُ»؛ أي: تركَ اللهُ لهُ.

وهذا الدعاء من النبي ﷺ على من يفعل ذلك معاملة له بنقيض قصده، فالنبي ﷺ دعا على من تعلق تميمة بأن الله لا يتمّ له أموره، ومن تعلق ودعة بأن الله لا يدعه في سكون وراحة.

بَابُ مَا جَاءَ فِي الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ

فِي الصَّحِيحِ(١) عَنْ أَبِي بَشِيرٍ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَأَرْسَلَ رَسُولاً: «أَنْ لَا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِنْ وَتَرٍ أَوْ قِلَادَةٌ إِلَّا قُطِعَتْ».

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ». رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَأَبُو دَاودَ(٢).

"التَّمَائِمُ": شَيْءٌ يُعَلَّقُ عَلَى الْأَوْلَادِ يَتَّقُونَ بِهِ الْعَيْنَ؛ لَكِنْ إِذَا كَانَ الْمُعَلَّقُ مِنَ الْقُرْآنِ؛ فَرَخَّصَ فِيهِ بَعْضُ السَّلَفِ، وَبَعْضُهُمْ لَمْ يُرَخِّصْ فِيهِ، وَيَجْعَلُهُ مِنَ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ، مِنْهُمْ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

و"الرُّقَى": هِيَ الَّتِي تُسَمَّى الْعَزَائِمَ، وَخَصَّ مِنْهَا الدَّلِيلُ مَا خَلَا مِنَ الشِّرْكِ؛ فَقَدْ رَخَّصَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْعَيْنِ وَالْحُمَةِ.

و"التِّوَلَةُ": هِيَ شَيْءٌ يَصْنَعُونَهُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يُحَبِّبُ الْمَرْأَةَ إِلَى زَوْجِهَا وَالرَّجُلَ إِلَى امْرَأَتِهِ.

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُكَيْمٍ مَرْفُوعاً: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئاً؛ وُكِّلَ إِلَيْهِ».

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب «ما قيل في الجرس ونحوه في أعناق الإبل»، رقم (٣٠٠٥)، ومسلم، كتاب اللباس والزينة، رقم (٢١١٥).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الطب، باب «في تعليق التمائم»، رقم (٣٨٨٣)، وابن ماجه، كتاب الطب، باب «تعليق التمائم»، رقم (٣٥٣٠)، وأحمد (١/ ٣٨١). قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين، ولم يخرجاه». «المستدرك» (٤/ ٤٦٣).

رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَالتِّرْمِذِيُّ[(١)].

وَرَوَى أَحْمَدُ[(٢)] عَنْ رُوَيْفِعٍ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا رُوَيْفِعُ، لَعَلَّ الْحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ؛ فَأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ، أَوْ تَقَلَّدَ وَتَراً، أَوِ اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ أَوْ عَظْمٍ؛ فَإِنَّ مُحَمَّداً بَرِيءٌ مِنْهُ».

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: «مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً مِنْ إِنْسَانٍ؛ كَانَ كَعَدْلِ رَقَبَةٍ»[(٣)]. رَوَاهُ وَكِيعٌ، وَلَهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: «كَانُوا يَكْرَهُونَ التَّمَائِمَ كُلَّهَا مِنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِ الْقُرْآنِ»[(٤)].

الشَّرْح

عقد المؤلف رحمه الله هذا الباب لذكر ما جاء فيها من الأحكام الشرعية، وأنّ الرقى فيها تفصيل، والتمائم جاء النهي فيها على كل

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الطب، باب «ما جاء في كراهية التعليق»، رقم (٢٠٧٢)، وأحمد (٤/ ٣١٠).
قال الترمذي: «وحديث عبد الله بن عكيم إنما نعرفه من حديث محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، وعبد الله بن عكيم لم يسمع من النبي ﷺ، وكان في زمن النبي ﷺ يقول: «كتب إلينا رسول الله ﷺ»».
وأخرجه النسائي، كتاب تحريم الدم، باب «الحكم في السحرة»، (٧/ ١١٢) من طريق الحسن عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً.
قال المنذري: «رواه النسائي من رواية الحسن عن أبي هريرة، ولم يسمع منه عند الجمهور». «الترغيب والترهيب» (٤/ ١٦).

(٢) أخرجه أحمد (١٦٩٩٥)، وأبو داود، كتاب الطهارة، باب «ما ينهى عنه أن يستنجى به»، رقم (٣٦)، والنسائي، كتاب الزينة، باب «عقد اللحية»، (٨/ ١٣٥)، أحمد (٤/ ١٠٨). قال النووي: «رواه أبو داود والنسائي بإسناد جيد». «المجموع» (٢/ ١٣٥). وكذا قال ابن الملقن في «البدر المنير» (٢/ ٣٥٢).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٥/ ٣٦) بلفظ: «من قطع تميمة عن إنسان كان كعدل رقبة».

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٥/ ٣٦).

حال.

○ **قَوْلُهُ**: «فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي بَشِيرٍ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَأَرْسَلَ رَسُولاً: «أَنْ لَا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِنْ وَتَرٍ أَوْ قِلَادَةٌ إِلَّا قُطِعَتْ».

«قلادةٌ من وتر أو قلادةٌ» هذا شكٌّ من الراوي، يعني: هل قال: «**قلادة من وتر**»؟ أو قال: «**قلادة**» فقط؟ وهذا من تحرِّي الراوي، وفي هذا دليل على وجوب قطع الأوتار.

والوتر: هو وتر القوس، حبل يكون في القوس، كانوا إذا بلي يعلِّقونه في رقبة الدواب من أجل دفع العين، وهذا لا يجوز؛ لأنه من التميمة، يجب قطعه، لأنهم يضعونها دفعاً للعين، واتقاءً لها، فهذا هو الذي يجب قطعه، أما إذا وضع القلادة للزينة أو لأجل أن تُقاد بها الدابة فهذا لا بأس به.

وفيه: إنكار المنكر باليد مع القُدْرة؛ لأن النبي ﷺ أنكر المنكر، وأمر بقطع هذه الأوتار.

○ **قَوْلُهُ**: «وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ». رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَأَبُو دَاودَ».

هذا الحديث فيه بيان حُكْم الرقى والتمائم والتولة وأنها من الشرك.

والرقى: هي التي تسمى العزائم - كما قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ. خصّ منها الدليلُ ما خلا من الشرك، كما جاء في الحديث الآخر قال: «**اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ، لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ**»(١).

(١) تقدم تخريجه.

فالرقية مشروعة بشروط ثلاثة:

الشرط الأول: أن تكون من القرآن، أو تكون بأدعية نبوية شرعية، أو أدعية مباحة لا محظور فيها.

الشرط الثاني: أن تكون بلسان عربي، ولا تكون بِلُغاتٍ أجنبية أو تمتمة، لاحتمال أن تكون رقية بأسماء الشياطين أو بأسماء الجن.

الشرط الثالث: أن يعتقد الراقي والمرقي أنها سبب، والشافي هو الله.

فبعض السحرة والمشعوذين يتمتم، يقرأ بعضهم بالفاتحة، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١]. يجهر بها، ثم يتمتم ينادي الشياطين؛ لأجل ذرّ الرماد في العيون، ولأجل أن يطمئن إليه مَن يأتيه؛ لذا لا بد من توافر الشروط الثلاثة السابقة لضمان شرعية الرقية.

وأما قوله ﷺ: «**لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ، أَوْ حُمَةٍ**»(١).

فمعناه: لا رقية أشفى وأولى من الرقية في العين والحمة. وليس المراد أن الرقية لا تكون إلا في العين، وإلا فكل مرض يُرقى فيه.

وأما التمائم: فهي التي تُعلّق على الأطفال أو غيرهم؛ لأجل اتقاء العين أو دفعها، فإذا علّق في رقبته أو رقبة دابة لأجل دفع العين فهي من التميمة، كذلك إن وضعت في اليد أو في الأصبع أو في الرجل، أو في الغرفة أو في السيارة، من أجل أن يتقي بها العين أو يدفعها أو لاتقاء المصائب أو دفعها، كل هذا يكون من التميمة، حتى المصحف لو وضعه أو علقه لهذا السبب كان من التمائم.

---

(١) تقدم تخريجه.

لكن التميمة إذا كانت من القرآن فهي مختلف فيها؛ إذ رخّص فيه بعض السلف، وروي هذا عن عبد الله بن عمرو بن العاص(١)، وهو ظاهر ما روي عن عائشة ﵂(٢)، وبعضهم لم يرخِّص فيه منهم: عبد الله بن مسعود ﵁، كما ذكر المصنف ﵀ في آخر الباب أنه قال: **عَنْ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: «كَانُوا يَكْرَهُونَ التَّمَائِمَ كُلَّهَا مِنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِ الْقُرْآنِ»** يعني: أصحاب ابن مسعود ﵁.

والصواب المنع - كما عليه الجمهور - سواء كان المعلّق من القرآن أو من غير القرآن؛ لعموم الأدلة وعدم تخصيصها، وهو قوله ﷺ: «**إن الرقى والتمائم والتولة شرك**».

فلو أُبيح تعليق التميمة من القرآن، صار وسيلة لتعليق ما لا يجوز، ولأن التميمة من القرآن قد يمتهنها صاحبها، أو يدخل بها بيت الخلاء وفيها كلام الله، وهذا ممنوع، فلهذه الأسباب الثلاثة نرى أن الصواب هو المنع من التمائم من القرآن، كما منعت بقية التمائم من غير القرآن.

○ **قَوْلُهُ: «و"التِّوَلَةُ": هِيَ شَيْءٌ يَصْنَعُونَهُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يُحَبِّبُ الْمَرْأَةَ إِلَى زَوْجِهَا وَالرَّجُلَ إِلَى امْرَأَتِهِ».**

هذا نوع من السحر، يسمى الصَّرف والعطف، وقد يكون هذا السحر سبباً للتفريق أو للجمع.

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الطب، باب «كيف الرقي؟»، رقم (٣٨٩٣)، والترمذي، كتاب الدعوات، باب (٩٤)، رقم (٣٥٢٨)، وأحمد (٢/ ١٨١). قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب». وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد متصل في موضع الخلاف». «المستدرك» (١/ ٧٣٣).

(٢) انظر: «الزهد» لابن السري رقم (٤٤٧)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٤٢)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه».

○ **قَوْلُهُ**: «وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُكَيْمٍ مَرْفُوعاً: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئاً؛ وُكِّلَ إِلَيْهِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَالتِّرْمِذِيُّ».

من تعلّق بالْحُرُوز، أو علّق شعر الذئب، أو جلداً أو غيره، وُكِلَ إليه، ومن تعلّق بالله كفاه الله ما أهمّه من أمور دينه ودنياه.

○ **قَوْلُهُ**: «وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ رُوَيْفِعٍ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا رُوَيْفِعُ، لَعَلَّ الْحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ».

وقد طالت الحياة برويفع رضي الله عنه، فهذا فيه عَلَم من أعلام النبوّة، ومن دلائل نبوّته عليه الصلاة والسلام.

○ **قَوْلُهُ**: «فَأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّهُ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ، أَوْ تَقَلَّدَ وَتَراً، أَوْ اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ، أَوْ عَظْمٍ فَإِنَّ مُحَمَّداً مِنْهُ بَرِيءٌ».

من عقد لحيته: قيل: هو الذي يعقدها كما تفعل الأعاجم، يعقدون لِحاهُم ويفْتِلونها تكبُّراً وعُجْباً بالنفس، ويفْتلها على طريقتهم. وقيل: هو الذي يجعلها تتعقّد وتتجعّد على طريقة أهل التّأنُّث والخناثة، فالنبي ﷺ يتوعد من يعقد لحيته على هذا الوجه، وهو من كبائر الذنوب، بأن قال ﷺ: «فَإِنَّ مُحَمَّداً مِنْهُ بَرِيءٌ».

«أَوْ تَقَلَّدَ وَتَراً» وهذا هو الشاهد من الحديث، أي: قلَّد الدابة وتراً؛ لأجل دفع العين، «فَإِنَّ مُحَمَّداً مِنْهُ بَرِيءٌ»، يدل على أنه من كبائر الذنوب.

«أَوْ اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ، أَوْ عَظْمٍ» الرجيع: يعني بعرة الدواب، والعظم معروف، «فَإِنَّ مُحَمَّداً مِنْهُ بَرِيءٌ»؛ وذلك لأن الاستنجاء برجيع الدابة أو بالعظم منهي عنه:

فإنه أولاً: لَزِج لا ينظّف ولا يطهِّر؛ فعَن أبي هُرَيْرَة أن

النبي ﷺ نهى أن يستنجى بروث أو عظم، وقال: «**إنهما لا تطهران**»[(١)].

وثانياً: يفسده على إخواننا من الجن؛ لأنه ثبت في الحديث: أنّ الجن جاءوا إلى النبي ﷺ وقرأ عليهم القرآن، ووعظهم وذكَّرهم، وسألوه الزاد فقال: «**لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ، أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحماً، وَكُلُّ بَعْرَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ**». فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَلَا تَسْتَنْجُوا بِهِمَا، فَإِنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ**»[(٢)]. فعظم الذبيحة التي ذُكر اسم الله عليها، إذا رُمي عاد إليه لحمه الذي أُكل، فيكون طعاماً للجن، والبعرة يعود إليها حبُّها الذي أُكل فتكون علفاً لدوابهم، فإذا استنجى بالعظم، أو استجمر بالعظم أو بالرجيع الدابة أفسدها على الجن؛ فتكون العلة في النهي إفسادها على إخواننا من الجن.

وفيه: دليل على أن هذه الأمور التي ذُكرت في الحديث من كبائر الذنوب؛ لقوله ﷺ: «فَإِنَّ مُحَمَّداً مِنْهُ بَرِيءٌ». فإن النبي ﷺ إذا قال: «**ليس منّا**». أو قال: «**أن محمداً بريء منه**». يدل على أنه من كبائر الذنوب، فيكون من عقد لحيته تكبراً أو تأنُّثاً فعل كبيرة، وإذا تقلّد وتراً لأجل دفع العين فقد فعل كبيرة من كبائر الذنوب، وإذا استنجى برجيع دابة أو عظم فقد فعل كبيرة.

---

(١) أخرجه الدارقطني في «السنن» (١/ ٥٦)، وقال: «إسناده صحيح».
قال ابن الملقن: «في سنده سلمة بن رجاء، قال يحيى بن معين: «ليس بشيء»، وقال ابن عدي: «حدَّث بأحاديث لا يتابع عليها»، وذكره ابن حبان في «الثقات»، وروى له البخاري في «الصحيح»، وفيه أيضًا يعقوب بن كاسب، قيل: روى عنه البخاري في «صحيحه» أيضًا ولم ينسبه، وقال يحيى والنسائي: «ليس بشيء»، ووثقه يحيى مرة». «البدر المنير» (٢/ ٣٥٠)

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، رقم (٤٥٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

○ **قَوْلُهُ**: «وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: «مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً مِنْ إِنْسَانٍ؛ كَانَ كَعَدْلِ رَقَبَةٍ» رَوَاهُ وَكِيعٌ».

سعيد بن جبير تابعي، لكن مثل هذا لا يقال بالرأي، فهو محمول على أنه أخذه من الصحابة، والصحابة أخذوه من النبي ﷺ فله حكم الرفع؛ لأن مثل هذا لا يقوله الإنسان برأيه، والمعنى: أنّ من قطع تميمة، كان كمن أعتق رقبة، يعني: في الأجر والثواب، بل إنه أفضل ممن أعتق رقبة؛ لأن من حرر رقبة أعتقه من الرق، ومن قطع تميمة أعتقه من الشرك.

○ **قَوْلُهُ**: «وَلَهُ - يعني: وكيع - عَنْ إِبْرَاهِيمَ - هو إبراهيم بن يزيد النَّخَعِيُّ - قَالَ: «كَانُوا يَكْرَهُونَ التَّمَائِمَ كُلَّهَا مِنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِ الْقُرْآنِ» يعني: أصحاب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ مثل: مسروق، والربيع بن خثيم، وعَبيدة بن عمرو السلماني.

كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن: يعني التميمة التي تعلّق، سواء كانت من القرآن أو من غير القرآن، والمراد من الكراهة هنا التحريم، فالكراهة إذا أطلقت عند السلف تعني: التحريم.

فِيهِ مَسَائِلُ:

- **الأولىٰ: تفسيرُ الرُّقىٰ وتفسيرُ التَّمائِمِ.**

كما سبق أن الرقى هي التي تسمى العزائم، والتمائم ما يعلّق من الحروز وغيرها.

- **الثانيةُ: تفسيرُ التِّولةِ.**

وأنها شيء يصنعونه يحبب المرأة إلى زوجها، والرجل إلى امرأته، وأنها ضرب من السحر.

- الثالثةُ: أَنَّ هذهِ الثلاثَ كُلَّهَا مِنَ الشِّركِ مِنْ غيرِ استِثناءٍ.

وهذه الثلاثة هي الرقى والتمائم والتولة، أما الرقى فقد جاء فيها الاستثناء، بإجازة ما خلا من الشرك.

- الرابعةُ: أنَّ الرُّقيةَ بالكلامِ الحقِّ مِنَ العَيْنِ والحُمَةِ ليسَ مِنْ ذلكَ.

وحتى الرقية من غير العين والحمة، لكن من العين والحمة أحسن شيء.

- الخامسةُ: أَنَّ التَّميمةَ إذا كانت مِنَ القُرآنِ فقد اختَلَفَ العُلماءُ هَلْ هي مِنْ ذَلِكَ أَمْ لا؟

والصواب أنها من ذلك، كما نقل إبراهيم النخعي عن أصحاب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

- السادسةُ: أنَّ تعليقَ الأَوتارِ على الدَّوابِّ عَنْ العينِ مِنْ ذلك.

كما في حديث أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه.

- السابعةُ: الوعيدُ الشَّديدُ على مَنْ تَعَلَّقَ وَتَراً.

وذلك بأن تبرّأ منه النبي صلى الله عليه وسلم.

- الثامنةُ: فضلُ ثَوابِ مَن قَطَعَ تَمِيمَةً مِنْ إنسانٍ.

وأنها كعتق رقبة، كما قال سعيد بن جبير رحمه الله.

- التاسعةُ: كلامُ إبراهيمَ لا يُخالِفُ ما تَقدَّمَ مِن الاختِلافِ؛ لأَنَّ مُرَادَهُ أَصحابُ عبدِ اللهِ.

فإبراهيم النخعي لم ينكر خلاف المتقدمين، وإنما نفى اختلاف أصحاب ابن مسعود رضي الله عنه.

بَابُ مَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَرٍ أَوْ حَجَرٍ وَنَحْوِهِمَا

وَقَوْلِ اَللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النّجم: ١٩].

عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اَللَّيْثِيِّ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اَللَّهِ ﷺ إِلَى حُنَيْنٍ وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا، وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اَللَّهِ، اِجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ. فَقَالَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ: «اَللَّهُ أَكْبَرُ! إِنَّهَا اَلسُّنَنُ! قُلْتُمْ - وَاَلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ - كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨]، لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»(١). رَوَاهُ اَلتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ.

الشَّرْح

ترك المصنف رحمه الله في هذه الترجمة الحكم على من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما؛ ليتأمل طالب العلم، وينظر في الأدلة التي ذكرها، ثم يحكم على من تبرّك بشجر. والتقدير: باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما فقد أشرك شركاً أكبر؛ لأن التبرّك طلب البركة واعتقادها ورجاؤها في الشجر والحجر.

فمن تبرك بشجرٍ أو حجرٍ أو نحوهما كبقعةٍ، أو غارٍ، أو عينٍ، أو بنيةٍ، أو غيرها، يطلب البركة منها ويرجوها ويؤمّلها، ويعتقد أن

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الفتن، باب «ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم»، رقم (٢١٨٠)، وأحمد (٥/ ٢١٨). وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

فيها البركة لذاتها، فقد أشرك شركاً أكبر.

○ وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللَّتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [النّجم: ١٩-٢٠].

هذه هي الأصنام الثلاثة الكبيرة المعروفة في الجاهلية: اللات، والعزى، ومناة، وإلا فقد كثرت الأصنام والأوثان قبيل بعثة النبي ﷺ، حتى صار في كل قبيلة وثنٌ أو صنمٌ يعبد، بل كان لكل أهل بيت، وحتى الواحد منهم إذا خرج في البرّية أو غيرها أخذ صنماً يعبده.

فاللّاتّ أصله بتشديد التاء - فخُفّفت وجُعل اسْماً للصَّنَم - فهو صنم لأهل الطائف، أصله صخرة بيضاء كان رجل يلتّ عليها السَّويق للحاج، فلما مات غَلَوْ في قبره، وعبدوه من دون الله[(١)]، والصخرة التي عنده عُبدت، ثم لـمَّا فُتحت الطائف أمر النبي ﷺ بهدم اللات، ولما جاء أهل الطائف طلبوا من النبي ﷺ أن يُبْقِي لهم اللات ثلاث سنين؛ لأن قلوبهم متعلّقة بها، فقالوا: إننا لا نستطيع هدمها في الحال، ولو استطعنا أن نغلب الرجال فلن نستطيع أن نغلب النساء والأطفال. فأبى النبي ﷺ، فقالوا: ولو سَنَة. فأبى، فقالوا: ولو شهراً. فأبى، قالوا: ولو ثلاثة أيام. فأبى النبي ﷺ أن يتركها[(٢)].

قال العلّامة ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد[(٣)]: «لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوما واحدا، فإنها شعائر الكفر والشرك، وهي أعظم المنكرات، فلا

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٤٥٥).
(٢) انظر: «تاريخ الطبري» (٢/ ١٨٠).
(٣) زاد المعاد: (٣/ ٤٤٣).

يجوز الإقرار عليها مع القدرة البتة».

وأمّا العُزّى: فكانت شجرة بوادي نَخْلة بين مكة والطائف تعبدها قريش ومن والاهم، ثلاث سَمُرات، ولَمَّا فَتحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَكَّةَ بَعَثَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ الَى نَخْلَةَ، وَكَانَتْ بِهَا الْعُزَّى، فَأَتَاهَا خَالِدٌ، وَكَانَتْ عَلَى ثَلَاثِ سَمُرَاتٍ، فَقَطَعَ السَّمُرَاتِ، وَهَدَمَ الْبَيْتَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهَا، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «**ارْجِعْ فَإِنَّكَ لَمْ تَصْنَعْ شَيْئاً**». فَرَجَعَ خَالِدٌ، فَلَمَّا بَصُرَتْ بِهِ السَّدَنَةُ وَهُمْ حَجَبَتُهَا، امْعَنُوا فِي الْجَبَلِ، وَهُمْ يَقُولُونَ: يَا عُزَّى، يَا عُزَّى، فَأَتَاهَا خَالِدٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ عُرْيَانَة، نَاشِرَةٌ شَعْرَهَا، تَحْتَفِنُ التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهَا، فَعَمَّمَهَا بِالسَّيْفِ حَتَّى قَتَلَهَا، ثُمَّ رَجَعَ الَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «**تِلْكَ الْعُزَّى**»[(١)].

وأمّا مناة: فكانت بِنية بالمشلل للأوس والخزرج وغسان، يعبدها أهل المدينة ومن حولهم[(٢)].

قال الله تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [النّجم: ٢١] يعني: إنهم ينسبون الإناث إلى الله، ويجعلون الملائكة بنات الله، وينسبون لأنفسهم الذكور، أي: يختارون لأنفسهم أحسن الصنفين؛ ولذا قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ [النّجم: ٢٢] لو كانت هذه القسمة مع مخلوق لكانت جائرة، فكيف مع الله؟! والله تعالى منزّه، ليس له شريك ولا صاحبة ولا ولد.

ثم بيّن الله أن هذه أسماء سمّوها وعبدوها من دون الله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النّجم: ٢٣].

---

(١) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٦/ ٤٧٤).

(٢) انظر: «صحيح البخاري»، كتاب التفسير، باب ««ومناة الثالثة الأخرى»»، رقم (٤٨٦١)، ومسلم، كتاب الحج، رقم (١٢٧٧).

○ **قَوْلُهُ**: «عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اَللَّيْثِيِّ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اَللَّهِ ﷺ إِلَى حُنَيْنٍ وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ».

هذا اعتذار من أبي واقد الليثي رضي الله عنه عن طلبهم أن يجعل لهم النبي ﷺ سدرة يعكفون عندها؛ لأنهم أسلموا حديثاً، وكان ذلك بعد فتح مكة، ثم أخذهم النبي ﷺ في غزوة حنين، وكانت بعد فتح مكة؛ ولهذا قال: ونحن حدثاء عهد بكفر. أي: مضى علينا وقت قليل.

○ **قَوْلُهُ**: «وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا، وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ».

يعني: مرّوا بسدرة للمشركين، والسدرة نوع من الشجر.

يعكفون عندها: يعني يتبركون بها، ويعلقون بها أسلحتهم، ويطيلون المُكْث عندها.

○ **قَوْلُهُ**: «فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اَللَّهِ، اِجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ».

فقد كان المشركون يسمّونها ذات أنواط، فأنكر عليهم النبي ﷺ فقال: «**الله أكبر، إنها السنن**». هذا الحديث فيه مشروعية التكبير عند التعجب، والقصد منه تعظيم الله ﷻ وتسبيحه وتنزيهه عن هذه المقارنة، فإن شأن الله أعظم من ذلك، خلافاً لما يفعله بعض الناس من التصفيق إذا تعجّب، فالتصفيق من خصال الكفرة، ومن خصال النساء، قال النبي ﷺ: «**إِنَّمَا التَّصْفِيقُ لِلنِّسَاءِ**»[1]. فإذا حصل للإمام شيء فإن الرجال يُسَبِّحون، وإذا كان معه نساء يصلّين تصفِّق المرأة

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب السهو، باب «الإشارة في الصلاة»، رقم (١٢٣٤)، ومسلم، كتاب الصلاة، رقم (٤٢١) من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه

ببطن كفّها على ظاهرها، وقال في صفات المشركين: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥]. يتعبدون بالتصدية أي: التصفيق، والمكاء: الصفير، فلا ينبغي للمسلم أن يصفّق، بل إذا أعجبه شيء يقول: الله أكبر، أو سبحان الله، كما قال النبي ﷺ: «الله أكبر، إنها السنن» يعني: الطُّرق، يعني: سلكتم مسلك من قبلكم من الكفار.

○ **قَوْلُهُ**: «قُلْتُمْ - وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ - كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨] لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ.

فيه: أن العبرة بالمعاني والحقائق والمقاصد، لا بالألفاظ؛ لأن مقالة بني إسرائيل تختلف عن مقالة أصحاب النبي ﷺ في اللفظ، لكن المعنى واحد، فإن بني إسرائيل طلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهاً.

«﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾».

اجعل لنا إلهاً نعبده كما لهم آلهة، وأصحاب النبي ﷺ قالوا: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. ومن المعلوم أن التبرُّك ورجاء البركة واعتقادها شرك، فهؤلاء طلبوا الشرك، وهؤلاء طلبوا الشرك، فالمقالة معناها متفّق، وإن كان اللفظ مختلفاً، ولكن أصحاب النبي ﷺ لم يقعوا في الشرك لأمرين:

الأمر الأول: أنهم لم يفعلوا الشرك.

الأمر الثاني: أنهم طلبوه؛ لأنهم حديثو عهد بإسلام، فلمّا زجرهم النبي ﷺ انزجروا ولم يفعلوه، فدلّ على أن من طلب أن يفعل الشرك ولم يفعله بسبب جهله أنه لا يكفر، وإنما زجرهم

النبي ﷺ، ودلّ الحديث على أنهم لو تبركوا بالشجرة لأشركوا، وهذا هو الشاهد للترجمة: باب من تبرّك بشجر أو حجر ونحوهما.

فِيهِ مَسَائِلُ:

◄ الأولىٰ: تفسيرُ آيةِ النَّجمِ.

وهي قوله ﷻ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ [النّجم: ١٩-٢٠] وأنها في الأصنام الثلاثة.

◄ الثانيةُ: معرِفةُ صورةِ الأَمرِ الذي طَلَبُوا.

أي الصحابة، وذلك حين قالوا: اجعل لنا ذات أنواط. شجرة ينوطون بها، بسبب جهلهم ظنوا أن هذا فيه خير.

◄ الثالثةُ: كونُهُمْ لم يَفْعَلُوا.

لم يفعلوا الشرك؛ لأن النبي ﷺ زجرهم فانزجروا، ففيه دليل على أن الإنسان إذا طلب أن يفعل الشرك على جهل ثم زُجر ولم يفعل، فلا يكون مشركاً.

◄ الرابعةُ: كونُهُمْ قَصَدُوا التَّقَرُّبَ إِلىٰ اللهِ بذلك؛ لِظَنِّهِم أنَّهُ يُحِبُّهُ.

ظنوا أنه محبوب لله، وإلا لما طلبوه.

◄ الخامسةُ: أنَّهُم إِذَا جَهِلُوا هذا فغَيْرُهُمْ أَوْلىٰ بالجَهلِ.

فإذا كان بعض الصحابة ﷺ يجهلون، فقد يجهل مَن بعدَهم، من باب أولى بالجهل.

◄ السادسةُ: أنَّ لهُمْ مِن الحَسَناتِ والوَعْدِ بالمَغْفِرَةِ ما ليسَ لِغَيْرِهِمْ.

يعني: الصحابة ﷺ أجمعين، ومع ذلك وقعوا في هذا.

السابعةُ: أنَّ النبيَّ ﷺ لَمْ يَعْذُرْهُمْ، بل رَدَّ عليهم بقولِهِ: «اللهُ أَكْبَرُ إِنَّها السَّنَنُ، لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ» فغلَّظَ الأمرَ بهذهِ الثَّلاثِ.

بهذه الثلاث: الله أكبر، إنها السنن، لتتبعن سنن من كان قبلكم؛ لأن الأمر يتعلق بالشرك، فلهذا غلّظ فيه النبي ﷺ.

الثامنةُ: أنَّ الأمرَ الكبيرَ ـ وهو المقصودُ ـ: أنَّهُ أَخبَرَ أنَّ طِلْبَتَهُمْ كَطِلْبَةِ بَنِي إِسرائيلَ.

لأنه اعتبر الحقائق والمعاني.

التاسعةُ: أَنَّ نَفْيَ هذا مِنْ مَعْنَىٰ «لا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ» مَعَ دِقَّتِهِ وَخَفَائِهِ علىٰ أُولَئِكَ.

من معنى لا إله إلا الله: لا معبود بحق إلا الله، فطلبهم شجرة يناط بها ويتبرك بها ينافي كلمة التوحيد.

العاشرةُ: أَنَّهُ حَلَفَ علىٰ الفُتْيَا، وهوَ لا يَحْلِفُ إِلَّا لِمَصْلَحَةٍ.

في قوله ﷺ: «قلتم والذي نفسي بيده».

الحاديةَ عَشْرَةَ: أَنَّ الشِّركَ فيهِ أَكْبَرُ وأَصْغَرُ؛ لأَنَّهم لَمْ يَرْتَدُّوا بهذا.

هذه المسألة وَهْمٌ من المصنف رحمه الله، والصواب أن الذي طلبوا شركاً أكبر وليس شركاً أصغر؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾ [الأعراف: ١٣٨]».

الثانيةَ عَشْرَةَ: قولُهُمْ: «وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ» فيهِ أَنَّ غيرَهُمْ لا يَجْهَلُهُ ذلك.

أي: أن قدماء وكبار الصحابة لا يجهلون هذا، لكن الذين

خرجوا من مكة وأسلموا قريباً هم الذين جهلوا هذا، أما الصحابة الذين أتوا مع النبي ﷺ من المدينة - أي: المهاجرون والأنصار - فلا يجهلون هذا.

- **الثالِثَةَ عَشْرَةَ: ذِكرُ التَّكبيرِ عندَ التَّعجُّبِ، خِلافاً لِمَنْ كَرِهَهُ.**

في قوله ﷺ: «الله أكبر، إنها السنن».

- **الرابِعَةَ عَشْرَةَ: سدُّ الذَّرائعِ.**

فالنبي ﷺ سدّ الذريعة، وهذا من الوسائل والذرائع.

- **الخامِسَةَ عَشْرَةَ: النَّهيُ عن التَّشَبُّهِ بأهْلِ الجاهِليَّةِ.**

كما في قوله ﷺ: «قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى».

- **السادِسَةَ عَشْرَةَ: الغَضَبُ عند التَّعليمِ.**

ولهذا غضب ﷺ وقال: «الله أكبر».

- **السابعةَ عَشْرَةَ: القاعِدَةُ الكُلِّيَّةُ، لِقَوْلِهِ: «إِنَّها السُّنَنُ».**

يعني: الطُرق؛ طُرق من كان قبلكم.

- **الثامِنةَ عَشْرَةَ: أَنَّ هذا مِن أَعلامِ النُّبُوَّةِ؛ لِكَوْنِهِ وَقَعَ كَمَا أَخْبَرَ.**
- **التاسِعَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ كُلَّ ما ذَمَّ اللهُ بِهِ اليهودَ والنَّصارىٰ في القُرآنِ أَنَّهُ لَنا.**
- **العِشْرُونَ: أَنَّهُ مُتَقَرِّرٌ عِندَهُمْ أنَّ العِباداتِ مَبْناها علىٰ الأَمْرِ، فصارَ فيهِ التَّنبيهُ علىٰ مَسائِلِ القَبْرِ، أَمَّا «مَنْ رَبُّكَ»؟ فواضِحٌ، وأَمَّا «مَنْ نَبِيُّكَ»؟ فَمِنْ إخبارِهِ بأَنْباءِ الغَيبِ، وأَمَّا «ما دِينُكَ»؟ فَمِنْ قولِهِم: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾ [الأعراف: ١٣٨] إلى آخِرِهِ.**

فالعبادات أوامر ونواهٍ.

الحادِيةُ والعِشْرُونَ: أنَّ سُنَّةَ أهلِ الكتابِ مَذْمُومةٌ كَسُنَّةِ المُشركين.

ولهذا قال ﷺ: «قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى».

الثانيةُ والعِشْرونَ: أنَّ المُنْتَقِلَ مِنَ الباطِلِ الذي اعتَادَهُ قَلْبُهُ لا يُؤْمَنُ أَنْ يكونَ في قَلْبِهِ بَقِيَّةٌ مِن تِلكَ العادَةِ لِقَوْلِهِمْ: «وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ».

فخفيت عليهم هذه المسألة؛ لأنهم اعتادوا على الشرك، كونهم ينوطون ويعلقون بها أسلحتهم.

بَابُ مَا جَاءَ فِي اَلذَّبْحِ لِغَيْرِ اَللَّهِ

وَقَوْلِ اَللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

وَقَوْلِه: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ (٢)﴾ [الكوثر: ٢].

عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: حَدَّثَنِي رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: «لَعَنَ اَللَّهُ منْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اَللَّهِ، لَعَنَ اَللَّهُ مِنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، لَعَنَ اَللَّهُ مَنْ آوَى مُحْدِثاً، لَعَنَ اَللَّهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ اَلْأَرْضِ»(١)، رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ: أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ ﷺ قَالَ: «دَخَلَ اَلْجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ، وَدَخَلَ اَلنَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ». قَالُوا: وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اَللَّه؟ قَالَ: «مَرَّ رَجُلَانِ عَلَى قَوْمٍ لَهُمْ صَنَمٌ لَا يَجُوزُهُ أَحَدٌ حَتَّى يُقَرِّبَ لَهُ شَيْئاً، فَقَالُوا لِأَحَدِهِمَا: قَرِّبْ. قَالَ: لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ أُقَرِّبُهُ. قَالُوا لَهُ: قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَاباً، فَقَرَّبَ ذُبَاباً، فَخَلَّوا سَبِيلَهُ، فَدَخَلَ اَلنَّارَ، وَقَالُوا لِلْآخَرِ: قَرِّبْ. فَقَالَ: مَا كُنْتُ لِأُقَرِّبَ لِأَحَدٍ شَيْئاً دُونَ اَللَّهِ عز وجل، فَضَرَبُوا عُنُقَهُ؛ فَدَخَلَ اَلْجَنَّةَ». رَوَاهُ أَحْمَدُ(٢).

الشَّرْح

عقد المؤلف رحمه الله هذا الباب لذكر ما جاء في الذبح لغير الله، أي: ما جاء فيه من الوعيد، وأنه شركٌ أكبر يُخرج من الملّة.

○ **قَوْلُهُ**: «وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي

(١) أخرجه مسلم، كتاب الأضاحي، رقم (١٩٧٨).

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» رقم (٨٤) موقوفًا على سلمان الفارسي رضي الله عنه.

لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى﴾ يعني: الصلاة المعروفة التي يتعبّد بها المسلم لله.

﴿وَنُسُكِى﴾ يعني: وذبحي.

﴿وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى﴾ ما أحيا عليه، وما أموت عليه.

﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ يعني: أتقرّب به إلى الله، خالصاً لله ﷻ.

فصلاتي أتقرّب بها إلى الله خالصة، ونسكي، وما أعمله، وما أموت عليه من الأعمال الصالحة، كلّه لله رب العالمين.

﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ ليس له شريك سبحانه وتعالى، فهذه الأعمال أتقرّب بها إلى الله ﷻ، ولا أشرك به غيره.

﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ أي: أمرني الله تعالى بذلك، وهو الإخلاص.

﴿أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ وهو ﷺ أول المسلمين من هذه الأمة، فإذا كان الله تعالى قد أمر نبيه بذلك، فالأمة مأمورة بذلك أيضاً؛ فهي تتقرب إلى الله بالصلاة، والذكاة، والمحيا والممات، كل هذا لله رب العالمين، لا شريك له.

○ **قَوْلُهُ**: «وقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾﴾ [الكوثر: ٢]».

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾: أمر، يعني: تقرّب إلى الله بالصلاة، ﴿وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾﴾ أي: تقرّب إلى الله بالنحر والذبح، فجمع بين العبادتين.

والشاهد في الآيتين: أن الله تعالى قد جمع بين الصلاة، والنسك، فالصلاة عبادة بدنية، والنسك عبادة مالية يتقرّب بها المسلم إلى الله، فهو يتقرّب إلى الله بإراقة الدم، وبالتصدّق باللحم.

○ **قَوْلُهُ**: «عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: حَدَّثَنِي رَسُولُ ٱللَّهِ ﷺ بِأَرْبَعِ

كَلِمَاتٍ: «لَعَنَ اَللَّهُ منْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اَللَّهِ».

بدأ بالذبح لغير الله؛ لأن الشرك أعظمها، واللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله، وهذا لعن على العموم، كما في قوله ﷺ: «**لعن الله السارق يسرق البيضة**[١] **فتقطع يده**»[٢]. وقول **جابر** رضي الله عنه: «**لعن رسول الله ﷺ آكل الربا**»[٣].

فاللعن على المعاصي على العموم لا بأس به.

مسألة: **واختلفوا في المعيّن من مرتكبي الكبائر هل يجوز لعنه أم لا؟ على أربعة أقوال:**

القول الأول: جواز لعن العاصي المعين مطلقاً. وقال بهذا ابن الجوزي، وطائفة من أصحاب الإمام أحمد[٤]، والسراج البلقيني[٥].

واحتج من أجاز ذلك بالأحاديث التي ورد فيها لعن النبي ﷺ من فعل بعض المحرمات: مثل حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه، فأبت أن تجيء فبات**

---

(١) قال ابن قتيبة: على ظاهر ما نَزَل عليه، يعني: بَيضة الدَّجَاجة ونَحْوها، ثم أعلمه الله تعالى بَعْدُ أن القَطع لا يكون إلا في رُبع دينار فما فَوْقه. وأنكر تأويلها بالخُوذة؛ لأنّ هذا ليس موضع تكثير لما يأخذه السارق، إنما هو موضع تَقْليل، فإنه لا يقال: قَبَّح الله فلانا عَرَّض نفسه للضَّرب في عِقْد جوْهر. إنما يقال: لعنه الله تَعرّض لقَطْع يده في خَلَق رَثٍّ، أو كُبَّة شَعَر. انظر النهاية: (بيض) ١/ ١٧٢.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الحدود، باب «لعن السارق إذا لم يسم»، رقم (٦٧٨٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب المساقاة، رقم (١٥٩٨).

(٤) منهاج السنة النبوية (٤/ ٥٦٩).

(٥) فتح الباري (١٢/ ٨٦).

غضبان، لعنتها الملائكة حتى تصبح»[1].

فقالوا: إن النبي ﷺ لعن، وذكر كذلك لعن الملائكة لمن يستحق اللعن، فيستوي فيه المعين وغيره[2].

القول الثاني: أنه يجوز لعن المعين ما لم يقم عليه الحد، فإذا أقيم عليه الحد فلا يجوز لعنه. وقال بهذا ابن بطال[3].

وقد استدل من قال ذلك بحديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إن رجلاً كان على عهد النبي ﷺ اسمه عبد الله، وكان يلقب حماراً، وكان يضحك رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب، فأتي به يوماً فأمر به فجلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به. فقال النبي ﷺ: «**لَا تَلْعَنُوهُ، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**»[4] فقالوا: إن النهي هنا إنما كان بعد إقامة الحد لا قبله.

القول الثالث: أن لعن المعين لا يجوز إلا أن يكون مجاهراً[5].

القول الرابع: أن لعن المعين لا يجوز مطلقاً. وبه قال إبراهيم النخعي؛ فقد روى الخلال بسنده عنه أنه سئل: ما ترى في لعن الحجاج وضَرْبهِ من الناس؟ فقال: ألا تسمع إلى قوله تعالى: ﴿أَلَا

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب «إذا قال أحدكم: «آمين» والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه»، رقم (٣٢٣٧)، ومسلم، كتاب النكاح، رقم (١٤٣٦).

(٢) انظر: فتح الباري (١٢/ ٧٦).

(٣) فتح الباري (١٢/ ٨١)، وتفسير القرطبي (٢/ ١٨٩).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الحدود، باب «ما يكره من لعن شارب الخمر، وإنه ليس بخارج من الملة»، رقم (٦٧٨٠).

(٥) فتح الباري (١٢/ ٧٨)..

لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ [هُود: ١٨]. ورواه عن الإمام أحمد؛ لما قال له ابنه صالح: الرجل يذكر عنده الحجاج أو غيره فيلعنه؟ قال: لا يعجبني لو عَبَّرَ، فقال: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾[1]. وعزاه شيخ الإسلام إلى أبي بكر عبدالعزيز من أصحاب الإمام أحمد[2].

والأقرب هو المنع؛ لأن المعين لا يُعلم حاله، فهو تحت المشيئة، فقد يتوب، وقد تمحى عنه هذه السيئة، فلا يُدعى عليه باللعن، ورخص بعض أهل العلم في ذلك إذا اشتد أذاه للمسلمين، أو كان فيه تنفير من بدعته إذا كان مبتدعاً.

«لَعَنَ اَللَّهُ منْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اَللَّهِ» يعني: تقرّب لغير الله بالذبح، والمقصود: التقرب بالنية، فإذا نوى بهذه الذبيحة التقرب لغير الله كانت ذبيحة مشرك، ولو قال: بسم الله. لأن العبرة بالنية، وإذا أُهلّ به لغير الله وقال مثلاً: بسم المسيح. صار أشد؛ لأنه بهذا يكون قد اجتمع فيه أمران:

الأول: أنه قصد به غير الله.

الثاني: أنه أُهلّ به لغير الله. فاجتمع فيها نوعان من الشرك.

«لَعَنَ اَللَّهُ مِنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ» يعني: من سبّ والديه، وجاء في حديث آخر أنه ﷺ قال: «**إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه**». قيل: يا رسول الله، وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «**يَسُبُّ الرجل أبا الرجل، فيسب أباه، ويسب أمه، فيسب أمه**»[3]. يعني:

(١) السنة للخلال (٣/ ٥٢٣).

(٢) منهاج السنة النبوية (٤/ ٥٦٩)، وينظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٢٩).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب «لا يسب الرجل والديه»، رقم (٥٩٧٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (٩٠) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

أنه تسبب في شتم والديه؛ وذلك بأن يشتم آباء الناس وأمهاتهم، لأنه إذا شتم آباء الناس شتموا أباه، وإذا شتم أمهاتهم شتموا أمه، فإذا كان هذا في المتسبب فكيف بمن يباشر اللعن؟! لا شك أن إثمه أعظم وأعظم.

«لَعَنَ اَللَّهُ مَنْ آوَى مُحْدِثاً» رُوي: (محدِثاً) بكسر الدال، وروي: (محدَثاً) بفتحها، والمحدِثُ هو الجاني الذي فعل جريمة، والذي يؤويه هو الذي يمنعه حتى لا يُقام عليه الحدّ. أما بالفتح فهو الأمر المُبْتَدَع نَفْسه، ويكون معنى الإِيواء فيه الرّضا به، والصبر عليه[1].

«لَعَنَ اَللَّهُ مَنْ غَيَّرِ مَنَارَ اَلْأَرْضِ» قيل: المراد بتغيير منار الأرض المراسيم التي بينك وبين جارك في الأرض، تُقدّمها وتؤخرها، فتأخذ جزءاً من أرض جارك.

وقيل: المراد بها المعالم التي تكون في طرق المسافرين، يعني: العلامات التي يُهْتدى بها في السفر في الصحراء أو نحوها، فيُغيّرها حتى يضلّ الناس، فيكون ملعوناً.

واللعن يشمل هذا وهذا، فلا يجوز للإنسان أن يغيّر الحدود التي بينه وبين جاره، ولا يجوز له أن يغيّر معالم الأرض التي يهتدي الناس بها.

الحديث الثاني: «وَعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ: أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ ﷺ قَالَ: «دَخَلَ اَلْجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ، وَدَخَلَ اَلنَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ». قَالُوا: وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اَللَّه؟ قَالَ: «مَرَّ رَجُلَانِ عَلَى قَوْمٍ لَهُمْ صَنَمٌ لَا يَجُوزُهُ أَحَدٌ حَتَّى يُقَرِّبَ لَهُ شَيْئاً، فَقَالُوا لِأَحَدِهِمَا: قَرِّبْ. قَالَ: لَيْسَ

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث: (حدث) ص (٣٥١).

عِنْدِي شَيْءٌ أُقَرِّبُهُ. قَالُوا لَهُ: قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَاباً، فَقَرَّبَ ذُبَاباً، فَخَلَّوا سَبِيلَهُ، فَدَخَلَ اَلنَّارَ، وَقَالُوا لِلْآخَرِ: قَرِّبْ. فَقَالَ: مَا كُنْتُ لِأُقَرِّبَ لِأَحَدٍ شَيْئاً دُونَ اَللَّهِ ﷻ، فَضَرَبُوا عُنُقَهُ؛ فَدَخَلَ اَلْجَنَّةَ». رَوَاهُ أَحْمَدُ».

طارق بن شهاب من صغار الصحابة[١]، وهو لم يسمع من النبي ﷺ، والظاهر أنه روى هذا الحديث عن أحد الصحابة، فيكون من مرسل الصحابي، وهذا مما اختُلف في حجيّته، والصواب: أن مرسل الصحابي حجة؛ لأنه سمعه من أحد الصحابة، والصحابة كلهم عدول.

وفي الحديث: تعظيم شأن الشرك ولو كان قليلاً، وأنه إذا كان الذي يقرّب الذباب يدخل النار، فكيف بمن يقرِّب أعظم من ذلك؟ كيف بمن يستسهل الإبل والبقر والغنم، ثم يذبحها للأصنام ولأصحاب القبور، لا شك أن فعله أعظم إثماً.

وفيه دليل على أن المُعوّلَ عليه عمل القلب؛ لأن المشركين رضوا منه بهذا؛ لدلالة موافقته على رضا قلبه، فتقريب الذباب يدل على هذا.

قيل: إن هذا الرجل الذي قُتل كان مُكْرهاً، ولم تكن لهم سعة بالأخذ برخصة الإكراه، وكان هذا في شرع من قبلنا، وهذا من

---

(١) طارق بن شهاب بن عبد شمس بن سلمة البجلي الأحمسي، أبو عبد الله: من الغزاة. أدرك النبي ﷺ، وغزا في خلافة أبي بكر وعمر، ثلاثاً وثلاثين غزوة. وسكن الكوفة، وتوفي رضي الله عنه سنة (٨٣) هـ. قال أبو داود: رأى النبي ﷺ ولم يسمع منه، وله في صحيحي البخاري ومسلم وبقية الكتب الستة أحاديث عن الصحابة، منها ما هو عن الخلفاء الأربعة. انظر: الجمع بين رجال الصحيحين ٢٣٤، والإصابة، ت ٤٢١٩، و تهذيب التهذيب (٥/٤/٥)، وتقريب التهذيب (ص٤٦١/٣٠١٧).

الآصار والأغلال التي كانت عليهم، وأما في شرعنا فالمُكْره معفو عنه، قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النّحل: ١٠٦].

وقال بعضهم: إن الإكراه إنما يكون في الفعل، ولا يكون في القول. والصواب: أنه عامّ في القول، وفي الفعل، ولكن ظاهر الحديث أنه ما وصل إلى حدّ الإكراه؛ لأنه لم يمانع، بل لمّا ألحوا عليه في ذلك قرَّب، بعد أن قال: ليس عندي شيء أقرِّبه. فاعتذر بذلك، فقالوا: قرِّب ولو ذباباً، فوافق، فقرّب ذباباً، فوضح من هذا أنه لم يصل إلى حد الإكراه.

وعلى كل حال فمن فعل الشيء مختاراً ذاكراً عالماً، فإنه يكون مشركاً - والعياذ بالله - أما المكره، إذا وصل إلى حد الإكراه فكما قال الله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [النّحل: ١٠٦].

فِيهِ مَسَائِلُ:

◄ **الأولى: تفسيرُ:** ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى﴾ [الأنعَام: ١٦٢].

وهذا سبق في تفسير آية سورة الأنعام: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعَام: ١٦٢] ونسكي يعني: وذبحي، ومحياي: ما أحيا عليه وما أموت عليه، لله رب العالمين، والمعنى: أن الإنسان المؤمن يجب أن يكون عمله، وما يحيا عليه، وما يموت عليه من الأعمال لله؛ لأنه مخلوق لعبادة الله وتوحيده.

◄ **الثانيةُ: تفسيرُ:** ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾﴾ [الكَوثَر: ٢].

قرن الله تعالى الذبح بالصلاة؛ لأنهما عبادتان، فكما أن

الصلاة لغير الله شرك، فكذلك الذبح لغير الله شرك.

الثالثةُ: البداءَةُ بِلَعْنَةِ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ.

في الحديث السابق: «**لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والديه، لعن الله من آوى محدثاً، لعن الله من غيّر منار الأرض**». بدأ فيه بلعن من ذبح لغير الله؛ لأنه مشرك، واللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله(١).

الرابعةُ: لَعْنُ مَنْ لَعَنَ والِدَيْهِ، وَمِنْهُ: أَنْ تَلْعَنَ والِدَيِ الرَّجُلِ فَيَلْعَنَ والِدَيْكَ.

فيه خطورة لعن الوالدين؛ بأن يكون سبباً في ذلك، وصورة ذلك: أن يلعن والدي شخص، فيلعن الشخص الثاني والديه، وهذا عند الله عظيم، وأعظم منه أن يباشر الرجل لعن والديه بنفسه.

الخامسةُ: لَعْنُ مَنْ آوىٰ مُحْدِثاً: وهوَ الرَّجُلُ يُحْدِثُ شيئاً يَجِبُ فيهِ حَقُّ اللهِ، فَيَلْتَجِئُ إلىٰ مَنْ يُجِيرُهُ مِنْ ذَلِكَ.

وذلك مثل: إنسان شرب الخمر، أو قتل نفساً بغير حق، فاستلزم ذلك إقامة الحد عليه، فيلتجئ إلى شخص ليمنعه من ذلك، فإذا آواه، ومنعه من إقامة الحد عليه، كان ملعونا.

السادسةُ: لَعْنُ مَن غيَّرَ مَنارَ الأَرضِ، وهي المَراسِيمُ الَّتي تُفَرِّقُ بينَ حَقِّكَ مِنَ الأَرضِ وحَقِّ جارِكَ، فتُغَيِّرُهَا بتَقْدِيمٍ أو تَأْخِيرٍ.

هذا على أحد التفسيرين، وقيل: المراد بمنار الأرض: الأعلام

---

(١) تفسير البحر المحيط (٣/ ٥٣٨)، وتفسير البغوي (٢/ ٤٥٤)، وتفسير الكشاف (٢/ ٥٤١).

التي في الطرق يهتدي بها المسافرون - كما بينا سابقًا - ولا مانع من شمول الحديث لهذا وذاك، فمن أخذ من حقّ جاره فهو ملعون، ومن غيّر الأعلام التي يهتدي بها المسافرون في الطرقات فهو ملعون أيضاً؛ لأنه يتسبب في إضلال الناس.

◄ السابعةُ: الفَرْقُ بينَ لَعْنِ المُعَيَّنِ، ولَعْنِ أَهْلِ المَعْصِيةِ علىٰ سَبيلِ العُمُومِ.

اللعن على سبيل العموم لا بأس به، تقول: لعن الله السارق. فالسارق جنس، يعني: جنس السارق، كما في الحديث: «**لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده، ويسرق الحبل فتقطع يده**». فهذا وأمثاله على العموم، أما لعن فلان بن فلان بعينه وهو السارق فغير جائز، وإن كان بعض أهل العلم قد أجازه، إلا أن الصواب أنه لا يجوز لعنه؛ لأن الشخص قد يتوب، وقد يُعفى عنه، وقد يكون جاهلاً بالحكم.

ويدل على هذا: قصّة الرجل الذي جاء به النبي ﷺ وقد شرب الخمر مراراً، فكان يؤتى به فيُجلد، وكان يلقب حماراً، وكان يُضحِك النبي ﷺ، فأُتي به مرّة وقد شرب الخمر فجُلد، فقال رجل من القوم: اللهمّ العنه، ما أكثر ما يؤتى به. فقال النبي ﷺ: «**لا تلعنوه، فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله**»[(١)]. ولأن إقامة الحد كافٍ لتطهيره، فلا يجمع عليه إقامة حدٍّ، وسبّ ولعن.

◄ الثامنةُ: هذهِ القِصَّةُ العَظِيمةُ، وهي قِصَّةُ الذُّبابِ.

فيها العظة والعبرة، فهذا الرجل دخل النار بسبب ذباب، مع

---

(١) تقدم تخريجه.

أنه لم يقصد ذلك ابتداءً، فإذا كان الذي قدّم شيئاً - ولو كان قليلاً في نفس الإنسان - يكون بذلك مشركاً، فكيف يكون حال من ابتدأ بالشرك، أو من قدّم شيئاً أعظم من الذباب؟ لا شك أن ذلك أعظم، نسأل الله السلامة والعافية.

◆ التاسعةُ: كَوْنُهُ دَخَلَ النارَ بِسَبَبِ ذلك الذُّبابِ الّذي لَمْ يَقْصِدْهُ، بَلْ فَعَلَهُ تَخَلُّصاً مِنْ شَرِّهِمْ.

يعني: لم يقصده ابتداء، وإن قصده آخراً، فمن كان على هذا ابتداءً فقد أوغل في الشرك.

◆ العاشرةُ: معرفةُ قَدْرِ الشِّركِ في قُلوبِ المؤمِنينَ؛ كيفَ صَبَرَ ذلك على القَتْلِ، ولم يُوافِقْهُمْ على طِلْبَتِهِمْ، مع كَوْنِهِمْ لَمْ يَطْلُبُوا إلَّا العملَ الظَّاهِرَ.

فهذا الرجل صبر على القتل ولم يوافقهم، وإن كان عملاً ظاهراً، وهذا قد يكون في شرع من قبلنا، لكن من لم يستطع أن يصبر على مثل ذلك الآن، كان له عذر في هذا، وفي محنة الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ وجدناه قد صبر في فتنة القول بخلق القرآن، صبر على الحبس والجلد، لكن من أقرانه من العلماء من لم يصبر، فتأوَّلوا وهم معذورون، فالإمام أحمد أراد أن يحمل نفسه على الأمر الأشد، وخشي أن يفتتن الناس، وأن يقتدي به بعض الناس فيظنوا أنه حق؛ فلذلك صبر رَحِمَهُ اللهُ.

◆ الحاديةَ عَشْرَةَ: أَنَّ الّذي دَخَلَ النارَ مُسْلِمٌ؛ لأنَّهُ لو كان كافراً لَمْ يَقُلْ: «دَخَلَ النَّارَ فِي ذُبابٍ».

لأن هذا سبب دخوله النار أنه قرّب ذباباً، ولو كان مشركاً قبل، فيكون سبب دخوله النار: الشرك السابق واللاحق.

الثانيةَ عَشْرَةَ: فِيهِ شاهِدٌ للحَدِيثِ الصَّحيحِ: «الجَنَّةُ أَقْرَبُ إلىٰ أَحَدِكُمْ مِنْ شِراكِ نَعْلِهِ، والنارُ مِثْلُ ذَلِكَ»[١].

شِراك النعل هو السير الذي على ظهر القدم، فهذا قُتل فدخل الجنة في لحظة، والكافر أيضاً قد يموت على الكفر، فتنقل روحه إلى النار في الحال، فالنار قريبة، والجنَّة كذلك، وما بين الإنسان وبين هذا إلا الموت.

الثالثةَ عَشْرَةَ: معرِفَةُ أَنَّ عَمَلَ القَلْبِ هو المَقْصُودُ الأَعظَمُ حتىٰ عِندَ عَبَدَةِ الأَوْثانِ.

ولذلك أرادوا أن يستدّلوا على موافقة قلبه بتقريب الذباب، فلما قرَّب الذباب رضوا عنه، فالمقصود الموافقة على الشرك بالقلب، وما يفعلونه بالجوارح دليل على ما في القلب.

---

(١) تقدم تخريجه.

بَابٌ لَا يُذْبَحُ لِلَّهِ بِمَكَانٍ يُذْبَحُ فِيهِ لِغَيْرِ اَللَّهِ

وَقَوْلِ اَللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ [التوبة: ١٠٨].

وَعَنْ ثَابِتِ بْنِ اَلضَّحَّاكِ رضي الله عنه قَالَ: نَذَرَ رَجُلٌ أَنْ يَنْحَرَ إِبِلاً بِبَوَانَةَ، فَسَأَلَ اَلنَّبِيَّ ﷺ؟ فَقَالَ: «هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ اَلْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟» قَالُوا: لَا. قَالَ: «فَهَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟» قَالُوا: لَا. فَقَالَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ: «أَوْفِ بِنَذْرِكَ؛ فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اَللَّهِ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ اِبْنُ آدَمَ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١)، وَإِسْنَادُهُ عَلَى شَرْطِهِمَا(٢).

الشَّرْح

فيه دلالة قاطعة على أنه لا يجوز الذبح في المكان الذي يذبح فيه لغير الله تعالى؛ حتى لا يشارك المشركين الذين يذبحون لغير الله، ولو في المكان، وإن كان قصده وجه الله، وإنما عليه أن يذبح

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الأيمان والنذور، باب «ما يؤمر به من الوفاء بالنذر»، رقم (٣٣١٣).

(٢) قال النووي: «رواه أبو داود بإسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم». «المجموع» (٨/ ٣٥٨).

وقال ابن تيمية: «أصل هذا الحديث في «الصحيحين»، وهذا الإسناد على شرط الصحيحين، وإسناده كلهم ثقات مشاهير، وهو متصل بلا عنعنة». «اقتضاء الصراط» (ص ١٨٦).

وقال ابن الملقن: «هذا الحديث صحيح، رواه أبو داود بإسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم، كل رجاله أئمة مجمع على عدالتهم من رواية ثابت بين الضحاك». «البدر المنير» (٩/ ٥١٨).

في مكان آخر.

○ وَقَوْلِ اَللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ [التوبة: ١٠٨]».

أول الآية قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة: ١٠٧-١٠٨].

هذه الآية نزلت في مسجد الضرار، وكان جماعة من المنافقين قد بنَوا مسجداً قُرْب مسجد النبي ﷺ، وقصدوا بذلك أن يكون معقلاً وتجمعاً للمنافقين، كما بيَّن الله تبارك وتعالى، فهم يتجمّعون فيه لا للصلاة، بل للكيد للإسلام والمسلمين، ويتّصلون بالكفرة في الخارج، كما فعل أبو عامر الراهب، وهو الذي سماه رسول الله ﷺ الفاسق، وقد كان قال لرسول الله ﷺ يوم أحد: لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم. فلم يزل يفعل ذلك إلى يوم حنين، فلما انهزمت هوازن يومئذ ولَّى هارباً إلى الشام، وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح؛ فإني ذاهب إلى قيصر وآت بجنود، ومخرج محمداً وأصحابه من المدينة. فبنوا مسجداً إلى جنب مسجد قباء، وقالوا للنبي ﷺ: بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة، والليلة المطيرة والشاتية، ونحن نحب أن تصلي لنا فيه، وتدعو لنا بالبركة. فقال ﷺ: «**إني على جناح سفر، وحال شغل، وإذا قدمنا إن شاء الله تعالى صلينا فيه**». فلما قفل ﷺ من غزوة تَبُوك سألوه إتيان المسجد، فنزلت عليه، فدعا بمالك بن الدُّخْشُم، ومَعْن بن عدِي، وعامر بن السكن، ووحشي، فقال لهم: «**انطلقوا إلى هذا**

المسجد الظالم أهله، فاهدموه وأحرقوه». ففعلوا، وأمر أن يُتَّخذ مكانه كناسة تلقى فيها الجِيَف والقمامة، وهلك أبو عامر الفاسق بالشام بقِنَّسْرين(١).

فمن مقاصدهم الخبيثة المضارة بالمسلمين، والتفريق بينهم.

ولهذا قال العلماء: إذا بُني مسجد بالقرب من مسجد قائم، وليس له حاجة، فإنه يُزال، فإن حُكْمه حكم مسجد الضرار، فلا ينبغي أن يكون المسجد قريباً بحيث يفرّق بين جماعة المسلمين، بل ينبغي أن يكون أهل الحي مجتمعين في مكان واحدٍ.

﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾ هو مسجد قباء، وقيل: هو مسجد النبي ﷺ، ولا منافاة بين القولين؛ فإنه إذا كان مسجد قباء قد أُسِّس على التقوى، فمسجد النبي ﷺ من باب أولى قد أسس على التقوى أيضاً، فكل من المسجدين قد أُسس على التقوى.

ووجه الدلالة من الآية للترجمة: أنه إذا كان النبي ﷺ قد نُهي عن الإقامة في مسجد الضرار، وأن يصلي لله، فكذلك لا يجوز للإنسان أن يذبح لله بمكان يُذبح فيه لغير الله.

فالرسول عليه الصلاة والسلام قد نهاه الله تبارك وتعالى عن أن يقوم في هذا المسجد، ومعلوم أنه عليه الصلاة والسلام إذا صلّى في هذا المسجد فإنما يصلي لله، لكن لما كان المكان قد أُعِدَّ للكفر والضرار، نهاه الله عن الصلاة فيه، فكذلك لا يجوز للإنسان أن يذبح لله بمكان يُذْبح فيه لغير الله، وإن كان هو يذبح لله، إلا أنه لما

(١) انظر تفسير ابن جرير (١١/ ٢٣)، وتفسير القرطبي (٨/ ٢٥٣)، وزاد المسير لابن الجوزي (٣/ ٤٩٩).

كان هذا المكان يذبح فيه لغير الله كان غير جائز للإنسان أن يشارك المشركين فيذبح في هذا المكان.

وهو قياس صحيح واضح؛ فالمسلم ليس له أن يصلي في مكان يُصلَّى فيه لغير الله، أو يُفعل فيه الشرك، وإن كان يصلي لله، فكذلك لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله.

ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ حديث ثابت بن الضحاك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رجلاً نذر أن ينحر إبلاً ببوانة - بُوَانَة: بضم الباء وبالفتح، والمقدم الضم كثُمامة -، فسأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هل يفي بنذره؟ فقال له عليه الصلاة والسلام: «**هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟**». **قال: لا. قال:** «**هل كان فيها عيد من أعيادهم؟**». قال: لا. قال: «**فأوفِ بنذرك؛ فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم**». رواه أبو داود وإسناده على شرطهما.

أي: على شرط الشيخين البخاري ومسلم، ويُفْهم من هذا الحديث أنه إذا كان في المكان وَثَن من أوثان الجاهلية، فليس للإنسان أن يذبح فيه ولو كان يذبح لله؛ لأنه يشارك الكفرة في ذبحهم لأوثانهم.

وكذلك إذا كان فيه عيد من أعيادهم، فليس له أن يشاركهم.

وفيه دليل على أن من نذر أن يذبح بمكان، وليس فيه شيء من شعائر المشركين، فإنه يجب عليه أن يَفِيَ بنذره، أما إذا كان فيه محظور فليس له أن يفي بنذره؛ لأنه حينئذ يكون نذر معصية، ونذر المعصية لا يفي به المسلم، ولكن هل يكفِّر كفّارة يمين؟

اختلف العلماء في ذلك على قولين: قال بعضهم: إذا نذَر نذْر معصيةٍ كأن ينذر الإنسان أن يصوم يوم العيد، فليس له أن يصوم؛ لأن

هناك نهياً عن صوم يوم العيد، ففي هذه الحالة لا يصوم، ولكن عليه أن يكفِّر كفَّارة يمين، ودليل هذا القول حديث: «**لا نذر في معصية الله، وكفّارته كفَّارة يمين**»(١). واعتمده الإمام أحمد ﵀ وإسحاق وجماعة من أهل العلم، وجاء في حديث آخر ليس فيه أن يكفِّر، فحُمل أحدهما على الآخر، وبعضهم ضعَّف الحديث، وعلى هذا فلا تجب الكفارة، لكن القول بالكفارة معتمد عند المحققين من أهل

---

(١) هذا الحديث مروي من طرق:
أحدها - وهو أمثلها -: من طريق عمران بن الحصين ﵄ مرفوعًا، رواه كذلك النسائي (٧/ ٢٧) من طريق محمد بن الزبير الحنظلي، عن أبيه، عن عمران بن حصين مرفوعًا. قال البيهقي: «وهذا منقطع؛ الزبير الحنظلي لم يسمع من عمران». وقال: «ومحمد بن الزبير الحنظلي ليس بالقوي». «السنن الكبرى» (١٠/ ٧٠).
الطريق الثاني: من حديث الزهري، عن أبي سلمة، عن عائشة مرفوعًا، أخرجه أبو داود (٣٢٩٠)، والترمذي (١٥٢٤)، والنسائي (٧/ ٢٦)، وابن ماجه (٢١٢٥)، وأحمد (٦/ ٢٤٧)، قال الترمذي: «هذا حديث لا يصح؛ لأن الزهري لم يسمع هذا الحديث من أبي سلمة»، ورواه أبو داود (٣٢٩٢)، والترمذي (١٥٢٥)، والنسائي (٧/ ٢٧) من طريق محمد بن أبي عتيق وموسى بن عقبة، كلاهما عن ابن شهاب، عن سليمان بن أرقم، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن عائشة مرفوعًا. قال النسائي: «سليمان بن أرقم متروك الحديث، والله أعلم، خالفه غير واحد من أصحاب يحيى بن أبي كثير في هذا الحديث»، قال ابن الملقن: «فتلخص ضعف هذه الطرق بالانقطاع وغيره، وممن ضعفه من المتأخرين النووي» «البدر المنير» (٩/ ٥٠٠).
الطريق الثالث: من حديث كريب عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «ومن نذر نذرًا في معصية فكفارته كفارة يمين»، رواه أبو داود (٣٣٢٢)، وابن ماجه (٢١٢٨)، وفيه طول، وذكر أبو داود أنه روي موقوفًا على ابن عباس، قال ابن الملقن: «وإسناده جيد، وأعله ابن حزم في «محلاه» فقال: «فيه طلحة بن يحيى، وهو حديث ضعيف جدًّا». «البدر المنير» (٩/ ٥٠٠).

العلم، فعلى هذا إذا نذر إنسان أن يبيع سيارة فُلان - مثلاً - وهو لا يملكها، فليس له ذلك، وهذه معصية، وعليه كفارة يمين، فإذا نذر شيئاً فيه معصية لله، فليس له أن يفي بما نذر، وإنما عليه التوبة، وتلزمه الكفارة، ويدل له حديث: «**من نذر أن يطيع الله فليُطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يَعْصِه**»(١). ومناسبته للترجمة واضحة.

فِيهِ مَسَائِلُ:

◂ **الأولىٰ: تفسرُ قَوْلِهِ: ﴿لَا نَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾** [التّوبَة: ١٠٨].

نهى الله نبيَّه ﷺ أن يقوم في المكان الذي يُعصى الله فيه، وهو نهي عن الإقامة مع التأبيد، وكذلك لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله، والقياس صحيح.

◂ **الثانيةُ: أنَّ المَعْصِيَةَ قد تُؤَثِّرُ في الأَرضِ، وكذلِكَ الطَّاعَةُ.**

نهى عن الصلاة بمسجد الضرار، وكذلك الرجل الذي نذر أن يذبح في مكان كان فيه وثن من أوثان الجاهلية أو عيد من أعيادهم.

◂ **الثالِثَةُ: ردُّ المَسألَةِ المُشْكِلَةِ إلىٰ المَسْأَلَةِ البيِّنَةِ؛ لِيَزُولَ الإشكالُ.**

المسألة المشكلة: الذبح بمكان يُذبح فيه لغير الله، والمسألة البيِّنة: ﴿لَا نَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ [التّوبَة: ١٠٨].

◂ **الرابعةُ: استِفْصَالُ المُفْتِي إِذَا احتَاجَ إِلىٰ ذَلِكَ.**

والدليل على هذا استفصال النبي ﷺ في قوله: «**هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية؟ هل كان فيه عيد من أعيادهم؟**».

(١) يأتي في حديث الباب التالي.

❖ الخامِسَةُ: أنَّ تَخْصِيصَ البُقْعَةِ بالنَّذْرِ لا بَأْسَ بهِ إِذَا خَلَا مِنَ المَوانِعِ.

يعني: ولو كانت مباحة، أما تخصيص بقعة كالحرم فإنها معظمة في الشريعة، وتفضيلها في النصوص.

❖ السادِسةُ: المَنْعُ مِنهُ إِذَا كانَ فِيهِ وَثنٌ مِنْ أَوْثانِ الجَاهِلِيَّةِ وَلَوْ بَعْدَ زَوَالِهِ.

❖ السابعةُ: المنعُ منهُ إِذَا كانَ فِيهِ عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ وَلَوْ بعدَ زَوَالِهِ.

ودليل هاتين المسألتين في قوله: «هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية؟ هل كان فيه عيد من أعيادهم؟» يعني: سابقاً.

❖ الثامِنةُ: أنّهُ لا يَجُوزُ الوَفَاءُ بِمَا نَذَرَ في تِلْكَ البُقْعَةِ؛ لأنَّهُ نَذْرُ مَعْصِيَةٍ.

❖ التاسِعَةُ: الحَذَرُ مِن مُشابَهَةِ المُشْرِكِينَ في أَعْيادِهِمْ ولَوْ لَمْ يَقْصِدْهُ.

في قوله: «هل كان فيه عيد من أعيادهم؟»، فمشابهتهم من باب أولى.

❖ العاشِرَةُ: لا نذرَ في مَعْصِيَةٍ.

❖ الحاديةَ عَشْرَةَ: لا نذرَ لابنِ آدمَ فِيما لا يَمْلِكُ.

بَابٌ مِنْ اَلشِّرْكِ اَلنَّذْرُ لِغَيْرِ اَللَّهِ

وَقَوْلُ اَللَّهِ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ [الإنسان: ٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

وَفِي اَلصَّحِيحِ(١) عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اَللَّهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اَللَّهَ فَلَا يَعْصِهِ».

الشرح

هذا الباب عقده رحمه الله لبيان أن النذر لغير الله شرك أكبر يخرج من الملة.

وقد ذكر قبل هذا الباب: باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله، وهذا من وسائل الشرك، وقبله باب ما جاء في الذبح لغير الله، فذكر أن الذبح لغير الله شرك أكبر، ثم ذكر الوسيلة إلى الشرك الأكبر، ثم بعد ذلك انتقل إلى بيان نوعٍ آخر من أنواع الشرك، فكما أن الذبح لغير الله شرك أكبر مخرج من الملة، فكذلك النذر، وذكر بينهما ما هو وسيلة إلى الأول، وهو الذبح لله في المكان الذي يذبح فيه لغير الله.

○ **قوله**: «بَابٌ مِنَ اَلشِّرْكِ اَلنَّذْرُ لِغَيْرِ اَللَّهِ» يعني: الشرك الأكبر الذي يخرج من الملة.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب «النذر في الطاعة»، رقم (٦٦٩٦).

○ «**وَقَوْلُ اَللَّهِ تَعَالَى**: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ٧﴾ [الإنسان: ٧]».

في سياق هذه الآية ذكر الله تعالى أعمال الأبرارِ الطيبةَ التي أثنى عليهم بها، ثم ذكر أنهم: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾. فمدحهم وأثنى عليهم بوفائهم بالنذر، فدلّ على أن النذر طاعة، والطاعة إذا صرفت لغير الله كانت شركاً أكبر، وهذا هو وجه الدلالة.

○ **وَقَوْلُهُ**: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ﴾ [البَقَرَة: ٢٧٠]» بيّن ﷻ أن ما أنفقنا من النفقات، أو نذرنا من النذور، متقرّبين بها إليه، فإنه يعلمه وسيجازي عليه، وهذا يدلّ على أنه طاعة، وصرف الطاعة لغير الله شرك.

○ **قوله**: «**وَفِي اَلصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ** رضي الله عنها **أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ** ﷺ **قَالَ**: «**مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اَللَّهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اَللَّهَ فَلَا يَعْصِهِ**»».

فقسّم النذر إلى نذر طاعة، ونذر معصية، وهذا يدلّ على أنه عبادة، فظهر بهذه النصوص أن النذر لغير الله يكون شركاً أكبر.

والنذر نوعان: نوع غير معلّق، ونوع معلّق.

فغير المعلّق كأن يقول: لله عليّ أن أصلّي عشرين ركعة في يوم كذا. أو أن يقول: لله عليّ أن أصوم كذا، بدون تعليق.

والنوع الثاني أن يكون معلّقاً على شرط؛ كأن يقول: إن شفى الله مريضي. أو إن نجح ولدي في الامتحان، فلله عليّ أن أصلّي عشرين ركعة. فإذا حصل ما علّق عليه النذر بأن شُفي مريضه، أو نجح ولده في الامتحان وجب عليه أن يفي بالنذر، فإذا صرف هذا النذر لغير الله كان شركاً، كأن ينذر مثلاً لصاحب القبر، أو أن يقول: إن شفي مريضه ليذبحنّ خروفا على روح السيد الفلاني، أو

الولي الفلاني، أو إن نجح ولده في الامتحان سيذبح للبدوي - كما يفعل بعض المشركين - أو أن ينذر للرسول ﷺ أو للقمر، أو للشمس، فهذا كله شرك أكبر.

وإذا نذَر نذْر معصية فلا يجوز له الوفاء، كما في هذا الحديث، ومن نذر أن يطيع الله وجب عليه أن يفي بهذا النذر، سواء كانت الطاعة واجبة، أو مستحبة، فإذا نذر مثلاً أن يبرّ والديه وجب عليه أن يفي بنذره لأمرين:

الأول: لأن الله أمره ببر الوالدين.

الثاني: وفاءً بالنذر.

وإذا نذر أن يشرب الدخان - مثلاً - فليس له أن يفي به، بل عليه أن يتوب إلى الله.

وهل يكفِّر كفّارة يمين؟

الجواب: فيه خلاف - كما في الباب السابق - فيمن حلف أن يفعل شيئاً محرّماً، هل يكفِّر كفّارة يمين أم لا؟

والنذر تجري فيه الأحكام الخمسة: فقد يكون واجباً، أو مستحباً، أو مباحاً، أو محرّماً، أو مكروهاً.

فالنذر الواجب والمستحب يجب الوفاء به، فإذا نذر أن يصلي لله الضحى في اليوم الفلاني وجب ذلك عليه، عملاً بالحديث السابق.

أما إن نذر معصية؛ كأن يشرب الدخان، أو يشرب الخمر، أو يعقّ والديه، أو ما شابه ذلك، فإنه ليس له أن يفي بذلك، بل عليه التوبة، وعليه مع ذلك أن يكفّر كفّارة يمين.

وإذا نذر نذراً مكروهاً؛ كأن ينذر أن يطلّق زوجته - مثلاً -

فالمستحب له أن يكفّر كفارة يمين، ولا يفي بهذا النذر المكروه؛ لأن الطلاق مكروه.

وإذا نذر نذراً مباحاً؛ كأن ينذر أن يأكل، أو يشرب، أو يركب السيارة في اليوم الفلاني، أو يذهب إلى النزهة، فإنه يخيّر بين فعله، وبين كفّارة اليمين، فإن شاء فعل، وإن شاء كفّر كفّارة يمين.

ومثله: نذر اللجاج والغضب، فإنه يخيّر بين فعله، وبين كفّارة يمين.

أما إذا نذر شيئاً فيه قطيعة أو إيجاد إحَن أو بغضاء، فليس له أن يفي به، بل عليه أن يكفّر كفّارة يمين، ولا تكون اليمين مانعة له.

فإذا حلف ألا يزور جاره، أو ألا يأكل طعامه -مثلاً- فإنه يكفّر كفّارة يمين، ولا يفي بهذا النذر، واليمين لا تمنع من فعل الخير؛ ولهذا قال: النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين، فأرى غيرها خيراً منها، إلا كفَّرت عن يميني، وأتيت الذى هو خير**»[١] وفي لفظ: «**إلا فعلت الذي هو خير وتحللتها**»[٢] وله أن يفعل ما حلف عليه قبل التكفير، وله أن يكفّر،

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب «قول الله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المائدة: ٨٩]»، رقم (٦٦٢٣)، ومسلم، كتاب الأيمان، رقم (١٦٤٩) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب فرض الخمس، باب «ومن الدليل على أن الخمس لنوائب المسلمين»، رقم (٣١٣٣)، ومسلم، كتاب الأيمان، رقم (١٦٤٩) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

جاء هذا وهذا، سواء قدّم الكفّارة، أو أخّرها.

والمقصود: أن بعض الناس يقول: عليّ يمين ألا أزور فلاناً، أو ألا أكلِّم فلاناً، أو ألا أدخل بيت فلان، أو ألا آكل طعامه. فيكون عليه بذلك يمين أو نذر، واليمين لا تمنع من فعل الخير، فعليه في مثل ذلك أن يكفِّر عن يمينه، فيكلّمه، ويأكل طعامه، ويأتي إليه.

فِيهِ مَسَائِلُ:

- الأولىٰ: وُجُوبُ الوَفاءِ بالنَّذرِ.

إذا كان في طاعة.

- الثانيةُ: إذا ثَبَتَ كَوْنُهُ عِبادَةً للهِ فَصَرْفُهُ إلىٰ غَيْرِه شِرْكٌ.

فمدح الله الموفين بالنذر، فالنذر طاعة، وصرف الطاعة لغير الله شرك.

- الثالثةُ: أَنّ نَذْرَ المَعْصِيَةِ لا يَجُوزُ الوَفاءُ بِهِ.

وذلك بالإجماع.

بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ الاِسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللهِ

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن: ٦].

وَعَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمٍ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْحَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ»، رَوَاهُ مُسْلِمٌ[١].

الشَّرح

ذكر قبل ذلك في الأبواب السابقة الشرك الأكبر، والوسيلة إليه، ثم عاد إلى بيان أنواع من الشرك الأكبر؛ فالنذر لغير الله شرك أكبر، وكذلك الاستعاذة بغير الله باب من الشرك.

والعَوذ: الالتجاء، كالعياذ - بالكسر - والمَعاذ، والمَعاذة، والتَّعَوُّذ، والاستعاذة، عاذ به يعوذ: لاذ به، ولجأ إليه واعتصم. وعُذت بفلان واستعَذْت به، أي: لجأت إليه[٢]. فإذا استعاذ شخص بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، فهو شرك أكبر.

وقد يكون أمراً عاديّاً؛ كما إذا استعاذ بحيٍّ حاضرٍ قادرٍ؛ كأن يقول: يا فلان، أعذني من شرّ أولادك، أو أعذني من شرّ زوجتك إذا كانت سليطة اللسان، أو أعذني من شرّ خادمك. فيعيذه؛ لأنه حي قادر، فهذا من الأمور العادية لا يكون شركاً.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاسغفار، رقم (٢٧٠٨).

(٢) انظر تاج العروس: (عوذ).

لكن إذا استعاذ بميت أو بغائب، أو بحي حاضر فيما لا يقدر عليه إلا الله، صار من الشرك الأكبر، كمن استعاذ بحي حاضر لينصره على عدوّه، أو يشفيه من مرضه، أو يعيذه من النار إذا صار ميتاً، كل هذا من الشرك الأكبر؛ لأن هذا لا يقدر عليه إلا الله.

○ **وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى**: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ [الجن: ٦].

هذه الآية ساقها الله تعالى في ذمّ المشركين في الجاهلية؛ لأنهم كانوا يعوذون برجال من الجنّ، والمراد به ما كانوا يفعلونه من قول الرجل إذا نزل بوادٍ: أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه. فيبيت في جواره حتى يصبح، وكان أولَ من تعوذ بالجن قومٌ من أهل اليمن، ثم من بني حنيفة، ثم فشا ذلك في العرب، فلما جاء الإسلام عاذوا بالله وتركوهم(١).

﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ يعني: فزاد الجنُّ الإنس لمّا استعاذوا بهم، ﴿رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ يعني: خوفاً وذُعراً حتى يستمرّوا في الاستعاذة بهم. والواو في: ﴿فَزَادُوهُمْ﴾ عائد إلى الجنّ، والهاء عائدة إلى الإنس، فالمعنى: زاد الجنُّ الإنسَ خوفاً وذُعراً حتى يستمرّوا في ذلك.

وقيل: المعنى: زاد الإنسُ الجنَّ تكبّراً وتعاظماً لمّا استعاذوا بهم تكبّروا؛ لأنهم قالوا: ملكنا الجن وقُدْنا الإنس.

والعياذ يكون فيما يُستعاذ منه من الشرّ، واللِّياذ يكون في طلب الخير، كما قال الشاعر:

يا من أعوذ به فيما أُحاذره ... ومن ألوذ به فيما أُؤمّله

---

(١) انظر تفصيل ذلك في تفسير الطبري (٢٣/ ٦٥٤)، والقرطبي (١٩/ ١٠).

فاللياذ يستعمل في طلب الخير، والعياذ في طلب الإعاذة من الشرّ.

○ وَعَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمٍ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْحَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ»، رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

«لَمْ يَضُرَّهُ» بنصب الراء، أو بضمها على الإتباع، إتباعاً للهاء.

وهذا الحديث فيه بيان الالتجاء إلى الله ﷻ، والاعتصام به، وطلب الحماية منه سبحانه، فالمسلم يستعيذ بهذه الاستعاذة؛ لأن هذا الذكر سبب في حمايته، ودفع الشرور عنه.

وهذا وعد من النبي ﷺ، وهو عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى، وإنما يتكلم عن وحي من الله ﷻ، فهذا وعد كريم بأن من استعاذ بهذه الاستعاذة، ودعا بهذا الدعاء، فإنه يكون محفوظاً من الله ﷻ حتى يرحل من منزله ذلك.

والمقصود: أن الاستعاذة احتماء بالله ﷻ، وفيه أن هذا الذكر يفيد المسلم، وينبغي للمسلم أن يحسن ظنه بالله ﷻ، وأن يأتي بهذا الذكر، وأن يعتقد أنه مفيد، وأنه محفوظ من الله ﷻ، فإذا أتى بهذا الذكر بصدق، وتصديقاً برسول الله ﷺ، فإنه يحصل له هذا الثواب.

والمراد بكلمات الله: الكلمات الكونية والدينية؛ الكلمات الكونية كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]. والكلمات الدينية: القرآن، والأوامر، والنواهي.

وفيه: أن كلام الله صفة من صفاته، وليس بمخلوق؛ لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك، وهذا من أدلة أهل السنة والجماعة على

أن كلام الله ليس بمخلوق، فهو حجّة لأهل السنة والجماعة.

وفيه الرد على المعتزلة الذين يقولون: كلام الله مخلوق. ووجه ذلك: أن النبي ﷺ استعاذ بكلمات الله، ولو كان كلام الله مخلوقاً لما استعاذ به؛ لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك، فدلّ على أن كلام الله صفة من صفاته، منزَّل غير مخلوق، والمسلم يستعيذ بصفات الله، والصفة مستعاذ بها، فيقول: أعوذ بكلمات الله من شرّ ما خلق. وأعوذ بعزّة الله وقدرته. وكان النبي عليه الصلاة والسلام يقول: «**اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»(١).

أما الصِّفَة فلا يُدعى بها؛ فلا يقول: يا رحمة الله ارحميني. أو يا قدرة الله أنقذيني. فهذا لا يجوز، حتى قال شيخ الإسلام: إن هذا ردّة(٢).

فِيهِ مَسَائِلُ:

◆ الأُولىٰ: تفسيرُ آية الجن.

وهي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجنّ: ٦].

◆ الثانيةُ: كونُهُ مِنَ الشِّركِ.

فالاستعاذة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك.

◆ الثالثةُ: الاستدلال علىٰ ذلك بالحديثِ؛ لأنَّ العُلماءَ استدَلُّوا بهِ علىٰ أنَّ كلماتِ اللهِ غَيْرُ مخلُوقَةٍ، قالوا: لأنَّ الاستعاذَةَ

(١) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، رقم (٤٨٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) الرد على البكري (ص ١١٤).

بالمخلوقِ شِرْكٌ.

الاستعاذة بالجن شرك، وأما الاستعاذة بكلمات الله فهي استعاذة بصفة من صفاته سبحانه، فدل على أن كلام الله غير مخلوق.

- الرابعةُ: فضيلةُ هذا الدُّعاءِ مع اختِصارِهِ.
- الخامسةُ: أنَّ كونَ الشيءِ يَحْصُلُ بِهِ مَنْفَعَةٌ دُنيَوِيَّةٌ مِنْ كَفِّ شَرٍّ أو جَلْبِ نَفْعٍ، لا يَدُلُّ على أَنَّهُ ليسَ مِن الشِّرْكِ.

قد تحصل منفعة دنيوية من الشيء المحرّم، لكن هذا لا يدلّ على إباحته؛ فالمُرابي قد ينتفع من الربا، فيحصل على المال، إلا أنه مال حرام، والزانيان يزعمان أنهما ينتفعان باللذة المحرّمة، وهذا حرام، وكذلك ما يحصل من جرّاء الإتيان للسحرة، فقد يحصل نفع للشخص، إلا أنه حرام، فحصول منفعة من الشيء ليس دليلاً على إباحته طالما أن الشرع قد حرمه.

بَابٌ مِنْ اَلشِّرْكِ أَنْ يَسْتَغِيثَ بِغَيْرِ اَللَّهِ أَوْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ

وَقَوْلُ اَللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [يُونس: ١٠٦-١٠٧] اَلْآيَةَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ [العَنكبوت: ١٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأحقاف: ٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النَّمل: ٦٢].

وَرَوَى اَلطَّبَرَانِيُّ(١) بِإِسْنَادِهِ: أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ اَلنَّبِيِّ ﷺ مُنَافِقٌ يُؤْذِي اَلْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: قُومُوا بِنَا نَسْتَغِيثُ بِرَسُولِ اَللَّهِ ﷺ مِنْ هَذَا اَلْمُنَافِقِ، فَقَالَ اَلنَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي، وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاَللَّهِ».

الشَّرح

هذه الترجمة معقودة لبيان أن الدعاء عبادة، وأن صرف الدعاء لغير الله شرك، كالترجمة السابقة؛ لأن العبادة حقّ لله تعالى، لا يستحقها ملك مقرّب، ولا نبي مرسل، فضلاً عن غيرهم، فمن

(١) قال الهيثمي: «رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث، وقد رواه أحمد بغير هذا السياق». «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٥٩).
وأخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ٣١٧) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه بلفظ: «لَا يُقَامُ لِي، إِنَّمَا يُقَامُ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى».

صرف نوعاً من أنواع العبادة لغير الله فقد أشرك بالله.

○ قوله: «مِنْ اَلشِّرْكِ أَنَّ يَسْتَغِيثَ بِغَيْرِ اَللَّهِ»؛ لأن الاستغاثة نوع من الدعاء، وهي دعاء من المكروب الذي وقع في كربة وشدة، كالاستنصار طلب النصر، والاستنجاد طلب النجدة، فكذلك الاستغاثة طلب الغوث.

○ وقوله: «أَوْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ»: من عطف العام على الخاص؛ فمن الشرك أن يستغيث بغير الله في الكربة والشدة، أو يدعو غيره حتى في حال الرخاء، فعطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص؛ لأن الدعاء عام.

والدعاء يكون من المكروب، ومن غير المكروب، ويكون في حال الشدة، وفي حال السعة، والاستغاثة تكون في حال الشدة، فإذا تعرض شخص للغرق وطلب من ينجده، سُمِّي هذا الطلب استغاثة، فكل استغاثة دعاء، وليس كل دعاء استغاثة.

فإذا استغاث بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، أو دعا غير الله، فإنه يكون مشركاً، أما إذا استغاث بحيٍّ حاضر قادر فلا يكون شركاً؛ لأنه معه أسباب ظاهرة، فإذا استغاث من تعرَّض للغرق بسبَّاح يجيد السباحة وقال: يا فلان. أغثني، أنقذني. فهذا لا بأس به، ولا يسمى شركاً؛ لأنه حي حاضر قادر يستطيع أن يغيثه، أما إذا استغاث بميت أو بغائب، أو بحي حاضر فيما لا يقدر عليه إلا الله، فهذا شرك.

ولهذا قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره.

○ وقوله: «وَقَوْلُ اَللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ

وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يُونس: ١٠٦].

نهي للتحريم ﴿مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾: هذا وصف لكل مدعوٍّ من دون الله، فكل مدعوٍّ من دون الله لا ينفع ولا يضرّ، ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ يعني: دعوت غيره، ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يُونس: ١٠٦]، والمراد بالظلم هنا الشرك، كما قال سبحانه في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمَان: ١٣].

وهذا فيه بيان عظم الشرك، والخطاب موجّه للنبي ﷺ، وهو معصوم عن الشرك، كما خاطبه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزُّمَر: ٦٥]. وكما قال سبحانه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يُونس: ١٠٧]، فلا يكشف الضرّ إلا الله، ولا يجلب الخير إلا الله، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ﴾ [فَاطِر: ٢].

○ **وقال سبحانه:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العَنكبوت: ١٧].

فيه أن ابتغاء الرزق لا يكون إلا من الله، فمن ابتغى الرزق، أو سأل الولدَ من غير الله، أو دعا غير الله، فإنه يكون مشركاً؛ ولهذا قال ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾. فقدّم الظرف لبيان الاختصاص، فلم يقل: فابتغوا الرزق عند الله. يعني: فخُصُّوا الله بطلب الرزق منه، ولا تسألوا غيره.

﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾: تعميم بعد تخصيص، لما أمر بابتغاء الرزق منه عمَّ

بعبادته ﴿وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ إليه مرجعكم بالبعث والجزاء، فيبعثكم ويحاضريكم على أعمالكم ففيه: حث بالترغيب والترهيب.

○ وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأحقاف: ٥].

(مَن) استفهامية، استفهام إنكار وتعجب. والمعنى: لا أحد أشَدُّ ضلالاً، وأعجب حالاً ممن يدعُونَ من دون الله مَنْ لا يستجيب لهم دعاءهم، فهو أقْصَى حَدٍّ من الضلالة[1].

فمن دعا ميتاً أو غائباً أو حيّاً حاضراً فيما لا يقدر عليه إلا الله، فهو لا يستجيب له إلى يوم القيامة.

﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾؛ لأنهم ما بين ميت وغائب غافل عنك، فكيف تدعو ميتاً وهو تراب، فلو كشفت القبر لوجدت تراباً، فهل يعقل أن تدعو التراب وتنسى رب الأرباب، ولو كان هذا يستطيع أن ينفع لنفع نفسه.

﴿ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾ أي: هم غافلون مشغولون بأنفسهم.

﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ أي: إذا جمع الناس ليوم القيامة كانوا أعداءً لهم، فلا ينفعهم هذا الدعاء بشيء، بل سيكون وبالاً عليهم.

﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٦] يعني: منكرين لها.

○ وقال سبحانه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النَّمل: ٦٢]

هذا من الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية،

(١) التحرير والتنوير (١٢/٢٦).

فالمشركون يقرّون أنه لا يجيب المضطر إلا الله؛ ولهذا كانوا إذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدِّين، يخصونه بالدعاء، لا يشركون معه غيره، فإذا خرجوا من الفلك إلى البر أشركوا، ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥]. وقال ﷻ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٧]. والمعنى: أنه كما أنكم تقرّون أنه لا يجيب المضطر إلا الله، ولا يكشف السوء إلا الله، وتعترفون بهذا، فكيف تجعلون معه آلهة أخرى، وتعبدون معه غيره؟! فألزمهم بوجوب إفراده بالعبادة بما يقرون به من إفرادهم إياه بتوحيد الربوبية، فكما أنكم تقرون بهذا، فعليكم أن تخلصوا له العبادة.

«وَرَوَى اَلطَّبَرَانِيُّ بِإِسْنَادِهِ: أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ اَلنَّبِيِّ ﷺ مُنَافِقٌ يُؤْذِي اَلْمُؤْمِنِينَ» هذا المنافق هو عبد الله بن أُبيّ بنُ سلول، رأس المنافقين «فَقَالَ بَعْضُهُمْ:» هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه «قُومُوا بِنَا نَسْتَغِيثُ بِرَسُولِ اَللَّهِ ﷺ مِنْ هَذَا اَلْمُنَافِقِ، فَقَالَ اَلنَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي، وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاَللَّهِ»». هذا الحديث فيه بعض الضعف؛ لأنه من رواية ابن لهيعة(١)، لكن له شواهد يتقوى بها.

والكلام يحتمل أحد أمرين:

أولهما: أن النبي ﷺ غير قادر على الإغاثة؛ لأنه ممنوع من قتل المنافقين، لئلا يقال: إن محمداً يقتل أصحابه. فقال: «**إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله**». فأنا لا أقدر على قتله؛ لأني ممنوع من ذلك شرعاً.

(١) انظر: تهذيب الكمال في أسماء الرجال (١٥/ ٤٨٧).

ثانيهما: أنه عليه الصلاة والسلام قادر على إغاثتهم، ولكن منعه بقوله: «**إنه لا يستغاث بي**». من باب سدّ الذرائع، يعني: أنه أراد أن يسد باب الذريعة والوسيلة إلى الشرك، حتى لا يستغاث إلا بالله ﷻ؛ لأنهم إذا استغاثوا به فيما يقدر عليه، فقد يجرُّهم ذلك إلى أن يستغيثوا به فيما لا يقدر عليه، فسد عليهم الباب، ومنعهم من الاستغاثة.

والمقصود: أن الاستغاثة بالحي الحاضر القادر لا بأس بها، أما الاستغاثة بالميت، أو بالغائب، أو بالحي الحاضر فيما لا يقدر عليه إلا الله، فهذا هو الشرك.

فِيهِ مَسَائِلُ:

◆ **الأولىٰ: أنَّ عَطْفَ الدُّعاءِ علىٰ الاستِغاثَةِ مِنْ عَطْفِ العامِّ علىٰ الخاصِّ.**

فالدعاء أعمُّ من الاستغاثة؛ لأن الاستغاثة نوع من الدعاء، والاستغاثة هي دعاء المكروب.

◆ **الثانيةُ: تفسيرُ قولهِ:** ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس: ١٠٦].

وأن هذا هو الشرك.

◆ **الثالثةُ: أَنَّ هذا هُوَ الشِّركُ الأَكبرُ.**

◆ **الرابعةُ: أنَّ أَصْلَحَ الناسِ لو يَفْعَلُهُ إِرْضَاءً لِغَيْرِهِ صارَ مِنَ الظَّالِمينَ.**

وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٦﴾ [يونس: ١٠٦]. والظالمون هنا هم المشركون، وهذا الخطاب وإن كان موجّهاً للنبي ﷺ وهو المعصوم من الشرك، فإنه موجه أيضاً

لأمته ﷺ، وفيه بيان عِظَم الشرك.

◄ **الخامسةُ: تفسيرُ الآيةِ التي بعدَها.**

وهي قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعَام: ١٧]. وفيها بيان أن الله تعالى بيده الضرّ والنفع.

◄ **السادسةُ: كَوْنُ ذلك لا يَنْفَعُ في الدُّنيا مع كَوْنِهِ كُفْراً.**

◄ **السابعةُ: تفسيرُ الآيةِ الثالثةِ.**

وهي قوله: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ [العَنكبوت: ١٧].

◄ **الثامنةُ: أَنَّ طَلَبَ الرِّزقِ لا يَنْبَغِي إِلَّا مِن اللهِ، كما أَنَّ الجنةَ لا تُطْلَبُ إلَّا مِنهُ.**

﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾: قدَّم الضمير ليفيد الاختصاص.

◄ **التاسعةُ: تفسيرُ الآيةِ الرابعةِ.**

وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأحقاف: ٥].

◄ **العاشرةُ: ذِكْرُهُ أنَّه لا أَضَلَّ مِمَّنْ دَعا غَيرَ اللهِ.**

◄ **الحاديةَ عَشْرَةَ: أنّهُ غافِلٌ عَنْ دُعاءِ الدَّاعي لا يَدْرِي عَنهُ.**

لقوله: ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأحقاف: ٥].

◄ **الثانيةَ عَشْرَةَ: أنَّ تِلكَ الدَّعوةَ سَببٌ لِبُغْضِ المَدْعُوِّ للدَّاعي وعَداوَتِهِ لَهُ.**

لقوله: ﴿وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٦].

◄ **الثالثةَ عَشْرَةَ: تسمِيَةُ تِلكَ الدَّعوةِ عِبادَةً للمَدْعُو.**

قال تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ﴾. فسمّى الدعاء عبادة.

- **الرابعةَ عَشْرَةَ: كفرُ المَدْعُوِّ بِتِلْكَ العِبادَةِ.**

لقوله: ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف: ٦] سمّى دعاء غير الله تعالى كفراً.

- **الخامسةَ عَشْرَةَ: أنَّ هذهِ الأمورَ هي سببُ كَوْنِهِ أَضَلَّ الناسِ.**

فهو أضل الناس لكونه يدعو من لا يستجيب له.

- **السادسةَ عَشْرَةَ: تفسيرُ الآيةِ الخامِسَةِ.**

وهي قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النَّمل: ٦٢].

- **السابعةَ عَشْرَةَ: الأمرُ العَجِيبُ: وهوَ إقرارُ عَبَدَةِ الأَوْثَانِ أنَّهُ لا يُجِيبُ المُضْطَرَّ إلَّا اللهُ، ولأَجْلِ هذا يَدْعُونَهُ في الشَّدائِدِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ.**

وهذه من العجائب؛ فهم يقرون أنه لا يجيب المضطر إلى الله، ثم هم مع ذلك يشركون معه في العبادة غيره.

- **الثامنةَ عَشْرَةَ: حمايةُ المُصْطَفَىٰ ﷺ حِمَىٰ التَّوحيدِ، والتَّأَدُّبُ مَعَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.**

لقوله ﷺ: «إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله».

❋ ❋ ❋

بَابٌ قَوْلِ ٱللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ [الأعراف: ١٩١-١٩٢] ٱلآيَةَ

وَقَوْلِه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ [فَاطِر: ١٣] ٱلآيَةَ.

وَفِي ٱلصَّحِيحِ[(١)] عَنْ أَنَسٍ قَالَ: شُجَّ ٱلنَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ، فَقَالَ: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهِمْ؟» فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عِمرَان: ١٢٨]».

وَفِيهِ[(٢)]: عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ ٱللَّهِ ﷺ يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ ٱلرُّكُوعِ فِي ٱلرَّكْعَةِ ٱلْأَخِيرَةِ مِنَ ٱلْفَجْرِ: «ٱللَّهُمَّ ٱلْعَنْ فُلَاناً وَفُلَاناً». بَعْدَمَا يَقُولُ: «سَمِعَ ٱللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ ٱلْحَمْدُ»، فَأَنْزَلَ ٱللَّهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عِمرَان: ١٢٨].

وَفِي رِوَايَةٍ: «يَدْعُو عَلَى صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ، وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو، وَالْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، فَنَزَلَتْ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾»[(٣)].

وَفِيهِ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «قَامَ فِينَا رَسُولُ ٱللَّهِ ﷺ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١٤]، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجهاد والسير، رقم (١٧٩١).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، رقم (٤٥٥٩).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٢٨]، رقم (٤٠٧٠) عن سالم بن عبدالله قال: «كان رسول الله ﷺ يدعو...»، وهي مرسلة.

قُرَيْشٍ، - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - اِشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اَللَّهِ شَيْئاً، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ اَلْمُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اَللَّهِ شَيْئاً، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اَللَّهِ ﷺ، لَا أُغْنِي عنْكِ مِنْ اَللَّهِ شَيْئاً، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ! سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اَللَّهِ شَيْئاً»[(١)].

الشَّرْح

○ **قوله**: «باب قول الله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ [الأعراف: ١٩١]».

هذه الترجمة معقودة لبيان بطلان عبادة غير الله، وأنّ كل معبود سوى الله فعبادته باطلة، فآية الترجمة بيّن الله تعالى فيها بطلان عبادة كل معبود سوى الله ببرهانين عظيمين:

البرهان الأول: قوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾. وفيها أنّ كل ما سوى الله فهو مخلوق للعبادة، والعابد لا يكون معبوداً.

البرهان الثاني: أنّ كل من سوى الله لا يستطيع أن ينصر نفسه، فكيف ينصر غيره وهو عاجز عن نفع نفسه؟! فإذا كان عاجزاً عن نفع نفسه فمن باب أولى لا يستطيع أن ينفع غيره، ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾ [الأعراف: ١٩٢]. فهذان برهانان ساطعان ودليلان على بطلان عبادة كل معبود سوى الله، فمن عبد أيّ شيء من دون الله، فإنه ينطبق عليه هذان الوصفان، فكل معبود سوى الله سواء كان ملكاً، أو نبيّاً، أو شجراً، أو حجراً، أو جنيّاً، أو غير ذلك، فهو مخلوق لعبادة الله، فلا يكون العابد معبوداً بحال من

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب «﴿وأنذر عشيرتك الأقربين * واخفض جناحك﴾ ألن جانبك»، رقم (٤٧٧١).

الأحوال، ووصفه بأنه لا يستطيع نصر نفسه يفهم منه أنه لا يستطيع أن ينصر غيره، فهو لا ينفع نفسه، ولا ينفع غيره من باب أولى، فتبيّن بهذا بطلان عبادة كل معبود سوى الله.

○ **قول الله تعالى**: «﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فَاطِر: ١٣-١٤]».

في هاتين الآيتين بيَّن ﷻ ثلاث صفات منتفية عن كل معبود سوى الله؛ وهي أنه لا يملك، ولا يسمع، ولا يجيب، ومن كان بهذه الصفات فإنه لا يصلح للعبادة.

فالمعبود إنما يُعبد لكونه مالكاً سامعاً مستجيباً، وقد نُفيت هذه الأمور الثلاثة عن كل معبود سوى الله تعالى، فهؤلاء الذين يدعونهم من دون الله ما يملكون شيئاً، ولا قطميراً.

والقِطْمِيرُ والقِطْمارُ: شَقُّ النواة، وفي الصحاح: القِطْمِيرُ: الْفُوفَةُ التي في النواة، وهي القِشْرة الدقيقة التي على النواة بين النواة والتمر. ويقال: هي النُّكْتة البيضاء التي في ظهر النواة التي تنبت منها النخلة[(١)]. وهي أحقر شيء، وأضعف شيء، فإذا كان هذا الذي يُعبد من دون الله لا يملك هذا القطمير، إذاً فلماذا يُعبد من دون الله؟ فالعابد إنما يُعَبِّدُه معبودُه لكونه مالكاً لما يطلبه منه، والله تعالى قد نفى الملك عن كل هذه المعبودات.

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ نفى عنهم سماع الدعاء، فهم لا يسمعون؛ لأنهم ما بين ميت مشغول بنفسه، قد بلت عظامه،

---

(١) لسان العرب: قطمر (٥/١٠٨).

وصارت تراباً، وبين غائب لا يسمع.

﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾: لو سمعوا على الفرض والتقدير، فلو حرف امتناع لامتناع، فلو افترضنا أنهم يسمعون، فإنهم لن يستجيبوا؛ لأنهم ليس عندهم القدرة على ذلك.

وإذا كانت هذه الأوصاف كلها موجودة في كل معبود سوى الله تعالى، فقد تبين بطلان عبادة كل معبود سوى الله ﷻ، كما قال ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحَجّ: ٦٢].

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾: يوم القيامة يعادونكم، وينكرون عبادتكم لهم، إذا كانوا صالحين من أنبياء وغيرهم.

ولما سمّى الله ذلك شركاً، تبيّن أن من دعا غير الله فقد أشرك بنصّ القرآن: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾.

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فَاطِر: ١٤] يقول تعالى ذكره: ولا يخبرك يا محمد عن آلهة هؤلاء المشركين، وما يكون من أمرها وأمر عَبَدَتها يوم القيامة من تبرؤها منهم، وكفرها بهم، مثل ذي خِبْرة بأمرها وأمرهم، وذلك الخبير هو الله الذي لا يخفى عليه شيء كان أو يكون سبحانه(١).

○ وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: شُجَّ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ، فَقَالَ: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهِمْ؟» فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عِمرَان: ١٢٨]».

هذا فيه بيان أن النبي ﷺ بَشَرٌ، يصيبه ما يصيب البشر، تصيبه

(١) انظر تفسير الطبري ٢٠/٤٥٣.

الأمراض والأسقام، والبلايا والمحن؛ ولهذا شُج رأسه عليه الصلاة والسلام حتى سال دمه الشريف صلوات ربي وتسليماته عليه، فجاءت فاطمة رضي الله عنها فجعلت تغسله بالماء، يصبّ علي رضي الله عنه الماء، وهي تغسل مكان الدم، فاستمر الدم في السيلان، ولم يتوقف، فلما رأت فاطمة أن الدم لا ينقطع جاءت بحصير وأحرقته، فجعلته على مكان الجرح، فتوقف الدم(١).

فإذا كان رسول الله ﷺ - وهو أشرف الخلق - تصيبه الأمراض والأسقام، فإن هذا يدل على أنه لا يمكن أن يُعبد من دون الله؛ لأنه ليس ربّاً - بأبي هو وأمي - وإنما هو نبي كريم، يُطاع ويُتبع، ويُحب أعظم من محبة النفس والمال والأهل والولد، لكنه لا يُعبد؛ لأن العبادة حق لله تعالى، فالأمر بيد الله، ليس له ﷺ من الأمر شيء؛ ولهذا لما قال: «**كيف يفلح قوم شجَّوا نبيهم**». نزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾. فالأمر كله بيد الله، فهو سبحانه يحكم بين عباده، وهو العليم بأحوالهم ومآلهم.

وَفِيهِ: - **يعني: في الصحيح** - عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اَللَّهِ ﷺ يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنْ اَلرُّكُوعِ فِي اَلرَّكْعَةِ اَلْأَخِيرَةِ مِنَ اَلْفَجْرِ: «اَللَّهُمَّ اِلْعَنْ فُلَاناً وَفُلَاناً». بَعْدَمَا يَقُولُ: «سَمِعَ اَللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ اَلْحَمْدُ»، فَأَنْزَلَ اَللَّهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عِمرَان: ١٢٨]. وَفِي رِوَايَةٍ: «يَدْعُو عَلَى صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ، وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو، وَالْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ».

يدعو عليهم في صلاة الفجر، وهو أشرف الخلق عليه الصلاة

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب «المجن ومن يتترس بترس صاحبه»، رقم (٢٩٠٣)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، رقم (١٧٩٠) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

والسلام، وخلْفه أفضل الناس بعد الأنبياء يؤمِّنون على دعائه، فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾. ومع ذلك فقد تاب الله عليهم وأسلموا، فدلّ على أن الأمر بيد الله، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام لا يستحق العبادة، إنما هو نبي كريم، يطاع ويتبع ولا يعبد، إنما العبادة حق لله وحده لا شريك له.

وفيه: الرد على مَن عبَد الرسول عليه الصلاة والسلام وقال: إنه يعلم الغيب. أو إنه مخلوق من نور. أو ما إلى ذلك من الغلو في صفاته ﷺ.

والحق أنه عليه الصلاة والسلام بشر، مخلوق من أم و أب كغيره من البشر، فأبوه هو عبد الله بن عبد المطلب، وأمه آمنة بنت وهب، فهو ليس جزءاً من الله، كما يقوله الكفرة والملاحدة - نعوذ بالله من الضلال - قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠]. فمن قال: إنه جزء من الله، أو مخلوق من نور، أو إنه يعلم الغيب. فقد كفر - والعياذ بالله - فهو ﷺ ليس ربّاً، ولكنه بشر، تصيبه الأمراض والأسقام، وليس له من الأمر شيء، لا يتصرف في الكون، ولا يتصرف في الخلق، ولا يدبر الأمر مع الله تعالى؛ ولهذا أنزل الله ﷻ لما دعا على هؤلاء: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾. فتبيّن بهذا بطلان عبادة كل معبود سوى الله تعالى.

وفيه: دليل على مشروعية الدعاء في النوازل، فإذا نزلت بالمسلمين نازلة، فلهم أن يدعوا في الصلاة في الفرائض، وقد جاء في «صحيح البخاري» ما يدلّ على أنه قنت في أكثر الفرائض، **فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: لَأُقَرِّبَنَّ صَلَاةَ النَّبِيِّ ﷺ، فَكَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﵁ يَقْنُتُ فِي الرَّكْعَةِ الآخِرَةِ مِنْ صَلَاةِ الظُّهْرِ، وَصَلَاةِ العِشَاءِ، وَصَلَاةِ**

الصُّبْحِ، بَعْدَ مَا يَقُولُ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، فَيَدْعُو لِلْمُؤْمِنِينَ، وَيَلْعَنُ الكُفَّارَ[١]. ولكن أغلب ما ثبت عن الرسول ﷺ أنه كان يقنت في صلاة الفجر، وصلاة المغرب.

وفيه: أن الأفضل أن يكون الدعاء بعدما يقول: سمع الله لمن حمده.

وفيه: جواز التسمية في الدعاء، وأن هذا لا يخلّ بالصلاة.

وفيه: أن دعاء القنوت إنما يكون في النوازل وقتاً ثم يُترك، وأما ما يراه بعض العلماء كالشافعية من أن القنوت مشروع دوماً في صلاة الفجر، فهذا قول ضعيف؛ لأنهم استدلوا بحديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا زَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْنُتُ فِي الْفَجْرِ، حَتَّى فَارَقَ الدُّنْيَا[٢]. وهو حديث لا يصح، ولو صح لكان المراد بالقنوت طول العبادة، وليس المراد القنوت الذي هو الدعاء في صلاة الفجر.

مسألة: يجب التنبيه عليها: وهي أنه إذا صلى أحد خلف من

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب «فضل اللهم ربنا لك الحمد»، رقم (٧٩٧)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم (٦٧٥).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٦٢) من طريق أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال ابن رجب: «خرَّجه الإمام أحمد وغيره، وهذا أيضًا منكر، قال أبو بكر الأثرم: «هو حديث ضعيف مخالف للأحاديث»، يشير إلى أن ما ينفرد به أبو جعفر الرازي لا يحتج به، ولا سيما إذا خالف الثقات.

وقد تابعه عليه عمرو بن عبيد الكذاب المبتدع فرواه عن الحسن، عن أنس بنحوه، وتابعه أيضًا إسماعيل بن مسلم المكي، وهو مجمع على ضعفه فرواه عن الحسن، عن أنس، وقد خرَّج حديثه البزار وبيَّن ضعفه، وروي أيضًا ذلك عن أنس من وجوه كثيرة لا يثبت منها شيء، وبعضها موضوعة». «فتح الباري في شرح صحيح البخاري» (٦/ ٢٧٣).

يقنت في صلاة الفجر، فعليه أن يقنت مع الإمام، كما قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بالرغم من أنه كان لا يرى هذا الرأي؛ وذلك من باب المحافظة على الجماعة، ودرءاً لمفسدة الفرقة والاختلاف.

وَفِيهِ: - يعني: في الصحيح- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «قَامَ فِينَا رَسُولُ ٱللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١٤]. فعمّ وخصّ، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - اِشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ ٱللَّهِ شَيْئاً».

فيه: أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلّغ الرسالة، وامتثل أمر ربه.

والمعنى: اشتروا أنفسكم من النار بتوحيد الله، والإيمان برسوله، وإخلاص العبادة له، والحذر من الشرك، وترك الشرك، وعبادة الأصنام والأوثان.

وقد بيّن عليه الصلاة والسلام أنه لا يغني ولا يدفع عن أحد عذاب الله إذا مات على الشرك.

ثم خصّ فقال: «يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْئاً» يعني: عليك أن تعمل بتوحيد الله وطاعته، ولا تركن إلى أنك عمّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإني لا أغني عنك من الله شيئاً.

«يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ ٱللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَا أُغْنِي عنْكِ مِنْ ٱللَّهِ شَيْئاً» يعني: اشتري نفسك من النار، ولا تركني إلى أنك عمة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإني لا أغني عنك من الله شيئاً.

ثم قال: «وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ! سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ ٱللَّهِ شَيْئاً» يعني: من أمور الدنيا، أما الإنقاذ من النار إذا عصيت الله تعالى فلا أستطيع ذلك، فاشتري نفسك من النار، فإني لا أغني عنك من الله شيئاً.

وفيه: دليل على أن النبي ﷺ يجوز أن يُسأل في حياته ما يستطيعه من أمور الدنيا، أما ما لا يستطيعه، مثل: النجاة من النار، وإدخال الجنة، ومغفرة الذنوب، وتفريج الكروب، فهذا لا يقدر عليه إلا الله، فلا يُسأل إلا الله جل وعلا.

وهذا يدل على أنه ﷺ لا يستحق العبادة؛ لأنه قال: «لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اَللَّهِ شَيْئاً» والذي لا يغني عن أحد شيئاً لا يستحق العبادة، وإنما هو ﷺ نبيٌّ كريم، عبدٌ ورسول، يُطاع ويتبع، ولا يُعبد، لا يستطيع دفع النار عن أحد، ولا إنقاذ أحد من النار ممن مات على الشرك، ولا إدخال أحد من أهل النار الجنة، ولا يستطيع أن يفرج الكربات، إنما هذا من خصائص الله.

فتبين بهذا بطلان عبادة كل معبود سوى الله، سواء كان نبيّاً، أو ملكاً، أو حجراً، أو شجراً، أو بنيةً، أو جنيّاً، أو غير ذلك، فالعبادة حق الله تعالى وحده لا شريك له.

فِيهِ مَسَائِلُ:

- الأولىٰ: تفسيرُ الآيتَيْنِ.
- الثانيةُ: قِصَّةُ أُحُدٍ.

وما فيها من شجّ النبي ﷺ، ونزول الآية: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عِمرَان: ١٢٨].

- الثالثةُ: قُنوتُ سيِّدِ المُرْسَلِينَ وَخَلْفَهُ سَاداتُ الأَولياءِ يُؤَمِّنونَ في الصلاةِ.

ومع ذلك لم يستجب الله تبارك وتعالى له، وأنزل عليه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾. فدلّ على أن الأمر كله بيد الله ﷻ، وأن الرسول ﷺ لا يستحق أن يُعبد من دون الله.

◄ **الرابعةُ: أَنَّ المَدْعُوَّ عليهم كُفَّارٌ.**

ومع ذلك نُهي النبي ﷺ عن الدعاء عليهم؛ لأن الله تعالى له الحكمة البالغة.

◄ **الخامسةُ: أَنّهم فَعَلُوا أَشياءَ لا يَفْعَلُهَا غَالِبُ الكُفَّارِ: مِنها: شَجُّهُمْ نَبِيَّهُمْ، وحِرْصُهُمْ علىٰ قَتْلِهِ. ومنها: التَّمثِيلُ بالقتلىٰ مع أَنَّهم بَنُو عَمِّهِم!**

◄ **السادسةُ: أنزلَ اللهُ عليهِ في ذَلِكَ:** ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عِمرَان: ١٢٨]

◄ **السابعةُ: قولُهُ:** ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ [آل عِمرَان: ١٢٨] **فتابَ عليْهِم وآمَنُوا.**

◄ **الثامنةُ: القنوتُ في النَّوَازِلِ.**

يعني: مشروعية القنوت في النوازل.

◄ **التاسعةُ: تسميةُ المَدْعُو عليهم في الصَّلاةِ بأَسْمَائِهِمْ وَأَسْماءِ آبائِهِمْ.**

وأن هذا لا يؤثر على صحة الصلاة.

◄ **العاشرةُ: لَعْنُهُ المُعَيَّنَ في القُنوتِ.**

لأن هؤلاء قد اشتد أذاهم للمسلمين، فلعنهم في القنوت، وهذا يدل على جواز لعن المعين إذا اشتد أذاه.

◄ **الحاديةَ عَشْرَةَ: قِصَّتُهُ ﷺ لَمَّا نَزَلَ:** ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١٤].

◄ **الثانيةَ عَشْرَةَ: جِدُّهُ ﷺ في هذا الأمرِ، بِحَيْثُ فَعَل مَا نُسِبَ بِسَبَبِهِ إلىٰ الجُنونِ، وكَذَلِكَ لَوْ يَفْعَلُهُ مُسْلِمٌ الآنَ.**

حرصه عليه الصلاة والسلام على الدعوة، وعلى تبليغ الرسالة،

حتى إنه كان يعرض نفسه على القبائل قبل الهجرة حتى اتهموه بالجنون.

◄ **الثالثةَ عَشْرَةَ: قولُهُ ﷺ للأَبْعَد والأَقْرَبِ: «لا أُغني عَنْكُم مِنَ اللهِ شيئاً»، حتىٰ قالَ: «يا فاطمةُ بنتَ مُحمَّدٍ! لا أُغْنِي عنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئاً». فإذا صرَّحَ ﷺ أَنَّهُ ـ وهوَ سَيِّدُ المُرْسَلِينَ ـ لا يُغْني شيئاً عنْ سَيِّدَةِ نِساءِ العالَمينَ، وآمَنَ الإنسانُ أَنَّهُ ﷺ لا يقولُ إلَّا الحقَّ، ثُمَّ نَظَرَ فيما وَقَعَ في قُلُوبِ خَواصِّ الناسِ الآنَ؛ تَبَيَّنَ لهُ التَّوحيدُ وغُرْبَةُ الدِّينِ.**

فإذا كان الرسول ﷺ سيّد الخلق، الذي لا ينطق عن الهوى، قد أخبر أنه لا يغني شيئاً عن سيدة نساء العالمين، فإن غيره من المخلوقين من باب أولى لا يغني شيئاً.

بَابُ قَوْلِ اَللَّهُ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سَبَإ: ٢٣]

وَفِي اَلصَّحِيحِ(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ اَلنَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَضَى اَللَّهُ اَلْأَمْرَ فِي اَلسَّمَاءِ؛ ضَرَبَتِ اَلْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَاناً لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ اَلسَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ اَلسَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ، وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ، فَحَرَّفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، فَيَسْمَعُ اَلْكَلِمَةَ، فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا اَلْآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ اَلسَّاحِرِ أَوْ اَلْكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ اَلشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ اَلْكَلِمَةِ اَلَّتِي سُمِعَتْ مِنْ اَلسَّمَاءِ».

وَعَنْ اَلنَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اَللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُوحِيَ بِالْأَمْرِ؛ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ؛ أَخَذَتِ اَلسَّمَوَاتِ مِنْهُ رَجْفَةٌ - أَوْ قَالَ: رِعْدَةٌ - شَدِيدَةٌ؛ خَوْفاً مِنْ اَللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ اَلسَّمَوَاتِ؛ صُعِقُوا وَخَرُّوا لِلَّهِ سُجَّداً، فَيَكُونُ أَوَّلُ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ، فَيُكَلِّمُهُ اَللَّهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ عَلَى اَلْمَلَائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ، سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرِيلُ؟

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحِجر: ١٨]، رقم (٤٧٠١).

فَيَقُولُ: قَالَ اَلْحَقَّ، وَهُوَ اَلْعَلِيُّ اَلْكَبِيرُ، فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيلُ، فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اَللَّهُ ﷻ»[(١)].

الشَّرْح

○ باب قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سَبَإ: ٢٣].

هذه الترجمة قصد بها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إبطال عبادة الملائكة، وكل معبود سوى الله، وأن العبادة الحقّ هي عبادة الله وحده؛ وذلك أن الملائكة إذا كانوا يُصعقون وتُصيبهم الغشية والفزع والخوف، مع عظمتهم وعظم خلقتهم، دلّ على أنهم لا يصلحون للعبادة.

فالذي يُصعق ويخاف ضعيف مربوب مخلوق، تصيبه الأعراض، لا يصلح للعبادة، وإذا كانت الملائكة لا تصلح للعبادة مع عظم خلقتها، فغيرهم من باب أولى، فتبيّن بهذا بطلان عبادة كل معبود سوى الله، وأن العبادة الحق هي عبادة الله وحده، قال سبحانه: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مَريَم: ٩٣].

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سَبَإ: ٢٣].

﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: زال الفزع والخوف، والضمير في قوله: ﴿قُلُوبُهُم﴾ يعود على الملائكة.

﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾.

فيه: إثبات الكلام لله ﷻ، وأن كلام الله حق، فالله هو الحق، وكلامه حق.

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» رقم (٥١٥).

وفيه: الرد على المعتزلة الذين قالوا: إن كلام الله مخلوق، والرد على الأشاعرة الذين يقولون: إن كلام الله معنى قائم بالنفس، ليس بحرف، ولا صوت، فالملائكة سمعوا كلام الله، فصعقوا وخرّوا لله سجداً.

وفيه: عظمة الرب ﷻ، وأنه أعظم من كل شيء، ومن عظمته أن الملائكة تصعق وتفزع إذا سمعت كلامه.

○ وَفِي اَلصَّحِيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ اَلنَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَضَى اَللَّهُ اَلْأَمْرَ فِي اَلسَّمَاءِ؛ ضَرَبَتِ اَلْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَاناً لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ:

يعني: كأن الصوت المسموع من كلام الله تعالى سلسلة على صفوان، والصفوان هو الحجر الأملس، فيفزعهم هذا الصوت، فيصعقون من عظمة الله ﷿.

ففي هذا إثبات الكلام لله، والصوت له، والتشبيه الذي في الحديث تشبيه لمطلق الصوت لا للصوت نفسه، كما في حديث: «**خلق الله آدم على صورته**»، تشبيه لمطلق الصورة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ﴾ يسألون جبريل عليه السلام، فيجيب جبريل: «قال: الحق». فيقولون جميعاً مثل ما قال جبريل: ﴿قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سَبَإ: ٢٣].

ثم تتناقل الملائكة كلام الله ﷿ من سماء إلى سماء، حتى يصل إلى أهل السماء الدنيا، وحتى يتكلم الملائكة الذين في السحاب، فيأتي مسترقوا السمع، وهم الشياطين، يركب بعضهم بعضاً، فيسترقون السمع.

«وَمُسْتَرِقُ اَلسَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ، وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ،

فَحَرَّفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ».

وحرفها: أي أمالها. وبدّد: أي فرّق. فيكونون واحدا فوق واحد، وهكذا إلى السماء، بدون التصاق بينهم، فكل من يسمع كلمة يلقيها إلى من دونه، وهكذا حتى تصل إلى آخر واحد من ناحية الأرض، فيلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فيقرّها في أذنه كقرّ الدجاجة(١). يعني: يسمع له قرقرة، وقد يسمع ذلك مَن حوله.

فإذا وصلت إلى الكاهن أو الساحر كَذَب معها مائة كذبة، فصارت واحدة حقاً، ومائة كذباً، فيصدّق الناس الكاهن بجميع كذبه من أجل واحدة وقعت.

«فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا؟ فَيُصَدَّقُ»

وهذا فيه قبول الناس للشر والباطل؛ إذ كيف يثقون فيه مع كذبه مائة كذبة من أجل صدقه في مرة واحدة؟

○ وَعَنْ اَلنَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «إِذَا أَرَادَ اَللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُوحِيَ بِالْأَمْرِ؛ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ؛ أَخَذَتِ اَلسَّمَوَاتِ مِنْهُ رَجْفَةٌ - أَوْ قَالَ: رِعْدَةٌ - شَدِيدَةٌ؛ خَوْفاً مِنْ اَللَّهِ عز وجل».

فالسموات مع عظمها تخاف من الله وترجف، وهذا شيء حِسّي، وهي وإن كانت من الجمادات إلا أن الله تعالى قد جعل فيها إحساساً، قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾ [الجُمُعَة: ١]. كما جعل في الجبال إحساساً، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ﴾ [البَقَرَة: ٧٤]. وقال

(١) القَرُّ: تَرْدِيدُك الكلام في أذُن المُخاطب. وَقَرّ الدجاجة: صوتها إذا قَطعَتْه. انظر النهاية: قرر (٤/ ٣٧).

تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]. فهذه الأشياء قد جعل الله فيها إحساساً؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**إني لأعرف حجراً كان يسلّم عليّ بمكة**»[(١)].

وقد سُمع تسبيح الحصى[(٢)] والطعام[(٣)] بيد النبي ﷺ، وحنّ الجذع الذي كان يخطب عليه النبي ﷺ، وبكى بكاء الصبي، لما تركه واتخذ المنبر، نزل النبي ﷺ، وجعل يُهدّئه كما يهدّئ الصبي حتى سكت[(٤)].

○ «فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ اَلسَّمَوَاتِ؛ صُعِقُوا وَخَرُّوا لِلَّهِ سُجَّداً، فَيَكُونُ أَوَّلُ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ، فَيُكَلِّمُهُ اَللَّهُ مِنْ وَحَيِّهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ عَلَى اَلْمَلَائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ، سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرِيلُ؟ فَيَقُولُ: قَالَ اَلْحَقَّ، وَهُوَ اَلْعَلِيُّ اَلْكَبِيرُ، فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيلُ، فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اَللَّهُ ﷻ».

وهذا فيه إثبات عظمة الرب سبحانه وتعالى، وأنه مستحق للعبادة، وأنّ غيره من المخلوقات ضعيف مربوب مقهور، يصعق ويخاف، لا يستحق العبادة، لا الملائكة، ولا السموات، ولا الأشجار، ولا الأحجار، ولا الجن، ولا الإنس، فمن عبد غير الله فقد أشرك بالله ﷻ، وإذا مات على ذلك كان من أهل النار، نعوذ بالله من ذلك.

وفيه: إثبات الكلام لله ﷻ، وأنه يتكلّم بكلام بحرف وصوت،

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الفضائل، رقم (٢٢٧٧) من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» رقم (١١٤٦) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب «علامات النبوة في الإسلام»، رقم (٣٥٧٩) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب «علامات النبوة في الإسلام»، رقم (٣٥٨٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

سمعته الملائكة، وسمعه موسى ﷺ، وسمعه نبينا محمد ﷺ ليلة المعراج، كلمهما الله من وراء حجاب، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ﴾ [الشورى: ٥١] فلا يستطيع أحد أن يرى الله في الدنيا؛ ولهذا قال النبي ﷺ لما سأله أبو ذر رضي الله عنه: هل رأيت ربك؟ فقال: «**نورٌ أنّى أراه**»(١). وفي «صحيح مسلم»(٢) من حديث أبي موسى: «**إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سُبُحَات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**». ومحمد ﷺ من خلق الله تبارك وتعالى، فلا يستطيع أحد أن يَثبتَ لرؤية الله في الدنيا، لكن في يوم القيامة ينشِّئ الله المؤمنين تنشئة أخرى، تبدّل فيها صفاتهم؛ بحيث يثبتون فيها لرؤية الله ﷻ.

ولأن رؤية الله نعيم خاص بأهل الجنة، فلا تكون لأهل الدنيا، أما كلام الله ﷻ فقد سمعه موسى عليه السلام، وسمعه نبينا محمد ﷺ بدون واسطة، وسمعه جبريل عليه السلام، وسمعه الملائكة، والله ﷻ سيكلِّم الناس يوم القيامة، ففي الحديث: «**يقول الله: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك. فيقول: أخرِج بعث النار. فيقول: يا رب، وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون، وواحد إلى الجنة**»(٣). نسأل الله السلامة والعافية.

فقد ساق المؤلف رحمه الله في هذا الباب هذه الآية وهذين

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، رقم (١٧٨).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، رقم (١٧٩).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب «قصة يأجوج ومأجوج»، رقم (٣٣٤٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (٢٢٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

الحديثين؛ لبيان أن المستحق للعبادة هو الله ﷻ، وأن الملائكة والسموات وغيرهم لا يستحقون شيئاً من العبادة.

وفيه: إثبات أن الله تبارك وتعالى يتكلم بكلام حقيقي بحرف وصوت، لا يشبه كلام المخلوقين، وهو سبحانه لا يشبه المخلوقين؛ لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أسمائه، ولا في أفعاله، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى: ١١] وقال: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ [مريم: ٦٥]. وقال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧٤﴾ [النحل: ٧٤]. وقال: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٤].

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولىٰ: تفسيرُ الآيةِ.

يعني: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ﴾ [سبأ: ٢٣]. يعني: زال الفزع.

الثانيةُ: ما فيها مِنَ الحُجَّةِ علىٰ إبطالِ الشِّركِ، خُصُوصاً من تَعَلَّقَ علىٰ الصَّالِحِينَ، وهيَ الآيةُ التي قيلَ: إِنَّها تَقْطَعُ عُرُوقَ شَجَرَةِ الشِّركِ مِنَ القَلبِ.

وقبل هذه الآية قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [سبأ: ٢٢]. نفى عنهم المُلْك، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ [سبأ: ٢٢]. نفى الشركة، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ۝٢٢﴾ [سبأ: ٢٢]. نفى المساعدة، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾ [سبأ: ٢٣]. نفى الشفاعة، فقُطعت عروق الشرك، وجميع الأشياء التي يتعلق بها المشركون؛ لأن العابد

إنما يعبد المعبود لما يحصل له من النفع، والنفع لا يتجاوز هذه الأربعة: إما أن يكون مالكاً لما يريده عابده منه، أو شريكاً للمالك، أو معيناً وظهيراً له، أو شفيعاً عنده، وقد نفى الله هذه الأمور الأربعة.

- **الثالثةُ: تفسيرُ قولِهِ:** ﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سَبَإ: ٢٣].

وفيها بيان أن العلي والكبير اسمان من أسماء الله.

- **الرابعةُ: سببُ سُؤالِهِمْ عَنْ ذَلِكَ.**

يعني: سؤالهم عن: ماذا قال ربكم؟

وفيه إثبات القول والكلام لله.

- **الخامسةُ: أنَّ جِبريلَ يُجِيبُهُمْ بقولِهِ بعدَ ذلك: «قال: كَذَا وَكَذَا».**

وفيه أيضا إثبات القول والكلام لله.

- **السادسةُ: ذِكْرُ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبريلُ.**

وهذا يدل على فضله وميزته عليه الصلاة والسلام على غيره من الملائكة.

- **السابعةُ: أنَّهُ يقولُ لأَهلِ السَّمواتِ كُلِّهِمْ؛ لأَنَّهُم يَسْأَلُونَهُ.**

يعني: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ يسألونه: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾، فيقول جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: قال الحق.

- **الثامنةُ: أنَّ الغَشْيَ يَعُمُّ أهلَ السَّمٰواتِ كُلِّهِمْ.**

من قوله في الحديث: «**فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا**».

- **التاسعةُ: ارتِجَافُ السَّمٰواتِ لِكَلامِ اللهِ تعالىٰ.**

كل هذا فيه إثبات الكلام لله، والرد على من أنكره، وأنه

بحرف وصوت، وفيه الرد على الأشاعرة الذين أنكروا الصوت.

- **العاشِرةُ: أنَّ جبريلَ هُوَ الَّذي يَنْتَهِي بالوحيِ إلىٰ حيثُ أَمَرَهُ اللهُ.**

- **الحاديةَ عَشْرَةَ: ذِكْرُ استِرَاقِ الشَّياطينِ.**

وأنهم يسترقون السمع، فتُلاحِقُهم الشهب.

- **الثانيةَ عَشْرَةَ: صِفَةُ رُكُوبِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً.**

وهي أنهم يكونون بعضهم فوق بعض، غير متلاصقين.

- **الثالثةَ عَشْرَةَ: سببُ إرسالِ الشُّهُبِ.**

أي: على الشياطين.

- **الرابعةَ عَشْرَةَ: أنَّهُ تارةً يُدْرِكُهُ الشِّهابُ قبلَ أنْ يُلْقِيها، وتارةً يُلْقِيها في أُذُنِ وَلِيِّهِ مِنَ الإنسِ قبلَ أنْ يُدْرِكَهُ.**

يعني: الشيطان الأسفل، فالشهب تلاحقهم، فأحياناً يحرقه الشهاب قبل أن يلقي الكلمة في أذن الكاهن، وأحياناً يلقيها في أذن الكاهن قبل أن يحرقه الشهاب.

- **الخامِسةَ عَشرَةَ: كونُ الكاهِنِ يَصْدُقُ بعضَ الأَحيانِ.**

يصدق لأنه يخبر بالكلمة التي سُمعت من السماء، وهذه الكلمة صدق، لكنه كما في المسألة بعدها:

- **السادِسةَ عَشْرَةَ: كونُهُ يَكْذِبُ مَعَها مِئَةَ كَذْبَةٍ.**

فيصدقه الناس في هذا الكذب الكثير.

- **السابِعةَ عَشْرَةَ: أنَّهُ لَمْ يَصْدُقْ كَذِبُهُ إلَّا بِتلْكَ الكَلِمَةِ التي سُمِعَتْ مِنَ السَّماءِ.**

- **الثامِنَةَ عَشْرَةَ: قَبُولُ النُّفوسِ للباطِلِ، كيفَ يَتَعَلَّقُونَ بِوَاحِدَةٍ**

ولا يَعْتَبِرُونَ بمِئَةِ كَذْبَةٍ؟!

✧ التاسعةَ عَشْرَةَ: كونُهُمْ يُلْقي بعضُهُمْ إلىٰ بعضٍ تِلكَ الكَلِمَةَ، ويَحْفَظُونَها ويَسْتَدِلُّونَ بها.

يعني: أن الناس حينما يخبرهم الكاهن بهذه الكلمة، يتلقى بعضهم عن بعض، ويستدلون بها على تصديق الكاهن بكذبه الكثير.

✧ العِشْرُونَ: إِثباتُ الصِّفاتِ خِلافاً للمُعَطِّلَةِ.

يعني: إثبات صفة الكلام، وصفة العلو، وإثبات اسم العلي، واسم الكبير لله تعالى.

✧ الحادِيةُ والعِشْرونَ: التَّصرِيحُ بِأَنَّ تِلْكَ الرَّجْفَةَ والغَشْيَ خَوْفاً مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

فالرجفة والرعدة للسماوات، والغشي والصعق لأهلها.

✧ الثانيةُ والعِشْرونَ: أَنَّهُم يَخِرُّونَ للهِ سُجَّداً.

بَابُ الشَّفَاعَةِ

وَقَوْلِ اَللَّهِ ﷻ: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١].

وَقَوْلِهِ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ﴾ [الزُّمَر: ٤٤].

وَقَوْلِهِ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النّجم: ٢٦].

وَقَوْلِهِ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سَبَإ: ٢٢].

قَالَ أَبُو اَلْعَبَّاسِ: نَفَى اَللَّهُ عَمَّا سِوَاهُ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ اَلْمُشْرِكُونَ، فَنَفَى أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِ مُلْكٌ أَوْ قِسْطٌ مِنْهُ، أَوْ يَكُونَ عَوْناً لِلَّهِ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا اَلشَّفَاعَةُ، فَبَيَّنَ أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ اَلرَّبُّ؛ كَمَا قَالَ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

فَهَذِهِ اَلشَّفَاعَةُ اَلَّتِي يَظُنُّهَا اَلْمُشْرِكُونَ هِيَ مُنْتَفِيَةٌ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ؛ كَمَا نَفَاهَا اَلْقُرْآنُ، وَأَخْبَرَ اَلنَّبِيُّ ﷺ: «أَنَّهُ يَأْتِي فَيَسْجُدُ لِرَبِّهِ وَيَحْمَدُهُ - لَا يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ أَوَّلاً - ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: اِرْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ»(١).

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ﴾ [صَ: ٧٥]، رقم (٧٤١٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (١٩٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وَقَالَ لَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: مَنْ أَسْعَدُ اَلنَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ؟ قَالَ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ، خَالِصاً مِنْ قَلْبِهِ»(١)، فَتِلْكَ اَلشَّفَاعَةُ لِأَهْلِ اَلْإِخْلَاصِ بِإِذْنِ اَللَّهِ، وَلَا تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاَللَّهِ.

وَحَقِيقَتُهُ: أَنَّ اَللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ اَلَّذِي يَتَفَضَّلُ عَلَى أَهْلِ اَلْإِخْلَاصِ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ بِوَاسِطَةِ دُعَاءِ مَنْ أَذِنَ لَهُ أَنْ يَشْفَعَ؛ لِيُكْرِمَهُ، وَيَنَالَ اَلْمَقَامَ اَلْمَحْمُودَ.

فَالشَّفَاعَةُ اَلَّتِي نَفَاهَا اَلْقُرْآنُ مَا كَانَ فِيهَا شِرْكٌ، وَلِهَذَا أَثْبَتَ اَلشَّفَاعَةَ بِإِذْنِهِ فِي مَوَاضِعَ، وَقَدْ بَيَّنَ اَلنَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا لِأَهْلِ اَلْإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ. اِنْتَهَى كَلَامُهُ(٢).

الشَّرح

الشفاعة نوعان: منفية، ومثبتة، كما ذكر المؤلف رحمه الله، وكما دلت عليه النصوص.

فالشفاعة المنفية هي التي تكون لأهل الشرك؛ وهي التي تُطلب من غير الله تعالى، فهذه منفية، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدَّثر: ٤٨]، وقوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٤]، ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غَافر: ١٨]، فهذه الآيات كلها في الشفاعة المنفية، وهي شفاعة باطلة.

والشفاعة المثبتة هي التي لأهل التوحيد والإخلاص، بشرطيها؛ وهما إذْن الله للشافع أن يشفع، ورضاه عن المشفوع له.

والشفاعة المثبتة أنواع:

الشفاعة الأولى: الشفاعة العظمى في أهل الموقف يوم القيامة؛

(١) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب «الحرص على الحديث»، رقم (٩٩).
(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٧/ ٧٧).

ودليلها حديث أبي هريرة ﵁ قال: أُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِلَحْم، فَدُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ - وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ - فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً، ثُمَّ قَالَ: «**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ لِمَ ذَلِكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ ﷻ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَر، وَتَدْنُو الشَّمْسُ، فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَلَا تَرَوْنَ إِلَى مَا أَنْتُمْ فِيهِ؟ أَلَا تَرَوْنَ إِلَى مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ ﷻ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَبُوكُمْ آدَمُ. فَيَأْتُونَ آدَمَ ﷺ فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ، أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ رَبِّي ﷻ قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ. فَيَأْتُونَ نُوحاً ﷺ فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ، وَسَمَّاكَ اللَّهُ عَبْداً شَكُوراً، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ نُوحٌ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ عَلَى قَوْمِي نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ. فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَنْتَ نَبِيُّ اللهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلَاثَ كَذِبَاتٍ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ. فَيَأْتُونَ مُوسَى، فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى، أَنْتَ رَسُولُ**

اللهِ، اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَاتِهِ، وَبِتَكْلِيمِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ مُوسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَتَلْتُ نَفْساً لَمْ أُؤْمَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى. فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ - قَالَ: هَكَذَا هُوَ - وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ - وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ ذَنْباً - اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ. فَيَأْتُونِي فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، وَخَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ، غَفَرَ اللَّهُ لَكَ ذَنْبَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْهُ وَمَا تَأَخَّرَ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَأَقُومُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِداً لِرَبِّي ﷻ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ، وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئاً لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الأَبْوَابِ». ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَمَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى»(١).

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ٣] رقم (٤٧١٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (١٩٤).

فهذه هي الشفاعة العظمى في أهل الموقف، وهي المقام المحمود، ولم ينكر أحد هذه الشفاعة، حتى أهل البدع.

الشفاعة الثانية: وهي الشفاعة لأهل الجنة في الإذن لهم في دخولها، وهذه أيضاً خاصة بنبينا محمد ﷺ، لا يدخل أهل الجنةِ الجنةَ حتى يشفع لهم النبي ﷺ، فيُشفّعه الله تبارك وتعالى فيؤذن لهم بدخولها.

الشفاعة الثالثة: الشفاعة في قوم يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، كما مر في الحديث السابق: «**يَا مُحَمَّدُ، أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الأَبْوَابِ**».

الشفاعة الرابعة: الشفاعة في رفع درجات قوم من أهل الجنة، وزيادة ثوابهم فوق ما يستحقون.

الشفاعة الخامسة: الشفاعة في قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم بأن يدخلوا الجنة.

الشفاعة السادسة: الشفاعة في قوم استحقوا دخول النار فلا يدخلونها.

الشفاعة السابعة: الشفاعة في قوم من الموحِّدين دخلوا النار، فيخرجون منها.

الشفاعة الثامنة: الشفاعة في تخفيف العذاب عن بعض الكفار، وهي خاصة بنبينا محمد ﷺ، وهي خاصة بعمّه أبي طالب، كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أنه سمع النبي ﷺ - وذُكر عنده عمُّه - فقال: «**لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح**[١]

(١) الضَّحضاح في الأصْل: ما رَقَّ من الماء على وجه الأرض ما يبلُغ الكَعْبين فاستَعارَه للنار. النهاية: ضحضح (٣/ ٧٥).

من النار يبلغ كعبيه، يغلي منه دماغه»[١].

والشفاعات الأربع الأُوَل - العظمى، وفي الإذن لأهل الجنة في دخولها، وفي رفع درجة قوم من أهل الجنة، وفي قوم يدخلون الجنة بغير حساب - يقرّ بها أهل البدع، فأثبتها المعتزلة والخوارج، وإنما أنكروا الشفاعة في إخراج أحدٍ من النار، أو في عدم دخول النار ممن يستحقها.

فالناس في الشفاعة أقسام:

القسم الأول: قسم غلوا في إثبات الشفاعة، وهم المشركون، والنصارى، والغُلاة من المبتدعة والصوفية، الذين أثبتوا شفاعة الأصنام والأوثان، وجعلوا الشفاعة عند الله كالشفاعة عند من يعظمونه في الدنيا، فهؤلاء غلوا في إثباتها، حتى أثبتوها للأصنام والأوثان.

القسم الثاني: نفوا مطلق الشفاعة، وهذا مذهب الخوارج والمعتزلة؛ حيث أنكروا الشفاعة في إخراج أحدٍ من النار، أو الشفاعة في قومٍ يستحقون دخول النار، ولكن وافقوا أهل السنة في الشفاعة العظمى، والشفاعة لأهل الجنة.

القسم الثالث: مذهب أهل الحق، وهم الذين نفوا الشفاعة التي لأهل الشرك، التي تطلب من غير الله تعالى، وأثبتوا الشفاعة لأهل التوحيد في إخراج العُصاة من النار، أو في عدم دخول النار لمن يستحقها، وذلك بشرطين:

أولاً: إذن الله للشافع أن يشفع.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب «قصة أبي طالب»، رقم (٣٨٨٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (٢١٠).

الثاني: رضا الله تعالى عن المشفوع له، كما جاء في عدة أحاديث ثابتة عن النبي ﷺ، ومنها قوله ﷺ: «**لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الوَقَارِ، اليَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الحُورِ العِينِ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ**»[(١)].

○ **قال المصنف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١]».

الإنذار عام للخلق جميعاً؛ للمؤمن والكافر، كما قال تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدَّثر: ٢]. ولكن خصّ الذين يخشَوْن؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بهذا الإنذار.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٥١﴾ [الأنعام: ٥١] يعني: لكي يتقوا، و(لعل) هنا تفيد التعليل، وليس المراد بها الترجي، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٢٠٠﴾ [آل عِمرَان: ٢٠٠] يعني: لكي تفلحوا، فالإنذار سبب في التقوى.

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب فضائل الجهاد، باب «في ثواب الشهيد»، رقم (١٦٦٣)، وابن ماجه، كتاب الجهاد، باب «فضل الشهادة في سبيل الله»، رقم (٢٧٩٩)، وأحمد (٤/ ١٣١) من حديث المقدام بن معدي كرب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح غريب».
وأخرجه أحمد (٤/ ١٣١) من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.
قال المنذري: «رواه أحمد والطبراني، وإسناد أحمد حسن». «الترغيب والترهيب» (٢/ ٢١٠).
وقال ابن حجر: «إسناده حسن». «فتح الباري» (٦/ ١٦).

﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ يعني: لا يتخذون من دون الله وليّاً ولا شفيعاً.

○ **وقوله سبحانه:** ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزُّمَر: ٤٤].

لأنه هو مالكها سبحانه، فلا يشفع أحد إلا بعد إذنه ﷻ، وبعد رضاه عن المشفوع له، وهو سبحانه لا يرضى إلا عن أهل التوحيد، ولا يأذن في الشفاعة إلا لأهل التوحيد، فالمشرك ليس له نصيب من الشفاعة، كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدَّثِّر: ٤٨].

○ **وقوله سبحانه:** ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥].

هذه الآية فيها اشتراط الإذن، وهذا أحد شرطي الشفاعة، وقال سبحانه: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النَّجم: ٢٦]. وهذه الآية فيها شرطا الشفاعة - الإذن للشافع، والرضا عن المشفوع له - فإذا كان الملائكة لا يشفعون إلا بهذين الشرطين، فغيرهم من باب أولى؛ لأن الملائكة عباد مكرمون.

○ **وقوله:** ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سَبَإ: ٢٢-٢٣].

يقول العلماء: هذه الآية قطعت عروق الشرك؛ لأنها أبطلت جميع ما يتعلق به المشركون.

ولهذا قال أبو العباس وهو شيخ الإسلام ابن تيمية: **فنفى عما سواه كل ما يتعلق به المشركون فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط من الملك أو يكون عونا لله ولم يبق إلا الشفاعة؛ فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب، كما قال تعالى:** ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا

بِإِذْنِهِۦٓۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥] **وقال تعالى عن الملائكة:** ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، **وقال:** ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦] **فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون؛ هي منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن. وأما ما أخبر به النبي ﷺ أنه يكون ... فتلك الشفاعة هي لأهل الإخلاص بإذن الله ليست لمن أشرك بالله ولا تكون إلا بإذن الله**[١] فالشفاعة إنما تكون لأهل التوحيد.

وحقيقة الشفاعة إكرام الشافع، وإلا فالفضل من الله وإلى الله، هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص، فينجّيهم بدعاء من أَذِن له أن يشفع؛ ليكرمه وينال المقام المحمود، فالشفاعة فيها إكرام للشافع حيث أَذِن الله له؛ ولهذا نفى الله ﷻ الشفاعة التي تكون لأهل الشرك، وأثبت الشفاعة بإذنه في مواضع لأهل التوحيد والإخلاص.

والحقيقة أن الله تعالى هو الذي تفضّل على أهل الإخلاص بذلك، فهي من الله وإلى الله، كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ﴾ [الزُّمَر: ٤٤]. فهو الذي يملكها سبحانه، فيأذن للشافع أن يشفع في أهل التوحيد الذين يرضى الله عنهم.

فِيهِ مَسَائِلُ:

- **الأولىٰ: تفسيرُ الآياتِ.**

يعني: تفسير الآيات السابقة، وقد سبق الكلام عليها.

- **الثانيةُ: صِفةُ الشَّفاعةِ المَنْفِيَّةِ.**

وهي التي تكون لأهل الشرك.

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٧٧).

- **الثالثةُ: صِفةُ الشَّفاعةِ المُثبتَةِ.**

وهي التي تكون لأهل الإخلاص والتوحيد.

- **الرابعةُ: ذِكرُ الشَّفاعةِ الكُبرىٰ، وهي المَقَامُ المحمودُ.**
- **الخامسةُ: صفةُ ما يفعَلُهُ ﷺ، وأنَّهُ لا يَبْدَأُ بالشَّفاعةِ أوَّلاً، بل يَسْجُدُ، فإذا أَذِنَ اللهُ لهُ شَفَعَ.**
- **السادسةُ: مَنْ أَسعدُ الناسِ بها؟**

هم أهل التوحيد.

- **السابعةُ: أنَّها لا تكونُ لِمَنْ أَشْرَكَ باللهِ.**

وهذا واضح من النصوص.

- **الثامنةُ: بيانُ حقيقَتِها.**

يعني: بيان حقيقة الشفاعة؛ وهي أن الله تعالى يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع.

بَابُ قَوْل اَللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القَصَص: ٥٦]

وَفِي اَلصَّحِيحِ(١) عَنْ اِبْنِ اَلْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ اَلْوَفَاةُ؛ جَاءَهُ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ وَعِنْدَهُ عَبْدُ اَللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ وَأَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَمِّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اَللَّهِ. فَقَالَا لَهُ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ اَلْمُطَّلِبِ؟ فَأَعَادَ عَلَيْهِ اَلنَّبِيُّ ﷺ فَأَعَادَا، فَكَانَ آخِرَ مَا قَالَ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ اَلْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ. فَقَالَ اَلنَّبِيُّ ﷺ: لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ. فَأَنْزَلَ اَللَّهُ ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾ [التّوبَة: ١١٣] وَأَنْزَلَ اَللَّهُ فِي أَبِي طَالِبٍ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القَصَص: ٥٦]».

الشَّرْح

مقصود المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الترجمة بيان أن هداية القلوب بيد الله ﷻ، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له الحكمة البالغة في هداية من يشاء، وإضلال من يشاء، وهو عليم بالمحلّ الذي يصلح لغرس الكرامة، فيوفّقه للخير والهداية، وعليم بمن لا يصلح.

فهداية القلوب، وتفريج الكروب، إنما هي بيد الله ﷻ، لا يملكها النبي ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب «إذا قال المشرك عند الموت: «لا إله إلا الله»»، رقم (١٣٦٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (٢٤).

وفي هذه القصة من الفوائد:

أولاً: بيان أن هداية القلوب، وهداية التوفيق والتسديد، وكون الإنسان يقبل الحق ويرضاه ويحفظه، بيد الله تعالى، لا يملك ذلك أحد؛ لا الرسول ﷺ ولا غيره، أما هداية الدلالة والإرشاد والبيان والوعظ والتعليم، فهذه من خصائص الرسول ﷺ، وغيره من الأنبياء والدعاة، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشّورىٰ: ٥٢].

إذن فالهداية هدايتان: هداية التوفيق والتسديد، وقبول الحق والرضا به، وهذه بيد الله تعالى لا يملكها غيره، وهداية الدلالة والإرشاد والوعظ، وهذه يملكها النبي ﷺ، وغيره من الدعاة.

وفيها من الفوائد: جواز زيارة الكافر إذا كان من أجل دعوته إلى الإسلام؛ كما زار النبي ﷺ عمّه أبا طالب، وكما زار اليهودي الشاب الذي حضرته الوفاة، فدعاه النبي ﷺ إلى الإسلام، فنظر إلى أبيه يستشيره، فقال: أطع أبا القاسم. فأسلم اليهودي وقال: لا إله إلا الله. وشهد لله تعالى بالوحدانية، وللنبي ﷺ بالرسالة، ثم مات، فقال النبي ﷺ: «**الحمد لله الذي أنقذه من النار**»(١). وأمر الصحابة بأن يأخذوه ويغسلوه ويكفنوه، أما عمّه فإنه لم يقدّر الله له الهداية، ولم يسلم.

وفيها: مضرّة قرناء السوء حتى عند خروج الروح، فإن عبد الله بن أبي أمية، وأبا جهل بن هشام كانا من قرناء السوء؛ لذا ذكّراه بالحجة الملعونة؛ وهي اتباع الآباء والأجداد في الباطل، فقالا له: أترغب عن ملة أبيك عبد المطلب؟ ومعلوم أن عبد المطلب كان

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب «إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام؟»، رقم (١٢٩٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

على الشرك، وهي حجة فرعون حينما قال لموسى عليه السلام: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١﴾ [طه: ٥١]. وهي حجة قريش حيث قالوا: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾ [صٓ: ٧].

وفيها: تحريم اتباع الآباء والأجداد في الباطل؛ فهذا دين المشركين، قال الله تعالى عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزّخرُف: ٢٢] يعني: على دين ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ۝٢٢﴾ [الزّخرُف: ٢٢]. وفي الآية الأخرى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ۝٢٣﴾ [الزّخرُف: ٢٣] فلا يجوز اتباع الآباء والأجداد في الباطل، بل على الإنسان أن ينظر إذا كان الآباء والأجداد على الحق اتبعهم، وإذا كانوا على الباطل فلا.

وفيها: أن التوبة في مرض الموت صحيحة، طالما أن الروح لم تصل إلى الحلقوم، ولو كانت لا تفيد لما كان لدعوة النبي ﷺ لعمه أبي طالب فائدة؛ ولهذا نفعت اليهودي وهو في مرض الموت، فقد أسلم فصحت توبته، فالمريض مرض الموت تصح توبته، إلا إذا سيقت الروح ووصلت الحلقوم؛ لأن الروح تُساق من الرِّجل حتى تصل إلى الحلقوم، فإذا وصلت إلى الحلقوم فقد انتهى الأمر؛ ولهذا يقول النبي ﷺ: «**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يُغَرْغر**»(١). يعني: ما لم تصل الروح إلى الحلقوم، والله تعالى يقول: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الدعوات، باب «في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده»، رقم (٣٥٣٧)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب «ذكر التوبة» رقم (٤٢٥٣)، وأحمد (٢/ ١٣٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب».
وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه». «المستدرك» (٤/ ٢٨٦)
وقال الذهبي: «هذا حديث عال صالح الإسناد». «سير أعلام النبلاء» (٥/ ١٦٠).

ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النِّساء: ١٨].

وفيها: أنه لا يُستغفر للمشرك؛ لقوله ﷺ: «**والله لأستغفرن لك ما لم أُنْه عنك**»، ولا يدعى له، ولا يُترحم عليه، ولا يُتصدق عنه، ولا يُغَسَّل، ولا يُدفن في مقابر المسلمين؛ ولهذا لم يُغسل أبو طالب، ولم يصلَّ عليه؛ ولهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لما مات أبو طالب أتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، إن عمك الشيخ الضال قد مات. قال: فقال: «**انطلق فوَارِه، ثم لا تُحْدثن شيئاً حتى تأتيني**» .فواريته ثم أتيته، فأمرني فاغتسلت، ثم دعا لي بدعوات ما أحب أن لي بهن ما على الأرض من شيء[١].

وفيها: أن النبي لا يصلح للعبادة، وأنه نبي كريم، يطاع ويتبع، ولكن لا يعبد؛ ولهذا ما استطاع أن يهدي عمه أبا طالب، فهداية القلوب بيد الله عز وجل، وقد حرص النبي ﷺ كل الحرص على أن يهدي عمَّه فلم يستطع، ولله الحكمة البالغة، فدل على أن النبي ﷺ بشر ليس بيده شيء، فلا يستحق العبادة.

وقول النبي ﷺ: «**والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك**». هو سبب نزول قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١١٣]. وهذه الآية عامة في المشركين، وبَيَّنَ بعدها ما كان **بَيْنَ** إبراهيم عليه السلام وأبيه، فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الجنائز، باب «الرجل يموت له قرابة مشرك»، رقم (٣٢١٤)، والنسائي، كتاب الطهارة، باب «الغسل من موارة المشرك»، (١/ ١١٠)، وأحمد (١/ ٩٧) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٤].

وفيها: أن أبا طالب مات على الشرك، وفيه رد على من زعم أنه مات على الإسلام.

وفيها: أن ملة عبد المطلب هي الشرك؛ نذكر هذا لأن هناك بعض الناس من الرافضة من يدافع عن أبي طالب، ويزعم أنه مات على الإسلام ويترحم عليه.

وفيها: أن من عرف الحق ولم يقُلْ به ولم يتبعه، لا ينفعه ذلك، بل لا بد من الإيمان والاتباع، فأبو طالب كان قد عرف الحق، فهو متيقن أن النبي ﷺ على الحق، لكنه لما لم يؤمن به ولم يتبعه، فلم ينفعه؛ ولهذا قال في قصيدته:

واللهِ لن يَصلوا إليكَ بجمعِهِمْ ... حتى أُوَسَّدَ في الترابِ دَفينا
فاصدَعْ بأمرِك ما عليكَ غَضاضة ... وأبشِرْ بذاكَ، وقرَّ منهُ عُيونا
ودَعَوْتَني وزَعمتَ أنك ناصحٌ ... ولقد صدقْتَ وكنتَ ثَمَّ أمِينا
وعَرضْتَ دِيناً قد علمتُ بأنَّهُ ... مِن خيرِ أديانِ البريَّةِ دِينا
لولا المَلامةُ أو حِذاري سُبَّةً ... لوجَدْتني سَمحاً بذاك مُبِينا

وكذلك اليهود كانوا يعرفون النبي ﷺ ويعرفون صدقه، وعندهم وصفه في التوراة والإنجيل، وكانوا يستنصرون به على المشركين، ومع ذلك لما لم يؤمنوا به، لم تنفعهم المعرفة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة: ١٤٦]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة: ٨٩]. وكذلك كان فرعون يعلم أن موسى على الحق، وأنه رسول الله، ولكن لمّا استكبر عن الحقّ لم تنفعه المعرفة، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤]. وقال

عن موسى وعن قومه: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ۝٤٧﴾ [المؤمنون: ٤٧]. وإبليس أيضاً يعلم أن الله واحد، وأنه هو الخالق والرازق، وأنه لا شريك له، لا في أسمائه، ولا في صفاته، ويعلم أنه يجب عليه طاعة الله ﷻ، فلم ينفعه علمه ذلك، فلم يتَلقَّ أمر الله بالإذعان والطاعة، وإنما تلقاه بالاستكبار؛ حيث قال: ﴿أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝١٢﴾ [الأعراف: ١٢]أي: كيف أسجد لآدم وعنصري أحسن من عنصره، فهو مخلوق من الطين، وأنا مخلوق من النار، والنار أفضل من الطين، ولا يمكن أن يخضع الفاضل للمفضول. فمنعه الكبر عن الإيمان والاتباع.

وفيها أيضاً من الفوائد: أنه ينبغي للإنسان أن يتضرع إلى الله ﷻ في أن يهدي قلبه ويثبته؛ لأن الإنسان إذا لم يوفّق فإنه لا ينفعه عقله وقوته وذكاؤه، فأبو طالب كان ذكيّاً، وأبو جهل كان من أذكى الناس، واليهود كانوا أذكياء، ولكنهم لم يوفّقوا فلم ينفعهم ذكاؤهم، بل صار ذكاؤهم وبالاً عليهم، نسأل الله السلامة والعافية، ونسأله أن يهدي قلوبنا، وأن يثبتنا على الإسلام حتى الممات، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

فِيهِ مَسَائِلُ:

- **الأولى: تفسيرُ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الآيةَ.**

الهداية المراد بها هداية القلوب.

- **الثانيةُ: تفسيرُ قولِهِ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣] الآيةَ.**

وأنها تفيد تحريم الاستغفار للمشركين.

✦ الثالثةُ: ـ وهي المَسْأَلَةُ الكَبيرَةُ ـ تفسيرُ قولِهِ ﷺ: «قُلْ: لا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰه» بِخِلافِ ما عليهِ مَنْ يدَّعِي العِلْمَ.

يعني: قل: لا إله إلا الله. والمراد قولها عن إخلاص وصدق، وهو يعلم معناها، وليس المراد مجرد اللفظ؛ ولهذا امتنع أبو طالب عن قولها، لأنه كان يعلم معناها، فأما من قالها بلسانه ولم يعرف معناها، ولم يعمل بمقتضاها، فلا تنفعه، مثل عبَّاد القبور.

✦ الرابعةُ: أنَّ أَبَا جَهْلٍ وَمَنْ مَعَهُ يَعْرِفُونَ مُرَادَ النبيِّ ﷺ إذْ قالَ للرَّجُلِ: «قُلْ لا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰه»؛ فَقبَّحَ اللهُ مَنْ أَبو جَهْلٍ أعلمُ مِنْهُ بأَصْلِ الإِسلامِ.

عُبّاد القبور لا يعرفون معناها؛ ولهذا يقولونها، وأبو جهل امتنع عن قولها لأنه يعلم معناها.

✦ الخامسةُ: جِدُّه ﷺ ومُبَالَغَتُهُ في إِسلامِ عَمِّهِ.

لحرصه ﷺ على هدايته، وهو حريص على هداية الخلق كلهم، كما قال تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ [التّوبة: ١٢٨] يعني: على هدايتكم، وإيصال النفع الدنيوي والأخروي إليكم بكل طريق، ولا سيما عمه الذي كان أقرب الناس إليه، وكان يحوطه ويحميه ويدافع عنه، لكن الله حكيم عليم، له الحكمة البالغة سبحانه لم يقدّر له الهداية لحكمة يعلمها.

✦ السادسةُ: الردُّ علىٰ مَنْ زَعَمَ إِسلامَ عبدِ المُطَّلِبِ وَأَسْلافِهِ.

من الرافضة وغيرهم.

✦ السابعةُ: كونُهُ ﷺ استَغْفَرَ لهُ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ، بَلْ نُهِيَ عَنْ ذَلِكَ.

يعني: جزم بأنه استغفر له، ثم نهي عن ذلك، كأن هذا فيه إثبات للآثار التي فيها أنه ﷺ استغفر له ثم نسخ بعد ذلك، وعلى

هذا يكون قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ [التوبة: ١١٣] نزل بعد فترة من وفاة أبي طالب(١).

الثامنةُ: مَضرَّةُ أصحابِ السُّوءِ علىٰ الإنسانِ.

عبد الله بن أبي أمية، وأبو جهل لما ذكّراه الحجة الملعونة؛ وهي التمسك بدين الآباء والأجداد.

التاسعةُ: مَضرَّةُ تَعْظِيمِ الأَسلافِ والأَكابِرِ.

إذا كان تعظيماً في الباطل، أما إذا كان في حدود المشروع، فهذا لا بأس به.

العاشرةُ: الشُّبْهَةُ للمُبْطِلِينَ في ذَلِكَ؛ لاستِدْلالِ أَبِي جهلٍ بذلِكَ.

يعني: باتباع الآباء والأجداد والأسلاف في الباطل.

الحادِيَةَ عَشْرَةَ: الشَّاهدُ بكَوْنِ الأَعمالِ بالخَواتِيمِ؛ لأنَّهُ لو قالَها نَفَعَتْهُ.

ويدل له قوله ﷺ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**»(٢).

الثانيةَ عَشْرَةَ: التَّأَمُّلُ في كِبَرِ هذهِ الشُّبهةِ في قُلوبِ الضَّالِّينَ؛ لأنَّ في القِصَّةِ أَنَّهم لَمْ يُجَادِلُوهُ إِلَّا بِهَا؛ معَ مُبالَغَتِهِ ﷺ وتَكْرِيرِهِ، فلأَجْلِ عَظَمَتِها وَوُضُوحِها عندَهُمْ،

---

(١) انظر: تفصيل ذلك والروايات المتعددة في فتح الباري (٨/ ٣٩١).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب «لا يقول: «فلان شهيد»، رقم (٢٨٩٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (١١٢) من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

اقتَصَرُوا عليها.

وهي شبهة اتباع الآباء والأجداد، والتمسك بما كانوا عليه حتى الموت.

بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ هُوَ اَلْغُلُوُّ فِي اَلصَّالِحِينَ

وَقَوْلُ اَللَّهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النِّسَاء: ١٧١].

وَفِي اَلصَّحِيحِ(١): «عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فِي قَوْلِ اَللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ﴿٢٣﴾﴾ [نُوح: ٢٣]. قَالَ: هَذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى اَلشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمْ اَلَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَاباً وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا وَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ، وَنُسِيَ اَلْعِلْمُ عُبِدَتْ».

قَالَ اِبْنُ اَلْقَيِّمِ: قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ اَلسَّلَفِ: «لَمَّا مَاتُوا، عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ، ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمْ اَلْأَمَدُ فَعَبَدُوهُمْ»(٢).

وَعَنْ عُمَرَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ اَلنَّصَارَى اِبْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اَللَّهِ وَرَسُولُهُ»، أَخْرِجَاهُ(٣).

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب «﴿ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق﴾»، رقم (٤٩٢٠).

(٢) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان (١/ ١٨٤)، وانظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٥/ ٤٤٣).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾ [مَريَم: ١٦]، رقم (٣٤٤٥).

وَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ؛ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ اَلْغُلُوُّ»(١).

وَلِمُسْلِمٍ(٢) عَنْ اِبْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ ﷺ قَالَ: «هَلَكَ اَلْمُتَنَطِّعُونَ - قَالَهَا ثَلَاثاً».

الشَّرح

قصد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بهذه الترجمة أن يبيِّن أن الغلو في الصالحين يؤدي إلى الشرك بالله ﷻ الذي هو أعظم ذنب عُصي الله به في الأرض، وهو الذي ينافي التوحيد الذي هو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله.

والغلو في الصالحين هو الغالب على كفر بني آدم، وقد يكون الكفر بغير الغلو؛ إذ قد يكون بدعاء الكواكب، أو دعاء النجوم، أو بالسِحر، أو بإنكار أمر معلوم من الدين بالضرورة، أو بالاستكبار عن عبادة الله ﷻ وما إلى ذلك، لكن الأغلب في كفر بني آدم هو الغلو في الصالحين.

○ وقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ

---

(١) أخرجه النسائي، كتاب مناسك الحج، باب «التقاط الحصى»، (٥/ ٢٦٨)، وابن ماجه، كتاب المناسك، باب «قدر حصى الرمي»، رقم (٣٠٢٩)، وأحمد (١/ ٢١٥) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه». «المستدرك» (١/ ٦٣٧).
وقال النووي: «رواه النسائي بإسناد صحيح على شرط مسلم». «المجموع» (٨/ ١٣٨).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب العلم، رقم (٢٦٧٠).

وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النِّساء: ١٧١].

الغلو: هو الإفراط في التعظيم بالقول والاعتقاد.

والله تعالى نهى أهل الكتاب عن الغلو، وهو نهي لهذه الأمة وتحذير لها من أن تسلك مسلك أهل الكتاب الذين غلوا في أنبيائهم؛ فإن النصارى قد غلوا في عيسى عليه السلام حتى رفعوه إلى مقام الألوهية، وقالوا: إنه ابن الله -تعالى الله عما يقولون- وكما غلت اليهود في العُزير، فنهى الله هذه الأمة أن تغلو في دينها، أو تغلو في نبيها، كما غلت النصارى في عيسى عليه السلام، وكما غلت اليهود في العُزير، وهو تحذير لهذه الأمة من أن تسلك مسالك الظالمين والكافرين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾. فمحبة الصالحين دين وقربة إلى الله ﷻ، ولا يجوز الغلو فيهم، ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ فهو عليه السلام عبد ورسول.

﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ﴾ يعني: مخلوق بكلمة الله.

﴿أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أي: روح من الأرواح التي خلقها، وأضيفت إلى الله ﷻ للتشريف.

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ [النِّساء: ١٧١]. وإن كانت خطاباً لأهل الكتاب إلا أن المراد تحذير هذه الأمة، كما قال بعض السلف: مضى القوم ولم يُعْنَ سواكم.

○ **قوله**: «وَفِي الصَّحِيحِ: «عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ

وَنَسۡرٗا ﴿٢٣﴾﴾ [نُوح: ٢٣]. قَالَ: هَذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى اَلشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمْ اَلَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَاباً وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا وَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ، وَنُسِيَ اَلْعِلْمُ عُبِدَتْ».

هذا الحديث رواه البخاري في «صحيحه» عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ﴿٢٣﴾﴾. ووَدٌّ وسواع ويغوث ويعوق ونَسْر كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صَوَّرناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم. فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دَبَّ إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يسقون المطر، فعبدوهم[(١)].

○ **قوله**: «قَالَ اِبْنُ اَلْقَيِّم: قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ اَلسَّلَفِ: «لَمَّا مَاتُوا، عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ، ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمْ اَلْأَمَدُ فَعَبَدُوهُمْ»».

والعكوف على القبور قد يكون من الشرك الأكبر؛ وذلك إذا عكفوا على القبور تقرباً لصاحب القبر، أما إذا عكف على القبر ظنّاً منه أن الله تبارك وتعالى يحب ذلك، كان بدعة، كما لو صلى عند القبر، أو قرأ عند القبر، فالغلو في قبور الصالحين، وتصوير صورهم من أكثر أسباب وقوع الشرك في كثير من الأمم.

○ قوله: «وَعَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ اَلنَّصَارَى اِبْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٨/ ٢٣٥).

ٱللَّهِ وَرَسُولُهُ».

قال المؤلف: «أَخْرِجَاهُ». وهذا وَهَمٌ منه رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فالحديث لم يخرجه مسلم.

وهذا فيه نهي النبي ﷺ عن الإطراء، والإطراء هو مجاوزة الحد في المدح والكذب فيه(١).

والفرق بين الإطراء والغلو: أن الإطراء يكون في الأقوال، ومجاوزة الحدّ فيها، أما الغلو فإنه مجاوزة الحد في الأقوال والأفعال؛ لذا فالغلو أعم من الإطراء.

«لَا تُطْرُونِي»: أي: لا تمدحوني وتبالغوا في مدحي، فترفعوني فوق منزلتي - وهي منزلة الرسالة والعبودية - إلى مقام الألوهية، كما فعلت النصارى؛ حيث أطرت ابن مريم عليه الصلاة والسلام، فجعلوه إلهاً مع الله.

«إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ»: وهذا أشرف مقام، وهو مقام العبودية والرسالة؛ ولهذا وصفه الله تعالى في أشرف المقامات بالعبودية والرسالة، في مقام التحدي للمشركين؛ حيث قال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البَقَرَة: ٢٣]. وفي مقام الإسراء؛ حيث قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسرَاء: ١]. وفي مقام الدعوة، حيث قال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [الجنّ: ١٩]. وفي مقام إنزال الكتاب: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الكهف: ١] فأشرف مقامات النبي ﷺ هي مقام العبودية والرسالة؛ ولهذا قال: «إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ ٱللَّهِ وَرَسُولُهُ».

---

(١) النهاية: طرا (٢/ ١٢٣).

○ **قوله**: «وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ؛ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ اَلْغُلُوُّ».

هذا الحديث لم يَعْزُه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والحديث رواه الإمام أحمد في «مسنده»، والنسائي، وابن ماجه.

والحديث له سبب؛ وهو أن النبي ﷺ غداة جَمعْ، في حجة الوداع لما انصرف من مزدلفة يوم العيد، قال لابن عباس: «**هَلُمَّ الْقُط لي حصيات**». وذلك ليرمي جمرة العقبة، قال ابن عباس: فلقطت له حصيات هنّ حصى الخذف، يعني: صغيرات، فلما وضعهن بيده ﷺ وقال: «**نعم، بأمثال هؤلاء فارموا، وإياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو**».

○ **قوله**: «وَلِمُسْلِم عَنْ اِبْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ ﷺ قَالَ: «هَلَكَ اَلْمُتَنَطِّعُونَ - قَالَهَا ثَلَاثاً» أي: هلك المتنطعون، هلك المتنطعون، هلك المتنطعون، والتنطع هو: التعمق بالشيء، والمبالغة في البحث عنه، والتنقيب والتفتيش، على طريقة أهل الكلام الخائضين فيما لا يعنيهم، الداخلين فيما لا تبلغه عقولهم.

ومن التنطع أيضاً: ترك بعض المباحات تنطعاً يعني: يترك أكل اللحم بداعي الزهد، هذا من التنطع، أو يلبس القطن والكتان ولا يلبس الصوف، كما يفعل بعض الزهاد والعُبَّاد لا يلبس إلا الصوف، أو يترك الزواج، كل هذا من التنطع، وهذا الباب بهذه النصوص دليل على التحذير من الغلو في الصالحين، والغلو بجميع أنواعه، وفي الصالحين على سبيل الخصوص، وأن الغلو في الصالحين سبب عظيم من أسباب كفر بني آدم، وكفر كثير من الأمم، فكفر كثير من الأمم الغلو في الصالحين، والعكوف على قبورهم، وتصوير

صورهم، فالواجب على كل إنسان أن يحذر من الغلو والإطراء، وأن يبتعد عن الصور خصوصاً صور الصالحين، وصور المعظَّمين، وصور الرؤساء والملوك، وكذلك صور النساء؛ لما في ذلك من الفساد والشر، فتصوير الصور، والعكوف على القبور والغلو سبب كفر كثير من الأمم.

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولىٰ: أنَّ مَن فَهِمَ هذا البابَ وبَابَيْنِ بعدَهُ، تَبَيَّنَ لهُ غُربَةُ الإسلامِ، ورَأَىٰ مِنْ قُدْرَةِ اللهِ وتَقلِيبهِ للقُلُوبِ العَجَبَ.

الثانيةُ: معرِفَةُ أوَّلِ شِركٍ حَدَثَ علىٰ وَجْهِ الأَرضِ أنَّهُ بِشُبْهَةِ الصَّالِحينَ.

وهو بتصوير صورهم، والعكوف على قبورهم.

الثالثةُ: أوَّلُ شيءٍ غُيِّرَ بِهِ دِينُ الأَنبياءِ، وما سَبَبُ ذَلِكَ مع مَعْرِفَةِ أنَّ اللهَ أَرْسَلَهُمْ.

سببه: أنّهم صوّروهم حتّى يتذكّروا عبادتهم، ثمّ عكفوا على قبورهم، ثمّ طال عليهم الأمد فعبدوهم؛ فالصور والعكوف على القبور هي سبب كفر أكثر الخلق.

الرابعةُ: سببُ قَبُولِ البِدَعِ مع كَوْنِ الشَّرائِعِ والفِطَرِ تَرُدُّها.

لأن النفس تميل إلى الشرّ.

الخامسةُ: أنَّ سَبَبَ ذلك كُلِّهِ مَزْجُ الحَقّ بالباطِلِ، فالأَوَّلُ: مَحبَّةُ الصَّالحينَ، والثاني: فِعْلُ أُناسٍ مِنْ أَهلِ العِلم والدِّينِ شيئاً أَرَادُوا بهِ خيراً، فظَنَّ مَنْ بَعْدَهُمْ أَنَّهُمْ أَرادُوا بِهِ غَيْرَهُ.

يعني: أنهم صوّروا صورهم حتّى يتشوّقوا لعبادتهم، يريدون

الخير بذلك، لكنّه صار وسيلة إلى الشرك.

- **السادسةُ: تفسيرُ الآيةِ التي في «سُورَةِ نُوحٍ».**

يعني: قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نُوح: ٢٣].

- **السابعةُ: جِبِلَّةُ الآدَمِيِّ في كونِ الحقِّ يَنْقُصُ في قَلْبِهِ، والباطِلُ يَزِيدُ.**

- **الثامنةُ: أنَّ فيهِ شاهِداً لِمَا نُقِلَ عن السَّلَفِ أنَّ البِدْعَةَ سَبَبُ الكُفْرِ.**

- **التاسعةُ: معرفةُ الشَّيطانِ بِمَا تَؤُولُ إليهِ البِدْعَةُ، ولو حَسُنَ قَصْدُ الفاعِلِ.**

وذلك مثل: فعل قوم نوح، حَسُنَ قصدهم، لكنهم وقعوا بعد ذلك في الشرك.

- **العاشرةُ: معرفةُ القاعِدَةِ الكُلِّيةِ، وهيَ النَّهيُ عَنِ الغُلُوِّ، ومعرِفَةُ ما يَؤُولُ إليهِ.**

فالغلوّ يؤدي إلى الإفراط، والزيادة، ومجاوزة الحدّ.

- **الحادِيَةَ عَشْرَةَ: مضرَّةُ العُكُوفِ علىٰ القَبْرِ لأجلِ عَمَلٍ صالِحٍ.**

وذلك لأنّه يوصل إلى الشرك.

- **الثانيةَ عَشْرَةَ: معرفةُ النَّهيِ عَنِ التَّماثيلِ، والحِكْمَةِ في إزالَتِها.**

وذلك لأنّها وسيلة للشرك، فلا يجوز إبقاؤها.

- **الثالثةَ عَشْرَةَ: معرفةُ عِظَمِ شَأْنِ هذهِ القِصَّةِ، وشِدَّةِ الحاجةِ إليها مع الغَفْلَةِ عنها.**

يعني: قصّة قوم نوح حينما صوّروا الصور، وعكفوا على

القبور، فكان ذلك سبباً في وقوعهم في الشرك.

❖ الرابعةَ عَشْرَة: وهيَ أَعجَبُ وَأَعْجَبُ: قراءَتُهُمْ إيَّاهَا في كُتُبِ التَّفسيرِ والحَدِيثِ، ومَعْرِفَتُهُمْ بمعنى الكَلامِ، وَكَوْنُ اللهِ حالَ بينَهُ وبينَ قُلُوبِهِمْ، حتى اعتقَدُوا أَنَّ فِعْلَ قَوْمِ نُوحٍ أَفضَلُ العِباداتِ، اعتَقَدُوا أنَّ نَهْيَ اللهِ ورَسُولِهِ عنهُ هُو الكُفرُ المُبِيحُ للدَّمِ والمالِ.

وهذا هو الّذي يُفعل الآن عند قبر البدوي والرفاعي وغيرهما من القبور، مما هو ذريعة إلى الوقوع في الشرك - والعياذ بالله - وهو عين ما فعله قوم نوح، مع أنهم يقرؤون قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [نُوح: ٢٣]. ويقرءون تفسير هذه الآية، ثم هم بعد ذلك يفعلون مثل فعلهم، وهذا من العجب -نسأل الله العافية.

❖ الخامسةَ عَشْرَةَ: التَّصريحُ أنَّهُم لَمْ يُرِيدُوا إلَّا الشَّفاعَةَ.

ومع ذلك فإنهم قد وقعوا في الكفر، فما هم عليه الآن إنما هو دين المشركين قديماً، وقد أكد القرآن على هذا المعنى؛ قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يُونس: ١٨]. فإذا قال عُبَّاد القبور اليوم: نحن لا نقصد إلا الشفاعة. قلنا لهم: أبو جهل وأبو لهب ما كانا يقصدان إلا الشفاعة.

❖ السادسةَ عَشْرَةَ: ظَنُّهُمْ أنَّ العُلماءَ الذينَ صَوَّرُوا الصُّوَرَ أَرَادُوا ذَلِكَ.

أي: ظنّوا أنّهم يستسقون بهم، ويستشفعون بهم، والصواب: أنهم أرادوا فقط تذكّر عبادتهم.

❖ السابعةَ عَشْرَةَ: البيانُ العَظِيمُ في قولِهِ ﷺ: «لا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصارَى...» إلى آخره. فصَلَواتُ اللهِ وسلامُهُ على

مَنْ بَلَّغَ البلاغَ المُبينَ.

◆ الثامنةَ عَشْرَةَ: نَصِيحَتُهُ إِيَّانا بهَلاكِ المُتَنَطِّعِينَ.

ويدل له قوله ﷺ: «هلك المتنطّعون» قالها ثلاثاً.

◆ التاسعةَ عَشْرَةَ: التَّصريحُ أنَّها لَمْ تُعْبَدْ حتَّىٰ نُسِيَ العِلْمُ، فَفِيها بَيَانُ مَعْرِفَةِ قَدْرِ وُجُودِهِ، ومضرَّةِ فَقْدِهِ.

فلا شكّ أنّ العلم نور، فإذا فُقد العلماء هلك الناس؛ لأنّهم صاروا جهالاً، لا يجدون من يعلّمهم، ولا من يبيّن لهم الحقّ.

◆ العِشْرون: أنَّ سببَ فَقْدِ العِلْمِ موتُ العُلماءِ.

كما جاء في الحديث: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبق عالماً اتخذ الناس رءوسا جُهّالاً، فسُئلوا فأفتوا بغير علم، فضلُّوا وأضلُّوا**»[1].

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب «كيف يقبض العلم؟»، رقم (١٠٠)، ومسلم، كتاب العلم، رقم (٢٦٧٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

بَابُ مَا جَاءَ مِنَ التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبَدَ اللَّهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ، فَكَيْفَ إِذَا عَبَدَهُ؟!

فِي الصَّحِيحِ[١] عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَنِيسَةً رَأَتْهَا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الصُّوَرِ، فَقَالَ: «أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوِ الْعَبْدُ الصَّالِحُ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِداً، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ»، فَهَؤُلَاءِ جَمَعُوا بَيْنَ الْفِتْنَتَيْنِ: فِتْنَةِ الْقُبُورِ، وَفِتْنَةِ التَّمَاثِيلِ.

وَلَهُمَا عَنْهَا قَالَتْ: «لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا، فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: «لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»، يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا، وَلَوْلَا ذَلِكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِداً. أَخْرَجَاهُ[٢].

وَلِمُسْلِمٍ[٣] عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وَهُوَ يَقُولُ: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً، أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب «هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ويتخذ مكانها مساجد؟»، (٤٢٧)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم (٥٢٨).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب «ما ذكر عن بني إسرائيل»، رقم (٣٤٥٣)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم (٥٣١).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم (٥٣٢).

قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَّا فَلَا تَتَّخِذُوا اَلْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ».

فَقَدْ نَهَى عَنْهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ لَعَنَ - وَهُوَ فِي اَلسِّيَاقِ - مَنْ فَعَلَهُ، وَالصَّلَاةُ عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يُبْنَ مَسْجِدٌ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: «خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِداً». فَإِنَّ اَلصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونُوا لِيَبْنُوا حَوْلَ قَبْرِهِ مَسْجِداً، وَكُلُّ مَوْضِعٍ قُصِدَتِ اَلصَّلَاةُ فِيهِ، فَقَدِ اتُّخِذَ مَسْجِداً، بَلْ كُلُّ مَوْضِعٍ يُصَلَّى فِيهِ، يُسَمَّى مَسْجِداً، كَمَا قَالَ ﷺ: «جُعِلَتْ لِيَ اَلْأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً»[(١)].

وَلِأَحْمَدَ[(٢)] بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنْ اِبْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه مَرْفُوعاً: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ اَلنَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمْ اَلسَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَاَلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ اَلْقُبُورَ مَسَاجِدَ»، وَرَوَاهُ أَبُو حَاتِمٍ فِي صَحِيحِهِ.

الشَّرح

قصد المؤلف رحمه الله بهذه الترجمة أن يبيِّن أنه إذا كان يُغلّظ

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب «قول النبي ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا»»، رقم (٤٣٨)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٥).

وعلقه البخاري بصيغة الجزم في «صحيحه»، كتاب الفتن، باب «ظهور الفتن»، رقم (٧٠٦٧) دون قوله: «ومن يتخذ القبور مساجد».

وأورده الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٢٧)، وقال: «رواه الطبراني في «الكبير»، وإسناده حسن».

وأورده أيضًا (٨/ ١٣)، وقال: «رواه البزار بإسنادين، في أحدهما عاصم بن بهدلة وهو ثقة، وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح». وفاته أن ينسبه إلى أحمد في الموضعين.

على الذي يعبد الله عند قبر رجل صالح، ويُلعن، ويُقرن بالذم بمن تقوم عليهم الساعة، ويشدد عليه، وكان عمله وسيلة إلى الشرك، فإن الذي يفعل الغاية - وهي الشرك - أعظم وأشد.

○ **قوله**: «فِي ٱلصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتْ لِرَسُولِ ٱللَّهِ ﷺ كَنِيسَةً رَأَتْهَا بِأَرْضِ ٱلْحَبَشَةِ، وَمَا فِيهَا مِنَ ٱلصُّوَرِ، فَقَالَ: «أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمْ ٱلرَّجُلُ ٱلصَّالِحُ أَوْ ٱلْعَبْدُ ٱلصَّالِحُ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِداً، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ ٱلصُّوَرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ ٱلْخَلْقِ عِنْدَ ٱللَّهِ»».

وذلك أن أم سلمة رضي الله عنها كانت ممن هاجر إلى الحبشة، وكذلك أم حبيبة.

وفي لفظ آخر: أن أم سلمة وأم حبيبة ذكرتا للنبي ﷺ كنيسة كانت تسمى مارية، وهذه الكنيسة كان فيها صور، فأنكر النبي ﷺ ذلك، وبيّن ما هم فيه من الشرك؛ إذ كان هؤلاء إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح - الشك من الراوي - بَنَوا على قبره مسجداً، وصوّروا فيه تلك الصور.

○ **قال المؤلف** رحمه الله **تعليقاً على أهل الكتاب**: «فَهَؤُلَاءِ جَمَعُوا بَيْنَ ٱلْفِتْنَتَيْنِ: فِتْنَةِ ٱلْقُبُورِ، وَفِتْنَةِ ٱلتَّمَاثِيلِ».

فتنة القبور: بنوا على قبره مسجداً وعظّموه وصوروا فيه تلك الصور، فصارت تماثيل، فجمعوا بين الشَّرَّين، وكل ذلك من الوسائل الموصلة إلى الشرك.

وكذلك الصور إذا صورت كانت من أسباب تعظيم أصحابها، ومن أسباب وقوع الشرك، فهم قد جمعوا بين الشَّرَّين، وبين الوسيلتين؛ ولهذا قال المؤلف رحمه الله: فهؤلاء قد جمعوا بين الفتنتين؛ فتنة القبور، حيث بنوا على قبره مسجداً، وفتنة التماثيل، حيث

صوروا فيه تلك الصور.

«أُولَئِكَ» بكسر الكاف لمخاطبته أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا «شِرَارُ اَلْخَلْقِ عِنْدَ اَللَّهِ» هذا من تغليظ النبي ﷺ على هؤلاء.

فإذا كان قد بيّن أنهم من شرار الخلق ولعنهم، وقرنهم بمن تقوم عليهم الساعة، وهم إنما فعلوا وسيلة فقط تؤدي إلى الوقوع في الشرك، فإن الذي يفعل الغاية أعظم وأعظم.

○ **قوله**: «وَلَهُمَا» يعني: الشيخين البخاري ومسلم رحمهما الله «عَنْهَا» يعني: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا «قَالَتْ: «لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اَللَّهِ ﷺ» يعني: بدت عليه علامة الموت وأسبابه «طَفِقَ» يعني: جعل، وهي من أفعال الشروع «يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ» الخَمِيصَة: ثَوْب خَزٍّ، أو صُوف مُعْلم. وقيل: لا تُسَمَّى خَمِيصةً إلا أن تكون سَوْدَاء مُعْلمة، وكانت من لِبَاس الناس قديماً، وجَمْعُها الخمَائِصُ(١) «فَإِذَا اِغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا» يعني: إذا احتبس نفَسه كشفها، ثم يعيدها مرة أخرى فيضعها على وجهه «فَقَالَ» يعني: في هذه الحالة من كشف الخميصة ووضعها «لَعْنَةُ اَللَّهُ عَلَى اَلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اِتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا» يعني: يحذّر أمّته من أن يصنعوا مثل صنيعهم.

فالمراد من هذا الخبر التحذير، والمعنى: احذروا أن تفعلوا مثل فعلهم، فتصيبكم اللعنة كما أصابتهم.

«وَلَوْلَا ذَلِكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ» أي: لولا أنه خشي أن يتخذ قبره مسجداً لأبرز ودفن في العراء، لكن خشي أن يتخذ مسجداً؛ فلذلك

(١) من النهاية: خمص (٢/ ٨٠). بتصرف.

أمر أن يدفن في بيت عائشة رضي الله عنها «غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِداً» وهذا من إحسان عائشة رضي الله عنها، وقد جاء في الحديث: «**ما مات نبيّ إلا دُفن حيث يقبض**»(١). فعائشة رضي الله عنها ظنّت أنه ﷺ دُفن في بيتها؛ خشية أن يتخذ قبره مسجداً، ولكنه إنما دُفن في المكان الذي توفي فيه عملاً بالحديث.

○ **قوله**: «وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اَللَّهِ قَالَ: سَمِعْتُ اَلنَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وَهُوَ يَقُولُ: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اَللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ اَللَّهَ قَدْ اِتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اِتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً لَاِتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً، أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَّا فَلَا تَتَّخِذُوا اَلْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ».

يعني: أُنكر وأنفي أن يكون لي منكم خليل. والخليل هو المحبوب الذي بلغ الغاية في الحب.

والمعنى: لا أستطيع أن أتخذ منكم خليلاً؛ لأن قلبي قد امتلأ بخلة الله عز وجل.

والخلة: هي نهاية المحبة وكمالها، ولا يتسع القلب لأكثر من

---

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب الجنائز، باب «ذكر وفاته ودفنه ﷺ»، رقم (١٦٢٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

قال البوصيري: «هذا إسناد فيه الحسين بن عبد الله بن عبيد بن عباس الهاشمي، تركه الإمام أحمد بن حنبل وعلي بن المديني والنسائي، وقال البخاري: «يقال: إنه يتهم بالزندقة»، وقواه ابن عدي، وباقي رجال الإسناد ثقات». «مصباح الزجاجة» (٢/ ٥٧).

وقال ابن حجر: «وفي إسناده حسين بن عبد الله الهاشمي وهو ضعيف، وله طريق أخرى مرسلة ذكرها البيهقي في «الدلائل»». «فتح الباري» (١/ ٥٢٩).

خليل واحد، فالخلة هي المحبة التي تصل إلى سويداء القلب، وتتخلل شغاف القلب، فالنبي ﷺ لا يستطيع أن يتخذ من البشر خليلاً؛ لأن القلب لا يتسّع لأكثر من خليل واحد، وقد امتلأ قلبه بخلّة الله ﷻ، فلا يستطيع أن يتخذ أحداً خليلاً، ولو كان فيه متَّسَع لكان لأبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه.

لكن يتسع القلب لأكثر من حبيب؛ ولهذا كان النبي ﷺ يحب عائشة، ويحب أباها، ويحب أسامة بن زيد، ويحب أباه زيد بن حارثة، فهو ﷺ يحب الكثير.

وفيه: إثبات الخلة لنبينا ﷺ، وإثبات الخلة لإبراهيم عليه الصلاة والسلام.

وفيه فضل الصّدّيق رضي الله عنه؛ فإنه أفضل الناس بعد الأنبياء، ولو كان النبي ﷺ يستطيع أن يتخذ من أمته خليلاً لاتخذ أبا بكر خليلاً، ولكنه خليل الله، قد امتلأ قلبه بخلة الله ﷻ.

أما قول أبو هريرة رضي الله عنه: أوصاني خليلي...[1]، فالنبي ﷺ ما قال: إنه اتخذ أبا هريرة خليلاً، لكن أبو هريرة هو الذي اتخذه خليلاً.

وفيه إثبات الخلة لله ﷻ، وهي من الصفات التي تليق بالله وعظمته، لا تشبه صفات المخلوقين، فهو سبحانه وتعالى له وصف الخلة والمحبة، كما يوصف بالغضب، والسخط، والرضا، وهي ليست كصفات المخلوقين، ولكنها تليق بجلال الله وعظمته.

وفي هذا الحديث الرد على الجهمية الذين أنكروا الخلة

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصوم، باب «صيام أيام البيض»، رقم (١٩٨١)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، رقم (٧٢١).

والمحبة، وقالوا: إن المحبة لا تكون إلا لمناسبة بين المحبوب والمُحِب، ولا مناسبة بين الله والمخلوقين توجب تلك الخلة والمحبة. فأنكروا المحبة من الجانبين، وهذا من جهلهم وضلالهم، فالله تعالى هو الذي خلق عباده وربّاهم بنعمه، والعبيد عبيد الله، يعبدونه ﷻ، وهذه أعظم رابطة بين الرب والعبد.

ثم قال ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ».

سقطت على المؤلف ﷺ كلمة: «**وصالحيهم**»؛ ففي «صحيح مسلم»: «**ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتّخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد**». وسقطت أيضاً على الشارح، وهي موجودة في «صحيح مسلم»، وهذه الكلمة مهمة؛ ففيها النهي أيضاً عن اتخاذ قبور الصالحين مساجد، وهذا ما يفعل الآن.

وكأن السبب - والله أعلم - هو أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ﷺ لانشغاله بالدعوة إلى الله تعالى، والكتابة، والجهاد في سبيل الله، نقل هذا من كلام شيخ الإسلام ﷺ، وهذه اللفظة فاتت شيخ الإسلام ﷺ في كثير من كتبه - مع جلالة قدره، وحفظه العظيم - فتبعه الإمام محمد بن عبد الوهاب ﷺ.

وفيه الرد على الرافضة الذين اتخذوا قبور الأنبياء والصالحين مساجد، وهم أسبق الناس إلى الشرك.

وفيه: رد على طائفتين: الجهمية في إنكارهم المحبة والخلة، والرافضة في اتخاذهم قبور الصالحين وآل البيت مساجد.

وهاتان الطائفتان - أعني: الرافضة والجهمية - من أعظم الناس بدعة، حتى إن بعض العلماء أخرجهم من الثنتين والسبعين

فرقة، وحكموا بكفرهم؛ لقول النبي ﷺ: «**إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة، كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة، وإنها ستخرج من أمتي أقوام تتجارى بهم تلك الأهواء كما يَتَجارى الكَلَب**[1] **بصاحبه، فلا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله**»[2].

○ **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَقَدْ نَهَى عَنْهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ».

أي: نهى عن اتخاذ القبور مساجد، وذلك من وجوه:

الوجه الأول: أنه قال: «**ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد**». ففيه ذمّ للسابقين على اتخاذ القبور مساجد.

الوجه الثاني: أنه نهى عن ذلك حيث قال: «**فلا تتخذوا القبور مساجد**».

الوجه الثالث: أنه صرح بلفظ الفعل، فقال: «**فإني أنهاكم عن ذلك**».

ثم علّق المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ على ذلك فقال: «**فقد نهى عنه ﷺ في آخر حياته**». فقد كان هذا قبل وفاته ﷺ بخَمس ليال.

قوله: «ثُمَّ إِنَّهُ لَعَنَ - وَهُوَ فِي اَلسِّيَاقِ - مَنْ فَعَلَهُ».

يعني: أنه لعن فاعل ذلك وهو في سياق الموت، يعني: وروحه الشريفة تُساق.

---

(١) الكَلَب بالتحريك: داء يَعْرِض للإنسان من عَضِّ الكَلْب الْكَلِبِ فيُصِيبُه شِبْه الجُنون، فلا يَعَضُّ أحداً إلّا كَلِب، وتَعْرِض له أعْراضٌ رَدِيئة، ويَمْتَنِع من شُرْب الماء حتى يموت عَطَشاً. النهاية: كلب.

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب «شرح السنة»، رقم (٤٥٩٧)، وأحمد (٤/ ١٠٢) من حديث معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال المؤلف: «وَالصَّلَاةُ عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يُبْنَ مَسْجِدٌ» يعني: الصلاة عند القبور، حتى ولو لم يُبْنَ مسجد، فلا يشترط أن يُبْنَى مسجد على القبر، بل إذا صلّى عند القبر فقد اتخذه مسجداً؛ ولهذا قال رَحِمَهُ اللَّهُ: **«والصلاة عندها من ذلك، وإن لم يُبنَ مسجد»**.

○ **قوله**: «وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ:» أي: في الحديث السابق: «خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِداً» فَإِنَّ اَلصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونُوا لِيَبْنُوا حَوْلَ قَبْرِهِ مَسْجِداً»؛ لكمال علمهم بالله عَزَّ وَجَلَّ، وكمال تقواهم، وشدّة ورعهم، وبعدهم عن الشرك وأسبابه.

○ ثم قال المؤلف: «وَكُلُّ مَوْضِعٍ قُصِدَتِ اَلصَّلَاةُ فِيهِ، فَقَدِ اِتُّخِذَ مَسْجِداً» يعني: ولو لم يُبْنَ فيه مسجد.

○ **قوله**: «بَلْ كُلُّ مَوْضِعٍ يُصَلَّى فِيهِ، يُسَمَّى مَسْجِداً، كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «جُعِلَتْ لِيَ اَلْأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً» إذن فالصلاة عند القبور هي من باب اتخاذ القبور مساجد، الذي نهى عنه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولعن فاعله، بل كل موضع يُصَلَّى فيه يسمّى مسجداً، كما في الحديث: **«جُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»**.

○ **قوله**: «وَلِأَحْمَدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنْ اِبْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعاً: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ اَلنَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمْ اَلسَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَاَلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ اَلْقُبُورَ مَسَاجِدَ»، وَرَوَاهُ أَبُو حَاتِمٍ فِي صَحِيحِهِ».

بيّن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث أن شرار الناس صنفان:

الصنف الأول: من تدركهم الساعة وهم أحياء.

الصنف الثاني: الذين يتخذون القبور مساجد.

فالذين تدركهم الساعة وهم أحياء هم الكفرة؛ لأن الساعة لا تقوم إلا على الكفرة، كما جاء في الحديث الصحيح: **«يُرْسِلُ اللهُ**

مَطَراً لَا يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ، فَيَغْسِلُ الأَرْضَ حَتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ[١]**، ثُمَّ يُقَالُ لِلأَرْضِ: أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ، وَرُدِّي بَرَكَتَكِ. فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةِ، وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا، وَيُبَارَكُ فِي الرِّسْلِ، حَتَّى إِنَّ اللِّقْحَةَ مِنَ الإِبِلِ لَتَكْفِي الْفِئَامَ مِنَ النَّاسِ، وَاللِّقْحَةَ مِنَ الْبَقَرِ لَتَكْفِي الْقَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ، وَاللِّقْحَةَ مِنَ الْغَنَمِ لَتَكْفِي الْفَخِذَ مِنَ النَّاسِ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ رِيحاً طَيِّبَةً فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ، وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمُرِ**[٢]**، فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةَ»**[٣].

فالساعة لا تقوم إلا على الكفرة؛ ودليله قوله عليه الصلاة والسلام: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَى أَحَدٍ يَقُولُ: اللهُ، اللهُ**»[٤].

فعمارة هذا الكون بتوحيد الله ﷻ، والإيمان به، فإذا خلا الكون من التوحيد والإيمان خرب وقامت القيامة.

فإذن شرار الناس صنفان:

الصنف الأول: من تدركهم الساعة وهم أحياء، هذا هو الصواب، وأمّا قول الشارح الشيخ عبدالرحمن بن حسن[٥]: من

---

(١) الزلَفَة بالتَّحريك وجمعُها زَلَفٌ: مصانع الماء وتُجمَع على المَزَالِف أيضاً. أراد أن المطَر يُغَدِّرُ في الأرض فتَصِير كأنها مَصْنَعة من مصانِع الماء. وقيل: المِرآةُ شبهَّها بها لاسْتِوائها ونَظَافَتِها. وقيل: الرَّوضة. النهاية: زلف (٢/ ٣٠٩).

(٢) أي: يجامع الرجال النساء بحضرة الناس، كما يفعل الحمير، ولا يكترثون لذلك. شرح مسلم للنووي (١٨/ ٧٠).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الفتن وعلامات الساعة، رقم (٢٩٣٧) من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، رقم (١٤٨) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٥) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص (٢٤٠).

تدركهم مقدّماتها؛ كخروج الدابة، وطلوع الشمس من مغربها. فهذا ليس بصحيح، وهو لم يحققه رَحِمَهُ اللهُ في «فتح المجيد»، بخلاف شارح «تيسير العزيز الحميد»(١)، فإنه حققه، فقال: أي مَن تقوم عليهم الساعة، بحيث ينفخ في الصور وهم أحياء. وذلك لأن مقدّمات الساعة قد يكون فيها بعض الأخيار، فبعض المؤمنين يدركون الدجّال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ثم إذا طلعت الشمس من مغربها يبقى المؤمن على إيمانه، والكافر على كفره، ثم بعد ذلك تأتي ريح طيبة تقبض أرواح المؤمنين والمؤمنات.

فقوله: «مَنْ تُدْرِكُهُمْ اَلسَّاعَةُ أي: مقدّماتها. ليس بصحيح، بل المراد من تدركهم الساعة بالفعل؛ يعني: من تقوم عليهم الساعة وهم أحياء.

الصنف الثاني: الذين يتخذون القبور مساجد؛ لأن اتخاذ القبور مساجد من أكثر الوسائل الموصلة إلى الشرك.

ومناسبة الترجمة واضحة: في أن النبي ﷺ غلّظ وشدد على من اتخذ القبور مساجد؛ لأنه وسيلة إلى الشرك الأكبر، نسأل الله السلامة والعافية.

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولىٰ: ما ذَكَرَ الرَّسُولُ ﷺ فيمَنْ بَنَىٰ مَسْجِداً يُعبَد اللهُ فيهِ علىٰ قَبرِ رَجُلٍ صالِحٍ، ولَوْ صَحَّتْ نِيَّةُ الفاعِلِ.

لأنه وسيلة إلى غيره، أما نيته فخاصة به، مع أنها قد تكون

(١) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب (ص ٢٨٧).

وسيلة له في المستقبل، والمقصود أنه إذا بنى مسجداً فهو ممنوع: ولو صحت نيته، فلو قال: أنا أصلي لله، فنقول: هذا ممنوع؛ لأنه من وسائل الشرك.

- **الثانيةُ: النَّهيُ عن التَّماثيلِ، فإذا اجتَمعَ الأَمْرانِ تَغَلَّظَ الأمرُ.**
- **الثالثةُ: العِبْرَةُ في مُبالَغَتِهِ ﷺ في ذلك. كيفَ بيَّنَ لَهُمْ هذا أَوَّلاً، ثم قَبْلَ مَوْتِهِ بِخَمْسٍ قالَ مَا قالَ؛ ثُمَّ لمَّا كانَ في النَّزْعِ لَمْ يَكْتَفِ بمَا تقَدَّمَ.**
- **الرابعةُ: نَهيُهُ عَنْ فِعْلِهِ عندَ قَبْرِهِ قبلَ أنْ يُوجَدَ القَبْرُ.**

يدخل في قوله ﷺ: «ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك». وكذلك في قوله ﷺ: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد. اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

- **الخامسةُ: أنهُ مِنْ سُنَنِ اليهودِ والنصارىٰ في قبورِ أَنبِيَائِهِمْ.**
- **السادسةُ: لَعْنُهُ إِيَّاهُم علىٰ ذلك.**
- **السابعةُ: أَنَّ مُرادَهُ ﷺ تحذيرُنا عن قَبْرِهِ.**

يعني: عن فعله عند قبره بعد وفاته.

- **الثامنةُ: العِلَّةُ في عَدَمِ إبرازِ قَبْرِهِ.**

وجاء علة أخرى: أن كل نبي يدفن في المكان الذي مات فيه.

- **التاسعةُ: في معنىٰ اتِّخَاذِهِ مسجداً.**

بالصلاة عندها، وقراءة القرآن.

- **العاشرةُ: أنهُ قَرَنَ بينَ مَنِ اتَّخَذَها مسجداً وبَيْنَ مَنْ تَقُومُ عليهم السَّاعةُ، فذَكَرَ الذَّرِيعةَ إلىٰ الشِّركِ قبلَ وُقُوعِهِ مع خاتِمَتِهِ.**

أي: خاتمة الشرك، من تقوم عليهم الساعة ختموا حياتهم

بالشرك.

- **الحادية عَشْرَةَ: ذكرُهُ في خُطْبَتِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ بخَمْسٍ: الردُّ علىٰ الطَّائِفَتَيْنِ اللَّتَيْنِ هُمَا شَرُّ أهلِ البِدَعِ، بلْ أَخْرَجَهُمْ بعضُ السَّلفِ مِن الثِّنْتَيْنِ والسَّبعِينَ فِرْقَةً، وَهُمْ: الرَّافِضَةُ، والجَهمِيَّةُ. وبسببِ الرَّافِضَةِ حدَثَ الشِّركُ وعِبادَةُ القُبُورِ، وهُمْ أَوَّلُ مَنْ بنىٰ عليها المَسَاجِدَ.**

والرد على الجهمية بإثبات صفة الخلة، فالجعد بن درهم أنكر صفة الخلة والتكليم اللتين ترجع إليهما الصفات.

- **الثانيةَ عَشْرَةَ: ما بُلِيَ بهِ ﷺ مِنْ شِدَّةِ النَّزْعِ.**
- **الثالثةَ عَشْرَةَ: ما أُكرِمَ بهِ ﷺ مِنَ الخُلَّةِ.**
- **الرابعةَ عَشْرَةَ: التَّصريحُ بأنَّها أَعلىٰ مِنَ المَحَبَّةِ.**
- **الخامسةَ عَشْرَةَ: التَّصريحُ بأنَّ الصِّدِّيقَ رضي الله عنه أَفْضَلُ الصَّحابَةِ رضي الله عنهم.**
- **السادسةَ عَشْرَةَ: الإشارةُ إلىٰ خِلافَتِهِ رضي الله عنه.**

في قوله ﷺ: «لو كنت متخذًا من أمتي خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا» ومن كانت محبته أكثر كان أولى بالخلافة، وهذا إرشاد وليس تصريحاً.

بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ اَلْغُلُوَّ فِي قُبُورِ اَلصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أَوْثَاناً تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اَللَّهِ

رَوَى مَالِكٌ فِي اَلْمُوَطَّأِ[(١)] أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ ﷺ قَالَ: «اَللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَناً يُعْبَدُ، اِشْتَدَّ غَضَبُ اَللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اِتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ».

وَلِابْنِ جَرِيرٍ[(٢)] بِسَنَدِهِ عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ: «﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ١٩﴾ [النّجم: ١٩]، قَالَ: كَانَ يَلُتُّ لَهُمُ اَلسَّوِيقَ، فَمَاتَ، فَعَكَفُوا عَلَى قَبْرِهِ».

وَكَذَا قَالَ أَبُو اَلْجَوْزَاءِ، عَنْ اِبْنِ عَبَّاسٍ: «كَانَ يَلُتُّ اَلسَّوِيقَ لِلْحَاجِّ»[(٣)]، وَعَنْ اِبْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ زَائِرَاتِ اَلْقُبُورِ، وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا اَلْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ»، رَوَاهُ أَهْلُ اَلسُّنَنِ[(٤)].

---

(١) أخرجه مالك في «الموطإ» (١/ ١٧٢) رقم (٤١٤) عن عطاء بن يسار مرسلًا.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في «التفسير» (٢٧/ ٥٨).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ١٩﴾ رقم (٤٨٥٩).

(٤) أخرجه أبو داود، كتاب الجنائز، باب «في زيارة النساء القبور»، رقم (٣٢٣٦)، والترمذي، كتاب الصلاة، باب «ما جاء في كراهية أن يتخذ على القبر مسجدًا»، رقم (٣٢٠)، والنسائي، كتاب الجنائز، باب «التغليظ في اتخاذ السرج على القبور»، (٤/ ٩٤، ٩٥)، وابن ماجه، كتاب الجنائز، باب «ما جاء في النهي عن زيارة النساء القبور»، رقم (١٥٧٥)، وأحمد (١/ ٢٢٩) من رواية أبي صالح عن ابن عباس.
قال الترمذي: «حديث حسن».
وانظر: «فتح الباري في شرح صحيح البخاري» (٢/ ٤٠٢-٤٠٣).

الشَّرْح

هذه الترجمة أخذها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من النصوص، فالمراد باب ما جاء من النصوص في أن الغلوّ في قبور الصالحين يجعلها أوثاناً تعبد من دون الله.

والغلوّ يعني: الزيادة في المحبة، فمحبة الصالحين قربة ودين، فلا يجوز الغلو فيها؛ لأن الغلو فيها يوصل إلى الشرك، ولهذا قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ [النِّساء: ١٧١].

○ **قوله**: «رَوَى مَالِكٌ فِي اَلْمُوَطَّأِ أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ ﷺ قَالَ: «اَللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَناً يُعْبَدُ، اِشْتَدَّ غَضَبُ اَللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اِتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ».

هذا الأثر رواه مالك مرسلاً عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار، ورواه أيضاً عبد الرزاق في مصنفه(١)، ورواه البزّار مرفوعاً عن أبي سعيد(٢)، وله شاهد عند الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣) عن سهيل بن صالح عن أبيه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَناً، لَعَنَ اللَّهُ قَوْماً اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**».

فهذا حديث ثابت، وفيه تحريم الغلو في قبور الصالحين، والنبي ﷺ إنما قال هذا تحذيراً للأمة أن تغلو فيه عليه الصلاة والسلام؛ حتى لا يكون قبره وثناً.

وفيه: أن الله ﷻ قد صان قبره أن يُتخذ وثناً؛ فطهره وحماه

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١/ ٤٠٦) رقم (١٥٨٧) عن زيد بن أسلم مرسلًا.
(٢) «كشف الأستار عن زوائد البزار» (١/ ٢٢٠) رقم (٤٤٠).
(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٤٦).

بدعائه ﷺ، كما قال العلامة ابن القيم:

فأجاب ربُّ العالمين دعاءه وأحاطه بثلاثة الجدرانِ
حتى غدت أرجاؤه بدعائه في عِزَّة وحماية وصيانِ

والمعنى: أنهم لم يصلوا إلى القبر فيعبدوه؛ لأن الله حال بينهم وبينه بالجدران، ولكنه وقع الشرك فيه عليه الصلاة والسلام من بعيد؛ فهناك من دعا النبي ﷺ، واستغاث به، وذبح له، ونذر له، كما وقع الشرك في آخرين بدعائهم والاستغاثة بهم والذبح والنذر لهم.

وفيه: النهي عن اتخاذ القبر مسجداً، أو عيداً، ويدخل فيه الصلاة عنده، وقراءة القرآن، وبناء القباب عليه، ووضع الرياحين والزهور عليه، كل هذا من وسائل الشرك.

○ **قوله**: «وَلِابْنِ جَرِيرٍ بِسَنَدِهِ عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ: «﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩﴾ [النّجم: ١٩]، قَالَ: كَانَ يَلُتُّ لَهُمُ السَّوِيقَ، فَمَاتَ، فَعَكَفُوا عَلَى قَبْرِهِ» وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس: كان يلت السويق للحاج».

أصْلُه اللّاتُّ بالتشديد؛ لأنَّ الصَّنَم سَمِّي باسم الذي كان يَلُتُّ السَّويق للحاج - أي: يَخْلِطُه - على صخرة بيضاء، فلما مات غَلَوْ في قبره، وعبدوه من دون الله(١)، وعبدت الصخرة فخُفّفت التاء وجُعل اسْماً للصَّنَم(٢).

○ قوله: «وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ، وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ»».

واللعن: هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله، والضمير في قوله:

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٤٥٥).
(٢) انظر النهاية: (٤/ ٢٣٠).

«**عليها**». يعود على القبور. وقوله: «**والمتخذين عليها**». لا يعني البناء عليها فقط، بل إذا صلى عندها أو دعا عندها، فقد اتخذها مسجداً، فتشمله اللعنة.

وفيه دليل على أنه لا يجوز للنساء زيارة القبور، وقوله ﷺ: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها**»(١). خاص بالرجال، ولو قال قائل: إنه عام. فالجواب: أنه عام مخصوص بالنصوص التي دلّت على أن النساء لا يَزُرْنَ القبور في هذا الحديث وغيره.

والجمهور على أنه لا بأس بالزيارة، ويرون أن الرخصة عامة، ويستدلون بالأحاديث التي ظاهرها الجواز؛ كحديث أن النبي ﷺ مَرَّ على امرأة، وَهِيَ تَبْكِي عَلَى قَبْرٍ، فقَالَ لَهَا: «**اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي**». فَقَالَتْ لَهُ: إِلَيْكَ عَنِّي؛ فَإِنَّكَ لَا تُبَالِي بِمُصِيبَتِي. قَالَ: وَلَمْ تَكُنْ عَرَفَتْهُ. فَقِيلَ لَهَا: إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَأَخَذَ بِهَا مِثْلُ الْمَوْتِ، فَجَاءَتْ إِلَى بَابِهِ، فَلَمْ تَجِدْ عَلَيْهِ بَوَّاباً، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي لَمْ أَعْرِفْكَ. فقَالَ: «**إِنَّ الصَّبْرَ عِنْدَ أَوَّلِ صَدْمَةٍ**»(٢).

فلم ينهها النبي ﷺ عن زيارة القبر، وإنما أمرها بالصبر.

واستدلوا كذلك بحديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عندما قالت للنبي ﷺ: كيف أقول لهم يا رسول الله - تعني: أهل البقيع -؟ فقال النبي ﷺ: «**قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون**»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجنائز، رقم (٩٧٧) من حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب «زيارة القبور»، رقم (١٢٨٣)، ومسلم، كتاب الجنائز، رقم (٩٢٦) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الجنائز، رقم (٩٧٤).

لكن هذه الأحاديث محمولة على أن ذلك كان قبل النهي، هذا هو الصواب في المسألة، وإن كان الجمهور يرون أنه لا بأس من زيارة النساء، لكن الأقرب أن الرخصة لا تشمل النساء، وأن عموم الرخصة مخصوص بأحاديث نهي النساء عن زيارة القبور.

والسُّرُج: يعني الإنارة والإضاءة؛ لأن هذا من وسائل الشرك، إذ جعْل السرج على المقبرة من كهرباء وإنارة، وما شابه ذلك، ومثله أيضاً بناء القباب، ووضع الرياحين، وكتابة الأسماء عليها، كل هذا من وسائل الشرك، فالواجب الحذر من كل هذه الوسائل.

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولى: تفسيرُ الأَوثانِ.

وهي كل ما يعبد من دون الله، لكن فُرِّق بين الصنم وبين الوثن[1]: بأن الصنم ما كان على صورة، والوثن عام، ليس شرطاً فيه أن يكون على صورة، فكل ما يعبد من دون الله يسمى وثناً؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد».

الثانيةُ: تفسيرُ العِبادَةِ.

وهي الأوامر والنواهي التي جاء بها الشرع؛ كالصلاة، والزكاة، والدعاء، والذبح، والنذر، وغيرها.

الثالثةُ: أَنَّهُ ﷺ لَمْ يَسْتَعِذْ إِلَّا مِمَّا يَخَافُ وُقُوعَهُ.

وفيه الردّ على من قال: إن النبي ﷺ لا يمكن أن يكون قبره وثناً، فهذه الأمة مطهرة ومعصومة من الشرك. وهذا باطل؛ فالنبي ﷺ قد استعاذ بالله من ذلك، ولولا أنه يمكن أن يقع لما سأل ربه

(١) انظر الفروق اللغوية للعسكري (ص ٣٢٣).

ذلك.

❖ **الرابعةُ: قَرْنُهُ بهذا اتِّخَاذَ قبورِ الأَنبياءِ مَسَاجِدَ.**

يعني: أنه إذا كانت قبور الأنبياء السابقين قد اتُّخذت مساجد، فإنه من الممكن أن يتخذ قبره ﷺ مسجداً كغيره من الأنبياء؛ ولهذا دعا ﷺ ربه، فاستجاب الله دعاءه، فلم يصل أحد إليه مباشرة.

❖ **الخامسةُ: ذِكرُ شِدَّةِ الغَضبِ مِنَ اللهِ.**

لأنه وسيلة إلى الشرك.

❖ **السادسةُ: ـ وهيَ مِنْ أَهَمِّهَا ـ معرفةُ صِفَةِ عِبادَةِ اللَّاتِ التي هي أكبَرُ الأَوْثانِ.**

وأن سبب ذلك هو الغلو في هذا الرجل الصالح؛ حيث عكفوا على قبره، ثم عبدوه من دون الله.

❖ **السابعةُ: معرفةُ أنَّهُ قبرُ رَجُلٍ صالِحٍ.**

هذا يدل على أن الفتنة بقبور الصالحين، وقبور الأنبياء أشد؛ لأن الناس يميلون إليهم، بخلاف الفساق وغيرهم.

❖ **الثامنةُ: أنَّهُ اسمُ صَاحِبِ القَبْرِ، وَذِكْرُ معنىٰ التَّسمِيَةِ.**

❖ **التاسعةُ: لَعْنُهُ زَوَّارَاتِ القُبُورِ.**

وهذا يفيد التحذير من هذا الفعل، وأنه من الكبائر.

❖ **العاشرةُ: لَعْنُهُ مَنْ أَسْرَجَها.**

يعني: من أنارها؛ لأنه من وسائل الشرك.

بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ ٱلْمُصْطَفَى ﷺ جَنَابَ ٱلتَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ كُلَّ طَرِيقٍ يُوَصِّلُ إِلَى ٱلشِّرْكِ

وَقَوْلِ ٱللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] ٱلْآيَةَ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ ٱللَّهِ ﷺ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُوراً، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيداً، وَصَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ»، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ، وَرُوَاتُهُ ثِقَاتٌ(١).

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ ٱلْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً يَجِيءُ إِلَى فُرْجَةٍ كَانَتْ عِنْدَ قَبْرِ ٱلنَّبِيِّ ﷺ فَيَدْخُلُ فِيهَا فَيَدْعُو، فَنَهَاهُ وَقَالَ: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثاً سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي عَنْ جَدِّي عَنْ رَسُولِ ٱللَّهِ ﷺ قَالَ: "لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيداً، وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُوراً، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ تَسْلِيمَكُمْ لَيَبْلُغُنِي أَيْنَ كُنْتُمْ»، رَوَاهُ فِي ٱلْمُخْتَارَةِ(٢).

الشَّرْح

هذا الباب عقده المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ لما ورد من النصوص في حماية

(١) أخرجه أبو داود، كتاب المناسك، باب «زيارة القبور»، رقم (٢٠٤٢)، وأحمد (٢/ ٣٦٧)، قال النووي: «رواه أبو داود بإسناد صحيح». «المجموع» (٨/ ٢٠٣)، وقال ابن القيم: «وهذا إسناد حسن، رواته كلهم ثقات مشاهير». «إغاثة اللهفان» (١/ ٣٦٧)، وقال ابن حجر: «سنده صحيح». «فتح الباري» (٦/ ٤٨٨).

(٢) أخرجه الضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» (٢/ ٤٩) رقم (٤٢٨)، قال الهيثمي: «رواه أبو يعلي، وفيه حفص بن إبراهيم الجعفري ذكره ابن أبي حاتم ولم يذكر فيه جرحًا، وبقية رجاله ثقات». «مجمع الزوائد» (٤/ ٣).

النبي ﷺ جناب التوحيد، ومبالغته، وتحريره، وسدّه جميع الذرائع والوسائل التي توصل إلى الشرك.

وحماية التوحيد إنما تكون بالمبالغة في منع الشيء الذي يُضَادُّه، فهو يحميه ويبعد عنه جميع الأشياء التي تنافيه.

والمصطفى: هو النبي ﷺ قد اصطفاه الله ﷻ بالنبوة والرسالة، وجعله خاتم النبيين، وأفضل الأنبياء والمرسلين، وجعل رسالته عامة خاتمة، وجعله رسولاً إلى الثقَلَين الجن والإنس، والعرب والعجم، فهو المصطفى عليه الصلاة والسلام.

وجناب التوحيد: أي جانب التوحيد، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حمى جناب التوحيد مما يخالطه، أو يقربه من الشرك وأسبابه.

○ **قوله**: وقولُ اللهِ تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ﴾ خطاب للعرب ﴿رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ يعني: من جِنسكم وبِلُغتكم، تفهمون لغته، وتعرفون مدخله ومخرجه، ليس غريباً؟! يتكلم بألسنتكم، ولا يتكلم بلسان أعجمي، وليس غريباً لا تعرفون نسبه، ولا مدخله، ولا مخرجه، ولا منشأه، بل هو من أنفسكم.

هو دعوة أبيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]. وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في آية أخرى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤]. فهو ﷺ مِنّة امتنّ الله بها على عباده المؤمنين بعد أن اشتد

الظلام، وبعد أن طُمِست معالم التوحيد، وامتلأت الأرض بالشرك، ومَقَتَ الله أهل الأرض عَرَبَهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، وكثُرت الأصنام حتى صار لكل قبيلة صنم، ولكل أهل بيت صنم.

وفي هذا الظلام الدامس منّ الله تعالى بهذا النور على هذه الأمة؛ فهو ﷺ نور من عند الله يُستضاء به، وهو من بني آدم، مخلوق من أبيه عبد الله، وأمه آمنة، وهو نور معنوي ﷺ، وليس نوراً ذاتيّاً كما يزعم بعض الغلاة الصوفية؛ بل هو لحم ودم، بأبي هو وأمي.

بعثه الله ﷻ ليهدي الناس، ويزكيهم ويطهرهم من أدران الشرك والكفر والمعاصي، ويعلمهم الكتاب والحكمة، والحكمة هي السنة.

﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤] أي: كانوا قبل بعثته في بُعْد عن الصواب بيّن لكل أحد.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ يعني: يشقّ عليه الشيء الذي يشقّ عليكم، وأعظم شيء يشقّ على الأمة ويعنِّتها ويوقعها في الإثّم هو الشرك، فاقتضى ذلك أنه ﷺ حذّر من الشرك، وبالغ في النهي عن أسبابه وذرائعه.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ يعني: حريص على هدايتكم، وإيصال النفع الدنيوي والأخروي إليكم.

﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨] فهو ﷺ رءوف رحيم بالمؤمينن، فهو يعطف عليهم،، ويرفق بهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الحجر: ٨٨]. وكما وصفه الله ﷻ ووصف صحابته الكرام رضوان الله عليهم أجمعين بقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [الفتح: ٢٩].

فهو ﷺ بالمؤمنين رءوف رحيم، لكنه شديد على الكافرين،

فقد جاءه نَاسٌ مِنْ عُرَيْنَةَ ثم اجْتَوَوُا الْمَدِينَةَ، فَرَخَّصَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ أنْ يَأْتُوا إِبِلَ الصَّدَقَةِ، فَيَشْرَبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا، فَقَتَلُوا الرَّاعِيَ، وَاسْتَاقُوا الذَّوْدَ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأُتِيَ بِهِمْ، فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَسَمَرَ أَعْيُنَهُمْ، وَتَرَكَهُمْ بِالْحَرَّةِ يَعَضُّونَ الْحِجَارَةَ(١).

والصحابة رضي الله عنهم أشداء على الكفار، لكنهم رحماء فيما بينهم، قال فيهم ربنا تبارك وتعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ وأعرضوا عن التوحيد، واستمروا على شركهم وعنادهم.

﴿فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ أي: يكفيني الله، ويكفي أتباعي من المؤمنين.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحقّ سواه.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: اعتمدت عليه، وفوضت أمري إليه.

﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة: ١٢٩] أي: هو رب المخلوقات، وهو فوق العرش سبحانه وتعالى.

○ **قوله**: «عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُوراً»» هذا نهي، والنهي يفيد التحريم، يعني: لا تعطّلوها من الصلاة والعبادة فتكون بمنزلة القبور؛ لأن القبور هي التي لا يصلى فيها.

وهذا فيه حثّ على أن يجعل المسلم من صلاته في بيته؛ ولهذا شُرع للمسلم أن يصلي النوافل في بيته، قال ﷺ: «**صلوا أيها الناس**

(١) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب «استعمال إبل الصدقة وألبانها لأبناء السبيل»، رقم (١٥٠١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

في بيوتكم؛ فإن أفضل الصلاة صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة»[١]. والصلاة في البيت أفضل إلا الفرائض، وما تُسنّ لها الجماعة؛ كصلاة العيد، والاستسقاء، والكسوف، والتراويح، وما عدا ذلك فالصلاة في البيوت أفضل، كالنوافل، والسنن الرواتب، وصلاة الضحى، وصلاة الليل وغيرها، فالصلاة في البيت أبعد عن الرياء، وفيها حث لأهل البيت للاقتداء بهذا الفعل.

وفي الحديث: «**لا تجعلوا بيوتكم مقابر؛ إن الشيطان ينفر من البيت الذي يُقرأ فيه سورة البقرة»**[٢]. فيشرع للمسلم أن يصلي في بيته وأن يقرأ فيه، أما المقبرة فلا يصلَّى فيها، ولا يُقرأ فيها القرآن، ولا يُدْعى عندها؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**لا تَجْعَلُوا بُيوتَكُم قُبوراً**». أي: لا تجعلوها كالمقابر التي لا يصلى فيها، ولا يدعى فيها.

«وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيداً»: العِيدُ عند العرب الوقت الذي يَعُودُ فيه الفَرَح والحزن[٣]. يعني: لا تعتادوا المجيء إلى قبري في كل وقت، وفي كل حين، كلما دخلتم المسجد، وكلما جئتم إلى الصلاة؛ لأن هذا يكون بمثابة العيد، والعيد ما يعتاد مجيئه وقصده وتكراره، إما بعود السنة كالعيد، أو بعود الأسبوع، أو بعود الشهر؛ ولهذا أنكر أهل العلم على من اعتاد أن يسلم على النبي ﷺ كلما دخل المسجد، وقالوا: هذا ليس بمشروع. حتى إن بعضهم قد أنكر

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب «صلاة الليل»، رقم (٧٣١)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، رقم (٧٨١) من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، رقم (٧٨٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر اللسان: عود (٣/ ٣١٩).

قول: زرت قبر النبي ﷺ.

«وَصَلّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّ صَلاتَكُم تَبْلُغُني حَيْثُ كُنْتُمْ» أي: صلوا عليّ في أي مكان، فإن صلاتكم هذه ستصلني.

وفي الحديث عن النبي ﷺ: **«ما من أحد يُسَلِّمُ عليَّ إلا رد الله عليَّ روحي حتى أرد عليه السلام»**[١]. وفي اللفظ الآخر: **«إلا وكَّل الله به ملكاً يبلغني»**[٢].

○ **قوله:** «وعَنْ عَلِيٍّ بن الحسين: أنّه رأى رَجُلاً يَجيء إلى فُرْجَةٍ كانَتْ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِي ﷺ فَيَدْخُلُ فِيها فَيَدْعو، فَنَهَاهُ وقالَ: ألا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثاً سَمِعْتُهُ مِنْ أبي عَنْ جَدّي عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ قالَ: «لا تَتَّخِذوا قَبْري عِيداً، ولا بُيوتَكُم قُبوراً، وَصَلّوا عَلَيّ؛ فَإِنَّ تَسْلِيمَكُمْ يَبْلغُني أيْنَ كُنْتُم»، رواه في «المختارة».

يعني: الضياء محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن عبد الرحمن بن إسماعيل بن منصور المقدسي في المختارة فيما اختاره من الأحاديث، قال السيوطي[٣]: الحافظ ضياء الدين محمد بن عبدالواحد المقدسي، جمع كتاباً سماه «المختارة»، التزم فيه الصحة، وذكر فيه أحاديث لم يسبق إلى تصحيحها[٤].

وهذا مرسل جيد الإسناد، وفيه أن علي بن الحسين رأى رجلاً

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب المناسك، باب «زيارة القبور»، رقم (٢٠٤١)، وأحمد (٢/ ٥٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال النووي: «رواه أبو داود بإسناد صحيح». «المجموع» (٨/ ٢٠٠)، وقال ابن الملقن: «رواه أبو داود بإسناد جيد». «البدر المنير» (٥/ ٢٩٠)، وقال ابن حجر: «رواته ثقات». «فتح الباري» (٦/ ٤٨٨).

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣/ ٤٨٩).

(٣) تدريب الراوي (١/ ١٤٤).

(٤) انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء (٢٣/ ١٢٨).

يأتي إلى فرجة في قبر النبي ﷺ فيدخل فيها ويدعو، فنهاه وقال: لا تفعل هذا. ثم قال: ألا أحدثك حديثاً سمعته من أبي - وهو الحسين - عن جدي - وهو علي بن أبي طالب - عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا تَتَّخِذوا قَبْري عِيداً، ولا بُيوتَكُم قُبوراً**». يعني: لا تأتوا قبري كلما جئتم. «**وَصَلّوا عَلَيّ؛ فَإِنَّ تَسْلِيمَكُمْ يَبْلغُني أيْنَ كُنْتُم**». يعني: في أي مكان.

ومثله أيضاً ما رواه سعيد بن منصور[١] في «سننه» عن سهيل بن أبي سهيل قال: رآني علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عند القبر، فناداني وهو في بيت فاطمة يتعشى، فقال: هَلُمَّ إلى العشاء. فقلت: لا أريده. فقال: ما لي رأيتك عند القبر؟ قلت: سلمت على النبي ﷺ. فقال: إذا دخلت المسجد فسلم. ثم قال: إن رسول الله ﷺ قال: «**لا تتخذوا قبري عيداً، ولا تتخذوا بيوتكم مقابر، لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، وصلوا عليَّ، فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم**». ما أنت ومَن بالأندلس إلا سواء.

قال شيخ الإسلام رحمه الله[٢]: فهذان المرسلان من هذين الوجهين المختلفين يدلان على ثبوت الحديث، لا سيما وقد احتج به من أرسله، وذلك يقتضي ثبوته عنده لو لم يكن روي من وجوه مسندة غير هذين، وكيف وقد تقدم مسنداً.

وهذا يدل على أنه لا يشرع للمسلم أن يعتاد المجيء إلى قبر النبي ﷺ في كلّ وقت، وكلما دخل المسجد، وأنه إنما يزوره بعض

---

(١) رواه سعيد بن منصور في «سننه» مرسلًاو كما في «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢٧/ ١٢١).

قال ابن القيم: «مرسل». «إغاثة اللهفان» (١/ ١٩٢).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٣٢٤).

الأحيان، أمّا إذا فعل هذا كلما دخل المسجد فهذا منهي عنه؛ لأنه قد يفضي به إلى الغلو، ولأن هذا لم يعمله الصحابة الكرام، فيمنع ذلك سدّاً للذريعة، وحماية لجناب التوحيد.

فِيهِ مَسَائِلُ:

- الأولىٰ: تفسيرُ آيةِ براءَةَ.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]. وأن النبي يشقّ عليه ما يشقّ على أمته، وأعظم ما يشقّ على الأمة ويعنتها هو الشرك، فاقتضى ذلك أن يحذرهم من الشرك وأسبابه وذرائعه.

- الثانيةُ: إبعادُهُ أُمَّتَهُ عن هذا الحِمَىٰ غايةَ البُعْدِ.

لأنه ﷺ أكمل الناس نصحاً لأمته، فيقتضي هذا أن يحذّر من الشرك وأسبابه، وذرائعه.

- الثالثةُ: ذِكرُ حِرصِهِ علينا ورَأْفَتِهِ ورَحْمَتِهِ.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ يعني: حريص على هدايتكم، وإيصال النفع الدنيوي والأخروي إليكم، وأعظم نفع للإنسان هو إبعاده عن أسباب الهلاك، بالبعد عن الشرك وأسبابه.

- الرابعةُ: نَهْيُهُ عَن زِيَارَةِ قَبْرِهِ علىٰ وَجْهٍ مَخْصُوصٍ، مع أنَّ زِيارَتَهُ مِنْ أَفْضَلِ الأَعمالِ.

وذلك خوفاً من الوصول إلى الشرك.

- الخامسةُ: نَهْيُهُ عَن الإكثارِ مِنَ الزِّيَارَةِ.

- السادسةُ: حثُّهُ علىٰ النَّافِلَةِ في البيتِ.

وذلك في قوله ﷺ: «صلوا في بيوتكم؛ فإن أفضل صلاة المرء

في بيته إلا المكتوبة».

◄ السابعةُ: أنَّهُ مُتَقَرِّرٌ عِندَهُمْ أنَّهُ لا يُصَلَّىٰ في المَقْبَرَةِ.

لأن المقبرة ليست مكاناً للصلاة؛ فلهذا نهى عن جعل البيوت مقابر، يعني: لا تشبهوها بالمقابر التي لا يصلى فيها.

◄ الثامنةُ: تعليلُهُ ذلك بأَنَّ صلاةَ الرَّجُلِ وسَلامَهُ عليهِ يَبْلُغُهُ وإِنْ بَعُدَ، فلا حاجةَ إلىٰ مَا يَتَوَهَّمُهُ مَنْ أَرَادَ القُرْبَ.

◄ التاسعةُ: كونُهُ ﷺ في البَرزَخِ تُعْرَضُ عليه أَعمالُ أُمَّتِهِ في الصلاةِ والسَّلامِ عليهِ.

وهذه المسألة فيها خلاف بين أهل العلم؛ فقد خصصها بعضهم بالصلاة والسلام عليه، أما بقية الأعمال فالأحاديث فيها ضعيفة لا تثبت، ذكرها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «النونية» وفي غيرها، ومنها: «**حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم، فإذا أنا مت كانت وفاتي خيراً لكم، تعرض علي أعمالكم، فإذا رأيت خيراً حَمِدت الله، وإن رأيت شرّاً استغفرت لكم**»(١). وما أشبه ذلك، وكلها أحاديث لا تثبت، والصواب أن هذا خاص بالصلاة والسلام عليه فقط؛ لما جاء في الحديث: «**ما من أحد يسلم علي إلا ردّ الله عليّ روحي فأردّ عليه السلام**»(٢).

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه البزار في «المسند» (٥/ ٣٠٨) رقم (١٩٢٥) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.
قال الحافظ العراقي: «إسناد جيد». «طرح التثريب» (٣/ ٢٧٥)، وقال الهيثمي: «رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح». «مجمع الزوائد» (٩/ ٢٤).

(٢) تقدم تخريجه.

بَابٌ مَا جَاءَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَعْبُدُ الْأَوْثَانَ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النِّسَاء: ٥١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ﴾ [المَائدة: ٦٠].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ [الكهف: ٢١].

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «فَمَنْ؟»[(١)] أَخْرَجَاهُ.

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِيَ الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ، وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضاً،

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب «قول النبي ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم»»، رقم (٧٣٢٠)، ومسلم، كتاب العلم، رقم (٢٦٦٩).

وَيَسْبِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً»[(١)].

وَرَوَاهُ الْبَرْقَانِيُّ فِي صَحِيحِهِ، وَزَادَ: «وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي اَلْأَئِمَّةَ اَلْمُضِلِّينَ، وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمْ اَلسَّيْفُ، لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَوْمِ اَلْقِيَامَةِ، وَلَا تَقُومُ اَلسَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى تَعْبُدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي اَلْأَوْثَانَ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ، ثَلَاثُونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ اَلنَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى اَلْحَقِّ مَنْصُورَةٌ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اَللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى»[(٢)].

الشَّرْح

هذه الترجمة أراد بها المؤلف رَحِمَهُ اللهُ الردّ على من قال: إن هذه الأمة معصومة من الشرك، وأنها مطهرة، وأنه لا يقع فيها شرك، بل هي معصومة، وقد يستدلون بحديث: «**إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم**»[(٣)]. وهذا الحديث أجاب عنه العلماء بأجوبة، منها:

الجواب الأول: أن المراد أن الشيطان قد يئس أن يعبده الصحابة المصلون في جزيرة العرب، الذين ثبت الإيمان في قلوبهم؛ لأنهم خبَروا الشرك وعرفوه، وذاقوا مرارته، فهم في مأمن من الوقوع فيه؛ لأن الله تعالى قد عصمهم وثبتهم، بخلاف الأعراب

(١) أخرجه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، رقم (٢٨٨٩).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الفتن والملاحم، باب «ذكر الفتن ودلائلها»، رقم (٤٢٥٢)، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب «ما يكون من الفتن»، رقم (٣٩٥٢)، وأحمد (٥/ ٢٧٨).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، رقم (٢٨١٢) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

الذين لم يثبت الإيمان في قلوبهم.

الجواب الثاني: أن الشيطان قد يئس أن يطبق الناس جميعاً على الشرك، ولكن قد يقع الشرك من بعضهم.

الجواب الثالث: أن الشيطان لمّا رأى ظهور الإسلام وانتشاره وعلوّه، يئس وظنّ أنه لا يحصل الشرك، وهو ليس بمعصوم في يأسه، كما أنه ليس بمعصوم في رجائه، ولم يقل النبي ﷺ: إن الله أيأسه. بل هو الذي يئس لمّا رأى ظهور الإسلام، وظنّ أنه لا يقع الشرك.

فبعض عُبّاد الأصنام والأوثان الذين يعبدون القبور يقولون: إنّ هذا ليس بشرك. ويقولون: إن هذه الأمّة مطهّرة معصومة لا يقع فيها شرك. ويقولون: إن دعاء الصالحين، والالتجاء إليهم، والاستغاثة بهم، ليس بشرك، وإنما نستشفع بمحبة الصالحين. واتهموا من ينهى عن ذلك بعدم محبة الصالحين، وانتقاصهم، والحط من مراتبهم العالية.

فالمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد أن يبيّن في هذا الباب أن الشرك واقع في هذه الأمة؛ ولهذا استدلّ بحديث ثوبان وفيه: «**لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين، حتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان**».

وقد ثبت في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**لا يذهب الليل والنهار حتى تُعبد اللات والعُزى، ثم يبعث الله ريحاً طيبة فيتوفى كل من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، فيبقى من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم**»[1].

وقال ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دَوْس**

(١) أخرجه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، رقم (٢٩٠٧) من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

على ذي الخَلَصة»[(١)]، وهو صنم لدوس، هُدم ثم أعيد ثانية، وهدم في زمن الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ، ولا يَبْعُد أن يعود مرة ثالثة.

○ **وقَوْلُه تَعالى:** ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النِّسَاء: ٥١-٥٢].

في هذه الآية تعجب من حال اليهود والنصارى أنهم فَضّلوا الشرك وما عليه أهل الجاهلية على دين الإسلام وعلى التوحيد.

وقد جاء أن حُيَي بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة فقالوا لهم: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم، فأخبرونا عنا وعن محمد، فقالوا: ما أنتم وما محمد؟ فقالوا: نحن نصل الأرحام، وننحر الكوماء - وهي الناقة السمينة -، ونسقي الماء على اللبن، ونفك العناة، ونسقي الحجيج، ومحمد صنبور[(٢)] قطع أرحامنا، واتبعه سراق الحجيج من غفار. فنحن خير أم هو؟ فقالوا: أنتم خير وأهدى سبيلاً، فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النِّسَاء: ٥١][(٣)] وهؤلاء اليهود من الأمة، ومع ذلك وقع منهم الشرك، ففيه الردّ على من قال: إنه لا يقع في هذه

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الفتن، باب «تغيير الزمان حتى تعبد الأوثان»، رقم (٧١١٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) صنْبُورِ: فَرْد ضَعِيف ذليل لَا أهل لَهُ وَلَا عقِب وَلَا نَاصِر. تهذيب اللغة (١٢/ ١٩٠).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٣/ ٩٧٤)، والطبراني في الكبير (١١٦٤٥).

الأمة الشرك.

○ وقَوْلُهُ تَعالَى: ﴿قُلْ﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من أهل الكتاب، الطاعنين في دينكم الذي هو توحيد الله، وإفراده بالعبادة دون ما سواه ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾ خطاب لليهود والنصارى ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً﴾ يعني: جزاء، هل أخبركم بشرٍّ جزاء مما تظنون بنا؟ أنتم المتصفون بهذه الصفات، ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ هذه أوصاف اليهود، إذاً أنتم شرٌّ مما تظنّون بنا جزاءً وعقوبة في الآخرة، شر مما تظنون بنا؟ من يتصف بهذه الصفات وهم أنتم أيها اليهود ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٦٠﴾ [المائدة: ٦٠] وهذه أوصاف الكفرة، فدلّ على أن الشرك واقع في هذه الأمة.

○ وقَوْلُهُ تَعالَى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ٢١﴾ [الكهف: ٢١].

هذا في قصة أصحاب الكهف، في الفتية الذين فرّوا بدينهم من قومهم لمّا ماتوا، واتخاذ المساجد وسيلة للشرك، وسيلة لعبادتها، وفعلهم هذا ليس بحجة، وإنما بيان أن ما فعلوه مخالف للشرع، وأنه وسيلة للشرك، فدلّ على أن الشرك واقع في هذه الأمة.

○ **قوله**: «عَنْ أَبِي سعيدٍ رضي الله عنه أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ» سَنَن يعني: طُرق من قبلكم «حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ». القذة: ريشة السهم، يعني: كما تشبه ريشة السهم الريشة الأخرى، فأنتم تعملون كما تعمل الأمم السابقة «حَتّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ». قالوا: يا رَسُولَ الله، اليهودَ والنَّصارى؟ قالَ: «فَمَنْ؟». يعني: فمن الناس إلا أولئك؟!

دلّ على أن هذه الأمة تتبع الأمم السابقة، وأنّ الشرك واقع في هذه الأمة كما وقع في الأمم السابقة، ففيه الردّ على من قال: إن هذه الأمة مطهرة معصومة من الشرك.

○ **قوله**: «ولِمُسْلِم عَنْ ثَوبانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رسُولَ الله صلّى الله عليهِ وسلَّم قالَ: «إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَها ومَغَارِبَها، وإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُها مَا زُوِيَ لِي مِنْها».

ثوبان هو مولى النبي ﷺ. وهذا من دلائل النبوة؛ حيث إن الله زوى له الأرض، وجُمعت وزويت له، وكشف له كأنه ينظر إليها، وأنه رأى مشارقها ومغاربها كأنها في كفّ، هذه من الآيات العظيمة، ومن خصائص النبي ﷺ، ودلائل نبوته.

«وإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُها مَا زُوِيَ لِي مِنْها» هذا من دلائل نبوته، وأنه رسول الله حقّاً، وفيه بشارة لانتشار الإسلام، وفتح فارس والروم، وقد وقع؛ فإنه فُتحت فارس والروم في عهد عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خاصة، ثم توسعت الفتوح.

«وَأُعْطِيتُ الكَنْزَيْنِ: الأَحْمَرَ والأَبْيَضَ» أي: الذهب والفضة؛ الأحمر: الذهب، وهو كنز قيصر الروم، والأبيض: الفضة، وهو كنز كسرى الفرس؛ لأن الغالب عند الكياسرة الجواهر والفضة، والغالب عند القياصرة الذهب.

وقد فُتحت فارس والروم وأتي بكنوزهما وأنفقت في سبيل الله، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**والذي نفسي بيده، لتنفقن كنوزهما في سبيل الله**»[١] أُتي بكنوز كسرى وقيصر في عهد عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب «علامات النبوة في الإسلام»، رقم (٣٦١٨)، ومسلم، كتاب الفتن، رقم (٢٩١٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

«وَإنّي سَأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتي أنْ لا يُهْلِكَها بِسَنةٍ بعامّةٍ، وأنْ لا يُسلِّطَ علَيهِم عَدُواً مِنْ سِوَى أنْفُسِهِم، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وإنَّ ربي قالَ: يا مُحَمّد، إذا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لا يُرَدُّ» هذا القضاء المُبْرم الذي لم يعلّق، لا يردّ، فالقضاء قضاءان: قضاء مبرم غير معلق بشيء، وهناك قضاء معلق؛ قد يعلق القَدَر بالدعاء، أو بصلة الرحم، فمثلاً قد يعلَّق طول العمر بصلة الرحم، وهكذا، وهناك قضاء مبرم لم يعلق بشيء: «**إذا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لا يُرَدُّ**».

«وإنّي أعْطَيْتُكَ لأُمَّتِكَ أنْ لا أُهْلِكَهُمْ بِسَنةٍ بِعامَّةٍ» هذا فيه بشارة بأنّ الله لا يهلك هذه الأمة هلاكاً عامّاً، أو بعدو من غيرهم يجتاحهم كما حصل للأمم السابقة؛ فإنّ الله أهلك قوم نوح بالطوفان - الغرق -، وأهلك قوم هود بالريح، وقوم صالح بالصيحة، وأغرق فرعون وقومه، أمّا هذه الأمة فإن الله تعالى لا يهلكها إهلاكاً عاماً، لا بسنةٍ عامة، ولا بجدبٍ عام.

«وأنْ لا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوّاً مِنْ سِوَى أنْفُسِهِم فَيَسْتَبيحَ بَيْضَتَهُمْ» يعني: يجتاحهم اجتياحاً كاملاً «وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِها حَتّى يَكُونَ بَعضُهُم يُهلِكُ بَعْضاً، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضاً» يعني: يسلط بعضهم على بعض في القتال، فالقتال هو الباقي، كما قال ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥].

حينما دعا ألا يهلكهم الله من فوقهم، والثانية من تحتهم، والثالثة أن لا يجعل بأسهم بينهم، أعطي أن لا يهلكهم الله من فوقهم ولا من تحتهم، وسأل الله أن لا يجعل بأسهم بينهم، فمُنع من ذلك، فعُلم أن القتال بين المسلمين موجود.

فالنبي ﷺ أُعطي اثنتان ومُنع الثالثة: أعطي ألا يهلكهم بعذاب من فوقهم ومن تحتهم، ومُنع ألا يجعل بأسهم بينهم وهو القتال، وهو حاصل الآن.

○ **قوله**: «ورواهُ البَرْقَانيُّ في «صَحِيحهِ»»: هو الإمام الحافظ شيخ الفقهاء والمحدثين أبوبكر أحمد بن محمد بن أحمد بن غالب الخوارزمي البرقاني الشافعي شيخ بغداد، صنف التصانيف، وخرج على الصحيحين، حدث عنه البيهقي والخطيب البغدادي وغيرهم(١).

وزادَ: «وَإِنّما أخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمةَ المُضِلِّينَ».

وهم العلماء والأمراء، فإذا ضلّوا ضلّ الناس؛ لأنهم هم قدوة الناس، هم الذين يقودون الناس، فإذا فسد العلماء وفسد الأمراء، فسد الناس؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**وَإِنّما أخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمةَ المُضِلِّينَ**».

«وإذا وَقَعَ عَلَيْهِمْ السَّيفُ لَمْ يُرْفَعْ إلى يَوم القِيامَةِ» وهذا هو الواقع؛ كما حصل في قتل عمر ثم قتل عثمان، فاستمر القتال ولن يرتفع إلى قيام الساعة.

«وَلا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتي بِالمشْرِكينَ، وَحَتّى تَعْبُدَ فِئامٌ مِنْ أُمَّتِي الأَوْثَانَ» هذا هو الشاهد من الحديث، وفيه دليل على أن الشرك واقع في هذه الأمة، والردّ على من قال: إنه لا يقع.

«حَتى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتي بِالمشْرِكينَ»: قبائل من أمة محمد ﷺ تلحق بالمشركين.

---

(١) قال الخطيب: كان ثقة ورعاً ثبتاً، لم نر في شيوخنا أثبت منه، صنف مسنداً ضمنه ما اشتمل عليه صحيح البخاري ومسلم، توفي سنة ٤٢٥ هـ. انظر: تاريخ بغداد (٤/ ٣٧٣-٣٧٦)، وتذكرة الحفاظ للذهبي (٣/ ١٠٧٤-١٠٧٦).

«وَحَتّى تَعْبُدَ فِئامٌ مِنْ أُمَّتِي الأَوْثَانَ»: والفئام: هم الجماعات الكثيرة.

«وإنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتي كَذّابونَ ثَلاثُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أنّه نَبِيٌّ، وَأَنا خَاتَمُ النَّبيينَ، لا نَبِيَّ بَعْدي»: وهذا وقع، والمراد بـ«**كذابون ثلاثون**» من لهم شوكة وأتباع، بخلاف الذي ليس له شوكة، كمن قالها عن جنون وهوس، هؤلاء كثيرون، المراد بالكذابين الثلاثين الذين يكون لهم شوكة وأتباع.

وقد ظهر الأسود العنسي في اليمن، وادعى النبوة في زمن النبي ﷺ، وقتله الصحابة في زمن الصديق. وطليحة الأسدي ادعى النبوة ثم تاب وأسلم، ومسيلمة الكذاب، وسجاح التميمية كذلك امرأة ادعت النبوة، ثم المختار بن أبي عبيد الثقفي بعد ذلك ادعى النبوة، وغيرهم كثير.

«وَلا تَزالُ طائفةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الحقِّ مَنْصُورةً، لا يَضُرُّهُم مَنْ خَذَلَهُم حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ تباركَ وَتَعالَى»: هذه بشارة بأن هذه الأمة لا ينزع منها الخير، بل تبقى طائفة على الحق.

«حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ»: وهي الريح الطيبة التي تقبض أرواح المؤمنين والمؤمنات، واستدلّ به بعضهم على أنّ الإجماع حجة؛ لأنه لا بد أن يكون فيهم الطائفة المنصورة، وعلى أن الاجتهاد لا ينقطع.

فِيهِ مَسَائِلُ:

- الأولى: تفسيرُ آيةِ النِّساءِ.
- الثانيةُ: تفسيرُ آيةِ المائدةِ.

أي: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ

﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النِّسَاء: ٥١].

❖ **الثالثةُ: تفسيرُ آيةِ الكهفِ.**

وهي قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ [الكهف: ٢١].

❖ **الرابعةُ: ـ وهيَ مِنْ أَهمِّها ـ ما مَعْنَىٰ الإيمانِ بالجِبتِ والطَّاغُوتِ في هذا المَوْضِعِ؟ هل هو اعتِقَادُ قَلبٍ؟ أو هُوَ مُوافقَةُ أَصحابِها مع بُغْضِهَا ومَعْرِفَةِ بُطلانِها؟**

إذا وافق أصحابها فهو مثلهم، والمعرفة وحدها لا تكفي، فإذا وافقهم بقلبه، فإنه في هذه الحالة آمن بالجبت والطاغوت - نسأل الله السلامة والعافية -، إلا إذا كان مكرهاً على ذلك، وعبد الشيطان في الظاهر وكره ذلك بقلبه، فهذا استثناه الرب في قوله: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النّحل: ١٠٦]. فالقلب ليس لهم سلطان عليه.

❖ **الخامسةُ: قولُهُمْ: إنَّ الكفارَ الّذين يَعرفون كُفْرَهُمْ أَهْدَىٰ سبيلاً مِنَ المؤمنينَ!**

وبذلك أظهر اليهود كفرهم - والعياذ بالله - لما قالوا: (المشركون أهدى سبيلاً من المؤمنين)، وهذا زيادة في كفرهم نعوذ بالله.

❖ **السادسةُ: ـ وهي المَقصُودَةُ بالتَّرجَمَةِ ـ أنَّ هذا لا بُدَّ أَنْ يُوجَدَ في هذهِ الأُمَّةِ، كما تَقَرَّرَ في حديثِ أَبي سعيدٍ.**

في حديث أبي سعيد: قوله ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم». قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟». وفي لفظ: «فمن الناس إلا أولئك؟» يعني: لابد أن يقع في هذه الأمة كما وقع في الأمم السابقة.

السابعةُ: التَّصريحُ بوُقُوعِها ـ أَعْنِي: عِبادَةَ الأَوْثانِ ـ في هذهِ الأُمةِ في جُمُوعٍ كثيرةٍ.

كما في قوله ﷺ: «حتى تعبد فئام من أمتي الأوثان». والفئام هم الجموع الكثيره، «وحتى يلحق حي من أمتي بالمشركين». وهذا فيه ردّ على من قال: إن هذه الأمة مطهرة معصومة من الشرك، لا يقع فيها شرك، فهذا باطل؛ بل هي معصومة في جملتها لا تُطبق على الشرك، أما الشرك من بعضها فواقع.

الثامنةُ: العجَبُ العُجابُ: خروجُ مَنْ يدَّعي النُّبوةَ، مِثلَ المُختارِ، معَ تَكَلُّمِهِ بالشَّهادَتَيْنِ، وتَصْرِيحِهِ أنَّهُ مِنْ هذهِ الأُمَّةِ، وأنَّ الرَّسولَ حَقٌّ، والقرآنَ حقٌّ، وفيهِ أنَّ مُحَمَّداً خاتَمُ النَّبيينَ، ومع هذا يُصَدَّقُ في هذا كُلِّهِ مع التَّضَادِّ الوَاضِحِ! وقَدْ خَرَجَ المُخْتَارُ في آخِرِ عَصْرِ الصَّحابَةِ، وتَبِعَهُ فِئامٌ كَثِيرةٌ.

لما ادعى المختار النبوة صار هذا ناقضاً من نواقض الإسلام، ولا ينفعه كونه يدعي أنه مسلم، وكونه آمن بالقرآن، أو أقر بنبوة النبي محمد ﷺ؛ لأنه لما فعل الناقض ما نفعه، لأن كونه تكلَّم بالشهادتين، وكونه آمن بمحمد رسول الله، وأنه خاتم النبيين، نقضه بدعواه النبوة، ومع ذلك يوجد من يصدقه.

التاسعةُ: البِشارَةُ بأنَّ الحقَّ لا يزولُ بالكُلِّيَّةِ كما زالَ فِيمَا مَضَىٰ، بل لا تزالُ عليهِ طائفةٌ.

في الحديث: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة».

العاشرةُ: الآيةُ العَظيمةُ: أنَّهُم مع قِلَّتِهِمْ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، ولا مَنْ خالَفَهُمْ.

وهذا من فضل الله تعالى وإحسانه لهذه الأمة؛ أن هذه الطائفة

منصورة، ولا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، لكنها تقل وتكثر، تكون متنقلة، وتكون أيضاً متفرقة، لا يلزم أن تكون في مكان واحد.

◆ **الحاديةَ عَشْرَةَ: أنَّ ذلكَ إلىٰ أَشْراطِ السَّاعةِ.**

والمراد: إلى قرب قيامها، إلى مجيء الريح الطيبة.

◆ **الثانيةَ عَشْرَةَ: ما فيهِ مِنَ الآياتِ العَظِيمةِ: منها: إِخبارُهُ بأَنَّ اللّه زَوَىٰ لهُ المَشَارِقَ والمَغارِبَ، وأخبرَ بمَعنىٰ ذلك فوَقَعَ كما أَخبَرَ، بخلافِ الجَنُوبِ والشَّمالِ. وإِخبارُهُ بأَنَّهُ أُعْطِيَ الكَنْزَيْن. وإخبارُهُ بإجابةِ دَعْوَتِهِ لأُمَّتِهِ في الاثْنَتَيْنِ. وإخبارُهُ بأنَّهُ مُنِعَ الثَّالثةَ.**

والثالثة هي ألا يجعل بأسهم بينهم، فمُنع من ذلك، وعُلم أن القتال بين المسلمين موجَود.

وقوله ﷺ: «زويت لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها» لم يذكر جنوبها وشمالها، فصار الاتساع من جهة الشرق والغرب.

وإخبارُهُ بوقوعِ السَّيفِ، وأَنَّهُ لا يُرْفَعُ إِذَا وَقَعَ.

وهو القتال من زمن عثمان رضي الله عنه.

وإخبارُهُ بإِهلاكِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً، وسَبْيِ بعضِهِمْ بعضاً. وخوفُهُ علىٰ أُمَّتِهِ من الأئِمَّةِ المُضِلِّينَ. وإخبارُهُ بِظُهُورِ المُتَنَبِّئِينَ في هذهِ الأُمَّةِ. وإخبارُهُ بِبَقَاءِ الطَّائفةِ المَنْصُورَةِ.

وهو من علامات ودلائل نبوته عليه الصلاة والسلام.

وكُلُّ هذا وَقَعَ كما أَخْبَرَ، مع أَنَّ كُلَّ واحِدَةٍ مِنهَا مِنْ أَبْعَدِ ما يكونُ في العُقُولِ.

❖ **الثالثةَ عَشْرَةَ: حَصْرُهُ الخوفَ علىٰ أُمَّتِهِ من الأئِمَّةِ المُضِلِّينَ؟!**

وهو قوله: «وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين». أتى بأداة الحصر (إنما)، والأئمة المضلون هم رؤساء الناس من الأمراء والعلماء، إذا ضلّوا وزلّوا زلّت بهم الأمة، وضلّ الناس تبعاً لهم.

❖ **الرابعةَ عَشْرَةَ: التَّنبيهُ علىٰ معنىٰ عِبادَةِ الأوثانِ.**

وأنه واقع في هذه الأمة، والتحذير من ذلك.

بَابُ مَا جَاءَ فِي اَلسِّحْرِ

وَقَوْلِ اَللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البَقَرَة: ١٠٢].

وَقَوْلِهِ: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النِّسَاء: ٥١].

قَالَ عُمَرُ: «اَلْجِبْتُ اَلسِّحْرُ، وَالطَّاغُوتُ اَلشَّيْطَانُ»(١).

وَقَالَ جَابِر: «اَلطَّوَاغِيتُ كُهَّانٌ، كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ اَلشَّيْطَانُ، فِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٌ»(٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ ﷺ قَالَ: «اِجْتَنِبُوا اَلسَّبْعَ اَلْمُوبِقَاتِ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اَللَّهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «اَلشِّرْكُ بِاَللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ اَلنَّفْسِ اَلَّتِي حَرَّمَ اَللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ اَلرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اَلْيَتِيم، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ اَلزَّحْفِ، وَقَذْفُ اَلْمُحْصَنَاتِ اَلْغَافِلَاتِ اَلْمُؤْمِنَاتِ»(٣).

---

(١) علقه البخاري في «صحيحه» بصيغة الجزم، كتاب التفسير، باب «قوله ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ [النِّسَاء: ٤٣]» (٦/ ٤٥).
ووصله سعيد بن منصور في «التفسير» من سننه رقم (٦٤٩).
قال ابن حجر: «وإسناده قوي». «فتح الباري» (٨/ ٢٥٢)

(٢) علقه البخاري في «صحيحه» بصيغة الجزم، كتاب التفسير، باب «قوله ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ [النِّسَاء: ٤٣]» (٦/ ٤٥).
ووصله ابن أبي حاتم في «التفسير» (٣/ ٩٧٦) رقم (٥٤٥٢).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الوصايا، باب «قول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النِّسَاء: ١٠]»، رقم (٢٧٦٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (٨٩).

وَعَنْ جُنْدَبٍ مَرْفُوعاً: «حَدُّ اَلسَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ»[(١)]، رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ. وَقَالَ: اَلصَّحِيحُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ.

وَفِي صَحِيحِ اَلْبُخَارِيِّ[(٢)] عَنْ بَجَالَةَ بْنِ عَبَدَةَ قَالَ: «كَتَبَ عُمَرُ بْنُ اَلْخَطَّابِ رضي الله عنه أَنِ اُقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ». قَالَ: فَقَتَلْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرَ.

وَصَحَّ عَنْ حَفْصَةَ رضي الله عنها أَنَّهَا أَمَرَتْ بِقَتْلِ جَارِيَةٍ لَهَا سَحَرَتْهَا فَقُتِلَتْ[(٣)]، وَكَذَلِكَ صَحَّ عَنْ جُنْدَبٍ[(٤)].

قَالَ أَحْمَدُ: عَنْ ثَلَاثَةٍ مِنْ أَصْحَابِ اَلنَّبِيِّ ﷺ[(٥)].

الشَّرْح

عقد المؤلف رحمه الله هذا الباب لذكر ما جاء في السحر، أي: ما

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الحدود، باب «ما جاء في حد الساحر»، رقم (١٤٦٠).
قال الترمذي: «هذا حديث لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وإسماعيل بن مسلم المكي يضعف في الحديث من قبل حفظه، وإسماعيل بن مسلم العبدي البصري قال وكيع: «هو ثقة»، ويروى عن الحسن أيضًا، والصحيح عن جندب موقوف».
وقال: «سألت محمدًا عن هذا الحديث فقال: «هذا لا شيء، وإنما رواه إسماعيل بن مسلم»، وضعف إسماعيل بن مسلم المكي جدًّا». «علل الترمذي» رقم (٤٣٠).
وقال ابن عبد البر: «حديث ليس بالقوي». «الاستذكار» (٨/ ١٦٠).
وقال ابن القيم: «والصحيح أنه موقوف على جندب بن عبد الله». «زاد المعاد» (٥/ ٦٢).
وقال ابن حجر: «في سنده ضعف». «فتح الباري» (١٠/ ٢٣٦).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب «في أخذ الجزية من المجوس»، رقم (٣٠٤٣)، وأحمد (١/ ١٩٠).
وأخرجه البخاري، كتاب الجزية، باب «الجزية والموادعة مع أهل الحرب»، رقم (٣١٥٦)، أصل الحديث دون قصة قتل السواحر.

(٣) أخرجه مالك في «الموطإ» (٢/ ٨٧١).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ١٤٥).

جاء فيه من الذنب والوعيد.

والسِّحر في اللغة: عبارة عما خفي ولطُفَ سببه، ومنه سمي السَّحرُ سحراً؛ لأنه يقع خفيّاً آخر الليل. وسمي البيان سِحراً؛ لأن البليغ والفصيح يؤثِّر في السامعين في الخفاء. ومنه سميت النميمة سِّحراً؛ لأن النّمام يؤثر في الخفاء، فهو ينقل الكلام من شخص إلى شخص، أو من جماعة إلى جماعة حتى يفسد فيما بينهم في الخفاء، فمادة السين والحاء والراء: تدل على الخفاء، ومنه السَّحْرُ الذي يكون عند الرئة، ويكون خفيّاً.

وأما في الشرع: فهو عبارة عن عزائم، ورُقى، وعُقد، وأدوية، وتدخينات، تارة تؤثر في القلوب وفي الأبدان؛ فتمرض وتقتل، وتارة تُفرِّق بين المرء وزوجه.

والسحر نوعان:

الأول: نوعٌ يتصل صاحبه بالشياطين، وهذا لا بد أن يكون فيه كفر وشرك، فصاحبه مشرك؛ وذلك أنّ الساحر يتَّفق مع الشيطان، ويعقد معه عقداً يلتزم السَّاحر بموجب هذا العقد أن يشرك بالله ﷻ، وأن يتقرب إلى الشيطان بما يناسبه من الشركيات؛ فيطلب الشيطان من الساحر أن يكفر بالله، فيطلب منه مثلاً: أن يبول على المصحف، أو يلطِّخه بالنجاسة، أو يذبح لغير الله، فإذا أشرك بالله خدمه الشيطان واستجاب لمطالبه، إذا أمره بقتل فلان قتله، وإذا أمره بلطم فلان لطمه، وإذا أمره أن يأتي له بشيء يأتي به، يخبره عن بعض المغيّبات التي تغيب عن البلد، خدمة متبادلة بين الشيطان الذي من الجن، وبين الساحر من الإنس، فالساحر الذي يتصل بالشياطين لا بد أن يشرك بالله ﷻ؛ ولهذا فالسحر شرك.

الثاني: من لا يتصل صاحبه بالشياطين، ولكنه يعمل السحر، يعمل أدوية يُعالج بها الناس، ويضر بها الناس، ويأكل أموالهم بالباطل.

وهذا النوع فيه تفصيل: فإن استحل أكل أموال الناس بالباطل، وإيذاء الناس، كفر؛ لأنه استحل أمراً معلوماً من الدِّين بالضرورة حرمته.

أما إذا لم يستحله، ولكن غلبه الهوى والطمع، وهو يعلم أن أكل أموال الناس حرام، ويعلم أنه لا يجوز الإضرار بالناس، فهذا يكون قد ارتكب محرماً وكبيرة.

واختلف العلماء في حكم السَّاحر:

فذهب الجمهور والأئمة الثلاثة: مالك، وأبو حنيفة، وأحمد، إلى أن الساحر كافر، قال أصحاب أحمد: إلا أن يكون السحر عن طريق الأدوية والتدخينات وسقي شيء يضرّ، فلا يكفر.

وذهب الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ إلى التفصيل: فقال: إذا تعلم السحر قلنا له: صف لنا سحرك؛ فإن وصف ما يوجب الكفر، كفر؛ بأن كان فيه دعوة لغير الله؛ كدعاء الكواكب السبع وغيرها، وإن وصف ما لا يوجب الكفر، فإن اعتقد إباحته كفر، وإن لم يعتقد إباحته فقد ارتكب محرماً.

والعلماء يتفقون على أن الساحر إذا تضمن سحره كفراً وشركاً فإنه يكفر.

ومنشأ النِّزاع بين الجمهور والشافعي هو في مُسمّى السِّحر؛ فالجمهور يرون أن السحر اللغوي لا يدخل في مسمى السحر، ولهذا يقولون: الساحر كافر. لأن السحر اللغوي لا يدخل في مسمى

السحر. والشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ أدخل السحر اللغوي في مسمى السحر؛ فلهذا احتاج إلى التفصيل.

وبهذا يتبين أن العلماء يتفقون على أن الساحر الذي يتصل بالشياطين كافر؛ لأنه لا بد أن يشرك بالله، إنما الخلاف أو التفصيل في الساحر الذي لا يتصل بالشياطين.

واختلف العلماء أيضاً في حدّه:

فالجمهور على أن حدَّه القتل، وقال آخرون: يحبس حتى يموت.

والصواب: أن حدّه القتل.

واختلف القائلون بالقتل: هل قتله حدّ أم كفر؟

فمن قال: إنه كفر. قال: إنه لا يُغسل ولا يُصلى عليه، وهذا هو الصواب.

ومن قال: إنه حدّه. قال: إنه يُغسل ويُصلى عليه.

والصواب: أنه كفر، إلا إذا كان سحره لا يتصل بالشياطين، ولا يعتقد إباحته، ورأى وليّ الأمر تعزيره بالقتل، فيكون حدّاً.

واختلف العلماء أيضاً في توبة الساحر، هل تصح أو لا تصح؟ على قولين:

أحداهما: أنها لا تصح توبة الساحر؛ لأن علم السحر لا يزول بالتوبة، ولأن كفره غليظ، فيجب قتله على كل حال؛ حتى لا يتجرأ الناس على مثل هذا الكفر الغليظ، ومثله السابّ؛ من سبّ الله أو سبّ رسوله أو سبّ الدين، أو استهزأ بالله أو برسوله أو بالإسلام، يُقتل على كل حال، ولا تقبل توبته في أحكام الدنيا.

وأما في الآخرة فإن كان صادقاً فالله يقبل توبة الصادقين، وإن كان كاذباً فله حكم الكاذبين، ولكن في الدنيا لا تُقبل توبته حتى لا يتجرأ الناس على مثل هذا الكفر.

القول الثاني: أنه يُستتاب، ولو كان ساحراً، ولو كان ساباً، فإن تاب تُرك وإن لم يتب قُتل.

○ **قوله**: «**وَقَوْلُ اللهِ تعالَى**: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البَقَرَة: ١٠٢]».

هذه الآية جاءت في سياق أهل الكتاب، ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟﴾ يعني: أهل الكتاب.

﴿لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ يعني: اعتاضه واستبدله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [لقمَان: ٦]. والاعتياض يُسمى شراءً. ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ يعني: اعتاض بالسحر عن دين الله، وعن اتباع رسله. ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ من نصيبٍ وحظ. ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟﴾ يعني: أهل الكتاب، فيما أنزل الله عليهم من الكتب، أن من اعتاض بالسحر وتعوَّض بالسحر عن الإيمان بالله ورسله، واتباع ما أنزل الله من الكتب، أنه ليس له في الآخرة من حظ ولا نصيب.

وهذا يدل على ذمِّ السحر؛ لأن الساحر كافر، إذا تعلم السحر أو علَّمه فهو كافر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ﴾ يعني: الملَكين، ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ يعني: فلا تكفر بتعلم السحر. قال سبحانه: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البَقَرَة: ١٠٢]. كفروا بتعليم السحر، فتعَلُّم السحر

وتعليمه كفر وردة، نعوذ بالله ونسأله السلامة.

○ **قوله**: «وَقَوْلُهُ: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النِّسَاء: ٥١]. قالَ عُمَرُ: الجِبتُ السِّحْرُ، والطَّاغُوتُ الشَّيْطانُ».

وهذا مثال، والجبت يطلق على السحر وعلى غيره، يطلق على كل ما لا خير فيه، والشيطان من الطواغيت، والطواغيت كثيرون منهم: الشيطان، ومنهم من حكم بغير الله، ومنهم الكُهَّان، ومنهم الدَّاعي إلى عبادة نفسه.

○ **قوله**: «وقالَ جابرُ: الطَّواغِيتُ كُهَّانٌ كانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ فِي كُلِّ حَيٍّ واحِدٌ».

يعني: أن الكُهَّان من الطواغيت، ينزل عليهم الشيطان في كل حي واحد، في كل قبيلة واحد في الجاهلية، فالكهان طواغيت، فالطواغيت كثيرون ومنهم الكهان.

○ **قوله**: «عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنّ رَسُولَ اللهُ ﷺ قالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقاتِ». قالوا: يَا رَسُولَ اللهُ، وما هنَّ؟ قالَ: «الشِّرْكُ باللهُ، والسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتي حَرّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبا، وَأَكْلُ مالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَناتِ الغَافِلاتِ الْمُؤْمِناتِ».

هذا الحديث فيه التحذير من هذه السبع، قوله: «اجْتَنِبُوا». يعني: تباعدوا عنها ولا تقربوها، وهذا أبلغ من قوله: لا تفعلوا.

«السَّبْعَ الْمُوبِقاتِ» يعني: المهلكات، وسميت موبقات؛ لأنها توبق صاحبها في الإثمِّ وفي النار.

أولها: الشرك بالله، من دعا غير الله، وذبح لغير الله، ونذر لغير الله.

الثاني: السحر، وهو نوع من الشرك، جعله بعد الشرك؛ لأنه نوع منه، ومنه الصرف والعطف، الصرف: يعمل الساحر السحر للمرأة، يسحرها فترى زوجها بصورة قبيحة - ولو كان أجمل الناس - فتنفر منه، أو يسحر الرجل فيرى زوجته في صورة قبيحة - ولو كانت أجمل الناس -؛ حتى يحصل الفراق بينهما، هذا سحر الصرف.

وبالعكس العطف: يعمل سحراً للمرأة فترى زوجها في صورة حسنة، أو الرجل في صورة حسنة، فيحصل الإلف، ومنه التولة: شيء يصنعونه يُحبب المرأة إلى زوجها والرجل إلى امرأته، فالصرف والعطف من السحر.

«وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتي حَرّمَ اللهُ إلَّا بِالْحَقِّ» من الكبائر السبع، والقتل ليس كفراً، إلا إذا استحله.

«إلَّا بِالْحَقِّ» يعني: إلا إذا فعل واحدة من الثلاث التي جاءت في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثَّيِّب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»[1]. يحلّ قتله بإحدى هذه الثلاث: إذا ارتد، أو قتل عمداً وعدواناً، أو زنى وهو محصن.

«وَأَكْلُ الرِّبا» أي: تناوله بأي وجه كان، فهو من الكبائر العظيمة.

«وَأَكْلُ مالِ اليَتِيم» أي: التعدي فيه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ﴾ [النِّساء: ١٠].

«وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ» يعني: الفرار من صفّ القتال، إذا وقف

---

(١) تقدم تخريجه.

الإنسان في صفّ القتال ليس له أن يفر ويخذِل إخوانه، فإذا فرَّ فقد ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب، وفي هذه الحال يجب عليه الجهاد، وإذا استنفره الإمام وجب الجهاد، وإذا داهم العدو بلداً من بلاد المسلمين وجب عليهم القتال، في هذه الثلاث يجب، ولا يُستأذن الوالدان في هذه الثلاث، وما عدا ذلك فهو مستحب.

«وَقَذْفُ الْمُحْصَناتِ الغَافِلاتِ الْمُؤْمِناتِ» يعني: رمي المحصنة العفيفة البريئة التي لا تخطر الفاحشة في بالها بالزِّنا، ومثله رمي المحصن، هذا من كبائر الذنوب.

○ **قوله**: «وَعَنْ جُنْدَبٍ مَرْفُوعاً: «حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ». رواهُ التِّرْمَذِيُّ وقالَ: الصَّحيحُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ».

يعني: الصحيح أنه موقوف على جندب. رُوي: (ضربُهُ) بالهاء، وروي: (ضربةٌ) بالتاء.

○ **قوله**: «وَفِي صَحِيحِ البُخاريِّ عَنْ بجالةَ بنِ عَبَدَةَ قَال: كَتَبَ عُمَرُ بنُ الْخَطابِ أنِ اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَساحِرَةٍ. قال: فَقَتَلْنَا ثَلاثَ سَواحِر. وَصَحّ عَنْ حَفْصَةَ ﵂: أَنَّها أَمَرَتْ بِقَتْلِ جَارِيَةٍ لَها سَحَرَتْهَا، فَقُتِلَتْ. وَكَذَا صَحَّ عَنْ جُنْدَبٍ. قالَ أحْمَد: عَنْ ثَلاثَةٍ مِنْ أَصْحابِ النَّبِيِّ ﷺ».

يعني: صحَّ الأمر بقتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ: عن عمر، وعن حفصة، وعن جندب، صح عنهم الأمر بقتل الساحر، فالساحر يُقتل، هذا هو الذي عليه الجماهير، وإذا كان سحره متصلاً عن طريق الشياطين فهو كافر والعياذ بالله، وكذلك إذا استحلّ أكل أموال الناس بالباطل، أو إيذاء المسلمين، ولو لم يتصل بالشياطين، فإنه يكفر، نسأل الله السلامة والعافية.

فِيهِ مَسَائِلُ:

- الأولىٰ: تفسيرُ آيةِ البَقَرَةِ.

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢]، اليهود علموا أن الساحر ليس له عند الله نصيب.

- الثانيَةِ: تَفْسيرُ آيَةِ النِّساءِ.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ﴾ [النِّساء: ٥١]، أهل الكتاب هم اليهود والنصارى؛ لأن الجبت يدخل فيه السحر وكل ما لا خير فيه، وأن السحر من أعمال اليهود.

- الثالثةُ: تَفْسِيرُ الْجِبْتِ والطَّاغُوتِ والفَرْقُ بَيْنَهُمَا.

الطاغوت: كل ما تجاوز به العبد حدّه من معبود أو متبوع أو مطاع، والجبت أصله كل ما لا خير فيه، فالجبت عام، ويدخل فيه السحر وغيره.

- الرَّابِعَةُ: أنَّ الطاغوتَ قَدْ يَكُونُ مِنَ الْجِنِّ، وَقَدْ يَكُونُ مِنَ الإِنْسِ.

الطاغوت قد يكون من الجن، وقد يكون من الإنس، إذا تجاوز حدّه، فرضي بعبادة غير الله، أو دعا إلى عبادة نفسه، أو حكم بغير ما أنزل الله، فهو طاغوت من الجن كان أو من الإنس.

- الخامِسَةُ: مَعْرِفَةُ السَّبْعِ الْمُوبِقاتِ الْمَخْصوصاتِ بالنَّهْيِ.
- السَّادِسَةُ: أنَّ السَّاحِرَ يَكْفُرُ.

الساحر يكفر على الصحيح، كما دلت الأدلة: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢]. فالصواب أنه كافر.

﴿ السَّابِعَةُ: أَنَّهُ يُقْتَلُ وَلا يُسْتَتَابُ.

في أرجح القولين، والصحيح من قولي العلماء.

﴿ الثامنةُ: وُجودُ هَذا فِي الْمُسْلِمينَ عَلَى عَهْدِ عُمَرَ فَكَيْفَ بَعْدَهُ؟!.

إذا كان هذا في عهد عمر أن حفصة أمرت بقتل جارية لها سحرتها، وجندب في عهد الصحابة، فكيف بمن بعدهم؟! الأمر يزداد، فالسحرة في العهود المتأخرة أكثر وأكثر. والله المستعان.

بَابُ بيَانِ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ

قَالَ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا عَوْفٌ، عَنْ حَيَّانَ بْنِ الْعَلَاءِ، حَدَّثَنَا قَطَنُ بْنُ قَبِيصَةَ عَنْ أَبِيهِ: أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْعِيَافَةَ وَالطَّرْقَ وَالطِّيَرَةَ مِنَ الْجِبْتِ». قَالَ عَوْفٌ: الْعِيَافَةُ زَجْرُ الطَّيْرِ، وَالطَّرْقُ الْخَطُّ يُخَطُّ بِالْأَرْضِ، وَالْجِبْتُ قَالَ الْحَسَنُ: رَنَّةُ الشَّيْطَانِ(١). إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ.

وَلِأَبِي دَاوُدَ، وَالنَّسَائِيِّ، وَابْنِ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ: لَهُمُ الْمُسْنَدُ مِنْهُ(٢).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ؛ فَقَدِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ، زَادَ مَا زَادَ»(٣). رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

وَلِلنَّسَائِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: «مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا، فَقَدْ سَحَرَ، وَمَن سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئاً وُكِلَ إِلَيْهِ»(٤).

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٦٠).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الطب، باب «في الخط وزجر الطير»، رقم (٣٩٠٧)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٦/ ٣٢٤)، وابن حبان في «صحيحه» رقم (٦١٣١)، قال النووي: «بإسناد حسن». «رياض الصالحين» (ص ٣٠٧).

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب الطب، باب «في النجوم»، رقم (٣٩٠٥)، وابن ماجه، كتاب الأدب، باب «تعلم النجوم»، رقم (٣٧٢٦)، وأحمد (١/ ٢٢٧)، قال النووي: «بإسناد صحيح».«رياض الصالحين» (ص ٣٠٧).

(٤) أخرجه النسائي، كتاب تحريم الدم، باب «الحكم في السحرة»، (٧/ ١١٢) من طريق الحسن عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا، وحسنه ابن مفلح في الآداب الشرعية (٣/ ٦٨).

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﵁: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَلَا هَلْ أُنَبِّئُكُمْ مَا الْعَضْهُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ، الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ عُمَرَ ﵄: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْراً»(٢).

الشَّرْح

○ **قوله:** «بيانِ شَيْءٍ مِنْ أنْواعِ السِّحْرِ».

هذا الباب عقده المؤلف ﵀ لبيان شيء من الأنواع التي تدخل في مسمى السحر.

○ **قوله:** «قَالَ أحْمَدُ: حَدَّثَنا مُحَمَّدُ بنُ جَعْفَرَ» هو الهذلي البصري المسمى غندر «حَدَّثَنا عَوْفٌ، حدثنا حَيَّان بنُ العلاءِ، حَدَّثَنا قَطَنُ بنُ قَبيصةَ»، ابن مخارق الهلالي «عَنْ أبِيه، أنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: «إِنَّ العِيافَةَ، وَالطَّرْق، وَالطِّيَرَةَ مِنَ الْجِبْتِ». قالَ عَوْفٌ: العيافَةُ زَجْرُ الطَّيْرِ، وَالطرقُ: الخَطُّ يُخَطُّ بِالأَرْضِ. وَالجِبْتُ: قالَ الْحَسَنُ: رَنَّةُ الشَّيْطانِ. إسنادُهُ جَيِّدٌ. وَلأبي داودَ والنَّسائِيِّ وابْنِ حِبّانَ فِي صَحيحِهِ الْمُسْنَدُ مِنْهُ» يعني: روى أبو داود والنسائي وابن حبان قوله: «**إن العيافة والطرق والطيرة شرك**». ولم يرووا تفسير عوف، وإنما اقتصروا على المرفوع، وإنما أبو داود روى تفسيره العيافة والطرْق، ورواه الإمام أحمد بتمامه.

وعوف فسَّر العيافة بأنها: زجر الطير، كانت العرب يزجرون الطير إذا أرادوا سفراً أو شيئاً من تجارة أو غيرها، فإن ذَهَبت جهة

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، رقم (٢٦٠٦).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب «الخطبة»، رقم (٥١٤٦).

اليمين تيمّنوا، وإن ذَهَبت جهة الشمال تشاءموا، وهكذا، ولهم مع الطيور أحوال، الذي يأتي من الأمام يسمونها الناطح والنطيح، والذي يأتي من الخلف يسمونها القاعد والقعيد، ويسمون السوارح والبوارح، كان بعض العرب لهم عناية واهتمام بزجر الطير، ومن لم يعرف زجر الطير يأتي إليهم و يزجرون له الطير؛ ولهذا يقول الشاعر الجاهلي[(١)]:

خبيرٌ بنو لهب فلا تك مُلغياً   مقالة لهبي إذا الطير مرّت

يعني: عندهم خبرة بزجر الطير فلا تلغي مقالتهم.

ويدخل في هذا التشاؤم بالمرئيات والمسموعات حتى من غير الطيور، وبالبقاع وبالأشخاص، كل هذا داخل في الطيرة، التشاؤم بالبقاع، وبالأشخاص، وبالألفاظ، وبالأسماء، وأصله التشاؤم بالطيور.

والطرق: الخط يُخط بالأرض، ويستدلون بها على شيء من المغيبات، وقيل: هو الضرب بالحصى على صفة مخصوصة، ويستدلون بها على دعوى علم الغيب.

الجبت: في الأصل الذي لا خير فيه، ويطلق على السحر والساحر. والمعنى: أن هذه الأمور: العيافة، والطرق، والطيرة، كل هذا من الجبت، يعني: نوع من السحر، ونوع من دعوى علم الغيب.

ومادة السين والحاء والراء تدل على الخفاء، فسرها العلماء بما خفي ولطف سببه، فهذه الأمور تشترك في السحر من جهة الخفاء؛ لما فيها من دعوى علم الغيب، ولما فيها من الدعاوى الكاذبة،

---

(١) البيت منسوب إلى رجل من طيئ دون تعيين، انظر: شرح الشواهد الشعرية في أمات الكتب النحوية (١/ ٢٠٧).

ولما فيها من التمويه على السامع، بحيث لا يتبين له.

«رَنَّةُ الشَّيْطانِ» هي هكذا مصحفة، وصوابها كما في مسند الإمام أحمد وسنن البيهقي: «إنه الشيطان»(١) ووجه إطلاقه على الشيطان أنه لا خير فيه.

فالعيافة والطرق والطيرة والاقتباس من النجوم وغيرها، إذا اعتقد أنها مؤثرة بذاتها فهذا شرك أكبر، وصاحبها خالد مخلد في النار - والعياذ بالله -، وإذا اعتقد أنها سبب فهذا شرك أصغر، فالعيافة إذا اعتقد أنها بذاتها مؤثرة، فهذا شرك أكبر، وإن اعتقد أنها سبب فهو شرك أصغر.

○ **قوله**: «وَعَن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنِ

---

(١) السنن الكبرى تحقيق عبدالقادر عطا (١٦٥١٥)، وتحقيق التركي (١٦٥٩٤)، والآداب للبيهقي أيضا (٣٤٤)، وهو هكذا في المسند في طبعات عديدة: طبعة الرسالة، والمكتب الإسلامي، ودار الباز، ودار الحديث، وعالم الكتب، والفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، لأحمد البنّا الساعاتي، والمحصل لمسند الإمام أحمد بن حنبل، لعبدالله بن إبراهيم القرعاوي.
والأثر أيضا في سنن أبي داود (٣٩١٠) إلا أنه من تمام كلام عوف بلفظ: "الجبت: من الشيطان".
وقد جاء في تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٩٧٤) موصولا عن ابن عباس قال: "الجبت: رسم الشيطان بالحبشية" قال: "وروي عن عكرمة، وأبي مالك وعطية"، وهو صحيح البخاري معلقا (٦/ ٤٥) عن عكرمة، وانظر: شرح السنة للبغوي (١٢/ ١٧٩)، وفي تاريخ المدينة لابن شبة (٢/ ٤٥٤) وتفسير الطبري (٨/ ٤٦٣) موصولا عن قتادة قال: "كنا نحدث أن الجبت الشيطان"، وأخرج الطبري عن السدي مثله، وأخرج ابن شبة عن عطية العوفي قال: "الجبت: الشيطان"، قال الحافظ ابن كثير (٢/ ٣٣٤) "وعن ابن عباس، وأبي العالية، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، وأبي مالك، وسعيد بن جبير، والشعبي، والحسن، وعطية "الجبت: الشيطان".

اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجوم فَقَد اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ زادَ ما زادَ». رواهُ أبو داود، وإسنادُهُ صَحيحٌ».

اقتبس: يعني تعلَّم شيئاً من السحر، وأصل القبس أخذ القليل من النار والاستدفاء به، قال الله تعالى عن موسى عليه الصلاة والتسليم: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴿١٠﴾﴾ [طه: ١٠] والمراد: تعلَّم.

«شعبةً»: طائفةً أو جزءاً، ومنه: «**الحياء شعبة من الإيمان**»[(١)].

«مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجوم فَقَد اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ زادَ ما زادَ» يعني: كلما زاد في تعلّم علم النجوم كلما زاد في الإثم، فإذا تعلّم النجوم واستدلّ بها على دعواه علم الغيب، فهذا نوع من السحر؛ لما فيه من الخفاء، صرَّح النبي ﷺ بأن تعلّم النجوم نوع من السحر، فلا يجوز للإنسان أن يتعلّم علم النجوم ويستدل بها على المغيبات.

○ **قوله**: «وللنَّسائِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: «مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيها فَقَدْ سَحَرَ، وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئاً وُكِلَ إِلَيْهِ».

هذه طريقة السحرة، يعقدون العقد، وينفثون فيها، فتتكيف نفسه الخبيثة فيخرج منها نفس ممازج للشر والأذى، فيصاب المسحور بإذن الله الكوني القدري، إذا قدّر الله ذلك، فمن عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر؛ لأن هذه طريقة السحرة، «**ومن سحر فقد أشرك**»، صريح بأن الساحر مشرك، لكن الحديث فيه بعض الضعف، لكن له شواهد، والصواب: أن الساحر الذي يتصل

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب «أمور الإيمان»، رقم (٩)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (٣٥).

بالشياطين مشرك كافر؛ لأنه لا بد أن يقع في الشرك.

أما الساحر الذي سحْرُه عن طريق الأدوية والتدخينات، فهذا ليس فيه شرك، لكن إذا استحله فإنه يكفر؛ إذا استحل إيذاء الناس وأكل أموالهم بالباطل كفر.

«وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئاً وُكِلَ إِلَيْهِ»: من علّق قلبه بالسحر والشياطين وكله الله إليهم، ومن علّق قلبه بالله كفاه الله ما أهمّه في دينه ودنياه، من تعلّق بالسحرة أو بالجن أو بالشياطين أو بغير الله، يخافه ويرجوه، وكله الله إلى هذا الشيء الذي تعلّق به.

○ **قوله**: «وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «أَلا هَلْ أُنَبِّئُكُمْ ما العَضْه؟ هِيَ النَّمِيمَةُ القالَةُ بَيْنَ النَّاسِ». رواه مسلم».

العضة **والْعَضْهُ**: أصلها الكذب والبهت، **الْعَضْهُ** بفتح العين وسكون الضاد، هذه رواية المحدثين، ورواية أهل اللغة: بكسر ففتح **العِضَةُ**، مثل: الشِّفَة والسِّنَة(١) ظاهر إيراد المصنف لهذا الحديث هنا يدل على أن معنى العضه عنده هنا هو السحر.

○ **قوله**: «وَلَهُما» - أي: البخاري ومسلم- «عَنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ: «إِنَّ مِنَ البَيانِ لَسِحْراً»» البيان: الفصاحة والبلاغة، واختلف العلماء في هذا الحديث هل هو للمدح أو للذم؟

---

(١) انظر: النهاية (٣/ ٢٥٤). وقال النووي في شرح مسلم (١٦/ ١٥٩): هذه اللفظة رووها على وجهين أحدهما العضه بكسر العين وفتح الضاد المعجمة على وزن العِدَة، والزنة والثاني العضه بفتح العين وإسكان الضاد على وزن الوجه وهذا الثاني هو الأشهر في روايات بلادنا والأشهر في كتب الحديث وكتب غريب،ه والأول أشهر في كتب اللغة ونقل القاضي أنه رواية أكثر شيوخهم، وتقدير الحديث والله أعلم: ألا أنبئكم ما العضه الفاحش الغليظ التحريم.

فمن العلماء من قال: إنه للمدح؛ لأن البيان ممدوح.

ومنهم من قال: إنه للذم، والمراد به قلب الحقائق، ينقل الحق باطلاً، والباطل حقّاً، يموّه على الناس، ولمّا تكلم رجل عند عمر بن عبد العزيز كلاماً فصيحاً قال: **إن هذا لهو السحر الحلال**(١).

والأقرب أن المراد به الذم؛ لأن البيان الذي فيه تمويه للحقائق، وقلبٌ للباطل، له تأثير في الخفاء، يقلب الحق في صورة الباطل، والباطل في صورة الحق، فصار ذلك من السحر، فأورده المؤلف هنا، والإنسان قد يتكلم في الشيء ويمدحه فيرغّبك فيه، وإن كان ليس مرغوباً فيه، وقد يذم الشيء بسبب بيانه، فيؤثر عليك.

كما قال ابن الرومي(٢):

تَقُولُ هَذَا مُجَاجُ النَّحْلِ تَمْدَحُهُ ... وَإِنْ تَعِبْ قُلْتَ ذَا قَيْءُ الزَّنَابِيرِ
مَدْحًا وَذَمًّا وَمَا خَالَفْتَ وَصْفَهُمَا ... حُسْنُ الْبَيَانِ يُرِي الظَّلْمَاءَ كَالنُّورِ

فإذا أراد الإنسان أن يذم العسل قال: هذا قيء الزنابير. وإذا أراد أن يمدحه قال: هذا مجاج النحل. فأنت مدحت شيئاً وذممته وهو شيء واحد، لكن هذا من أجل البيان والتعبير.

فِيهِ مَسَائِلُ:

◄ الأُولَى: أَنَّ الْعِيَافَةَ وَالطَّرْقَ وَالطِّيَرَةَ مِنَ الْجِبْتِ».

يعني: نوع من السحر؛ لما فيه من الخفاء.

◄ الثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ الْعِيَافَةِ وَالطَّرْقِ وَالطِّيَرَةِ» .

فسرها عوف فقال: العيافة الطيرة، والطرق الخط يخط

(١) الاستذكار لابن عبدالبر (٨/ ٥٥٧-٥٥٨).
(٢) ديوان ابن الرومي (٢/ ١٦٩).

بالأرض، وفسر الحسن الجبت فقال: إنه الشيطان.

❖ **الثَّالِثَةُ: أَنَّ عِلْمَ النُّجُومِ نَوْعٌ مِنَ السِّحْرِ.**

لحديث: «من اقتبس شعبة من النجوم، فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد»، فعلم النجوم نوع من السحر لنص الحديث.

❖ **الرَّابِعَةُ: أَنَّ الْعَقْدَ مَعَ النَّفْثِ مِنْ ذَلِكَ.**

أي: من السحر العقد مع النفث فيها، «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر».

❖ **الْخَامِسَةُ: أَنَّ النَّمِيمَةَ مِنْ ذَلِكَ.**

لقوله: «ألا أنبئكم ما العضة؟ هي النميمة القالة بين الناس». لما فيها من الإفساد، وتغيير العقول والقلوب.

❖ **السَّادِسَةُ: أَنَّ مِنْ ذَلِكَ بَعْضَ الْفَصَاحَةِ.**

الفصاحة التي فيها تمويه الحقائق، ولَبْس الحق بالباطل، هذا من السحر؛ لما فيه من التأثير في الخفاء، ولما فيه من الإفساد.

بَابُ مَا جَاءَ فِي الْكُهَّانِ وَنَحْوِهِمْ

رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(١) عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَتَى عَرَّافاً فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ فَصَدَّقَهُ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْماً».

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَتَى كَاهِناً فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

وَلِلْأَرْبَعَةِ، وَالْحَاكِمِ - وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِهِمَا - عَنْ: «مَنْ أَتَى عَرَّافاً أَوْ كَاهِناً فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب السلام، رقم (٢٢٣٠)، وليس فيه «فصدقه».

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الطب، باب «في الكاهن»، رقم (٣٩٠٤)، والترمذي، كتاب الطهارة، باب «ما جاء في كراهية إتيان الحائض»، رقم (١٣٥)، وابن ماجه، كتاب الطهارة، باب «النهي عن إتيان الحائض»، (١/ ٥٠٦)، وأحمد (٢/ ٤٧٦) من طريق حكيم الأثرم، عن أبي تميمة، عن أبي هريرة.

قال الترمذي: «لا نعرف هذا الحديث إلا من حديث حكيم الأثرم عن أبي تميمة الهجيمي عن أبي هريرة، وضعف محمد هذا الحديث من قبل إسناده، وأبو تميمة الهجيمي اسمه طريف بن مجالد».

وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٤٩) من طريق آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى من طريق عَوْف، عن خِلَاس، ومحمد، عن أبي هريرة قال الذهبي في المهذب في اختصار السنن الكبير (٦/ ٣٢٢٨): "إسناده صحيح"، وكذلك صحح إسناده سماحة الشيخ ابن باز كما في مجموع فتاويه (٩/ ٤٢١).

وَلِأَبِي يَعَلَى بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مِثْلُهُ مَوْقُوفاً[(١)].

وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَينٍ مَرْفُوعاً: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ، أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ، أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ، وَمَنْ أَتَى كَاهِناً فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ». رَوَاهُ الْبَزَّارُ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ[(٢)].

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ[(٣)] بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ، دُونَ قَوْلِهِ: «وَمَنْ أَتَى» إِلَى آخِرِهِ.

قَالَ الْبَغَوِيُّ: الْعَرَّافُ الَّذِي يَدَّعِي مَعْرِفَةَ الْأُمُورِ بِمُقَدِّمَاتٍ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى الْمَسْرُوقِ وَمَكَانِ الضَّالَّةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ[(٤)].

وَقِيلَ: هُوَ الْكَاهِنُ، وَالْكَاهِنُ هُوَ الَّذِي يُخْبِرُ عَنِ الْمُغَيَّبَاتِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

وَقِيلَ: الَّذِي يُخْبِرُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ.

وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: الْعَرَّافُ اسْمٌ لِلْكَاهِنِ، وَالْمُنَجِّمِ،

---

(١) أخرجه أبو يعلى في «المسند» رقم (٥٤٠٨).
قال المنذري: «رواه البزار وأبو يعلى بإسناد جيد موقوفًا». «الترغيب والترهيب» (١٩/٤).
وقال ابن حجر: «أخرجه أبو يعلى من حديث ابن مسعود بسند جيد، لكن لم يصرح برفعه، ومثله لا يقال بالرأي». «فتح الباري» (٢١٧/١٠).

(٢) أخرجه البزار في «المسند» رقم (٣٥٧٨) من طريق شيبان، عن أبي حمزة العطار، عن الحسن، عن عمران بن حصين مرفوعًا، وأبو حمزة العطار هو إسحاق بن الربيع.
قال المنذري: «رواه البزار بإسناد جيد». «الترغيب والترهيب» (١٧/٤).
وقال الهيثمي: «رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح خلا إسحاق بن الربيع وهو ثقة». (١١٧/٥).

(٣) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٢٦٢).

(٤) شرح السنة للبغوي (١٨٢/١٢).

وَالرَّمَّالِ، وَنَحْوِهِمْ، مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِي مَعْرِفَةِ الْأُمُورِ بِهَذِهِ الطُّرُقِ(١).

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْمٍ يَكْتُبُونَ (أَبَا جَادٍ)، وَيَنْظُرُونَ فِي النُّجُومِ: «مَا أَرَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ خَلَاقٍ»(٢).

الشَّرْح

الكهَّان جمع كاهن، وقد نقل المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ تعريف الكاهن، وأنه: الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل، أو الذي يخبر عما في الضمير، أو هو الذي يتكلّم في هذه الأمور، العرَّاف، والكاهن، والرمّال مسميات لمسمى واحد؛ وهو الذي يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق.

○ **قوله:** «رَوَى مُسْلِمٌ فِي«صَحِيحِهِ»: عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَتَى عَرَّافاً فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْماً» هذا البعض هي حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وهذا الحديث أخرجه مسلم في «صحيحه»، وليس فيه: فصدَّقه، فكأن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ كتبه من حفظه أو نقله عن غيره، والموجود في مسلم: «**من أتى عرَّافاً فسأله عن شيء، لم تقبل له صلاة أربعين يوماً**». لكن هذه اللفظة موجودة عند أحمد في «مسنده» بسند الإمام مسلم: «**من أتى عرّافاً فصدّقه بما يقول لم تقبل له صلاة أربعين يوماً**»، وليس فيه: «**فسأله عن شيء**».

○ **قوله:** «وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَتَى كَاهِناً فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ».

الكُهّان جمع كاهن، وقد نقل المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ تعريف الكاهن

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٣٥/ ١٧٣).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١١/ ٢٦) رقم (١٩٨٠٥).

وأنه: الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل، أو الذي يخبر عما في الضمير، أو هو الذي يتكلّم في هذه الأمور، ويشمل مسمى الواحد، العرَّاف والكاهن والرمّال مسميات لمسمى الواحد، وهو الذي يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق، يكون له رَئِيٌّ من الجن، يأخذ عن مسترق السمع الذي هو الجن؛ لأن الشياطين يركب بعضهم بعضًا فيسترقون السمع من السماء أو من العنان الذي تتكلم فيه الملائكة، وتحرقهم الشهب، ولكن أحياناً يلقون الكلمة في أذن الكاهن قبل أن تأتيهم الشهب، ويكذبون معها مائة كذبة، قول الكاهن أو رئيّ من الجنّ يخبره عن المغيبات، والشياطين لهم سرعة وخفة يتناقلون الأخبار، فيخبر عما حدث في البلد الفلاني، وما حدث في البلد الفلاني، فيخبر الكاهن، فيتكلم بها الكاهن فيظنون أن هذا كرامة.

والحراسة قد شُدّدت بعد بعثة النبي ﷺ، قال الله تعالى عن الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨﴾ [الجنّ: ٨]، أُحرقوا بالشهب فقلّ استماعهم، وكانوا قبيل بعثة النبي ﷺ كثر استراقهم، وكثر الكهان، حتى صار كلّ قبيلة فيها كاهن، بل الكهان منتشرون في كل مكان، بل قد يقال: كل أهل بيت قد يكون لهم كاهن! فكثر الكهان؛ وهم الذين يرجع الناس إليهم، حتى لمّا بعث الله النبي محمداً ﷺ شُدّدت حراسة السماء، وأُحرقوا بالشهب، فقلّ استماعهم.

○ **قوله**: «مَنْ أَتَى عَرَّافاً أَوْ كَاهِناً فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ»، في رواية أبي داود: «**من أتى كاهنًا**»، وفي رواية مسلم وأحمد: "**من أتى عرَّافًا**"، وفي رواية عمران بن حصين الذي رواه البزار بإسناد جيد: «مَنْ أَتَى كَاهِناً فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ».

○ **قوله**: «وَلِلأَرْبَعَةِ وَالْحَاكِمِ - وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِهِمَا - عَنْ» قال الشيخ سليمان رَحِمَهُ اللهُ في التيسير: (هكذا بيض المصنف اسم الراوي. وقد رواه أحمد والبيهقي والحاكم عن أبي هريرة مرفوعًا)، وقال رَحِمَهُ اللهُ: «عزو المصنف إلى الأربعة ليس كذلك، فإنه لم يروه أحد منهم، وأظنه تبع في ذلك الحافظ؛ فإنه عزاه في الفتح إلى أصحاب السنن والحاكم فوهم، ولعله أراد الذي قبله»[(١)].

اختلف العلماء في المراد بالكفر، والجمع بين هذه الأحاديث؛ فمن العلماء من توقّف في الكفر، وقال: لا نحمله على الكفر الأكبر، ولا على الكفر الأصغر.

ومن العلماء من قال: هو كفر دون كفر، وهما روايتان عن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ.

الرواية الأولى: أنه كفر دون كفر يعني: لا يخرج من الملة.

والرواية الثانية: التوقف.

وهذا فيما إذا صدّقه في واقعة أو في حادثة معينة تتعلق بالماضي؛ كأن يصدّقه بمقدّمات يستدلّ بها على المسروق، ومكان الضالة، أما إذا صدّقه في دعوى علم الغيب، فهذا كافر؛ لأنه مكذّبٌ لله، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النمل: ٦٥]. قال سبحانه: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧﴾ [الجن: ٢٦-٢٧]. فمن صدّق أحداً في دعواه الغيب فقد كذّب الله، ومن كذّب الله كفر، لكن من صدّق الكاهن في قضية أو حادثة

---

(١) تيسير العزيز الحميد (ص: ٣٤٩).

معيّنة تتعلّق بالماضي، مثلما قال البغوي: مقدمات يستدل بها على المسروق، ومكان الضالة، فهذا هو الذي فيه الخلاف: هل يكفر؟ هل هو كفر دون كفر؟ أو يتوقف فيه.

○ **قوله**: «وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ﷺ مَرْفُوعاً: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ، أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ، أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ».

«لَيْسَ مِنَّا». هذا وعيد شديد يدلّ على أنه من الكبائر.

و«تَطَيَّرَ» أي: فعل الطيرة.

و«تُطُيِّرَ لَهُ» أي: علت له الطيرة بطلب منه أو رضا وموافقة.

«تَكَهَّنَ» أي: فعل الكهانة بنفسه.

«أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ» أي: فُعلت له الكهانة برضا وموافقة.

«أَوْ سَحَرَ»: فعل السحر بنفسه.

«سُحِرَ لَهُ» أي: فُعل له السحر برضا وموافقة.

وهذا يدلّ على الوعيد الشديد على هذه الأفعال.

○ **قوله**: «قَالَ الْبَغَوِيُّ: الْعَرَّافُ: الَّذِي يَدَّعِي مَعْرِفَةَ الأُمُورِ بِمُقَدِّمَاتٍ يَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَى الْمَسْرُوقِ، وَمَكَانِ الضَّالَّةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَقِيلَ: هُوَ الْكَاهِنُ، وَالْكَاهِنُ هُوَ الَّذِي يُخْبِرُ عَنِ الْمُغَيَّبَاتِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ».

الكاهن: هو الذي يكون له رَئِيٌّ من الجن، ويخبر عن المغيبات في المستقبل.

○ قوله: «وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: الْعَرَّافُ: اسْمٌ لِلْكَاهِنِ وَالْمُنَجِّمِ وَالرَّمَّالِ وَنَحْوِهِمْ مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِي مَعْرِفَةِ الأُمُورِ بِهَذِهِ الطُّرُقِ».

العرَّاف: من يدعي الغيب، ويستدل على دعوى الغيب بهذه

الطرق؛ عن طريق مقدمات يستدل بها على المسروق، أو عن طريق الخط في الرمل، أو عن طريق ضرب الحصى أو ما أشبهها، أو عن طريق القراءة في الكف أو في الفنجان، أو فتح الكتاب وتحضير الجن، فإذا كان يدعي الغيب فهو كافر، فكل من ادّعى الغيب فهو كافر لا شك في كفره، أما إذا كان لا يدعي الغيب أو يتكلم في أمور ماضية يستدل بها، فهذا هو الذي فيه الخلاف، ومن صدّق من ادعى الغيب فقد كفر؛ لأنه مكذّب لله.

○ **قوله**: «وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْمٍ يَكْتُبُونَ (أَبَا جَادٍ) وَيَنْظُرُونَ فِي النُّجُومِ: مَا أَرَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِنْدَ اللهِ مِنْ خَلَاقٍ».

يعني: يستدلون بها على دعوى علم الغيب بالحروف الأبجدية.

«مَا أَرَى» يعني: ما أعلم، أو: ما أُرى. بالضم يعني: ما أظن.

وهذا رُوي بالمعنى، ولفظه: «رُبّ معلِّم حروف أبي جاد، دارس في النجوم ليس له خلاق عند الله يوم القيامة».

وتعلّم حروف أبي جاد - الحروف الأبجدية - إذا تعلّمها يدّعي بها علم الغيب فهذا هو المنجم، يستدل بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية، هذا ليس له عند الله من خلاق، وهو المحذور، أما إذا تعلم الحروف الأبجدية للتهجي، ولضبط وفيات العلماء والأئمة وما أشبه ذلك، فهذا ليس فيه شيء، وهو المعروف بحروف الأبجِد: (أَبجِد هَوِّز حُطِّي كَلُمَن سَعَفَص قَرَشَت ثَخَذٌ ضَظَّغ). هذه الحروف الأبجدية، وهي الحروف الهجائية الثمانية والعشرون، لكن رُتِّبت بترتيب يُستدل بها على وفيات العلماء: مثلاً: الألف واحد، والباء اثنان، والجيم ثلاثة، والدال أربعة.. إلى عشرة، ثم ينتقل من العشرة إلى العشرين بالحرف الذي بعده، ثم الثلاثين والأربعين حتى

تصل إلى الألف، ولهذا ضبط بعضهم وفيات الأئمة، وقال في وفيات الأئمة الأربعة:

فنعمانُهم قانٌ وطَعقٌ لابن مالك وللشافعي درٌّ ورامٌ لابن حنبلِ

(نعمانهم قان): أبو حنيفة النعمان، القاف مئة، والألف واحد، والنون أربع. فيكون المجموع: مائة وواحداً وأربعين.

(وطعق): لابن مالك، القاف مائة، والعين سبعين، والطاء تسعة. فيكون المجموع: مائة وتسعة وسبعين.

وللشافعي (درٌّ): الراء مائتان، والدال أربعة. فتكون وفاة الشافعي: مائتان وأربعة.

(ورام لابن حنبل): الراء مائتان، والألف واحد، والميم أربعون. فالمجموع: مائتان وواحد وأربعون.

فِيهِ مَسَائِلُ:

- **الأولَى: أَنَّهُ لا يَجْتَمِعُ تَصْديقُ الكاهِنِ مَعَ الإيمانِ بالقرآنِ.**

لا يجتمع تصديق الكاهن الذي يدعي علم الغيب مع الإيمان بالقرآن؛ لأن تصديق الكاهن كفر، وهو ينافي الإيمان بالقرآن فلا يجتمعان.

- **الثانيَةُ: التَّصْريحُ بأَنَّهُ كُفْرٌ.**

«فقد كفر بما أنزل على محمد».

- **الثالثةُ: ذِكْرُ مَنْ تُكُهِّنَ لَهُ.**

وأن عليه الوعيد الشديد.

- **الرابعةُ: ذِكْرُ مَنْ تُطيِّرَ لَهُ.**

كذلك من فعلت له الطيرة وطلبها.

- **الخامسةُ: ذِكْرُ مَنْ سُحِرَ لَهُ.**

من فُعل له السحر.

- **السَّادسةُ: ذِكْرُ مَنْ تَعَلَّمَ أبا جاد.**

وأنه إذا ادعى بها علم الغيب فهذا عليه الوعيد.

- **السابعةُ: ذِكْرُ الفَرْقِ بَيْنَ الكاهِنِ والعرَّافِ.**

العرّاف: الذي يدّعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على مكان المسروق، والكاهن: يخبر عن المغيبات. وذكر ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ أنه لا فرق بين الكاهن والعراف؛ فهما اسم لمن يدّعي الغيب، ويتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق، إلا أن الكاهن يكون له رئي من الجن، والعرَّاف عن طريق الاستدلال على معرفة الأمور بمقدمات، والساحر عن طريق العقد والنفث فيها، كلهم يجمعهم شيء واحد؛ وهو الكفر ودعوى علم الغيب.

بَابُ مَا جَاءَ فِي النُّشْرَةِ

عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنْ النُّشْرَةِ؟ فَقَالَ: «هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ، وَأَبُو دَاوُدَ(١).

وَقَالَ: سُئِلَ أَحْمَدُ عَنْهَا؟ فَقَالَ: ابْنُ مَسْعُودٍ يَكْرَهُ هَذَا كُلَّهُ(٢).

وَفِي الْبُخَارِيِّ عَنْ قَتَادَةَ قُلْتُ لِابْنِ الْمُسَيِّبِ: رَجُلٌ بِهِ طِبٌّ أَوْ يُؤْخَذُ عَنِ امْرَأَتِهِ، أَيُحَلُّ عَنْهُ أَوْ يُنْشَرُ؟ قَالَ: لَا بَأْسَ بِهِ، إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِهِ الْإِصْلَاحَ، فَأَمَّا مَا يَنْفَعُ، فَلَمْ يُنْهَ عَنْهُ.

وَرُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ: لَا يَحِلُّ السِّحْرَ إِلَّا سَاحِرٌ(٣).

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: النُّشْرَةُ حَلُّ السِّحرِ عَنِ الْمَسْحُورِ، وَهِيَ نَوْعَانِ: أَحَدُهُمَا: حَلٌّ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ، وَهُوَ الَّذِي مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، وَعَلَيْهِ

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٢٩٤)، ومن طريقه أبو داود، كتاب الطب، باب «في النشرة»، رقم (٣٨٦٨).
قال النووي: «رواه أبو داود بإسناد صحيح». «المجموع» (٩/ ٦٤).
وحسَّن إسناده ابن حجر في «فتح الباري» (١٠/ ٢٣٣).

(٢) الآداب الشرعية لابن مفلح (٣/ ٧٧).

(٣) ذكره البخاري معلقًا بصيغة الجزم، كتاب الطب، باب «هل يستخرج السحر»، (٧/ ١٣٧).

قال ابن حجر: «عن سعيد بن المسيب أنه كان لا يرى بأسًا إذا كان الرجل به سحر أن يمشي إلى من يطلق ذلك عنه، قال: «هو صلاح»»، قال: «وكان الحسن يكره ذلك»، ويقول: لا يعلم ذلك إلا ساحر، قال: فقال سعيد بن المسيب: «لا بأس بالنشرة؛ إنما نهي عما يضر ولم ينه عما ينفع». إسناده صحيح». «تغليق التعليق» (٥/ ٤٩).

يُحْمَلُ قَوْلُ الْحَسَنِ، فَيَتَقَرَّبُ النَّاشِرُ وَالْمُنْتَشَرُ إِلَى الشَّيْطَانِ بِمَا يُحِبُّ، فَيُبْطِلُ عَمَلَهُ عَنِ الْمَسْحُورِ.

وَالثَّانِي: النُّشْرَةُ بِالرُّقْيَةِ وَالتَّعَوُّذَاتِ وَالْأَدْوِيَةِ وَالدَّعَوَاتِ الْمُبَاحَةِ، فَهَذَا جَائِزٌ(١)».

الشَّرْح

النشرة: هي ضرب من العلاج والرقية، يعالج من يظنّ أن به مسّاً من الجن، وعرّفها ابن القيم بأنها: حلّ السحر عن المسحور.

والنشرة في الأصل: الكشف والإيضاح والإزالة، يقال: نُشِّر هذا الشيء أي: كُشف وأُزيل.

وسمي علاج السحر بالنشرة؛ لأنه يُزال بها عنه السحر، ويُبعد عن المسحور.

○ **قوله**: «عَنْ جابرٍ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ النُّشْرَةِ فقالَ: «هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ»».

و(أل) في كلمة (النشرة) للعهد، والمراد بها النشرة المعهودة في الجاهلية التي كانوا يفعلونها، وهي تقرب إلى الشياطين، فهذه هي التي من عمل الشيطان.

○ **قوله**: «سُئِلَ أحمدُ عنها فقالَ: ابنُ مسعودٍ يكرهُ هذا كلَّهُ».

يعني: ابن مسعود يكره النشرة التي هي من عمل الشيطان، كما كان يكره التمائم مطلقاً، والمراد بالكراهة التحريم، فالكراهة إذا أطلقت في القرآن أو في السنة أو في كلام الصحابة والتابعين، في الغالب تطلق على كراهة التحريم، فابن مسعود يكره النشرة

(١) انظر «إعلام الموقعين» لابن قيم الجوزية (٤/ ٣٩٦).

المحرمة، كما يكره التمائم مطلقاً.

○ قوله: «وَفي البُخاريِّ عنْ قَتادةَ: قُلْتُ لابنِ المسيِّبِ: رَجُلٌ بِهِ طِبٌّ» يعني: سحر، سمي السحر طبّاً؛ تفاؤلاً بالطيب، كما يقال للديغ: سليم؛ تفاؤلاً بالسلامة، وقيل: إن هذا من الأضداد، يطلق على الشيء وضده «أَوْ يُؤخَذُ عَنِ امْرَأَتِهِ» يؤخذ: يحبس، الأُخذة والتأخيذ: حبس الساحر الرجل عن امرأته فلا يصل إلى جماعها[(١)] «أَيُحَلُّ عَنْهُ أو يُنَشَّر؟» يعني: هل يجوز كشف من به سحر أو من حُبس عن امرأته فلا يصل إلى جماعها؟ «قالَ: لا بأسَ بِهِ» يعني: لا بأس بكشف السحر وحَلِّه «إنّما يُريدونَ بِهِ الإصْلاح» والذي ينفع لا يُنهى عنه، إنما يُنهى عن الذي يضر، فابن المسيب أفتى بأنه لا بأس بحلّ السحر عن المسحور؛ لأن هذا من باب الإصلاح، ومن باب النفع، والذي ينفع لا يُنه عنه، إنما ينهى عما يضر، فكلام ابن المسيب يُحمل على النشرة التي لا يُعلم أن فيها سحر، بناءً على أن الأصل السلامة، أما النشرة التي يُعلم أن فيها سحراً فهذه لا تحلّ، وعليه يُحمل قول الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «**لا يَحُلُّ السِّحْرَ إلَّا ساحرٌ**».

ولهذا جمع ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ بين الآثار التي فيها المنع من النشرة: على النشرة التي فيها سحر؛ وهي حله بسحر مثله، وهو ما كان في شيء محرم، وحمل ما ورد من الآثار على إباحة النشرة على النشرة الجائزة[(٢)].

○ **قوله**: «قالَ ابنُ القيِّم: النُّشرةُ: حلُّ السِّحْرِ عَنِ الْمَسحورِ، وَهِيَ نوعان: أحدهما: حَلٌّ بِسِحْرٍ مِثلِهِ، وهُوَ الّذِي مِنْ عَمَلِ

---

(١) انظر: تهذيب اللغة (٧/ ٢١٧).

(٢) انظر تفصيل ذلك في فتح الباري لابن حجر (١٠/ ٢٣٤).

الشَّيْطانِ» وهو الذي من عمل أهل الجاهلية «وَعَلَيْهِ يُحمَلُ قولُ الحسنِ: لَا يَحِلُّ السِّحَرَ إِلَّا سَاحِرٌ» وهو الذي من عمل الشيطان إذا كان حلّاً بسحر مثله، فهو من عمل الجاهلية، ومن عمل الشيطان «قوله: «فيَتَقرّبُ الناشِرُ والمنتَشِرُ إِلَى الشَّيطانِ بما يُحِبُّ، فيُبْطِلُ عَمَلَهُ عَنِ الْمَسْحُورِ» يعني: الناشر الذي يريد أن يعالج مَن به سحر وكذلك المسحور، كلهم يتقرب إلى الشيطان بما يحب، والشيطان يحب الشرك؛ فيتقربون إليه بما يناسبه من الذبح لغير الله، أو دعاء غير الله، أو بالأدوية والتدخينات التي تناسب الشيطان، أو يأمره الشيطان بالكفر بالله بامتهان المصحف أو تلطيخه بالنجاسة أو ما أشبه ذلك مما يحب الشيطان، وحينئذ يبطل عمله عن المسحور، بسبب تقربه إليه بالشرك.

○ **قوله**: «والثاني: النُّشرةُ بالرُّقْيَةِ والتَّعُوذاتِ والأَدْوِيَةِ» المباحة كالعقاقير الطبية «والدَّعواتِ الْمُباحَةِ فَهذا جائِزٌ» وبهذا تجتمع الأدلة ولا تختلف، فالنشرة هي حل السحر عن المسحور، فإن كان حلّاً بسحر مثله فهذا لا يجوز، وعليه تحمل الآثار الواردة في المنع، وإن كانت النشرة حل السحر عن المسحور بالرقية الشرعية وبتعوّذات شرعية أو بأدعية مباحة أو بعقاقير وأدوية مباحة لا بأس بها، وبهذا تجتمع الأدلة.

فِيهِ مَسَائِلُ:

◆ **الأولَى: النهيُ عنِ النُّشرةِ.**

ويحمل على النشرة المحرمة التي هي من عمل أهل الجاهلية.

◆ **الثانيَةُ: الفرقُ بينَ الْمَنْهِيِّ عنهُ والْمُرخَّصِ فيهِ مِمَّا يزيلُ الإشْكالَ.**

المنهي عنه النشرة التي يصنعها أهل الجاهلية؛ وهي حل السحر بسحر مثله، والنشرة الجائزة ما كان بالآيات والدعوات، والتعوذات الشرعية، والأدوية المباحة.

بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّطَيُّرِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٣١﴾ [الأعراف: ١٣١].

وَقَوْلِهِ: ﴿قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ [يس: ١٩].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا عَدْوَى، وَلَا طِيَرَةَ، وَلَا هَامَةَ، وَلَا صَفَرَ». أَخْرَجَاهُ[١].

زَادَ مُسْلِمٌ[٢]: «وَلَا نَوْءَ وَلَا غُولَ».

وَلَهُمَا[٣] عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا عَدْوَى، وَلَا طِيَرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ». قَالُوا: وَمَا الْفَأْلُ؟ قَالَ: الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ».

وَلِأَبِي دَاوُدَ[٤] بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: ذُكِرَتِ الطِّيَرَةُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «أَحْسَنُهَا الْفَأْلُ، وَلَا تَرُدُّ مُسْلِماً، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب «لا صفر وهو داء يأخذ البطن»، رقم (٥٧١٧)، ومسلم، كتاب السلام، رقم (٢٢٢٠).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب السلام، رقم (٢٢٢١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ورقم (٢٢٢٢) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب «لا عدوى»، رقم (٥٧٧٦)، ومسلم، كتاب السلام، رقم (٢٢٢٤).

(٤) أخرجه أبو داود، كتاب الطب، باب «في الطيرة»، رقم (٣٩١٩).

قال النووي: «رواه أبو داود باسناد صحيح». شرح النووي على «صحيح مسلم» (١٤/ ٢٢٤).

وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ».

وَلَهُ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعاً: «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، وَمَا مِنَّا إِلَّا. وَلَكِنَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ[(١)]، وَجَعَلَ آخِرَهُ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ[(٢)].

وَلِأَحْمَدَ[(٣)] مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرٍو: «مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ، فَقَدْ أَشْرَكَ»، قَالُوا: فَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «أَنْ يَقُولَ اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ».

وَلَهُ مِنْ حَدِيثِ الْفَضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ: «إِنَّمَا الطِّيَرَةُ مَا أَمْضَاكَ أَوْ رَدَّكَ»[(٤)].

الشَّرْح

عقد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الباب لذكر ما جاء في التطير، أي: ما

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الطب، باب «في الطيرة»، رقم (٣٩١٠)، والترمذي، كتاب السير، باب «ما جاء في الطيرة»، رقم (١٦١٤)، وابن ماجه، كتاب الطب، باب «من كان يعجبه الفأل ويكره الطيرة»، رقم (٣٥٣٨)، وأحمد (١/ ٣٨٩). وقال الترمذي: «وهذا حديث حسن صحيح».

(٢) قال الترمذي: «قال محمد: وكان سليمان بن حرب ينكر هذا الحديث أن يكون عن النبي ﷺ لهذا الحرف «وما منا»، وكان يقول: «هذا كأنه عن عبد الله بن مسعود قوله»». «علل الترمذي» رقم (٤٨٥).
وقال ابن حجر: «وقوله: «وما منا إلا» من كلام ابن مسعود أدرج في الخبر، وقد بيَّنه سليمان بن حرب شيخ البخاري فيما حكاه الترمذي عن البخاري عنه». «فتح الباري» (١٠/ ٢١٣).
قال المنذري: «والصواب ما ذكره البخاري وغيره أن قوله: «وما منا» إلى آخره من كلام ابن مسعود مدرج غير مرفوع». «الترغيب والترهيب» (٤/ ٣٣).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٢٠). قال الهيثمي: «رواه أحمد والطبراني، وفيه ابن لهيعة، وحديثه حسن وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات». «مجمع الزوائد» (٥/ ١٠٥).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٢١٣).

جاء فيه من النهي عنه والوعيد؛ وذلك أنه من إلقاء الشيطان ووسوسته وتخويفه، ومن الشرك، فهو ينافي كمال التوحيد الواجب؛ ولهذا ذكره المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب التوحيد.

○ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ: وَقَوْلُ اللهِ تعالَى: «﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٣١﴾ [الأعراف: ١٣١]».

﴿طَٰٓئِرُهُمۡ﴾ يعني: حظّهم وما قُدِّر عليهم، هذه الآية في آل فرعون، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ١٣٠ فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ﴾ [الأعراف: ١٣٠-١٣١]. الحسنة الخصب والسَّعة والعافية، ﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ﴾ يعني: نحن جديرون بها، وحقيقون بها، وأهلٌ لها، ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ﴾ جَهْدٌ وبلاء وقحط، ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾ يتشاءموا بموسى والمؤمنين الذين معه، ويقولون: هذا أصابنا بشؤمهم، قال الله تعالى ردّاً عليهم: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يعني: شؤمهم وما نالهم مما قُدِّر عليهم إنما هو بسبب ذنوبهم ومعاصيهم، وتكذيبهم لنبي الله، لا بسبب موسى ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٣١﴾ [الأعراف: ١٣١] فأكثرهم جُهّال لا يدرون، ولو علموا وعقلوا وفهموا لعلموا أن ما جاء به موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الخير والبركة؛ فإنه أمر بتوحيد الله ﷻ، وإخلاص الدِّين له، وهذا فيه السَّعة والخير، قال الله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

○ **وقولُهُ**: «﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ١٩﴾ [يس: ١٩]».

هذه الآية في أصحاب القرية، قال تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٣ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا

بِثَالِثٍ﴾ يعني: قوّيناهم برسول ثالث، ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ١٤ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ١٥ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ١٦ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٧ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ١٩﴾ [يس: ١٤-١٩]، حظّكم وما نالكم من شرٍّ معكم بسبب بغيكم وتكذيبكم للأنبياء والمرسلين، ليس بسببنا، ﴿أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ﴾ يعني: من أجل أنّا ذكّرناكم ووعظناكم، وأمرناكم بتوحيد الله ﷻ، قابلتمونا بهذا الكلام؟! ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ٨١﴾ [الأعراف: ٨١]: مجاوزون الحدّ، فطائر الباغي معه، يعني: ما يحصل له من الشؤم بسبب تكذيبه وعناده ومخالفته الناصحين، وليس بسبب الأنبياء ولا بسبب الناصحين، قُدِّر عليهم بسبب ذنوبهم ومعاصيهم.

ومناسبة هاتين الآيتين للترجمة: أن التطيّر من أعمال أهل الجاهلية، ومن أعمال المشركين، وقد ذمّه الله تعالى، ونهى عنه، وحذّر منه؛ لأنه ينافي كمال التوحيد الواجب.

○ **قوله**: «وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «لا عَدْوَى، وَلا طِيَرَةَ، ولا هامةَ، ولا صَفَر». أخرجاه، زادَ مُسلِمٌ: «ولا نَوْء ولا غُول».

اختُلف في معنى قوله: «لا عَدْوَى». وأصحّ ما قيل فيها: أن المراد: لا عدوى على الوجه الذي يعتقده أهل الجاهلية من إضافة الأفعال إلى غير الله، وأن العدوى والمرض ينتقل بطبعه وذاته لا بتقدير من الله، فإن هذا الاعتقاد الجاهلي منفي في الحديث.

والعدوى: اسمٌ مِنَ الإِعْدَاء، كالرَّعْوَى والبَقْوَى، مِنَ الْإِرَعاء

والإبْقَاء. يُقَالُ: أَعْدَاه الدَّاءُ يُعْدِيه إِعْدَاءً، إذا انتقل المرض، فأهل الجاهلية كانوا يعتقدون أن المرض ينتقل بنفسه، ويعدي بنفسه لا بتقدير من الله، فنفى النبي ﷺ ذلك فقال: «**لا عدوى**» أي: على الوجه الذي يعتقده أهل الجاهلية من إضافة الفعل إلى غير الله، وأن العدوى تنتقل بنفسها، وإلّا فقد يجعل الله مخالطة الصحيح لمن به مرض سبباً في انتقال العدوى، والله تعالى ربط الأسباب بمسبباتها؛ ولهذا جاء في الأحاديث الأخرى النهي عن التعرّض لأسباب العدوى، ولهذا قال في الحديث الآخر: «**لا يورد ممرض على مُصحّ**»[(١)]. وقال: «**وفر من المجذوم كما تفر من الأسد**»[(٢)]. وقال في الطاعون: «**فإذا سمعتم به بأرض، فلا تقدموا عليه**»[(٣)]. كل هذا من باب اتقاء الأسباب، والبُعد عن أسباب الهلاك، كما نُهي الإنسان عن أكل السمّ، وعن الاقتراب من النار والحريق، وأن يلقي نفسه من شاهق، كل هذا منهي عنه من باب اجتناب أسباب الهلاك، كذلك فهو أيضاً مأمور بأن لا يتعرّض لأسباب العدوى.

وقال بعض العلماء في الجمع بين الأحاديث: إن حديث «**لا عَدْوَى**» محمول على من قوي إيمانه وصحّ توكله، وحديث: «**فرّ من المجذوم**» و«**لا يورد ممرض على مصحّ**» محمول على ضعيف الإيمان. وقالوا: إن النبي ﷺ لمّا قوي إيمانه، وصحّ توكله؛ أخذ

(١) أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب «لا هامة»، رقم (٥٧٧١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب «الجذام»، رقم (٥٧٠٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب «ما يذكر في الطاعون»، رقم (٥٧٣٠) ومسلم، كتاب السلام، رقم (٢٢١٩) من حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه.

بيد مجذوم وأجلسه على الصحفة وأكل معه، وقال: «**كُلْ بسم الله**». ثقةً بالله، ، وتوكلاً عليه.

والقول الأول هو الأرجح، وهو المعتمد.

«وَلا طِيَرَةَ» نفي أو نهي، والنفي أبلغ، يعني: لا تطيّر ولا تشاؤم بمرئياتٍ أو مسموعاتٍ، لا بالطيور ولا بغيرها.

والطِيَرَة: هي التشاؤم، اسم مصدر، تَطَيَّر يتطيَّر تطيُّراً، وذلك أن العرب يتطيّرون بالسوانح والبوارح.

قال المدائني: قلت لرؤبة بن العجّاج: ما السانح؟ قال: ما ولّاك ميامنه. قلت: ما البارح؟ قال: ما ولّاك مياسره. يعني: من الطيور، والذي يأتي من أمامك هو الناطح والنطيح، والذي يأتي من خلفك هو القاعد والقعيد.

وكانوا يتشاءمون بالطيور ويزجرونها، فنفاها النبي عليه الصلاة والسلام، قال: «**لا طيرة**»، لا تشاؤم بطير ولا بغيره، نفي أو نهي، والنفي أبلغ من النهي، قال ابن القيم رحمه الله: «لأن النفي يدل على بطلان ذلك وعدم تأثيره والنهي إنما يدل على المنع منه»[(١)].

«ولا هامةَ»: الهامة هي طير الليل، ويسمى البومة، كانت العرب يتشاءمون به، ويعتقدون أن البومة إذا وقع على بيت أحدهم يقول: نعت إليّ نفسي أو أحداً من أهل بيتي، سيموت هو أو أحد من أهل بيته، فنفاه النبي ﷺ؛ نفى هذ الاعتقاد، قال: «**لا هامة**». ولهذا لما مر طائر يصيح فقال رجل من القوم: خير، خير. فقال ابن عباس: ما عند هذا لا خير ولا شر[(٢)]. أنكر عليه، قال: لا خير

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (٢/ ٢٣٤).

(٢) أخرجه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» رقم (٩٣٧).

ولا شر، ماذا عنده الطير؟! ما عنده شيء، ثم أنكر عليه وقال: لا تصاحبني. فالهامة ليس لها من الأمر شيء، لا تعلم شيئاً، لكن كانوا يعتقدون هذا في الجاهلية، فنفاه النبي ﷺ.

«ولا صَفَر» قيل: الصَفَر حيّة في البطن، كانت العرب تعتقد أنها تعدي، وأنها أعدى من الجرب، فنفاها النبي ﷺ قال: «**لا صفر**».

وقيل: المراد بصفر أن أهل الجاهلية كانوا يُنسئون صفراً، ويجعلونه مكان المحرّم، ويؤخِّرون المحرّم، ويجعلونه مكان صفر.

وقيل: المراد بصفر التشاؤم بشهر صفر، فنفاها النبي ﷺ بقوله: «**لا صفر**»[(١)].

زاد مسلم: «**ولا نوء**». نوء هو نسبة السُّقيا والمطر إلى الأنواء والنجوم، وهو الاستسقاء بالنجوم، فنفاه النبي ﷺ بقوله: «**ولا نوء**». لا ينبغي نسبة المطر إلى النجوم والأنواء.

«**ولا غُول**»: جنس من الجِنِّ والشياطين، تزعم العرب أنها تتلوَّن للناس في الفلوات وفي الصحاري، فتضلّهم وتهلكهم، فنفاها النبي ﷺ بقوله: «**ولا غول**».

○ **قوله**: «وَلَهُمَا عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا عَدْوَى، وَلَا طِيَرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ». قَالُوا: وَمَا الْفَأْلُ؟ قَالَ: الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ».

فيه: استثناء الفأل من الطيرة؛ لأن الطيرة تُستعمل فيما يسوء،

---

(١) «لَا عَدْوَى، وَلَا هَامَةَ، وَلَا صَفَر». كَانَتِ العَرَب تزعُم أَنَّ فِي البَطْن حيَّةً يُقَالُ لَهَا الصَّفَر، تُصِيب الْإِنْسَانَ إِذَا جَاع وتُؤْذِيه، وأنَّها تُعْدِي، فأبطَل الإسلامُ ذَلِكَ. وَقِيلَ: أرادَ بِهِ النَّسِيء الَّذِي كَانُوا يَفْعلُونه فِي الجاهليَّة، وهو تأخيرُ المُحرَّم إلى صَفَر، ويجعَلُون صَفَر هو الشهرَ الحرامَ، فأبطَله. النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٣٥).

والفأل فيما يسرّ ويسوء، فاستثنى النبي ﷺ الفأل؛ وهو الكلمة الطيبة يسمعها الإنسان فيسرّ بها؛ لما فيه من تأميل الخير، وحسن الظن بالله، ولما فيه من توقّع الخير، وحسن العائدة من الله ﷻ، والإنسان مأمور بحسن الظن بالله، فلهذا استثنيت، كأن يسمع مريض شخصاً يقول: سالم. فيتفاءل بالسلامة، وكأن يسمع مثلاً شخص له ضالة فضاعت فيسمع أحداً يقول: يا واجد. فيتفاءل بأن يجد ضالته، فهذا من باب الفأل، ولهذا كان يُعْجِبُ النبي ﷺ.

○ **قوله**: «وَلأبي داودَ بسَنَدٍ صحيحٍ، عَنْ عُقْبَةَ بنِ عامِرٍ قالَ: ذُكِرَت الطِّيَرَةُ عِنْدَ رسولِ اللهِ ﷺ فقالَ: «أَحْسَنُها الفأْلُ» استثنى ﷺ الفأل؛ لما فيها من تأميل الخير، وحسن الظن بالله ﷻ «ولا تردّ مسلماً» فيه إشارة إلى أنّ الكافر ليس كذلك «فَإذا رَأَى أحدُكُم ما يَكْرَهُ فَلْيَقُل:» داعيا بهؤلاء الدعوات «اللهُمّ لا يأتي بالحسَناتِ إلا أنْتَ» المراد بالحسنات هنا: النّعم «ولا يَدْفَعُ السَّيِّئاتِ إلا أنْتَ» أي: المصائب «ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بِكَ» فإذا ابتعد الإنسان عن الطيرة، ولم يعمل بما يقع في قلبه من التخويف والوساوس، واستعان بالله، وأذهب الطيرة من نفسه، ودعا بهذه الدعوات، فإن الله يزيلها عنه.

○ **قوله**: «وَعَنِ ابنِ مسعودٍ مَرْفُوعاً: «الطِّيرةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ» هذا تصريح بأن الطيرة شرك؛ لما فيها من تعلّق القلب بغير الله ﷻ «وما مِنا إلا، وَلَكِن اللهُ يُذْهِبُهُ بالتَّوكُّلِ». رواهُ أبو داودَ، والتِّرمذيُّ وصحَّحهُ، وجعلَ آخِرَهُ مِنْ قَوْلِ ابنِ مَسْعودٍ» المعنى: أن قوله: «وما منا إلا» أنه مدرج من كلام ابن مسعود، ومعناه: وما منّا إلّا وقد يقع في قلبه شيء من ذلك، ولكنّ الله يذهبه بالتوكل.

○ **قوله**: «وَلأَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ ابنِ عَمْرو: «مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ عَنْ

حاجَتِهِ فَقَدْ أَشْرَكَ» هذا تصريح بأن الطيرة من الشرك، فمن أراد سفراً فردّته الطيرة عن السفر، أو أراد زاوجاً فردّته الطيرة عن زواجه، فهذا من الشرك «قَالوا: فَما كَفَّارَةُ ذلِكَ؟ قالَ: «أَنْ تَقُولَ: اللهُمَّ لا خَيْرَ إلا خَيْرُكَ، وَلا طَيْرَ إلا طَيْرُكَ، وَلا إلهُ غَيْرُكَ» فإنّ الإنسان إذا لم يعمل بموجب ما وقع في قلبه، واستعان بالله، وترك ما يملي عليه الشيطان، ودعا بهذا الدعاء، فإن الله يذهبه عنه.

○ «وَلَهُ» يعني: الإمام أحمد «مِنْ حَديثِ الفَضْلِ بنِ العبَّاسِ رضي الله عنه: «إِنّما الطِّيرة» فيه بيان حدّ الطيرة المنهي عنها «مَا أَمْضاكَ أو رَدَّكَ» والحديث وإن كان منقطعاً إلّا أن له شواهد من أدلة أخرى تبيّن أن الطيرة هي التي تمنع الإنسان عن الإقدام على الحاجة، أو تجعله يقدم بسبب الطيرة.

«مَا أَمْضاكَ»: يجعلك تمضي في حاجةٍ أنت لا تريد المضي فيها كالسفر، «أو رَدَّكَ»: ردّك عن حاجتك التي كنت تريد المضي فيها كالعدول عن السفر.

ما حملك على المُضي وأنت لا تريد المُضي، أو ردّك عن المُضي وأنت تريده، هذه هي الطيرة المنهي عنها.

فِيهِ مَسَائِلُ:

- **الأُولَى: التَّنْبيهُ عَلَى قَوْلِهِ:** ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَـٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ **مَعَ قَوْلِهِ:** ﴿طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾.

وأنّ هذا التطير من أخلاق المشركين.

- **الثَّانيَةُ: نَفْيُ العَدْوَى.**

على الوجه الذي يعتقده أهل الجاهلية.

- **الثالثةُ: نفيُ الطِّيَرَةِ.**

كذلك، وأنّها لا تضرّ ولا تؤثّر إلا بمشيئة الله.

- **الرَّابعةُ: نَفْيُ الهامةِ.**

كذلك نفي ما يعتقده أهل الجاهلية في البومة، وأنّها تنعي إليهم أحداً.

- **الخامسة: نَفْيُ الصفر.**

وهو التشاؤم بشهر صفر، أو الحيّة التي تكون في البطن، أو النّسيء، كل هذا منفي وباطل.

- **السادسة: أنَّ الفَأْلَ لَيْسَ مِنْ ذَلِكَ بَلْ مُسْتَحَبٌّ.**
- **السَّابِعةُ: تَفْسِيرُ الفَأْلِ.**

وأنّه الكلمة الطيّبة.

- **الثَّامِنةُ: أنَّ الواقِعَ فِي القُلوبِ مِنْ ذلِكَ مَعَ كَراهَتِهِ لا يَضُرّ؛ بَلْ يُذهِبُهُ اللهُ بِالتَّوَكُّلِ.**

مثل كون النبي ﷺ يكره الاسم السَّيِّئ.

- **التاسعةُ: ذكْرُ ما يقولُ مَنْ وَجَدَهُ.**

من وجد شيئاً من ذلك، فيقول الدعاء مع جهاده في إزالة هذا الوساوس من نفسه.

- **العاشرةُ: التَّصريحُ بأَنَّ الطِيَرَةَ شِرْكٌ.**

من حديث ابن مسعود: «الطيرة شرك».

- **الحاديَةُ عَشْرة: تَفْسِيرُ الطِّيَرَةِ الْمَذْمومةُ.**

وأنّها ما أمضاك أو ردّك.

❊ ❊ ❊

بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّنْجِيمِ

قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِه»(١) قَالَ قَتَادَةُ: «خَلَقَ اللَّهُ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلَاثٍ: زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَرُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلَامَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا، فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ أَخْطَأَ، وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ». انْتَهَى.

وَكَرِهَ قَتَادَةُ تَعَلُّمَ مَنَازِلِ الْقَمَرِ، وَلَمْ يُرَخِّصِ ابْنُ عُيَيْنَةَ فِيهِ ذَكَرَهُ حَرْبٌ عَنْهُمَا(٢).

وَرَخَّصَ فِي تَعَلُّمِ الْمَنَازِلِ أَحْمَدُ، وَإِسْحَاقُ(٣).

وَعَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: مُدْمِنُ الْخَمْرِ، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ، وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ،

---

(١) ذكره البخاري تعليقًا في كتاب بدء الخلق، باب «في النجوم»، (٤/ ١٠٧).
ووصله ابن جرير في «التفسير» (١٤/ ٩١)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٢٩١٣).
قال ابن حجر: «وصله عبد بن حميد من طريق شيبان عنه به». «فتح الباري» (٦/ ٢٩٥)، وانظر: «تغليق التعليق» (٣/ ٤٨٩).

(٢) انظر: مسائل حرب الكرماني، مسائل الطهارة والصلاة (ص ٥٩٤)، و«فتح الباري» لابن رجب (٢/ ٢٩٦).

(٣) انظر: مسائل حرب الكرماني، مسائل الطهارة والصلاة ص ٥٩٤، ومجموع رسائل ابن رجب (٣/ ١١)، و«فتح الباري» لابن رجب (٢/ ٢٩٦)، وقال: «فرخص فيه: النخعي ومجاهد وأحمد».

وَابْنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ»»[(١)].

الشَّرْح

التنجيم: هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية، أو هو ما يستدل به من علم الكوائن والحوادث التي لم تقع.

○ **قوله**: «قالَ قَتادةُ ﷺ: خَلَقَ الله هَذِهِ النُّجومَ لِثلاثٍ: زينةً للسماءِ، ورُجُوماً للشّياطينِ، وَعَلاماتٍ يُهْتَدَى بِها».

يعني: هذه الحكمة من خلقها؛ الحكمة من خلق النجوم لا ليستدل بها على المغيّبات، ولكن خلقها الله منها ما هو زينة للسماء، ومنها ما هو رجوم للشياطين، ومنها ما هو علامات يهتدى بها، وأخذ ذلك من كتاب الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [المُلك: ٥]. ذكر الله في هذه الآية حكمتين: مصابيح، وزينة للسماء، ورجوماً للشياطين ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴿١٦﴾﴾ [النّحل: ١٦]. هذه هي الحكمة من خلقها، لا ليستدل بها على المغيبات؛ بل إن الله خلق بعضها ما هو زينة للسماء، درٌّ معلّق في السماء الدنيا، ورجوماً للشياطين الذين يسترقون السمع، وعلامات يهتدى بها، كالنجوم الثابتة يهتدي بها المسافرون في البرّ، والمسافرون في البحر، وتُعرف بها جهة القبلة، يُعرف بها وقت الزوال، يعرف بها الفلاحون أوقات

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٩٩)، وابن حبان في «صحيحه» رقم (٥٣٤٦).
قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه». «المستدرك» (٤/ ١٦٣).
وقال الهيثمي: «رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني، ورجال أحمد وأبي يعلى ثقات». «مجمع الزوائد» (٥/ ٧٤).

الزرع، وأوقات البذر والحرث، يُعرف بها مجيء الفصول، وتعاقب الفصول، الربيع، والخريف، والشتاء، والصيف، أما أن يستدل بها على المغيبات فهذا من العدوان وتجاوز الحد؛ ولهذا قالَ قَتادةُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيها غيرَ ذلِكَ أَخْطَأَ وأَضاعَ نَصِيبَهُ، وتكلَّفَ ما لا عِلْمَ لَهُ بِه**».

والتنجيم ثلاثة أنواع:

النوع الأول: أن يعتقد أن النجوم فاعلة مختارة، وأنها مؤثّرة في الأرض، وأن المركبات السفلية مركبة على تأثير الروحانيات العلوية، فيعتقد أن النجوم لها تأثير فيما يحدث في الأرض من الحروب، والأمراض، ومجيء الأمطار، وغلاء الأسعار، وتغيّر الدول، وزوال الملوك، وغير ذلك، وهذا شرك أكبر بالله العظيم، وهو شرك الصابئة الذي بعث فيهم الخليل عليه الصلاة والسلام.

النوع الثاني: الاستدلال باجتماع الكواكب، وافتراقها، ومسيرها، وذهابها، وإيابها، على المغيبات من غير اعتقاد أنها مؤثرة، لكن يستدل بها على المغيبات فإذا اجتمعت استدلّ بها على حدوث حدث في الأرض، أو افترقت سيحصل كذا، وسيحصل غلاء الأسعار، سيولد ملك، يموت عظيم، يولد عظيم، سوف ينزل مطر، هذا من دعوى علم الغيب وهو الشرك؛ لأن دعوى علم الغيب شرك أكبر، وإن كان تنازع فيها بعض المتأخرين، لكن الصواب أن هذا من الشرك الأكبر؛ لأن ادعاء علم الغيب كفر وشرك.

النوع الثالث: الاستدلال بها على معرفة جهة القبلة، ومعرفة فصول السَّنة، ومعرفة الطُرُق، فهذا لا بأس به، وهذا هو الذي يسمّى بعلم التسيير.

والنوعان الأوّلان يسمّيان علم التأثير، وعلم التأثير باطل سواءٌ اعتقد أنها مؤثرة أو ادّعى بها علم الغيب. وأما علم التسيير وهو الذي يعلم عن طريق المشاهدة والخبر، الذي يعرف به معرفة القبلة، ويعرف به فصول السنة، فهذا لا بأس به، ومع ذلك ففيه خلاف.

○ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ: «كَرِه قَتادةُ تعلُّم مَنازِلَ القَمَر، وَلَمْ يُرَخِّصْ ابنُ عُيينة فيهِ، ذَكَرَهُ حَرْبٌ عَنْهُمَا» حرب بن إسماعيل الكرماني، الفقيه، تلميذ الإمام أحمد بن حنبل[١]، ذكر الخلاف أن قتادة كره، وسفيان بن عيينة لم يرخص في تعلّم منازل القمر، ولو لم يستدلّ به على دعواه علم الغيب؛ سدّاً للذريعة.

وأن الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه رخَّصا في تعلّم منازل القمر الذي هو علم التسيير؛ لأنه لا محذور فيه، يتعلّم منازل القمر حتى يعرف جهة القبلة، ويعرف فصول السَّنة، ويعرف الطرق.

فعلم النجوم نوعان: علم التأثير، وعلم التسيير.

فعلم التأثير: باطل محرّم قليله وكثيره، وأمّا علم التسيير: فتعلّم ما يحتاج إليه كمعرفة جهة القبلة، ومعرفة الطُرُق، جائز عند الجمهور؛ لما فيه من تعلّم جهات القبلة، ومعرفة الطرق في البرّ أو في البحر، ولكن ينبغي عدم التعمّق والتوسّع فيه فيزيد عن الحاجة؛ لأنه إذا تعمّق وتوسّع وزاد عن الحاجة أفضى به ذلك إلى تخطئة المسلمين في صلواتهم[٢].

---

(١) قيد تاريخ وفاته عبد الباقي بن قانع، في سنة ثمانين ومائتين. عُمِّر، وقارب التسعين، رَحِمَهُ اللَّهُ.
انظر: طبقات الحنابلة (١/ ١٤٥ - ١٤٦)، وسير أعلام النبلاء (١٣/ ٢٤٤).

(٢) انظر: بيان فضل علم السلف على علم الخلف (ص: ٢) لابن رجب الحنبلي.

والآن وجدت البوصلة والأشياء الدقيقة، فصارت تحدد جهة القبلة تحديداً دقيقاً ولله الحمد، والميل اليسير عن القبلة لا يضرّ، فما بين الجهتين قبلة، فإذا كانت هذه الجهة قبلة فلا يضرّ الانحراف اليسير، لكن لو انحرف بأن استدبر القبلة أو جعلها عن يمينه أو عن يساره، فهذا هو الذي يضرّ.

فعلم التسيير فيه الخلاف الذي ذكره المؤلف، الجمهور على الجواز، ومن العلماء من منع منه؛ سدًّ للذريعة.

○ **قوله**: «وَعَنْ أبي مُوسى ﵁ قالَ: قالَ رَسولُ الله ﷺ: «ثلاثةٌ لا يَدْخُلُونَ الجنةَ: مُدْمِنُ الخَمْرِ، وقَاطِعُ الرَّحِمِ، ومُصدِّقٌ بالسِّحْرِ».

هذا الحديث من أحاديث الوعيد.

«ثلاثةٌ لا يَدْخُلُونَ الجنةَ». يدلّ على أن الكبيرة هي كل ذنب تُوعِّد صاحبه بعدم دخول الجنة، أو تُوعِّد بالعذاب، أو بالنار، أو بالخلود، أو باللعن، أو وجب فيه حدٌّ في الدنيا؛ فهذه هي الكبيرة.

وذكر النبي ﷺ ثلاث كبائر: الكبيرة الأولى: «**مُدْمِنُ الخَمْرِ**». يعني: مداوم على شربها .«**ومُصدِّقٌ بالسِّحْرِ**». ويدخل في السحر التنجيم، وهذا فيه تفصيل سابق؛ فإن صدَّق الساحر في دعوى علم الغيب، أو صدَّق المنجم في علم الغيب، فهذا كفر، أمّا إذا كان دون ذلك؛ فهو كبيرة من كبائر الذنوب.

«وقَاطِعُ الرَّحِمِ» هي القرابة، من جهة الأم، ومن جهة الأب، وعمودا النسب هما أعظم القرابة: الأب والأم، ثم الأقارب من جهة الأب، كالإخوة الأشقاء، أو لأب، والأعمام، والعمّات، وأبنائهم، والأخوال، وخالاتهم، ومن جهة الأم: الأم، وإخوتها وهم الأخوال، وأبناء الأخوال، وأبناء الخالات، الأقرب فالأقرب،

كلّما قرب صار أحقّ بالصلة.

والشاهد من الحديث قوله: «ومُصدِّقٌ بالسِّحْرِ». والتنجيم يدخل في هذا.

فِيهِ مَسَائِلُ:

- **الأولى: الحكمةُ في خَلْقِ النُّجومِ».**

وأنها لهذه الثلاث: زينة، ورجوم، وعلامات.

- **الثانيةُ: الردُّ علَى مَنْ زَعَمَ غَيْرَ ذلِكَ.**
- **الثالثةُ: ذِكْرُ الخِلافِ في تَعَلُّمِ الْمَنازِل».**

أي: منازل القمر، وهي علم التسيير، وأنه لم يُرخِّص فيه بعض العلماء، ورخَّص فيه الجمهور.

- **الرابعةُ: «الوعيدُ فِيمَنْ صَدَّقَ بِشَيْءٍ مِنَ السِّحْرِ، وَلَوْ عَرَفَ أَنَّهُ باطِلٌ».**

بَابُ مَا جَاءَ فِي الِاسْتِسْقَاءِ بِالْأَنْوَاءِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة: ٨٢].

وَعَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ بِالْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ».

وَقَالَ: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا، تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

وَلَهُمَا(٢) عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمَ. قَالَ: «قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ؛ فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ».

وَلَهُمَا(٣) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَعْنَاهُ، وَفِيهِ: «قَالَ بَعْضُهُمْ: لَقَدْ صَدَقَ نَوْءَ كَذَا وَكَذَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَاتِ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجنائز، رقم (٩٣٤).
(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب «يستقبل الإمام الناس إذا سلم»، رقم (١٠٨٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (٧١).
(٣) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، رقم (٧٣).

مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٢]».

الشَّرْح

عقد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب لذكر ما جاء في الاستسقاء بالأنواء، أي: ما جاء فيه من الوعيد الشديد.

والاستسقاء: هو طلب السقيا ومجيء المطر.

والأنواء: جمع نوء؛ وهي منازل القمر، وهي ثمانية وعشرون منزلة، ينزل القمر كل ليلة منزلة منها، وكانت العرب تزعم أنه عند طلوع النجم الغارب في المشرق، وسقوط رقيبه في المغرب، ينزل المطر، وينسبونه إليه، هذا هو الاستسقاء بالنجوم، وهو من أعمال الجاهلية كما جاء في الحديث، وهو من الشرك الأصغر إذا اعتقد أن النجم سبب، أما إذا اعتقد أن النجم هو المؤثر فهذا من الشرك الأكبر كما سيأتي.

فالمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بوَّب هذا الباب؛ لبيان ما جاء في الاستسقاء بالأنواء من الوعيد، وأنه كفر إما أصغر أو أكبر.

○ **قوله**: «وقولُ اللهِ تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقِعَة: ٨٢]».

يعني: تجعلون شكركم على ما أنزل عليكم من الغيث والمطر والرحمة، أنكم تنسبونه إلى غير الله، وتقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا. ﴿تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقِعَة: ٨٢]: تجحدون نعمة الله، وتنسبونها إلى غيره، وتقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا.

○ **قوله**: «وعَنْ أبي مالكٍ الأشعريِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: أَرْبَعٌ في أُمَّتِي مِنْ أمْرِ الجاهِلِيَّةِ لا يَتْرُكُونهن: الفَخْرُ

بالأحسابِ، والطَّعْنُ في الأنْسابِ، والاستسْقاءُ بالنُّجومِ، والنِّياحةُ».

هذه الأمور الأربعة من أمور الجاهلية أخبر النبي ﷺ أنها باقية في هذه الأمة، وليس المراد أن كل واحد من الأمة يفعلها، بل المراد أنه يفعلها بعض الناس.

وهذا الحديث يفيد فائدتين:

الفائدة الأولى: أن هذه الأمور باقية في الأمة، وأنه لابد أن يفعلها بعض الناس.

الفائدة الثانية: التحذير من هذه الخصال الأربعة، والبُعْد عنها؛ حتى لا يكون المسلم ممن يفعلها.

«الفَخْرُ بالأحسابِ» أي: التعاظم على الناس بالآباء ومآثرهم، وهذا من أمور الجاهلية؛ فالحسب لا يقدِّم ولا يؤخِّر.

«والطعن في الأنساب» أي: الوقوع فيها بالعيب والتنقص، الأنساب إنما كانت للتعارف لا للتفاخر؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ [الحُجرَات: ١٣] ولم يقل: لتفاخروا.

فالأنساب وضعت للتعارف؛ يعرف الإنسان رَحِمَه وأقاربه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ [الفُرقان: ٥٤]، لا للتفاخر ولا للتعاظم على الناس بالآباء ومآثرهم، كما كان أهل الجاهلية ومن سلك سبيلهم من أهل الإسلام.

والمقياس عند الله ليس الحسب ولا النسب، وإنما هو التقوى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات: ١٣].

والعمل الصالح هو الذي يقدِّم الإنسان، لا الحسب ولا النسب، وإذا تأخَّر الإنسان في العمل؛ فإنه لا ينفعه الحسب

والنسب، ولا يقدِّمه ولا يرفعه، ولو كان من أولاد الأنبياء؛ ولهذا قال النبي ﷺ كما في الصحيح: «**وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**»(١). من تأخّر في العمل الصالح وصار عمله سيئاً؛ فإن نسبه لا يرفعه.

«**والاستسْقاءُ بالنُّجومِ**»: الاستسقاء: طلب السقيا والمطر من النجوم، وهي الأنواء، فنسبة السقيا والمطر إلى الأنواء من خصال الجاهلية.

«**النِّياحة على الميت**» والنياحة: رفع الصوت بالبكاء، وتعداد محاسن الميت، ولطم الخد، وشق الجيب، وشق الثوب، ونتف الشعر، وهي من الكبائر؛ ولهذا قال: «**النائحةُ إذا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِها، تُقامُ يوْمَ القِيامةِ وعلَيها سِرْبالٌ مِنْ قَطِران، ودِرْعٌ مِنْ جَرَب**». تلبس سربالاً: ثوباً من قطران على جلدها، ويكون عليها درع من جرب؛ حتى يكون اشتعال النار أشدّ، إذا اشتعلت النار بالقطران والجرب ما تطفأ، نسأل الله السلامة والعافية، بخلاف ما إذا اشتعلت في الجسم.

وهذا الوعيد الشديد دال على أن النياحة من الكبائر.

أما دمع العين فلا يلام عليه الإنسان؛ ولهذا دمعت عينا النبي ﷺ، ففي الصحيح(٢) عَنْ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ رضي الله عنهما، قَالَ: أَرْسَلَتِ ابْنَةُ النَّبِيِّ ﷺ إِلَيْهِ إِنَّ ابْناً لِي قُبِضَ، فَأْتِنَا، فَأَرْسَلَ يُقْرِئُ السَّلَامَ، وَيَقُولُ:

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، رقم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب «قول النبي «يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه»»، رقم (١٢٨٤)، ومسلم، كتاب الجنائز، رقم (٩٢٣).

«**إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلٌّ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَلْتَصْبِرْ، وَلْتَحْتَسِبْ**»، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ تُقْسِمُ عَلَيْهِ لَيَأْتِيَنَّهَا، فَقَامَ وَمَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَمَعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَرِجَالٌ، فَرُفِعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الصَّبِيُّ وَنَفْسُهُ تَتَقَعْقَعُ - قَالَ: حَسِبْتُهُ أَنَّهُ قَالَ: كَأَنَّهَا شَنٌّ - فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، فَقَالَ سَعْدٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هَذَا؟ فَقَالَ: «**هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ**»، وقال ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ العَيْنِ، وَلَا بِحُزْنِ القَلْبِ، وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا - وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ - أَوْ يَرْحَمُ**»[(١)]. يعني: الصوت.

○ **قوله**: «وَلَهُما عَنْ زَيْدٍ بن خالدٍ رضي الله عنه قالَ: صلّى لَنا رَسُولُ اللهِ» أي: صلّى بنا، وحروف الجر ينوب بعضها عن بعض «صلاةَ الصُّبْحِ بالحُديبيةِ» الحديبية: على حدود الحرم على طريق جدة، تسمى الآن الشميسي، وهي التي نزل فيها النبي ﷺ في عام ست من الهجرة، لمّا جاء وأصحابه معتمرين صدّهم المشركون. فنزلوا بالحديبية على حدود الحرم «علَى إِثْرِ سَماءٍ كانَتْ مِنَ اللّيلِ» يعني: على إثر مطر، يعني: بعد مطر، كانت تلك الليل ممطرة، صلى صلاة الصبح بعد مطر من الليل «فلَمّا انْصَرَفَ أقْبَلَ علَى الناسِ فقالَ: «هَلْ تَدرونَ ماذا قالَ رَبّكُمْ؟»» استفهام للتشويق؛ حتى ينتبهوا للجواب «هَلْ تَدرونَ ماذا قالَ رَبّكُمْ الليلة؟» فيه: إطلاق الليلة على الليلة الماضية، والأصل أن الليلة الماضية يقال لها: البارحة، ويقال: الليلة؛ لليلتك التي أنت فيها، فهنا أطلق الليلة على الليلة

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب «البكاء عند المريض»، رقم (١٣٠٤)، ومسلم، كتاب الجنائز، رقم (٩٢٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الماضية[(١)] «قالوا: اللهُ ورَسُولُهُ أعْلَم» فيه: أنه في حياة النبي ﷺ يقال: الله ورسوله أعلم؛ لأنّ الرسول عليه الصلاة والسلام إذا كان بين أظهر الناس ينزل عليه الوحي، أما بعد وفاة النبي ﷺ فيقال: الله أعلم؛ لأن الرسول ﷺ لا يعلم الغيب، ولا يعلم أحوال أمته بعد موته «قال: أَصْبَحَ مِنْ عِبادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ» انقسم الناس إلى قسمين: قسم مؤمن بالله، وقسم كافر بالله -نعوذ بالله من الكفر.

فأَما مَنْ قالَ: مُطِرْنا بِفَضْلِ الله وَرَحْمَتِهِ، فَذلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بالكَوْكَبِ» فيه: مشروعية القول مطرنا بفضل الله ورحمته.

«وأَما مَنْ قالَ: مُطِرْنا بِنَوْءِ كَذا وَكَذا فَذلِكَ كافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بالكَوْكَبِ» فيه: دليل على أن قول: مطرنا بنوء كذا وكذا كفر، لكنه فيه تفصيل:

فإن اعتقد أن المُنزل للمطر هو النجم، فهذا كفر أكبر؛ لأنه شرك في الربوبية. وإن اعتقد أن المنزل للمطر هو الله والنجم سبب؛ فهذا شرك أصغر وكفر أصغر.

○ **قوله**: «وَلَهُما مِنْ حَديثِ عبد الله ابنِ عباسٍ مَعْناهُ، وفِيهِ: قالَ بَعْضُهُم: لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذا وَكَذا» يعني: صدق نجم كذا وكذا، فأنزل الله هذه الآيات: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾ [الواقِعَة: ٧٥-٧٦].

مواقع النجوم قيل: المراد بها النجوم التي في السماء، ومواقعها: سريانها.

---

(١) قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا صلى الصبح أقبل عليهم بوجهه فقال: هل رأى أحد منكم البارحة رؤيا». فيه دليل لجواز إطلاق البارحة على الليلة الماضية وإن كان قبل الزوال. شرح النووي على مسلم (١٥/ ٣٥).

وقيل: المراد بالنجوم هنا: نزول القرآن منجماً على حسب الحوادث.

﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٥﴾ أي: هذا القسم الذي أقسم الله عظيم ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧﴾ وهو كلام الله ﷻ: ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨﴾ [الواقِعَة: ٧٨] هو اللوح المحفوظ. ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾ وهم الملائكة ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠﴾ [الواقِعَة: ٨٠] أنزله الله تعالى على قلب محمد ﷺ، وفيه إثبات العلوّ للربّ ﷻ؛ لأنّ النزول يكون من أعلى إلى أسفل.

﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾: القرآن، وهذا الاستفهام للإنكار ﴿أَنتُم مُّدْهِنُونَ ۝٨١﴾ من الإدهان وهي مداهنة الكفار، وموافقتهم على الباطل.

فلا يجوز مداهنة الكفار، وموافقتهم على الباطل، بل يجب منابذتهم، وعداوتهم، والبراءة منهم، وقتالهم وجهادهم مع القدرة.

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾ [الواقِعَة: ٧٥- ٨٢]: رِزْقَكُمْ: شكركم، وحظّكم، تجعلون حظّكم على ما أنزل عليكم من المطر والغيث والرحمة، ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾: أنكم تجحدون نعمة الله، وتنسبون المطر إلى غير الله وتقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا. كيف يكون حظّكم هذا؟! حظّكم من الشكر، كان الواجب عليكم أن تشكروا نعمة الله، وتضيفوا النعمة إلى موليها ومسديها وهو الله.

فِيهِ مَسَائِلُ:

- الأُولى: تَفْسِيرُ آيَةِ الواقِعَةِ.

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾ [الواقِعَة: ٨٢]، ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥﴾ [الواقِعَة: ٧٥].

◆ **الثانيةُ: ذِكْرُ الأَرْبع التي مِنْ أمْرِ الجاهليَّةِ.**

وهو الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة.

◆ **الثالثةُ: ذِكْرُ الكُفْرِ في بَعْضِها.**

وهو الاستسقاء بالنجوم: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر». نسبة السقيا إلى النجوم كُفر.

◆ **الرابعةُ: أنّ مِن الكُفْرِ ما لا يُخْرِجُ عن الملّةِ.**

وهو كفر النعمة: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر». نسبة النعمة إلى غير الله، نسبتها إلى النجوم، ولا يعتقد أنها هي المؤثرة، فهذا من كفر النعمة؛ أما إذا اعتقد أن لها تأثيراً في إنزال المطر، فهذا كفر أكبر، وشرك في الربوبية.

◆ **الخامسةُ: قولُه: «أَصْبَحَ مِنْ عِبادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكافِرٌ»؛ بسببِ نزولِ النِّعْمَةِ.**

بسبب نزول النعمة وهي المطر، أصبح من الناس مؤمن وكافر.

◆ **السادسةُ: التَّفَطُّنُ للإيمانِ في هَذا الموضعِ.**

في وقت النزول، أي: التفطن للإيمان في حال نزول المطر، فلا تنسب النعمة إلى النجم، بل تنسب إلى الله ﷻ.

◆ **السابعةِ: التَّفَطُّنُ لِلْكُفْرِ في هَذا الْمَوْضِعِ.**

ففيه كفر وإيمان، من نسب النعمة إلى غير الله كفر، ومن نسبها إلى الله فهو مؤمن.

◆ **الثّامِنَةُ: التّفطّنُ لِقَوْلِهِ: «لَقَد صَدَقَ نَوْءُ كَذا وَكَذا.**

قول المشركين: لقد صدق نوء كذا وكذا في الجاهلية.

❖ التاسعةُ: إخْراجُ العالِمِ للمِتَعلِّمِ المسألةَ بالاستفهامِ عَنْها لقولِهِ: «أَتَدْرونَ ماذا قالَ رَبُّكُمْ؟».

هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة؟

❖ العاشرةُ: وَعيدُ النَّائِحَةِ.

عليها وعيد شديد، تُقام يوم القيامة سربالها من قطران، وعليها درع من جرب.

بَابٌ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١٦٥]

وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤] الآيَةَ.

عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ، وَوَالِدِهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ». أَخْرَجَاهُ[(١)].

وَلَهُمَا[(٢)] عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَن يُقْذَفَ فِي النَّارِ».

وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى» إِلَى آخِرِهِ[(٣)].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ «مَنْ أَحَبَّ فِي اللَّهِ، وَأَبْغَضَ فِي اللَّهِ، وَوَالَى فِي اللَّهِ، وَعَادَى فِي اللَّهِ، فَإِنَّمَا تُنَالُ وِلَايَةُ اللَّهِ بِذَلِكَ، وَلَنْ يَجِدَ عَبْدٌ طَعْمَ الْإِيمَانِ - وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وَصَوْمُهُ - حَتَّى يَكُونَ كَذَلِكَ، وَقَدْ صَارَتْ عَامَّةُ مُؤَاخَاةِ النَّاسِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ لَا

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب «حب الرسول الله من الإيمان»، رقم (١٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (٤٤).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب «حلاوة الإيمان»، رقم (١٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (٤٣).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب «الحب في الله»، رقم (٦٠٤١).

يُجْدِي عَلَى أَهْلِهِ شَيْئاً». رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ[1].

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البَقَرَة: ١٦٦]. قَالَ: الْمَوَدَّةُ[2].

الشَّرْح

أراد المصنف رَحِمَهُ اللهُ بهذه الترجمة بيان أن محبة الله فرضٌ على الأعيان؛ وذلك لأنّ محبة الله أصل لدين الإسلام الذي يدور عليه رحاه، فبكمالها يكمل إيمان العبد، وبنقصانها ينقص توحيد العبد، فمحبة الله فرض على الأعيان، فمن لم يحبّ الله فليس بمؤمن، وكمال المحبة: أن تقدّم محبة الله على كل شيء، على النفس، وعلى المال، وعلى الولد.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١٦٥] المعنى: أن من الناس من يتخذ من دون الله ندّاً في المحبة والتعظيم؛ بأن يحبّ هذا الند كما يحبّ الله، فيكون ندّاً في المحبة والتعظيم، لا ندّاً في الخلق والربوبية، فإنّ هذا أمرٌ فطري، فإن جميع طوائف بني آدم لا يشركون في الربوبية إلا من شذّ؛ لأن الله فطر الخلق على معرفته، والإقرار بربوبيته؛ ولهذا لم تقع الخصومة بين الأنبياء ورسلهم وأقوامهم في توحيد الربوبية، وإنما

(١) كما في «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (ص ٣٤)، ولم أقف عليه.
وأخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ١٣٤) رقم (٣٤٧٧٠).

(٢) أخرجه الطبري في «التفسير» (٢/ ٧١)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (١/ ٢٧٨).
قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه». «المستدرك» (٢/ ٢٩٩).

وقعت الخصومة في توحيد العبادة، فمن أحبّ ندّاً كما يحبّ الله، فقد اتخذ ندّاً لله في المحبة والتعظيم، فكان مشركاً بالله ﷻ، شرك المحبة، فمن أحبّ شيئاً كما يحبّ الله، فقد جعله شريكاً لله في الندّ والمحبة، لا في الخلق والربوبية؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١٦٥] قيل: يحبون أندادهم كما يحبون الله.

وقيل: يحبون أندادهم كما يحبّ المؤمنون الله، فأثبت لهم محبة الله.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ قيل المعنى: من محبة المشركين لأندادهم وآلهتهم.

وقيل المعنى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ من محبة المشركين بالأنداد لله؛ لأن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة المشركين مشتركة، والمحبة الخالصة أشدّ.

○ **قوله**: «وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤]».

في هذا الآية الكريمة يبيّن الله تعالى أن من قدّم شيئاً من هذه الأصناف الثمانية على محبة الله ورسوله؛ أنه ارتكب كبيرة فيوصف بالفسق، وهو متوعّد بالوعيد الشديد، وهذه الأصناف الثمانية هي: الآباء، والأبناء، والإخوان، والأزواج، والعشيرة، والأموال، والتجارة، والمساكن، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي: حصلتموها أو

اكتسبتموها ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ يعني: تخشون عدم رواجها ونفاقها ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾ تعجبكم لحسنها وجمالها ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بأن يُقدّم الإنسان محبة واحد من هذه الأصناف الثمانية على محبة الله ورسوله، فيترك بعض الواجبات، أو يفعل بعض المحرّمات، تقديماً لمحبة شيء من هذه الأصناف الثمانية، وتحمله محبة الأب على أن يعصي الله، أو محبة الابن، أو محبة المال، فيعصي الله، فيكسب المال عن طريق الربا أو الرشوة، أو كذلك يعصي الله من أجل المسكن؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ يعني: انتظروا ماذا يحل بكم من عقوبة الله! فعليه هذا الوعيد الشديد ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ أي: انتظروا، ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤] وصفهم بالفسق.

فأصل محبة الله ورسوله هذه فرض على الأعيان، فمن لم يحب الله ورسوله فليس بمؤمن، فالكافر ليس عنده أصل المحبة، والمؤمن عنده أصل المحبة ولو كان عاصياً، ولا تزول المحبة إلا إذا زال التوحيد.

كما في حديث أنس الذي ذكره المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ **أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ**: «**لا يُؤْمِنُ**» يعني: الإيمان الواجب الذي تبرؤ به ذمّته، ويستحقّ به دخول الجنة، والنجاة من النار «**حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ، وَوَالِدِهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»، فتقديم محبة الله على الولد والوالد تكون فرضاً على الأعيان، بل إنه يجب أن يقدّمها الإنسان على محبة النفس، كما ثبت في الحديث: أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ** ﷺ: «**لَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ**».

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الآنَ، وَاللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الآنَ يَا عُمَرُ»[(١)] يعني: الآن بلغت المحبة الواجبة.

○ **قوله**: «ولهما» يعني: البخاري ومسلم «عنه» يعني: عن أنس رضي الله عنه «قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاوةَ الإيمان» أي: ثلاث خصال، من وُجدت فيه تامة وجد حلاوة الإيمان؛ لذته وطعمه وبهجته وسروره «وَفِي روايةٍ: «لا يَجِدُ أَحَدٌ حَلاوةَ الإيمانِ حَتّى...» إلى آخره» يعني: لا يجد أحد طعم الإيمان حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وحتى يحب المرء لا يحبه إلا لله، وحتى يكره أن يقع في الكفر كما يكره أن يقذف في النار.

الأولى: «أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا»؛ بأن يقدّم محبة الله ومحبة رسوله على كلّ شيء.

والحديث فيه دليل على تثنية ضمير الرسول ﷺ مع الضمير المضاف إلى الله، حيث قال: «أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا»، وجاء في الحديث الآخر أن النبي ﷺ سمع خطيباً يجمع بين الضميرين، فقال: «**بئس الخطيب أنت**»[(٢)]. وقد اختلف العلماء في هذا، فقيل: إن هذا كان أولاً، وقال بعضهم: إن الخطبة تحتاج إلى توسّع وأن هذا اختصر، وقيل غير ذلك.

وعلى كل حال أصح الحديثين الذي في «الصحيحين».

الثانية: «وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ»؛ محبة الله ورسوله

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب «كيف كانت يمين النبي ﷺ»، رقم (٦٦٣٢) من حديث عبد الله بن هشام رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الجمعة، رقم (٨٧٠) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

تستلزم طاعة الله ورسوله، فإذا لم يُطع الله ورسوله فإنه يكون كاذباً في دعواه، وإذا نقصت الطاعة نقصت المحبة؛ ولهذا لمّا ادّعى قوم محبة الله امتحنهم الله بقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣١﴾ . وتسمى هذه الآية آية المحنة، امتحن الله قوماً ادعوا محبة الله، فالدليل على محبة الله هو اتباع الرسول وطاعته، فمن كان متبعاً مطيعاً فهو صادق في محبته، ومن كان عاصياً مخالفاً فليس بصادق في محبته.

ومحبة الله ورسوله تستلزم طاعة الله ورسوله، وتستلزم محبة الأنبياء والصالحين؛ ولهذا خصّص في الثانية: «**وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله**» هذه من مستلزمات محبة الله ورسوله؛ أن يحب الشخص لا لأن بينهما نسباً أو معاملة دنيوية أو غير ذلك، إنما يحبه لأنه مستقيم على طاعة الله، لأنه مؤمن، لأنه وليٌّ لله، لأنه تقي، لا يحبه إلا من أجل ذلك، فهذه من الخصال التي يجد فيها العبد حلاوة الإيمان، يحبه ولو كان بعيداً، ولو كان أعجمياً، ولو كان في المشرق وأنت في المغرب، ولو لم يكن بينهما نسب أو علاقة.

الثالثة: «وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَن يُقْذَفَ فِي النَّارِ» هذه من مستلزمات محبة الله، فمحبة الله ورسوله هي الأصل، والثانية والثالثة من مستلزماتها، والمعنى في قوله: «وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَن يُقْذَفَ فِي النَّارِ» فكما أنه يكره أن يقذف الله في النار، فكذلك يكره أن يعود في الكفر.

○ **قوله**: «وَعَنْ ابنِ عَباسٍ رضي الله عنهما قالَ: مَنْ أَحَبَّ فِي اللهِ» يعني: أن يحب ما يحبه الله من شخص أو فعل أو حكم «وَأَبْغَضَ فِي اللهِ»

يبغض ما أبغضه الله من فعل أو شخص أو حكم «ووَالى فِي اللهِ، وَعَادَى فِي اللهِ» يوالي الناس لله، يوالي المؤمنين، ويعادي الكفار والفُساق والعصاة، فالكفار يعاديهم معاداة كاملة، والفساق والعصاة يعاديهم بقدر ما فيهم من المعاصي «فَإِنَّمَا تُنالُ وَلايةُ اللهِ بذلِكَ» الوَلاية: بالفتح على الأرجح هي المحبة والنصرة، أما بالكسرة - الوِلاية -: فهي الإمارة.

فمحبة الله إنما تُنال بالحبّ في الله، والبغض في الله، والموالاة في الله، والمعادة في الله؛ لأنها من مستلزمات محبة الله ورسوله.

«وَلَنْ يَجِدَ عَبْدٌ طَعْمَ الإيمانِ وإنْ كَثُرَتْ صلاتُهُ وصَوْمُهُ حَتى يَكونَ كذلِك» لا يجد الإنسان طعم الإيمان ولذته، وسروره وبهجته، حتى يحب في الله، ويبغض في الله، ويوالي في الله، ويعادي في الله، ولو كان كثير الصلاة والصيام؛ لأن المحبة -محبة الله ورسوله- إذا استقرّت في القلب تبعث الإنسان على الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب في الله، والبغض في الله، وهي الأصل؛ ثم قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «وَقَدْ صارَتْ عامَّةُ مؤاخاةِ الناسِ علَى أمْر الدُّنْيا، وذَلِكَ لا يُجْدِي عَلَى أهْلِهِ شَيْئاً» يعني: محبة الناس صارت على أمر الدنيا، هذا قاله في زمانه في القرن الأول، إذا كانت في القر الأول، ففي العصور المتأخرة مؤاخاة كثير من الناس على البدع والفسوق والشرك والمعاصي، كما هو الواقع الآن من الفسقة والعصاة الذين يوالي بعضهم بعضاً على ما هم عليه من البدع والفسوق.

والمراد الأغلب، وإلا فإن أهل الإيمان وأهل محبة الله ورسوله لابد من استمرارهم، وهم موجودون في كل زمان؛ لقول النبي ﷺ

في الحديث الصحيح: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ**»(١). لكن هذه الطائفة تقل في بعض الأزمنة وتكثر.

○ «وقالَ ابنُ عبَّاسٍ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البَقَرَة: ١٦٦] **قالَ: المودَّةُ**».

أي: انقطعت المودة التي بينهم، الذين يتوادون على الدنيا أو على المعاصي يوم القيامة تنقطع هذه المحبة، وتخونهم أحوج ما كانوا إليها، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البَقَرَة: ١٦٦] تبرأ المتبوعون من التابعين، فالسادة والكبراء الذين يتبعهم الضعفاء على الشرك والبدع والمعاصي في الدنيا يتبرؤون منهم يوم القيامة، فيتمنى التابعون - وهم الفقراء - أن يعودوا إلى الدنيا؛ حتى يتبرؤوا من متبوعيهم كما تبرؤوا منهم يوم القيامة.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ يعني: رجعة إلى الدنيا، ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا﴾، لكن هذا لا ينفع؛ ولهذا قال الله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البَقَرَة: ١٦٧] التابعون والمتبوعون كلهم في النار، لكن هذه حسرة - نسأل الله السلامة والعافية - بل إنهم في يوم القيامة يلعن بعضهم بعضاً، ويكفُر بعضهم ببعض، كما قال الله سبحانه: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٥]. نسأل الله السلامة

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، رقم (١٩٢٠) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

والعافية، ونسأله الثبات على دينه، والاستقامة على أمره حتى الممات.

فِيهِ مَسَائِلُ:

- **الأولى: تَفْسِيرُ آيةِ البَقَرَةِ.**

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١٦٥].

- **الثانيةُ: تفسيرُ آيةِ براءَة.**

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التَّوبَة: ٣١].

- **الثالثةُ: وجوبُ مَحَبَّتِهِ ﷺ علَى النَّفْس والأهلِ والمالِ.**

تقديم محبة الرسول ﷺ، هذا هو الكمال، فإن قدَّم شيئاً منها على محبة الله ورسوله كان عاصياً.

- **الرابعةُ: أن نفْيَ الإيمانِ لا يَدُلُّ علَى الخروجِ مِنَ الإسلامِ.**

نفي الإيمان لا يدل على الخروج من الإسلام، إلا إذا كان من أفعال الشرك، وإلا قد يكون نفي الإيمان يدل على أنه ترك واجباً من واجبات الإيمان.

- **الخامسةُ: أنَّ للإيمانِ حَلاوةً قَدْ يَجِدها الإنسانُ وقَدْ لا يَجِدها.**

لا شك أن الإيمان له حلاوة، يجدها من تحققت فيه صفات، وقد لا يجدها من تخلفت عنه، فمن كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، ومن أحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود للكفر بعد إذ أنقذه الله منه، فإذا تحققت فيه هذه الخصال وجد السعادة وحلاوة الإيمان، وإن تخلفت لم يجدها.

◄ السادسةُ: أعمالُ القلْبِ الأربعُ التي لا تنالُ ولايةَ اللهِ إلا بِها، ولا يَجِدُ أحَدٌ طَعْمَ الإيمانِ إلا بِها.

التي ذكرها في الحديث: «إذا أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله».

◄ السابعةُ: فَهْمُ الصحابيِّ للواقِعِ: أنَّ عامَّةَ المؤاخاةِ عَلَى أمْرِ الدُّنْيا.

العلماء يفهمون الواقع، يعرفون حال الناس، وهذا فيه الردّ على من قال: إن العلماء لا يعلمون الواقع، وأنهم يتكلمون في أحكام فقهية، ويفتون فتاوى لا تنزل على الواقع! هذا غلط.

فابن عباس فهم الواقع، وقال: «**وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئاً**». العلماء والفقهاء في الشريعة يفقهون الواقع؛ ولهذا لما بعث النبي ﷺ معاذاً إلى اليمن قال: «**إنك تأتي قوماً أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله**»(١). يخبره بالواقع، يعرف واقعهم وحالهم حتى تكون الدعوة موافقة للحال، اعلم أنهم أهل الكتاب أهل جدل؛ ليستعد للمناظرة، وليسوا وثنيين، ليسوا أميين ما عندهم علم.

وقول عبد الله بن عباس: وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا. هذا من فقه الواقع.

◄ الثامنةُ: تفسيرُ: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ۝١٦٦﴾ [البَقَرَة: ١٦٦].

أي: أسباب المودة.

---

(١) تقدم تخريجه.

❖ **التاسعةُ: أنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مَنْ يُحِبُّ اللهَ حُبّاً شَدِيداً.**

ولكن حبّه لله ليس خالصاً، بل معه محبة شركية فأحب مع الله غيره، فلم تفده.

❖ **العاشرةُ: الوعيدُ عَلَى مَنْ كانَتْ الثمانيةُ أحبَّ إليهِ مِنْ دينِهِ.**

الثمانية التي ذكرت في الآية: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤] فحكم عليه بالفسق.

❖ **الحادية عشرة: أنَّ مَنِ اتخذَ نِدّاً تُساوِي مَحَبَّتُهُ مَحَبَّةَ اللَّه فَهُوَ الشِّرْكُ الأكْبَر.**

من اتخذ ندّاً تساوي محبته محبة الله فهو مشرك خارج من الملة - نعوذ بالله -، وفي الحديث لمّا سأل ابن مسعود عن أعظم الذنب، قال: «**أن تجعل لله ندّاً وهو خلقك**»[١].

(١) تقدم تخريجه.

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝١٧٥﴾ [آل عمران: ١٧٥]

وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ [التوبة: ١٨].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠].

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه مَرْفُوعاً: «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللهِ، وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ، إِنَّ رِزْقَ اللهِ لَا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ»(١).

وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ؛ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ؛ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ». رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ»(٢).

الشَّرح

○ **قوله**: «بَابُ قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ

---

(١) أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في «حلية الأولياء» (٥/ ١٠٦) من طريق علي بن محمد بن مروان، قال: ثنا أبي، عن عمرو بن قيس، عن عطية، عن أبي سعيد به.
وقال: «غريب من حديث عمرو، تفرد به علي بن محمد بن مروان، عن أبيه».
وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٢٢١)، وقال: «محمد بن مروان ضعيف».

(٢) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» رقم (٢٧٦).

فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾».

مقصود المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الترجمة: أن الخوف عبادة عظيمة، يجب إخلاصها لله ﷻ، وأن صرفه لغير الله شرك، والخوف من أعظم مقامات الدِّين.

والخوف يستلزم ويقتضي فعل الواجبات، وترك المحرمات، والمسارعة في مراضي الله ومحابّه، والانتهاء عن مناهي الله، والوقوف عند حدود الله؛ ولهذا بيَّن الله تعالى جزاء الخائفين وثوابهم، قال سبحانه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرَّحمٰن: ٤٦] لولا أن الخوف يُثمر ويقتضي فعل الواجبات، وترك المحرمات، والمصابرة في مراضي الله، لما كان هذا ثواب الخائفين.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البيّنة: ٧-٨] يعني: لمن خاف ربه.

والخوف ثلاثة أنواع:

النوع الأول: خوف السر؛ وهو خوف الاعتقاد، فهو خوف ناشيء عن اعتقاده، فيخاف من غير الله أن يصيبه مكروه بسببه؛ كأن يخاف من الميت، أو من الغائب أن يجلب له ضرّاً أو يسلط عليه عدوّاً، أو يقطع رزقه، أو يخاف من أن يدخله النار، أو يحرمه دخول الجنة، أو يخاف أن يقطع الرزق بسرِّه، لا بشيء ظاهر، وهو الخوف الذي يكون وراء الأسباب، هذا صَرْفُه لغير الله شرك، فمن خاف غير الله فقد أشرك.

النوع الثاني: الخوف الطبيعي؛ كالخوف من عدو، أو من

سبع، أو من سلطان ظالم، وهذا أسبابه ظاهرة.

النوع الثالث: الخوف من المخلوق بدون سبب ظاهر،كأن يترك بعض الواجبات، ويفعل بعض المحرمات خوفاً منه، ليس هناك شيء ظاهر، بل توهُّمات، أما إذا كان يحصل عليه ضرر مُحَقَّق في نفسه، أو ماله، أو أهله، فهذا عذر له سبب.

ولذا بوَّب المؤلف قال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ﴾ أي: يخوفكم أولياءه وحزبه، ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٧٥] فجعل خوفه شرطاً لصحة الإيمان.

○ **قوله**: «وقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التّوبَة: ١٨]».

فجعل عُمَّار المساجد من أوصافهم: أنهم يخشون الله، فحكم عليهم بالهداية، وأنهم هم المهتدون بهذه الصفات ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التّوبَة: ١٨] أي: فهم من المهتدين، و(عسى) من الله واجبة، فالمعنى: أن هؤلاء الذين يعمرون مساجد الله، والمؤمنون بالله واليوم الآخر، والمقيمون الصلاة، والمؤتون الزكاة، والذين يخشون الله هم المهتدون.

○ **قوله**: «وقال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العَنكبوت: ١٠]».

هذا في ضعيف الإيمان، الذي لا يثبت على إيمانه من المنافقين وأشباههم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ﴾ حصل له ضرر، أو نكبة انتكس، ﴿جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾،

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ﴾ [العَنكبوت: ١٠] يعني: إذا حصل نصر أو غنيمة، جاءوا للمؤمنين، وقالوا: نحن معكم، وإذا حصل هزيمة أو نكبة ارتدّوا عن دينه، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾ [الحَجّ: ١١].

﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ﴾: أشركونا في الغنيمة، ﴿أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠﴾ [العَنكبوت: ١٠]، فالله عالم بما في صدورهم من الإيمان أو النفاق، ثم قال تعالى: ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ١١﴾ [العَنكبوت: ١١] دلّ هذا على أنّ هذه الآية في المنافقين.

○ **قوله**: «عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه مَرْفُوعاً: «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ اليَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُم عَلَى رِزْقِ اللهِ، وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَى ما لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ، إِنَّ رِزْقَ اللَّهِ لَا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ».

إرضاء الناس بسخط الله مداهنة، ومجاملة، وخوفاً، فيرضيهم بسخط الله، وهذا واقع في كثير من الناس في هذا الزمن، فتجده يرضي الناس بسخط الله، يجامل ويداهن في الله، ويراعي الناس، ويخشى الناس ولا يخشى الله. وهذا يدل على ضعف الإيمان، ونقص الإيمان، وهذا هو الشاهد من الترجمة؛ لأن الترجمة في الخوف الذي يمنع بعض الناس من فعل الواجبات، أو يحمله على فعل بعض المحرمات، فهذا تخويف من الشيطان.

«إِنَّ مِنْ ضَعْفِ اليَقِينِ» أي: من ضعف الإيمان «**أن ترضي**

الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله»، فالله تعالى هو الذي بيده الرزق، والناس سبب، فلا ينبغي أن تحمدهم وتنسب النعمة إليهم، وإن كان شكر الناس لا بد منه؛ فإن «**مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ**»(١)، ولكن هنا يحمدهم على رزق الله، وينسى أن الله تعالى هو الذي أجرى الرزق على أيديهم.

«**وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَى ما لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ**» هذا من ضعف اليقين؛ أن تذم الناس على ما لم يؤتك الله، فإذا طلب من إنسان أو تقدم في وظيفة ثم مُنع، ذمّ الناس، فهذا من ضعف اليقين؛ لأن الله ما قدّر ذلك لحكمة وأسباب، فالأمور بيد الله، فكيف تذمّهم على شيء لم يؤتك الله، والله له الحكمة البالغة.

ثم قال النبي ﷺ: «**إنَّ رزقَ اللهِ لا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، ولا يَرُدُّهُ كَراهِيةُ كارِهٍ**»، رزق الله الذي قدّره لا بدّ أن يحصل لك، فهذا الرزق لا بد أن يأتيك، لا يردّه كراهية كاره، وشدة حرصك لا تجلب الرزق، وكراهية الكاره لا يردّه، كما قال الله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾. فإذا فتح الله الرحمة فلا أحد يستطيع أن يمسكها، وما أمسك فلا يستطيع أحد أن يرسله، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنّ النبي ﷺ قال في وصيته له: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ**

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب «في شكر المعروف»، رقم (٤٨١١)، والترمذي، كتاب البر والصلة، باب «ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك»، رقم (١٩٥٤)، وأحمد (٢/ ٢٩٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال الترمذي: «حديث حسن صحيح». وقال ابن مفلح: «إسناده صحيح». «الآداب الشرعية» (١/ ٣٣٠).

يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ، وَجَفَّتْ الصُّحُف»[1]. فقدر الله نافذ، والله تعالى ربط الأسباب بالمسببات، فالرزق الذي قدّره الله لك لابدّ أن يأتي، ولا يمكن أن يردّه كراهية كاره، كما أنه لا يجلبه حرص الحريص.

○ **قوله**: «وعَنْ عَائِشَةَ ﵂أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «مَنِ التَمَسَ رِضَا الله بِسَخَطِ الناسِ؛ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضى عَنْهُ النَّاسَ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ؛ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ وأَسْخَطَ عَلَيْهِ النّاسَ».

وجاء أنّ معاوية طلب من عائشة ﵂ أن تكتب له، فكتبت له هذا الحديث: «مَنِ التَمَسَ رِضَا الله بِسَخَطِ الناسِ؛ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضى عَنْهُ النَّاسَ» لأن الأمور بيد الله، إذا التمس رضا الله، واستقام على الإيمان والتوحيد، واستقام على طاعة الله، ولو كره من كره، فالله تعالى يرضى عنه، ويرضي عنه الناس؛ لأن القلوب بيد الله.

وبعض الناس تجده يقول: أنا في البيت منعني أبي من فعل طاعة الله، أو أمرني بالمعصية. نقول: لا، افعل الطاعة واترك المعصية، وإن سخط عليك أبوك، أو أمك، فالله تعالى يرضى عنك، ويرضي عنك الناس.

«وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ؛ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ وأَسْخَطَ عَلَيْهِ النّاسَ» يرضي الناس بالمعاصي، فالله تعالى يسخط عليه، ويُسخط عليه الناس، فالقلوب بيده، يعامله بنقيض قصده؛ لأنّ الجزاء من جنس العمل، وفي لفظ لهذا الحديث: «**من طلب محامد**

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب رقم (٥٩)، رقم (٢٥١٦)، وأحمد (١/ ٢٩٣). قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

الناس بمعصية الله؛ عاد حامده ذامّاً»[1] يعني: في أول الأمر إذا أرضى الناس بسخط الله، قد يوافقه بعض الناس، ويرى أنهم موافقون له، ثم بعد ذلك يسلطهم الله عليه، فيسخطون عليه، ويتنكّرون له، ويذمّونه، ويسخطون عليه؛ جزاءاً وفاقاً، الجزاء من جنس العمل.

فالسعادة إنما في طاعة الله تعالى، وفي ملازمة الطاعة، وفي إخلاص العبادة لله، وفي إفراد الله بالخوف، والتوكل، والرجاء، والمحبة، ولو كره بعض الناس، ولو سخط بعض الناس، فإنّ الواجب على المسلم أن يرضي الله؛ لأنه مخلوق لعبادة الله، والناس سواءً رضوا أو سخطوا، لا ينبغي للإنسان أن ينظر إليهم، ولكن الله تعالى من رحمته بعبده المؤمن، ومن الثواب المعجَّل؛ أنّ من أرضى الله بسخط الناس، فإن الله تعالى يرضيهم عنه، ويجعلهم يرضون عنه، ومن أرضى الناس بسخط الله، وإن وافقوه في أول الأمر، فإن الله يسخطهم عليه؛ عقوبةً وجزاءً، والجزاء من جنس العمل.

فنسأل الله سبحانه أن يوفقنا للعمل بما يرضيه، وأن يوفقنا جميعاً للإخلاص، والصدق مع الله، في الخوف، والرجاء، والمحبة، والتوكل، ولزوم الطاعة، والاستقامة على دين الله، وشرعه.

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولى: تَفْسِيرُ آيةِ آلِ عِمْرانَ.

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عِمرَان: ١٧٥].

---

(١) أخرجه الحميدي في «المسند» رقم (٢٦٨) من حديث عائشة مرفوعًا.

- الثانيةُ: تفسيرُ آيةِ بَراءة.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٨].

- الثالثةُ: تَفْسيرُ آيةِ العَنكبوتِ.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٨].

- الرابعةُ: أنَّ اليقينَ يَضعُفُ ويَقْوى».

يزيد وينقص كالإيمان.

- الخامسةُ: عَلامةُ ضَعْفِهِ، وَمِنْ ذلِك هَذهِ الثَّلاثُ.

أن ترضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تذمّهم على ما لم يؤتك الله.

- السادسةُ: أنَّ إخلاصَ الخوْفِ للهِ مِنَ الفرائضِ.

لأنها عبادة، والعبادة يجب إخلاصها لله، فهي من الفرائض.

- السابعةُ: ذِكْرُ ثوابِ مَنْ فَعَلَهُ.

ثوابه: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ١٨﴾ [التوبة: ١٨] الهداية في الدنيا، والثواب في الآخرة.

- الثامنةُ: ذِكْرُ عِقابِ مَنْ تَرَكَهُ.

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ [التوبة: ٧٧].

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٣﴾ [المَائدة: ٢٣]

وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفَال: ٢] اَلْآيَةَ.

وَقَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٤﴾ [الأنفَال: ٦٤].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطّلَاق: ٣].

وَعَنِ اِبْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣﴾ [آل عِمرَان: ١٧٣] قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي اَلنَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا لَهُ: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [آل عِمرَان: ١٧٣]» اَلْآيَةَ. رَوَاهُ اَلْبُخَارِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ(١).

الشَّرح

هذه الترجمة قصد بها المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بيان منزلة التوكّل من الإيمان، وأنّ التوكّل فريضة من فرائض الإيمان، وأنّ من لا يتوكّل على الله فليس عنده إيمان؛ لأن الله تعالى اشترط التوكل في الإيمان فقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٣﴾ [المَائدة: ٢٣] يعني: إن كنتم مؤمنين فتوكّلوا على الله، فمن لم يتوكّل على الله فليس بمؤمن.

والتوكل: هو الاعتماد على الله عَزَّ وَجَلَّ مع بذل الأسباب.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب « ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عِمرَان: ١٧٣] الآية»، رقم (٤٥٦٣)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٦/ ١٥٤).

فالتوكل يجمع أمرين: فعل الأسباب، ثم تفويض الأمر إلى الله في حصول النتيجة، خلافاً للصوفية الذين يتركون الأسباب ولا يفعلونها.

فالتوكل شرط في صحة الإيمان، فدلّ على أنّ التوكّل فريضةٌ عظيمةٌ من فرائض الإيمان، لا يصحّ الإيمان إلا بها، فمن لم يتوكّل على الله، ولم يعتمد عليه، ولم يفوّض أمره في حصول النتائج، واعتمد على الأسباب فقط فهو من المشركين؛ لأنّ بعض الطوائف يعتمدون على الأسباب ويركنون إليها، كالمعتزلة الذين يقولون: إنّ العبد هو الخالق لأفعاله، وأنّ العبد يستحق الثواب على الله، كما يستحق الأجير أجره، وهذا باطل؛ لأن الإنسان يستحقّ دخول الجنة برحمة الله وفضله، وأمّا الأعمال فهي سبب، كما قال النبي ﷺ: «**لَنْ يُدْخِلَ أَحَداً عَمَلُهُ الجَنَّةَ**». **قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ**: «**لَا، وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا**»(١). وكذلك اعتماد الطبائعيين الذين يقولون بالتفاعل بين الماءين، وأنّ الولد يحصل بالتفاعل بين الماءين من دون خلق الله وإيجاده.

فمن اعتمد على الأسباب وحدها فهو مشرك، ومن أنكر الأسباب وعطّلها معتمداً على الله بزعمه، فهو عاص.

وترك الأسباب فيه تفصيل؛ لأن الأعمال كلّها أسباب، فإذا ترك التوحيد والإيمان فهذه ردّة عن الإسلام، وإذا كان مؤمناً موحِّداً ثم ترك شيئاً من الأعمال؛ ففعل كبيرة من ترك واجب أو فعل محرَّم؛ فإنه يكون عاصياً مرتكباً لكبيرة من كبائر الذنوب، وإن ترك

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المرضى، باب «تمني المريض الموت»، رقم (٥٦٧٣)، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، رقم (٢٨١٦).

بعض المستحبات، فإنه فوّت على نفسه فضيلة من الفضائل.

فتبيّن بهذا أنّ التوكّل يجمع أمرين: أن يفعل الإنسان الأسباب التي شرعها الله، وأعظم الأسباب لدخول الجنة هو التوحيد والإيمان، ثم يؤدي الواجبات، ويترك المحرّمات، كما أنه يفعل الأسباب التي شرعها الله من البيع والشراء، والأكل والشرب، وإعداد العُدّة للأعداء، وتجنب أسباب الخطر والهلاك، فلا بد من فعل الأسباب ثم بعد ذلك يعتمد على الله، ويفوّض أمره إليه في حصول النتيجة.

ولهذا بوَّب المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الباب: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ٢٣﴾ [المَائدة: ٢٣]؛ ليبيّن أنّ التوكّل فريضة من فرائض الإسلام، من ترك التوكّل -لم يعتمد على الله ولم يأخذ بالأسباب- فهو من المشركين.

○ «وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢-٤]».

بيّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنّ المؤمنين الكُمَّل هم الذين يفعلون هذه الصفات، وهي: وجل القلب عند ذكر الله، وزيادة الإيمان عند تلاوة القرآن، والتوكّل على الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإنفاق مما رزقهم الله، قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ فدلّ على أنّ التوكّل من صفات المؤمنين الكُمَّل.

○ «وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٦٤﴾ [الأنفَال: ٦٤]».

﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ يعني: كافيك الله، ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٦٤﴾ يعني: من اتبعك من المؤمنين فالله حسبهم أيضاً، حسبك الله

وحسب أتباعك من المؤمنين. وليس المراد في: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ على قوله: ﴿حَسْبَكَ﴾، وأن المراد حسبك الله والمؤمنون، هذا خطأ، بل الحسب الذي هو الكفاية خاصٌّ بالله، والمعنى: الله كافيك وكافي أتباعك من المؤمنين[1].

○ «وقولُه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطّلَاق: ٣]».

المعنى: ومن يتوكّل على الله فهو كافيه، ومن كان الله كافيه فهو هاديه وواقيه، ولا مطمع لأحدٍ فيه، ومن توكّل على غيره وكله الله إلى ذلك الغير، هذا في بيان كفاية الله لمن توكل عليه، واعتمد عليه.

○ **قوله**: «عَنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ قالَها إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حينَ أُلْقِيَ في النَّارِ، وَقَالَها مُحَمَّدٌ صلَّى الله عَلَيْهِ وسلّم حينَ قالُوا لَهُ: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٧٣]».

هذا في بيان أنّ الاعتماد على الله والتوكّل عليه هو فعل الخليلين محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام؛ فإبراهيم عليه الصلاة والسلام لمّا ألقاه النمرود في النار، اعتمد على الله، وتوكّل

---

(١) قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (أي: الله وحده كافيك، وكافي أتباعك، فلا تحتاجون معه إلى أحد.

وهنا تقديران، أحدهما: أن تكون الواو عاطفة لـ"من" على الكاف المجرورة...، والثاني: أن تكون الواو واو "مع" وتكون "من" في محل نصب عطفا على الموضع، فإن "حسبك" في معنى "كافيك" أي: الله يكفيك ويكفي من اتبعك... وهذا أصح التقديرين، وفيها تقدير ثالث: أن تكون "من" في موضع رفع بالابتداء، أي: ومن اتبعك من المؤمنين فحسبهم الله. وفيها تقدير رابع، وهو خطأ من جهة المعنى: وهو أن تكون "من" في موضع رفع عطفا على اسم الله، ويكون المعنى: حسبك الله وأتباعك. انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد (١/ ٣٧).

عليه فقال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣﴾ فكفاه الله، وجاء الفرج أسرع من طرفة عين، أسرع من وصوله إلى النار، وهو يهوي في الجوِّ إلى النار فجاءت الكفاية من الله قبل أن يصل إلى النار، قال الله: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾ [الأنبياء: ٦٩]. فلمّا وصل إلى النار صارت برداً؛ لأنّ الله تعالى كفاه ووقاه في الحال، ومن كان الله كافيه فلا مطمع لأحدٍ فيه، قال العلماء إنّما قال: ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ لأنه لو لم يكفه الله لأحرقته النار، ولو كانت بردا لمات من شدّة البرد، فلمّا قال الله: ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ صار جوُّ النار معتدلاً، فصارت برداً وسلاماً.

وأمّا ما جاء أنّ جبريل عرض له في الهواء فقال: «ألك حاجة؟ فقال: أمّا لك فلا وأمّا إلى الله فبلى» فهذا ليس له سند ثابت[(١)]، وأيضا من ذلك الذي لم يثبت ما نبه عليه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال: «وما يروى أن الخليل لما ألقي في المنجنيق قال له جبريل: سل، قال: «حسبي من سؤالي علمه بحالي» ليس له إسناد معروف وهو باطل»[(٢)].

وقالها نبينا محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ بعد غزوة أُحد لمّا حصل جراحات على المسلمين، جاءه من جاء وقال: إنّ قريشاً قد جمعت جموعها، وتريد أن تغزو المسلمين، وتستأصل البقية الباقية من المسلمين، فقال النبي ﷺ:

---

(١) جاء في ذلك أثر معتمر بن سليمان عن بعض أصحابه، أخرجه ابن جرير في تفسيره جامع البيان (١٧/ ٤٥)، فهو من مرسل معتمر ومظنته مرويات بني إسرائيل، وقد أشار لضعفها البغوي في تفسيره معالم التنزيل (٥/ ٣٢٧) وابن عطية المحرر الوجيز (٤/ ٨٨) والبيضاوي في أنوار التنزيل (٤/ ٥٥).

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ١٨٣).

﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣﴾ [آل عِمران: ١٧٣] وذهبوا إلى حمراء الأسد وتجمّعوا، فعلمت قريش بذلك وقالوا: إنهم ما تجمّعوا إلا وعندهم قوة[1]، فقذف الله الرعب في قلوبهم، وكفى الله المؤمنين شرهم، وجاء الفرج بقول: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣﴾.

فِيهِ مَسَائِلُ:

- الأولى: أنَّ التَّوكُّلَ مِنَ الفرائضِ.

كما في آية الترجمة: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٣﴾.

- الثانيةُ: أنَّهُ مِنْ شُروطِ الإيمانِ.

حيث جعل الله التوكل شرطاً لصحة الإيمان.

- الثالثةُ: تفسيرُ آيةِ الأنفالِ.

﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٤﴾ [الأنفَال: ٦٤]، ففيها كفاية الله للمتوكِّل عليه.

- الرابعةُ: تفسيرُ الآيةِ في آخِرها.

حيث جعل الكفاية جزاء للتوكُّل، والتوكل شرطاً لها، فيتعلّق الشرط بالمشروط.

- الخامسةُ: تفسيرُ آيةِ الطلاقِ.

وهي: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطّلَاق: ٣] أي: كافيه.

- السادسةُ: عِظَمِ شأنِ هذهِ الكلمةِ، وَأَنَّها قولُ إبْراهيم عَلَيهِ الصلاةُ والسّلامُ ومحمد ﷺ في الشَّدائدِ.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٠١) وتفسير الطبري (٧/ ٣٩٩، ٤٠٠)، وانظر فتح الباري لابن حجر (٧/ ٣٧٤).

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٩]

وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر: ٥٦].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ الْكَبَائِرِ؟ فَقَالَ: «الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ»(١).

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ». رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ(٢).

الشَّرْح

مقصود المؤلف رحمه الله بهذه الترجمة: بيان أن الأمن من مكر الله، والقنوط من رحمته كبيرتان من كبائر الذنوب، وأن كلًّا منهما ينقص كمال التوحيد، وأنّه يجب على العبد أن يجمع بين الخوف والرجاء، في سيره إلى الله والدار الآخرة فيجمع بين الرجاء والخوف، فلا يأمن من مكر الله، ولا يقنط من رحمة الله، بل يسير بين الخوف والرجاء، يخاف، ويرجو؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟

---

(١) أخرجه البزار في «كشف الأستار» رقم (١٠٦).
قال الهيثمي: «رواه البزار والطبراني، ورجاله موثقون». «مجمع الزوائد» (١/ ١٠٤).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١٠/ ٤٥٩) رقم (١٩٧٠١).
قال ابن كثير: «وهو صحيح إليه بلا شك». «التفسير» (١/ ٤٨٥)، وقال الهيثمي: «إسناده صحيح». «مجمع الزوائد» (١/ ١٠٤).

مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٩] فمن أمن مكر الله فهو الخاسر.

○ **قوله**: «وعَن ابنِ عَباسٍ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ الكبائرِ فقالَ: «الشِّرْكُ باللهِ، واليأسُ مِنْ رَوحِ الله، والأَمْنُ مِنْ مَكْرِ الله». وَعَنِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه قالَ: أكْبَرُ الكبائِرِ الإشراكُ باللهِ، والأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ، والقُنوطُ مِنْ رَحمةِ اللهِ، واليَأْسُ مِنْ رَوْحِ الله». رواهُ عبدُالرَّزَّاقِ.

وجه كون الأمن من مكر الله من أكبر الكبائر: كونه يأمن من مكر الله ولا يخاف مغبّة الذنوب والمعاصي فيسترسل في المعاصي ولا يبالي.

وأمّا القانط واليائس من رحمة الله فهذا متشائم، مسيءُ الظن بالله، يعتقد بأنه هالك، وأنه لا يُغفر له، وقد يكون الأمن من مكر الله يوصل صاحبه إلى الكفر، وكذلك القنوط من رحمة الله، فإنّ الذي يقنط من رحمة الله وييأس إذا اعتقد أنه لا يغفر له، وأنه هالك، وأنه لا توبة له، فقد كذّب الله، فيكون هذا كفراً، لأنه تكذيب لله في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النِّساء: ٤٨]. وقوله سبحانه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزُّمَر: ٥٣]. وكذلك الأمن من مكر الله، إذا اعتقد أنه استرسل في المعاصي والذنوب، واعتقد أنه لا يعاقب على الذنوب والمعاصي، وأنه لا خوف عليه فقد كذّب الله، فالنصوص دلّت على أن الإنسان يعاقب على المعاصي والذنوب في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال الطحاوي رحمه الله: «والأمن والإياس ينقلان عن ملة الإسلام وسبيل الحق بينهما لأهل القبلة»[(١)]؛ المراد بالأمن:

(١) متن الطحاوية (٦٠).

الأمن من مكر الله، والمراد باليأس: اليأس من روح الله، والمراد بالملة: ملة الإسلام، والمقصود: أن الأمن من مكر الله واليأس من روح الله كل منهما كفر ينقل عن الملة، ولهذا قال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يُوسُف: ٨٧] وأما سبيل الحق فبين الأمن والإياس، وهو الخوف والرجاء.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحِجر: ٥٦] يعني: ضلال الكفر، وقال سبحانه: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعـراف: ٩٩] خسران الكفر، فإذا وصل به الحال إلى أن يعتقد أنه لا يعاقب على الذنوب والمعاصي، فقد يصل إلى الكفر، وكذلك القانط، إذا اعتقد أنه لا يُغفر له وأنه لا توبة له فقد كذّب الله.

والقنوط أشدّ اليأس، فالواجب على العبد أن يعبد الله بالخوف والرجاء والمحبة، وأن يسير إلى الله بين الخوف والرجاء، لا ييأس ولا يأمن، بل يخاف ويرجو، فإذا فُقد الخوف والرجاء فُقد الإيمان.

فِيهِ مَسَائِلُ:

- **الأُولى: تَفْسيرُ آيةِ الأعرافِ.**

﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الأعرَاف: ٩٩].

- **الثانيةُ: تفسيرُ آيةِ الحجْرِ.**

﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحِجر: ٥٦].

- **الثالثةُ: شدَّةُ الوعيدِ فِيمَنْ أمِنَ مكْرَ اللهِ.**

وأنّه من الكبائر العظيمة، من أكبر الكبائر.

- **الرابعةُ: شِدَّةُ الوعيدِ في القُنوطِ.**

بَابٌ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التّغَابُن: ١١].

قَالَ عَلْقَمَةُ: «هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ»[(١)].

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»[(٢)] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اِثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ».

وَلَهُمَا[(٣)] عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعاً: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ».

وَعَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ، عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْماً اِبْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَى، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ» حَسَّنَهُ التِّرْمِذِيُّ[(٤)].

---

(١) أخرجه عبدالرزاق في «التفسير» (٣/ ٣١٤)، والطبري في «التفسير» (٢٨/ ١٢٣).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، رقم (٦٧).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب «ليس منا من ضرب الخدود»، رقم (١٢٩٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (١٠٣).

(٤) أخرجه الترمذي، كتاب الزهد، باب «ما جاء في الصبر على البلاء»، رقم (٢٣٩٦) قال الترمذي: «حديث حسن غريب»، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب «الصبر على البلاء»، رقم (٤٠٣١).

الشَّرح

○ **قوله**: «بابٌ مِنَ الإيمانِ باللهِ الصَّبْرُ على أقْدارِ اللهِ».

مراده بهذا الباب بيان عظم الصبر على أقدار الله، وعدم التسخط منها، فالله ﷻ ابتلى الإنسان بالأوامر والنواهي، والأقدار والمصائب التي تنزل به، فيجب عليه الصبر، على ذلك كله.

أمّا الأوامر والنواهي فالشرائع كلّها جاءت تأمر بطاعة الله، وتنهى عن معصية الله، فيجب عليه أن يصبر.

وخص المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب للصبر على أقدار الله؛ لأن الصبر ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن محارم الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة.

أمّا النوعان الأوّلان: الطاعة والمعصية، فواجب الصبر عليهما، فقد جاءت الشرائع كلّها بهذا، حيث أمرت بأداء الواجبات وترك المحرّمات.

والصبر معناه: في اللغة: الحبس.

وشرعاً: حبس النفْس عن الجزع، وحبس اللسان عن التشكّي، وحبس الجوارح عن ما يغضب الله.

والصابر على أقدار الله هو الذي يحبس نفسه عن الجزع والهلع، ويحبس لسانه عن التشكّي، ويحبس جوارحه عما يغضب الله، فلا يلطم خدّاً، ولا يشقّ ثوباً، ولا ينتف شَعراً.

وهذه الترجمة تدلّ على أنّ المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعتقد معتقد أهل السنة والجماعة في مسمّى الإيمان، وأنّ الأعمال داخلة في مسمّى الإيمان، فأهل السنة والجماعة يرون مسمّى الإيمان: تصديق

بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالقلب، وعمل بالجوارح.

فالصبر من الإيمان، لأنه يشمل هذه الأمور الثلاثة، فحبسه نفسه عن الجزع، هذا عمل قلب، وحبسه لسانه عن التشكّي، هذا باللسان، وحبسه جوارحه عمّا حرّم الله هذا عمل الجوارح.

○ **قوله**: «**وقولُه تعالى**: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [التغابن: ١١]».

هذه آية التغابن، أوّلها: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١] إِذْنُ الله المراد به هنا: إذن الله الكوني القدري؛ فإنّ الإذن نوعان: إذن كوني قدري، وإذن شرعي.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ﴾ أي: الكوني القدري، ومثله قول الله تعالى عن السحرة: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي إذن الله الكوني القدري.

ومثال الإذن الشرعي، قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٥] وهذا في حصار اليهود[١]، لمّا حوصر بنو النضير صار بعض الصحابة يقطع نخيلهم في وقت الحصار إغاظةً لهم، ومن الصحابة من قال: نبقيها؛ لأنه مال سيؤول إلينا إن شاء الله، فالله تعالى أقرّ الطائفتين، فمن قطع النخيل إغاظةً للعدوّ فله وجه، ومن تركها لأنه مالٌ يؤول إلى المسلمين فله وجه[٢]، أذن الله للطائفتين فقال: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب «حديث بني النضير»، رقم (٤٠٣١)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، رقم (١٧٤٦).

(٢) انظر: المحلى بالآثار (٥/ ٣٤٥).

لِّينَةٍ﴾ يعني: من نخلة، ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الشرعي.

كما أنّ الإذن يكون شرعيّاً ويكون قدريّاً، كذلك الإرادة؛ فالإرادة الكونية مثل قول الله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]، والإرادة الشرعية كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣]، هذه إرادة شرعية.

وكذلك الأمر يكون شرعياً ويكون قدرياً، فالكوني مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢] والأمر الديني مثل قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠].

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١] هذه الآية تدلّ على أنّ الصابر موعود بهداية القلب، فيكون من السعداء.

○ **قوله**: «قالَ عَلْقَمَةُ: هُوَ الرَّجُلُ تُصيبُهُ الْمُصيبةُ فَيَعْلَمُ أَنَّها مِنْ عِندِ اللهِ، فَيَرْضَى ويُسَلِّم» يعني: الرجل تصيبه المصيبة فيصبر ويحتسب ويستسلم لقضاء الله وقدره، فيعوّضه الله، ويجازيه على ذلك هدايةً في قلبه، وإذا هدى الله قلبه فقد حصل على سعادة الدنيا والآخرة، كما دلت عليه الآية.

○ **قوله**: «وَفي «صحيح مسلم» عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «اثْنَتانِ فِي الناسِ هُما بِهِم كُفْرٌ:» أي: هما بالناس كفر؛ حيث كانتا من أعمال الجاهلية، «الطَّعْنُ في النَّسَبِ» يعني: عيب الأنساب وذمّها، والأنساب إنّما جعلها الله للتعارف، لا

للتفاخر، ولا للذمّ والعيب، كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣] ما قال: لتفاخروا، ولا ليفخر بعضكم على بعض، ويعيب بعضكم بعضاً، فالطعن في النسب من الأعمال الكفرية، وهو من كبائر الذنوب.

«**وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ**» النِّياحةُ: رفع الصوت بالبكاء، والعويل، والندب؛ بأن يعدد محاسن الميت، أمّا البكاء بدمع العين بدون نياحة فلا يلام عليه الإنسان، فقد دمعت عينا النبي ﷺ لمّا مات ابنه إبراهيم، وقال: «**إِنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ، وَالقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَي رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ**»(١).

ففي هذا الحديث: التحذير من الطعن في الأنساب، والنياحة على الميت، هذا هو الشاهد للباب، وأنّها من الأعمال الكُفريّة، وهذا الكفر المذكور في الحديث كفر أصغر لا يخرج من الملّة، يدلّ على أنها من كبائر الذنوب.

والكفر كفران: كفر أكبر، كالكفر المعرّف بالألف واللام، مثل قوله ﷺ: «**بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ**»(٢). هذا كفر معرّف، وفي اللفظ الآخر: «**لَيْسَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ إِلَّا تَرْكُ الصَّلَاةِ**»(٣). وفي الحديث الآخر: «**العَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ،**

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب «قول النبي ﷺ: «إنا بك لمحزونون»»، رقم (١٣٠٣)، ومسلم، كتاب الفضائل، رقم (٢٣١٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، رقم (٨٢) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه النسائي، كتاب الصلاة، باب «الحكم في تارك الصلاة»، (١/ ٢٣٢) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»[(١)]. هذا كفر معرّف، دلّ على أنّه كفر أكبر في أصحّ قولي العلماء، بخلاف الكفر المنكَّر الذي يأتي بالإثبات كهذا الحديث: «**اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت**». هذا كفر أصغر، كفر دون كفر.

فالكفر يتنوّع إلى قسمين: أصغر، وأكبر، والشرك كذلك، والنفاق كما ذهب إلى ذلك جمهور العلماء، خلافاً لأكثر الحنفية وغيرهم الذين يرون أن الكفر شيء واحد، وأنّ هذه التسمية تسمية مجازية، وما فيه إلا الكفر الأكبر، أمّا تسمية الطعن في النسب والنياحة على الميت كفر فهذا مجاز عند الأحناف، والصواب أنه ليس مجازاً، ليس في كلام النبي ﷺ مجاز، وإنّما حقيقة، بل هذا من النوع الوارد في الحديث هو كفر أصغر.

○ **قوله**: «وَلَهُما عَنِ ابنِ مَسْعودٍ مَرْفُوعاً: «لَيْسَ مِنّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدودَ، وشقَّ الجيوبَ، ودَعا بِدَعْوىَ الْجَاهِلِية»».

هذا الحديث فيه: الوعيد الشديد على من فعل هذه الأمور الثلاثة أو واحداً منها، وأنّه من الكبائر، لقوله: «ليس منّا» هذا اللفظ يدل على أن ما بعده من الكبائر، كقوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الآخر: «**مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا**»[(٢)].

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الإيمان، باب «ما جاء في ترك الصلاة»، (٢٦٢١) قال الترمذي: «حديث حسن غريب»، والنسائي، كتاب الصلاة، باب «الحكم في تارك الصلاة»، (١/ ٢٣١)، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب «ما جاء في ترك الصلاة»، رقم (١٠٧٩)، وأحمد (٥/ ٣٤٦) من حديث بريدة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الديات، باب «قول الله تعالى ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ [المائدة: ٣٢]، رقم (٦٨٧٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

والقاعدة المحققة عند أهل العلم: أنّ الكبيرة هي ما تُوعِّد عليها بالنار، أو اللعن، أو الغضب، أو نُفي عن صاحبها الإيمان، أو قال فيه النبي ﷺ: ليس منّا، أو برئ منه النبي ﷺ.

«لَيْسَ مِنّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدودَ» يعني: تسخّطاً على قضاء الله وقدره عند المصيبة، «وشقَّ الجيوبَ» الجيب الفتحة التي في الصدر، وهذا يحصل عند بعض الناس من أهل البوادي والقرى، وهو يكثر عند النساء، فإذا بلغتها المصيبة شقّت ثوبها، وخرجت تسخّطاً على قضاء الله وقدره.

«ودَعا بِدَعْوىَ الْجَاهِلِية»: يدعو بالويل والثبور، والعويل والصراخ، ومن ذلك: الندب، وتعداد محاسن الميت، كلّ هذا من النياحة، ومن كبائر الذنوب.

وهذا فيه التحذير من هذه الأعمال، وأنها من الكبائر التي تنقص الإيمان وتضعفه.

○ **قوله**: «وَعَن أَنَس رضي الله عنه: أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «إذا أرادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الخَيْر عَجَّلَ لَهُ العُقوبَةَ في الدُّنْيا، وَإِذا أرادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتّى يُوافيَ بِهِ يَوْمَ القيامَةِ».

الحديث فيه دليل على أنّ المصائب التي تلزم الإنسان علامة على إرادة الله الخير للعبد؛ وذلك لأنّ المصائب تكفّر السيئات، ويغفر الله بها عن العبد السيئات، أمّا إذا لم يُصب بشيء، فإنها تبقى عليه سيئاته، فيوافى بها يوم القيامة، فيكون متعرِّضاً لعذاب الله، ولا شك أنّ المصائب التي تحصل للإنسان في الدنيا يتحمّلها الإنسان، وتكون أسهل عليه من أن تبقى عليه فيوافي بها ربّه يوم القيامة.

«إذا أرادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الخَيْر عَجَّلَ لَهُ العُقوبَةَ في الدُّنْيا، وَإِذا أرادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتّى يُوافيَ بِهِ يَوْمَ القيامَةِ»، والعقوبة

مصائب، والمصائب كثيرة، المصائب تكون في الأمراض والأسقام، وتسليط الظالم عليه، والهموم والغموم، وتحصل في المال وفي الولد، وقد يصاب الإنسان بمصائب وهو يمشي مع الناس، قد يظنّ بعض الناس أنّ الذي يصاب بالمصائب يكون منقطعاً عن الناس، بل المصائب متعددة، وليس هناك أحد يسلم منها؛ ولهذا لمّا نزلت هذه الآية من سورة النساء: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النِّسَاء: ١٢٣]، استُشكل هذا على أبي بكر، فقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ الصَّلاحُ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾. فَكُلُّ سُوءٍ عَمِلْنَا جُزِينَا بِهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**غَفَرَ اللهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَسْتَ تَمْرَضُ؟ أَلَسْتَ تَنْصَبُ؟ أَلَسْتَ تَحْزَنُ؟ أَلَسْتَ تُصِيبُكَ اللَّأْوَاءُ؟**» قَالَ: بَلَى. قَالَ: «**فَهُوَ مَا تُجْزَوْنَ بِهِ**»(١). ومن تصفو له الدنيا؟! ولا يكون عنده هموم ولا أحزان ولا أكدار؟! لا تجد. بل قد لا تجد من تصفو له أيام معدودة، فلا يوجد أحد ما عنده مشاكل ومصائب وهموم.

«إذا أرادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الخَيْر عَجَّلَ لَهُ العُقوبَةَ في الدُّنْيا، وَإذا أرادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتّى يُوافيَ بِهِ يَوْمَ القيامَةِ»، ولهذا جاء في الحديث: «**إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءَ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»(٢). والنبي ﷺ في مرضه كان يوعك كما يوعك رجلان من أمّته عليه الصلاة والسلام(٣) وهو أشرف

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١١) من حديث فاطمة بنت اليمان رضي الله عنها.
قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه». «المستدرك» (٣/ ٧٨).
(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٣٦٩)، وحسن إسناده الهيثمي «مجمع الزوائد» (٢/ ٢٩٢).
(٣) أخرجه البخاري، كتاب المرضى، باب «شدة المرض»، رقم (٥٦٤٧)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، رقم (٢٥٧١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

الخلق، وفي مرض موته صُبّ عليه من قِرب ثم يُغمى عليه، فقال: «**أصلى الناس؟**» قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، ثم يُغمى عليه ثم يصبّ عليه وهكذا عليه الصلاة والسلام(١)، وهو أشرف الخلق.

وجاء في الحديث أنّ الرجل قد يبلغ الدرجة العالية في الجنة بالمصائب(٢)، فالمصائب تكفّر بها السيئات، وترفع بها الدرجات أيضاً.

○ **قوله**: «وَقالَ النَّبيُّ ﷺ: «إنّ عِظَمَ الجزاءِ مَعَ عِظَمِ البلاءِ، وإنَّ اللهَ تعالى إذا أَحَبّ قَوْماً ابتلاهُمْ؛ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السّخَط».

قال ﷺ: «إنّ عِظَمَ الجزاءِ مَعَ عِظَمِ البلاءِ» يعني: كلّما عظم البلاء وزاد، عظم الثواب والأجر. «وإنَّ اللهَ تعالى إذا أَحَبّ قَوْماً ابتلاهُمْ». ابتلاهم بالمصائب والنكبات. «فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السّخَط» فيه: إثبات المحبة لله ﷻ والسخط، كما ينبغي لجلاله وعظمته، هذه من صفات الأفعال، خلافاً للأشاعرة الذين أنكروا المحبة والرضا والسخط.

«وإنَّ اللهَ تعالى إذا أَحَبّ قَوْماً» فيه: إثبات المحبة، قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المَائدة: ٥٤]. «فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضا»: إثبات صفة

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب «إنما جعل الإمام ليؤتم به»، رقم (٦٨٧)، ومسلم، كتاب الصلاة، رقم (٤١٨) من حديث عائشة ﵂.

(٢) انظر: سنن أبي داود، كتاب الجنائز، باب «الأمراض المكفرة للذنوب»، رقم (٣٠٩٠)، وأحمد (٥/ ٢٧٢) من حديث محمد بن خالد، عن أبيه، عن جده.
قال ابن رجب: «رواه أحمد وأبو داود، ورجاله ثقات إلا أن خالدًا لم يرو عنه غير ابنه محمد، وأبوه اختلف في اسمه، لكن إبهام الصحابي لا يضر». «فتح الباري» (١٠/ ١٠٩).

الرضا، «وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَط»، قال تعالى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفتح: ٦]، ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المائدة: ١١٩]، ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ [المَائدة: ٨٠]، هذه الصفات كلها ثابتة لله في القرآن وفي السنة، المحبة، والرضا، والغضب، والسخط.

والصبر واجب على المصائب، فيجب على الإنسان أن يصبر، بمعنى: أنه يحبس نفسه عن الجزع، ويحبس لسانه عن التشكّي، ويحبس جوارحه عمّا يغضب الله، هذا واجب، ليس له أن يتسخّط بقضاء الله وقدره.

وأمّا الرضا بالمصيبة فليس بواجب؛ بل هو مستحب في أصحّ قولي العلماء، قال بعض العلماء: إنه واجب، وذهب آخرون إلى أنه مستحب،[(١)]، والصحيح أنه مستحب، وفيه الأجر والثواب من الله، ولكنه ليس بواجب، فالواجب الصبر، يجب على الإنسان أن يصبر، وليس له أن يجزع، ولا أن يتسخّط.

وهناك درجة أعلى من الرضا وهي الشكر؛ شكر الله على المصيبة، فيعتبرها نعمة، فتكون المحنة في حقّه منحة، فالمحن في حقّ أولياء الله تكون منحاً، تكون نعماً، تنقلب المصائب والمحن في حقّ الأولياء الخُلَّص من عباد الله منحاً يشكرون الله عليها؛ حيث قدّرها عليهم، فكفّر بها سيئاتهم، ورفع بها درجاتهم، وهذا لا يقوى عليه إلا عباد الله الخُلَّص، فيكون الناس على طبقات أربع تجاه المصائب:

الطبقة الأولى: طبقة الجازعين الساخطين الذين يسخطون، فلا يصبرون، وهؤلاء آثمون. لا يجوز للإنسان أن يتسخّط على قضاء الله

(١) انظر تفصيل ذلك في مدارج السالكين، للإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فهو نافع: (٢/ ١٥١).

وقدره، إذا كان في نفسه الجزع والهلع، ولا يحبس نفسه عن الجزع، ويتشكّى بلسانه، ويعمل بجوارحه ما يُغضب الله، هذا آثم ومرتكب لكبيرة، يلطم الخد، ويشقّ الجيب، يتكلم ويقول: لماذا أُصبت؟! الناس كلهم ما أُصيبوا إلا أنا! أنا ماذا حصل لي! كما يفعل بعض الناس، فهذا جزع، هذا لا يجوز للإنسان، بل يجب عليه أن يصبر ويسلّم لقضاء الله وقدره، ويعلم أنّ ربّه حكيم، وأنه ما قدّره إلا لحكمة، قد يكون خيراً لك، والخيرة فيما اختاره الله.

الطبقة الثانية: الصابرون، الذين يصبرون على المصائب لكنهم لا يرضون بها.

الطبقة الثالثة: الذين يصبرون ويرضون.

الطبقة الرابعة: الشاكرون، يصبرون على المصائب، ثم يرضون، ثم يشكرون الله عليها، يعتبرونها نعمة، حيث كُفِّرت بها سيئاتهم، ورُفعت بها درجاتهم، وهذا لا يقدر عليه إلا الموفّقون، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٣٥﴾ [فُصّلَت: ٣٥] والموفّق من وفّقه الله، فنسأل الله أن يجعلنا من الموفّقين الصابرين المحتسبين الراضين الشاكرين.

فِيهِ مَسَائِلُ:

- الأولى: تَفْسيرُ آيةِ التغابُنِ.

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التّغَابُن: ١١].

- الثانيةُ: أنَّ هذا مِنَ الإيمانِ باللهِ.

الصبر من الإيمان بالله، فدلّ على دخول الأعمال في مسمّى الإيمان، خلافاً للمرجئة.

- **الثالثةُ: الطَّعْنُ في النّسبِ.**

وأنّه من الكبائر.

- **الرّابعةُ: شِدَّةُ الوعيدِ فِيمَنْ ضَرَبَ الخدودَ، وشقَّ الْجُيوبَ، ودَعا بِدعْوى الْجَاهليةِ.**

أنّها تنافي الإيمان؛ وتنافي الصبر على أقدار الله، وتنافي كمال الإيمان.

- **الخامسةُ: علامةُ إرادةِ اللهِ بِعبْدِهِ الخيرَ.**

في تعجيل العقوبة له.

- **السادسةُ: وعلامة إرادةِ اللهِ بِهِ الشَّرّ.**

أن يُمسك عنه بذنبه.

- **السابعةُ: عَلامةُ حُبّ الله لِلعبدِ.**

الابتلاء.

- **الثامنةُ: تَحْريمُ السُّخْط.**
- **التاسعة: ثَوابُ الرِّضا بالبلاءِ.**

في قوله: «فمن رضي فله الرضا».

بَابُ مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعاً: «قَالَ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ مَرْفُوعاً: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ مَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟» قَالُوا: بَلَى. قَالَ: «الشِّرْكُ الْخَفِيُّ؛ يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ، لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ إِلَيْهِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ(٢).

الشَّرْح

الرياء مشتقٌّ من الرؤية؛ وهو إظهار العمل بقصد أن يحمده الناس عليه، والفرق بين الرياء والسمعة: أنّ الرياء يكون لما يُرى في العمل كالصلاة، والسمعة تكون فيما يُسمع كالأقوال، والذِّكر، والوعظ، والإرشاد، والقراءة.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٨٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب «الرياء والسمعة»، رقم (٤٢٠٤)، وأحمد (٣/ ٣٠).

قال البوصيري: «هذا إسناد حسن». «مصباح الزجاجة» (٤/ ٢٣٧).

وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه». «المستدرك» (٤/ ٣٦٥).

والرياء نوعان:

رياء أكبر: وهو الذي يصدر من المنافقين.

ورياء أصغر: وهو الذي يصدر من المؤمنين.

والرياء يحبط العمل، فالرياء الذي يصدر من المنافقين شركٌ أكبر؛ لأنّهم أسلموا لأجل الدنيا ومراءاة للناس.

وأمّا المؤمن فالأصل أنّه موحِّد ثم يطرأ عليه الرياء في الأعمال.

○ **قوله**: «**قال تعالى**: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠]».

الآية بتمامها: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ يعني: ليس لي شيءٌ من الإلهية، وليس لي شيءٌ من الربوبية، فأنا بشرٌ مثلكم، بشر مربوب، عبدٌ لله، كما أنكم عبيدٌ لله، ليس لي من الربوبية شيء وليس لي من العبودية شيء.

﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي: أنّ الله اختصّني بالوحي، والرسالة، والنبوّة.

﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ يعني: معبودكم معبود واحد وهو الله، وأنا عبد كما أنّكم عبيد، فمعبودي ومعبودكم واحد هو الله سبحانه.

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ يعني: من كان يرجو ويخاف؛ يرجو لقاء الله ويؤمّل من الله فضله، ويخاف أيضاً من ذنوبه.

﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠] ذكر في هذه الآية شرطا العمل: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ هذا الشرط الأول، وهو المتابعة لرسول الله عليه الصلاة والسلام وموافقة سنته وشريعته

﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ١١٠﴾ هذا الشرط الثاني وهو: الإخلاص. ﴿أَحَدًۢا ١١٠﴾: نكرة في سياق النهي فتعمّ كل معبود عُبد مع الله.

○ **قوله**: «وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ مَرْفوعاً: «قَالَ اللهُ تعالى: أنا أغْنَى الشُّركاءِ عَنِ الشِّرْكِ؛ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ مَعِي فيهِ غَيْري تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ»».

هذا حديث قُدسي منسوب إلى الله ﷻ، وهو من كلام الله لفظاً ومعنى، تكلّم الله به لفظاً ومعنى مثل القرآن، إلا أن كلام الله يتفاضل، بعضه أفضل من بعض.

فالقرآن له مزيّة على غيره، القرآن يُقرأ في الصلاة، والحديث القدسي لا يُقرأ في الصلاة. والقرآن يُتعبَّد بتلاوته، والحديث القدسي لا يتعبّد بتلاوته. والقرآن لا يمسّه إلا المتوضِّئ، والحديث القدسي يمسّه غير المتوضئ.

فهو وإن كان من كلام الله لفظاً ومعنى، إلا أن له أحكاماً تختلف عن أحكام القرآن.

«قَالَ اللهُ تعالى: أنا أغْنَى الشُّركاءِ عَنِ الشِّرْكِ؛ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ مَعِي فيهِ غَيْري تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ» فيه: دليل على أنّ الله لا يقبل إلا العمل الخالص، وأنّ من أشرك بالله فإنّ عمله حابط، وهذا إذا كان الرياء من أصل العمل فهو حابط.

أمّا إذا كان أصل العمل لله ثم طرأ عليه الرياء، فإن كان خاطراً ودفعه فلا يضرّه بلا خلاف، وإن استرسل واستمر فقيل: يجازى بالنيّة الأولى، وقيل: إنه لما استرسل واستمر أبطل العمل، فهو على خطر.

فمثلاً: من جاهد رياءً فعمله حابط ولا ينفعه، كما في حديث أَبِي مُوسَى رضي الله عنه، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ الرَّجُلُ: يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ، فَمَنْ

فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**»[١].

وإذا جاهد لإعلاء كلمة الله، وأراد مع ذلك الحصول على الغنيمة أو أُجرة الخدمة أو ما أشبه ذلك، فالصواب أنه ينقص أجره ولا يبطل.

وقد بوَّب البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، باب: إذا قصد المجاهد المغنم هل ينقص أجره؟ فالجواب: أنه ينقص أجره إذا قصد مع إعلاء كلمة الله أن يأخذ شيئاً من الغنيمة، أو يأخذ أجرة الغزو أو شيئاً من هذا، فإنه ينقص أجره على الصحيح ولا يبطل[٢].

○ **قوله**: «وَعَنْ أبي سعيدٍ مَرْفوعاً: «ألا أُخبِرُكُمْ بِما هُو أخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدي مِنَ المسيحِ الدَّجالِ؟». قالوا: بلى يا رسول الله. قالَ: «الشِّرْكُ الخَفِيُّ، يَقومُ الرَّجُلُ فَيُصلّي فَيزيِّنُ صلاتَهُ؛ لِمَا يَرى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ إليه»».

الشرك الخفي هو الشرك الأصغر وهو الرياء، سمي شركاً خفياً؛ لأنه يقوم بالقلوب.

وفيه: دليل على أنّ فتنة المسيح الدجال فتنة عظيمة يُخاف منها، وقد جاء في الحديث في «صحيح مسلم»[٣]: «**مَا بَيْنَ خَلْقِ آدَمَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ خَلْقٌ أَكْبَرُ مِنَ الدَّجَّالِ**» هذا يدلّ على أنها فتنة

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا»، رقم (٢٨١٠)، ومسلم، كتاب الإمارة، رقم (١٩٠٤).

(٢) انظر تفصيل ذلك في: جامع العلوم والحكم لابن رجب (١/ ٧٩).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، رقم (٢٩٤٦) من حديث هشام بن عامر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

عظيمة، تخاف على نفسك، ومع ذلك فإنّ الرياء يُخاف على الصالحين أكثر من فتنة المسيح الدجال.

قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال**؟». قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «**الشرك الخفي**». فدلّ على أن الرياء يخاف على الصالحين أكثر من فتنة الدجال، وإذا كان الرياء يخاف على الصالحين مع قوة إيمانهم وعلمهم وعملهم، فإنّ غيرهم - غير الصالحين - يخاف عليهم من الشرك الأكبر والأصغر جميعاً، فالواجب على المسلم الحذر من الشرك الأكبر والأصغر جميعاً، والبحث والتنقيب عن وسائل الشرك؛ حتى يجتنبها ويبتعد عنها، حتى لا يقع في الشرك.

فِيهِ مَسَائِلُ:

- **الأولى: تَفسيرُ آيةِ الكَهْفِ.**

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، وأنها مشتملة على شرطي العمل.

- **الثانيةُ: الأمرُ العظيمُ فِي ردّ العَمَلِ الصّالحِ إذا دَخَلَهُ شَيْءٌ لِغَيْرِ الله.**

من قوله: «تركته وشركه».

- **الثالثةُ: ذِكْرُ السببِ الموجبِ لذلِكَ وهُوَ كَمالُ الغِنى.**

«أنا أغنى الشركاء عن الشرك».

- **الرّابعةُ: أنَّ مِنَ الأسْبابِ: أنَّهُ خَيْرُ الشُّرَكاءِ.**
- **الخامسةُ: خَوْفُ النَّبيِّ ﷺ علَى أصْحابهِ مِنَ الرياءِ.**
- **السادِسةُ: انّهُ فَسَّرَ ذلِكَ بأنْ يُصلِّي المرْءُ للهِ لَكِنْ يُزَيِّنها؛ لِمَا يَرى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ إلَيْهِ.**

بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ إِرَادَةُ الْإِنْسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ [هُود: ١٥] الآيَةِ.

وفِي الصَّحِيحِ(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيلَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ، طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ».

الشَّرح

عقد المؤلف رحمه الله هذا الباب لبيان أن من الشرك الأصغر الذي يُنافي كمال التوحيد، ويُحبط الأعمال، إرادةُ الإِنْسَانِ بَعَمَلِهِ الدُّنْيا، وقد يكون شركاً أكبر، إذا صدر من المنافقين الذين أسلموا لأجل الدنيا، أما الرياء إذا صدر من المؤمن الموَّحِد فإنه يكون شركاً أصغر.

والفرق بين هذه الترجمة والترجمة السابقة: باب ما جاء في الرياء. أنهما يجتمعان في وجه؛ وهو ما إذا أراد الإنسان بعمله التزين عند الناس، والتصنع لهم والثناء، فهذا رياء كما تقدم، كحال

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب «الحراسة في الغزو في سبيل الله»، رقم (٢٨٨٧).

المنافقين. وهو أيضاً إرادة الدنيا بالتصنع عند الناس، وطلب المدحة منهم والإكرام. ويفارق الرياء بكونه عمل عملاً صالحاً أراد به عرضاً من الدنيا، كمن يجاهد ليأخذ مالاً، كما في الحديث.

وأراد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بهذه الترجمة: بيان أن إرادة الإنسان بعمله الدنيا شركٌ ينافي كمال التوحيد، ويُحبط الأعمال، وهو أشد من الرياء؛ لأن الرياء يكون في عملٍ دون عمل، وقد لا يسترسل، بخلاف إرادة الدنيا؛ فإنها قد تغلب إرادته تلك على كثير من عمله، والمؤمن يحذر من هذا وهذا، فالرياء شرك، وإرادة الإنسان بعمله الدنيا شرك.

○ **قوله:** «وقول الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هُود: ١٥-١٦]».

هذه الآية فيها الوعيد الشديد بالنار لمن أراد بعمل الآخرة الدنيا، وأن عمله حابط.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ يعني: يريد بعمل العبادة الدنيا وزينتها، ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يعني: نوفِّر لهم الصحة والمال، وغير ذلك مما يحبه الإنسان في الدنيا، ﴿فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾: لا يُنْقَصون، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هُود: ١٦].

والآية تشمل الشرك الأكبر، والشرك الأصغر، فهي تشمل المنافقين المرائين، وتشمل المؤمنين المرائين، وتشمل الشرك الأكبر الذي يصدر من المنافقين المرائين، وتشمل الشرك الأصغر الذي

يصدر من الموحّدين.

ذكر العلماء أنه يدخل في هذه الآية أنواع من الإرادات لغير الله، كما ذكر المصنف الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ في رسائل أخرى(١)، فذكر منها: أن يقصد الإنسان بصلته لرحمه أو برّه لوالديه أن يعطى صحةً في بدنه، ووفرةً في ماله، وحفظاً في نفسه وعياله، ولا يقصد ثواب الآخرة، فهو داخلٌ في هذه الآية، ليس له في الآخرة من نصيب.

ومنها: أن يقصد الإنسان بعمله مراءاة الناس، فيرائي الناس ويُظْهِر لهم عمله، فهذا عمله باطل.

ومنها: أن يقصدَ بعمله المال، ولا يقصد وجه الله؛ كأن يحج لقصد المال، أو يجاهد لأجل المال.

وذكروا أيضاً من ذلك: أن يُحافظ على وظيفته وعلى إمامة المسجد لأجل المال، فهذا ما قصد إلا المال.

ومنها: أن يُخلِصَ الإنسان في عبادته؛ ولكنه على ناقض من نواقض الإسلام، كاليهود والنصارى إذا تعبَّدوا لله، وأخلصوا العمل لله، لأنهم يصومون، ويصلون، ويُخلصون أعمالهم لله، لكن أعمالهم حابطة؛ لأنهم على الشرك، فلا تفيدهم أعمالهم تلك.

ويبقى قسم وهو صاحب الشائبتين: وهو أن يؤديَ العبادات لله؛ الصلوات الخمس، والصيام، والزكاة، والحج، ثم يعملُ عملاً يريد به غير وجه الله، ومثّلوا ذلك كأن يحجَّ فرضه لله، ثم يحج حَجَّةً أخرى لأجل الدنيا، قالوا: هذا صاحب الشائبتين، هو لِما

(١) انظر: مجموع مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب (٤/ ٨) وما بعدها.

غلب عليه منهما، فإن غلب عليه إرادة الدنيا بطل عمله، وإن غلب عليه إرادة وجه الله صحّ العمل؛ وذلك أن القرآن يذكر أصحاب الجنة الخُلَّص، وأصحاب النار الخُلَّص، ويسكتُ عن صاحب الشائبتين.

○ **قوله**: «وفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيلَةِ، إنْ أُعْطِيَ رَضِي، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ، طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ».

هذا الحديث فيه ذمّ مَن قصد بعمله الدنيا، وفيه فضل المجاهد في سبيل الله.

«تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ» تَعِسَ: يعني سَقَطَ وهَلَك. دعاءٌ عليه بالتعاسة، وتعسير أموره، الدينار هو الذهب. «تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ»: هو الفضة. «تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ»: كِسَاء له أعلام. «عَبْدُ الْخَمِيصَةِ»: ثوب له **خَمْلُ**.

والمعنى: أن هؤلاء استعبدتهم الدنيا، فأشغلتهم عن أداء ما أوجب الله، وترك ما حرَّم الله، استعبدتهم الدنيا في جمع الذهب والفضة والأمتعة وغيرها، فالنبي ﷺ دعا عليهم بالتعاسة.

ولذا قال: «إنْ أُعْطِيَ رَضِي، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ»، يكون رضاه وسخطه لأجل الدنيا لا لله، كما قال الله تعالى في المنافقين: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا

هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التوبة: ٥٨-٥٩] فهذا الذي استعبدته الدنيا، وصار غضبه ورضاه لأجل الدنيا، دعا عليه النبي ﷺ بالتعاسة والهلاك وتعسير أموره؛ ولهذا قال: «تَعِسَ وَانْتَكَسَ». يعني عاوده المرض. انتكس: سقط على رأسه. فدعاء عليه بالاثنين: التعاسة، والسقوط على الرأس.

«وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ»: إذا أصابته شوكة فلا يستطيع إخراجها بالمنقاش، وهذا دعاءٌ عليه بتعسير أموره، وأنه يجدُ كلَّ أمرٍ أمامه مغلقاً.

ثم أثنى على المجاهد فقال: «طُوبَى لِعَبْدٍ» طوبى: الجنة، وقيل: شجرة في الجنة، يسير الراكب في ظلِّها مائة عام لا يقطعها.

«لِعَبْدٍ»: وصفه بالعبد، وهذه العبودية الخاصة، فالعبودية: عبوديتان:

النوع الأول: العبودية العامة: كل الناس عبيدٌ لله، بمعنى: أنهم مُعَبَّدون مُذَلَّلُون مَقْهُورُون مُصَرَّفُون مَدِينُون، تَنْفُذُ فيهم قدرة الله ومشيئته، ليس لهم اختيار، ويدخل في العبودية العامة الكفار؛ يمضي فيهم قدر الله وأحكامه، فالكافر مُعَبَّد لا يمتنع من الموت، ولا يمتنع من المرض الذي يصيبه، ولا يمتنع من الهزيمة، هذه من العبودية العامة، مُعَبَّد مذلل مقهور مُصَرَّف.

النوع الثاني: العبودية الخاصة، وهي خاصة بالمؤمنين؛ وهي العبادة لله عن طواعية واختيار.

«طُوبَى لِعَبْدٍ»: هذه هي العبودية الخاصة، طوبى لعبدٍ عبد ربه باختياره، وأخلص عمله لله، وَوَحَّدَ الله؛ ولهذا جاهد في سبيل الله باختياره، فالكافر لا يجاهد في سبيل الله.

«آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ» يعني: في سبيل الله، طار على متن فرسه يبتغي الموت في مظانِّه؛ لإعلاء كلمة الله.

«أَشْعَثَ رَأْسُهُ» أي: منتفش الشعر غير مُسَرَّح ليس مُتَرَفِّهاً، ولذا قال بعد ذلك: ««مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ» غير مُرَفَّه؛ بل هو مُخْشَوشِن بعيد عن الترفُّه والتّنعُّم؛ بسبب القوَّة والجَلَد ومناظرة الأعداء ومنازلتهم، يُقاسي من الشِّدَّة وشَظَف العيش والخشونة، والغُبْرَة في الأقدام، والشعث في الرأس، وعدم العناية بالملبس؛ لأنه مشغول بالجهاد في سبيل الله، وإعلاء كلمة الله.

«إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ» الحراسة: حماية الجيش عن هجوم العدو، بمعنى: إن وُضِعَ في الحراسة أدَّى عمله، وقام بالحراسة خير قيام، وكان يقظاً متيقظاً لهجوم الأعداء، فهو يحرس الجيش، ويسهر الليل، ويحوط الجيش بحراسته، فهو عنده يقظة، وعنده عناية، وعنده صبر وجَلَد وتَحَمُّل.

«وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ» السَّاقَة: مُؤَخَّرة الجيش، إن وُضِعَ في مُؤَخَّر الجيش قام بعمله خير قيام، هو يَتَقَلَّب في عمله، في الحراسة أو في السَّاقة، بأيِّ عمل يكون يضعه قائد الجيش فهو يقوم بعمله، يَتَقَلَّب في الجهاد ويؤدي عمله، وينصح، ويبذل جهده إيّاً كان، إن وضع في الحراسة قام بالحراسة خير قيام، وإن وضع في مؤخرة الجيش قام بعمله خير قيام، وأحاط الجيش بنصحه وعنايته ويقظته، ولكنه مع ذلك ليس معروفاً عند الوجهاء ولا عند الأمراء، ليس له منزلة ولا مكانة، لكنه له منزلة عند الله ﷻ.

ولهذا قال: ««إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ» يعني: إن استأذن على الأمراء فإنهم لا يأذنون له؛ لأنهم لا يعرفونه، ليس له منزلة ولا

جاه، وليس له ذِكر ولا شُهرة، «وإن شَفَع» في أمرٍ يُحبه الله ورسوله لم تُقْبَل شفاعته، ولكنَّ الله أعلى منزلته، فإن كان في أهل الدنيا ليس معروفاً، وليس له جاه ولا منزلة، فهو عند الله له منزلة وله جاه، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: **«رُبَّ أَشْعَثَ، مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ»**(١).

وفي الحديث يقول النبي ﷺ: **«إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ»**(٢). فهذا موعود بالجنة، وهو على خلاف أهل الدنيا الذين استعبدتهم الدنيا وشهواتها، استعبدهم جمع المال جمع الدينار الذهب، أو جمع الفضة أو جمع الأمتعة، والخميصة والخميلة وعروض التجارة، ويكون مُعرِضاً عن الجهاد في سبيل الله، وعن القيام بما أوجب الله، ويتعسَّف في جمع الأموال، ويفعل ما حرم الله، ويترك ما أوجب الله عليه، هذا هو المذموم الذي استعبدته الدنيا؛ ولهذا سماه النبي ﷺ: عبداً لها، قال: **«تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة»**. فصار عبداً لها استعبدته، والذي ينبغي للإنسان أن يجعل المال وسيلة لا غاية.

والمال نوعان:

النوع الأول: هو ما يحتاجه الإنسان، ولا بد له منه في قيام أموره من أكله، وشربه، ومسكنه، وغيره، فهذا يسأل ربه أن ييسرَ

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، رقم (٢٦٢٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب «درجات المجاهدين في سبيل الله»، رقم (٢٧٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

له، ويستعمله لقضاء حاجته، بمثابة البساط الذي يفرشه ويجلس عليه، بل بمثابة الكَنِيف الذي يقضي فيه حاجته.

النوع الثاني: ما لا يحتاج إليه العبد، فهذا ينبغي أن لا يعلق قلبه به، ينبغي أن يكون في يده لا في قلبه، إذا جاءه شيء من المال يكون في يده لا في قلبه، لا يستعبده، ينفقه في وجوهٍ مشروعة؛ لأنه إذا كان في قلبه استعبده، وصرفه عن الآخرة، وإذا كان في يده فإنه يكون وسيلة لطاعة الله ﷻ.

فِيهِ مَسَائِلُ:

- الأولى: إرادةُ الإنسانِ الدُّنيا بِعَمَلِ الآخِرَةِ.

إرادة الإنسان بعمله الدنيا، يقصد الترجمة باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا.

- الثانيةُ: تَفْسيرُ آيةِ هودٍ.

تفسير آية هود ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ [هُود: ١٥] تشمل الشرك الأكبر والشرك الأصغر.

- الثالثةُ: تَسمِيَةُ الإنسانِ الْمُسلِمِ عَبْدَ الدِّينارِ والدِّرْهَمِ وَالْخَمِيصَةِ.

يعني: وإن لم يكفر، يكون عبداً إذا تعلّقت نفسه بالدنيا، وارتكب المحرمات، أو قصّر في الواجبات، فنقص وضعف إيمانه، فصار عاصياً وإن لم يَكْفُر وهو مسلم.

- الرابعةُ: تَفْسيرُ ذلِكَ بأَنَّهُ إنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وإنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ.

هذا عبد الدينار، هو الذي يرضى للدنيا ويسخط، إن أُعطي

رضي، وإن لم يعط سخط.

أمّا إذا لم يصل إلى هذه الدرجة بل يكسب المال من وجوه الحلال المشروع، ولا يرضى ولا يسخط للدنيا ولا أمور الدنيا، فلا يكون عبداً لها.

- **الخامسةُ: قولُهُ: «تَعِسَ وانْتَكَسَ.**

دعاءٌ عليه.

- **السادِسةُ: قولُه: «وَإِذا شِيكَ فَلا انْتَقَشَ.**

يعني: دعاء عليه بتعسير أموره.

- **السابعةُ: الثَّناءُ علَى الْمُجاهِدِ الْمَوصوفِ بِتِلْكَ الصِّفاتِ.**

من قوله عليه الصلاة والسلام: «طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله».

بَابٌ مَنْ أَطَاعَ اَلْعُلَمَاءَ وَالْأُمَرَاءَ فِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اَللَّهُ أَوْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَهُ فَقَدْ اِتَّخَذَهُمْ أَرْبَاباً

وَقَالَ اِبْنُ عَبَّاسٍ: يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ اَلسَّمَاءِ، أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ، وَتَقُولُونَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ؟![(١)].

وَقَالَ اَلْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: عَجِبْتُ لِقَوْمٍ عَرَفُوا اَلْإِسْنَادَ وَصِحَّتَهُ، وَيَذْهَبُونَ إِلَى رَأْيِ سُفْيَانَ، وَاَللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النُّور: ٦٣]، أَتَدْرِي مَا اَلْفِتْنَةُ؟ اَلْفِتْنَةُ اَلشِّرْكُ، لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْضَ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ اَلزَّيْغِ فَيَهْلَكَ[(٢)].

وَعَنْ عَدِيٍّ بْنِ حَاتِمٍ: «أَنَّهُ سَمِعَ اَلنَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ هَذِهِ اَلْآيَةَ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التّوبَة: ٣١]، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ. قَالَ: «أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اَللَّهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اَللَّهُ فَتُحِلُّونَهُ؟» فَقُلْتُ: بَلَى. قَالَ: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُم».

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٣٧) عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «تَمَتَّعَ النَّبِيُّ ﷺ»، فَقَالَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ: «نَهَى أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ عَنْ الْمُتْعَةِ»، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «مَا يَقُولُ عُرَيَّةُ؟!» قَالَ: يَقُولُ: «نَهَى أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ عَنْ الْمُتْعَةِ»، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «أُرَاهُمْ سَيَهْلِكُونَ؛ أَقُولُ: «قَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَيَقُولُ: «نَهَى أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ»». وهو باللفظ الذي أورده المؤلف رَحِمَهُ اللهُ في مواضع من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية كما في «مجموع الفتاوى» انظر: (٢٠/ ٢١٥، ٢٥١)، (٢٦/ ٥٠، ٢٨١)، كما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في «زاد المعاد» (٢/ ١٨٢)، و«إعلام الموقعين» (٢/ ١٦٨).

(٢) أخرجه ابن بطة في «الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية» رقم (٩٧).

رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ[١].

الشَّرْح

○ **قوله**: «**بَابٌ مَنْ أَطَاعَ الْعُلَمَاءَ وَالْأُمَرَاءَ فِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ أَوْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَهُ فَقَدْ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَاباً**».

في هذه الترجمة جزم المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى في الحُكْم؛ لقوة الدليل، وعلى عادة البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ أحياناً يجزم بالحكم، وأحياناً لا يجزم إذا كانت المسألة محتملة أو فيها خلاف أو الخلاف قوي، وإذا كان الدليل واضحاً جزم به.

والمراد بالطاعة: الطاعة الخاصة، وهي طاعة التحليل والتحريم.

فمن أطاع العلماء والأمراء في تحريم الحلال وتحليل الحرام، فيحرِّمون له الحلال فيعتقد تحريمه، ويحلُّون له الحرام فيعتقد حلّه، فقد اتخذهم أرباباً من دون الله، وهذا شرك في الربوبية، عبدوهم من دون الله؛ لأن المشرِّع الذي هو المحلِّل والمحرِّم: الله عَزَّ وَجَلَّ، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]. وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾، في آية الأنعام إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: ١٢١].

وذلك أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: نَأْكُلُ مِمَّا قَتَلْنَا، وَلَا نَأْكُلُ مِمَّا قَتَلَ اللَّهُ؟! أي: ما قتل الله فهو حرام، وما قتلنا نحن فهو

(١) أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب «ومن سورة التوبة»، رقم (٣٠٩٥).

حلال، فأنزلت: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: ١٢١][(١)] يعني في التحليل والتحريم، فالطاعة في التحليل والتحريم شرك؛ لأن الـمُشرِّع هو الله، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ﴾.

أما الطاعة في المعصية، بدون تحليل وتحريم فهي معصية من المعاصي.

○ **قوله**: «وقالَ ابنُ عباسٍ: يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُم حِجارةٌ مِنَ السَّماءِ؛ أقولُ: قالَ رسولُ لله، وتقولونَ: قالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرَ!».

قال هذا ابن عباس رضي الله عنهما لمن ناظره في متعة الحج، وكان ابن عباس رضي الله عنهما يفتي في المتعة ويقول: كل من طاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة قد حل، شاء أم أبى؛ لأن النبي ﷺ أمر الناس بذلك، أمر الصحابة بذلك، وخيّرهم عند الميقات، فمنهم من أهلَّ بعمرة، ومنهم من أهلَّ بحج، ومنهم من أهلَّ بحج وعمرة، ثم لمَّا قربوا من مكة أمرهم أن يجعلوها عمرة إلا من ساق الهدي، ثم لمّا سعوا بين الصفا والمروة أمرهم جميعاً، وحتّم عليهم وألزمهم بأن يتحللوا إلا من ساق الهدي، فَقَالَ سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ جُعْشُم: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلِعَامِنَا هَذَا أَمْ لِأَبَدٍ؟ **فَشَبَّكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَصَابِعَهُ وَاحِدَةً فِي الْأُخْرَى، وَقَالَ: «دَخَلَتِ الْعُمْرَةُ فِي الْحَجِّ» مَرَّتَيْنِ، «لَا بَلْ لِأَبَدِ أَبَدٍ»**[(٢)].

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب التفسير، باب «ومن سورة الأنعام»، رقم (٣٠٦٩)، وأبو داود، كتاب الأضاحي، باب «في ذبح أهل الكتاب»، رقم (٢٨١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٢) أخرجه مسلم كتاب الحج، رقم (١٢١٨) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما.

فذهب ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[١] وجماعة إلى أن المتعة واجبة، وأن كل إنسان يأتي مكة في الحجّ يطوف ويسعى ويُقصِّر ويتحلّل حتماً، إلا من ساق الهدي؛ لأنّ الرسول ﷺ حتّم على الصحابة وأمرهم بذلك.

وذهب إلى هذا أيضاً ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ، وقال في «زاد المعاد»: «وأنا إلى قول ابن عباس أميل منه إلى قول شيخنا شيخ الإسلام ابن تيمية». وهو اختيار الشيخ ناصر الدين الألباني[٢] من المتأخرين.

وذهب جمهور العلماء إلى أن المتعة ليست واجبة؛ لأن النبي ﷺ خيَّر الصحابة عند الميقات، فمنهم من أهلَّ بالحج، ومنهم من أهلَّ بالعمرة، ومنهم من أهلَّ بحج وعمرة.

وذهب شيخ الإسلام ابن تيمية إلى أن المتعة واجبة على الصحابة، قال: لإزالة اعتقاد أهل الجاهلية الذين كانوا يعتقدون أن العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور، فألزمهم النبي ﷺ بالعمرة؛ فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ العُمْرَةَ فِي أَشْهُرِ الحَجِّ مِنْ أَفْجَرِ الفُجُورِ فِي الأَرْضِ، وَيَجْعَلُونَ المُحَرَّمَ صَفَراً، وَيَقُولُونَ: إِذَا بَرَا الدَّبَرْ، وَعَفَا الأَثَرْ، وَانْسَلَخَ صَفَرْ، حَلَّتِ العُمْرَةُ لِمَنِ اعْتَمَرْ، قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ صَبِيحَةَ رَابِعَةٍ مُهِلِّينَ بِالحَجِّ فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهَا عُمْرَةً، فَتَعَاظَمَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الحِلِّ؟ قَالَ: «**حِلٌّ كُلُّهُ**»[٣] فقالوا: يا رسول الله، فَيَرُوحُ أَحَدُنَا إِلَى مِنًى، وَذَكَرُهُ يَقْطُرُ مَنِيّاً، يعني: يتحلل ويجامع زوجته، كيف؟ استنكروا هذا،

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب الحج، رقم (١٢٤٤).

(٢) انظر: «حجة النبي ﷺ كما رواها عنه جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ» (ص ١٣، ١٤).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب «أيام الجاهلية»، رقم (٣٨٣٢)، ومسلم، كتاب الحج، رقم (١٢٤٠).

فقال رسول الله ﷺ: «**بَلَغَنِي أَنَّ أَقْوَاماً يَقُولُونَ كَذَا وَكَذَا، وَاللَّهِ لَأَنَا أَبَرُّ وَأَتْقَى لِلَّهِ مِنْهُمْ، وَلَوْ أَنِّي اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا أَهْدَيْتُ، وَلَوْلَا أَنَّ مَعِي الهَدْيَ لَأَحْلَلْتُ**»(١) فابن عباس يرى أن المتعة واجبة لأجل هذا، والجمهور يرون أنه مُخيّر، والشيخ ابن تيمية يرى أن وجوبها خاص بالصحابة؛ لإزالة اعتقاد الجاهلية.

وابن عباس يوجب على نفسه المتعة، فقال بعض الناس: أنت يا ابن عباس تُفتي بالمتعة، وأبوبكر وعمر يُفتون بالإفراد؟ فقال: يُوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء. أقول: قال رسول الله، وتقولون: قال أبو بكر وعمر!

فاشتد ابن عباس على من يُعارض السنة بقول أبي بكر وعمر، فإذا كان هذا في الذي يُعارض السنة بقول أبي بكر وعمر، فكيف بالذي يُعارض السنة بأقوال أهل البدع، وأقوال أهل الضلال؟!

فالواجب اتباع السنة، فالسنة حاكمة على كل أحد كائناً من كان، وليس هناك أحد معصوم حتى ولو كان أبا بكر وعمر، قد يكون لهم خلاف الأولى، والصواب مع ابن عباس.

ومناسبة قول ابن عباس واضح للترجمة: فيجب على الإنسان أن يعمل بالكتاب والسنة، وأن يطرح أقوال الآخرين مهما كان؛ لأن المُشرِّع هو الله، والنبي ﷺ يُشرِّع بوحي من الله.

○ **قوله**: «**وقالَ أحمدُ بنُ حَنْبلٍ: عَجِبتُ لِقوْمٍ عَرَفُوا الإسنادَ وصِحَّتهُ يَذْهَبُونَ إلى رَأْيِ سُفيانَ، واللهُ تعالَى يقولُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ**

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الشركة، باب «الاشتراك في الهدي والبدن، وإذا أشرك الرجلُ الرجلَ في هديه بعد ما أهدى»، رقم (٢٥٠٦)، وأخرجه مسلم، كتاب الحج، رقم (١٢١٦) من حديث جابر رضي الله عنه.

يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٣] أَتَدْري ما الفتنةُ؟ الفِتْنةُ: الشِّرْكُ، لَعَلَّهُ إذا رَدّ بَعْضَ قَوْلِهِ أنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلِكَ».

الإمام أحمد يتعجَّب من قوم يعرفون الإسناد وصحته، يعرفون الحديث، وأن إسناده صحيح، ثم يتركون الحديث ويأخذون بقول سفيان الثوري، وأنّ هؤلاء يُخشى عليهم من زيغ القلوب - والعياذ بالله - فإذا كان الذي يأخذ بقول سفيان الثوري، وهو إمام من الأئمة، ويترك السنة، يُخشى عليه من الزيغ، فكيف بقول غيره؟! والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾، والذي يعدل عن قول النبي ﷺ إلى قول سفيان يُخشى عليه من الفتنة، والفتنة: هي الزيغ؛ زيغ القلب.

«لَعَلَّهُ إذا رَدّ بَعْضَ قَوْلِهِ» أي: قول النبي ﷺ، «أنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلِكَ: فإذا كان الذي يترك السنة ويأخذ بقول سفيان وهو إمام، يُخشى عليه من الزيغ فغيره من باب أولى.

وهو دليل على أنه يجب طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ في التحليل والتحريم.

○ **قوله**: «عَنْ عَدِي بنِ حاتِم: أَنَّهُ سَمِعَ النبيَّ ﷺ يَقْرَأُ هذِهِ الآيَة: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١]».

وكان عدي بن حاتم نصرانياً، فأسلم رضي الله عنه.

والأحبار: هم العلماء من اليهود، والرهبان: هم العُباد من النصارى.

ومعنى الآية: اتخذ اليهود والنصارى علماءهم وعُبَّادهم أرباباً من دون الله.

قال عدي: «فقلتُ لَهُ: إنا لَسْنا نَعْبُدُهُمْ» يعني: قبل أن نسلم، ما يعبدون اليهود والنصارى، ظن أنّ العبادة هي السجود لهم، ما يركعون لهم، ولا يسجدون لهم، فبيَّن له النبي ﷺ أنّ طاعتهم في التحليل والتحريم عبادة.

«قالَ: «أَلَيْسَ يُحَرِّمونَ ما أَحَلّ اللهُ فَتُحَرِّمونَهُ، ويُحِلُّونَ ما حَرّمَ اللهُ فَتُحلُّونَهُ؟» فقُلْتُ: بلى. قالَ: «فَتِلْكَ عِبادتُهُم» بيّن لهم النبي ﷺ أن طاعتهم في التحليل والتحريم هي عبادة لهم من دون الله. فمن أطاع شخصاً في التحليل والتحريم فقد عَبده من دون الله؛ لأنه شرَّع له.

وهذا يُفيد الحذر من عدم طاعة الله، وطاعة رسوله ﷺ.

وفيه الوعيد على المقلَّدين الذين يأخذون بقول مُقلَّديهم مع معرفتهم بأنها خالفت النصوص، هؤلاء يُخشى عليهم من الرِّدَّة؛ لأنّ هذا من الشرك، وقد قال بعض المقلدين المتعصبين للإمام أبي حنيفة، ويُروى هذا عن معروف الكرخي أنه قال: كل آية أو حديث تُخالف مذهبنا فهي متأولة أو منسوخة، نعوذ بالله من العمى، هذا من عمى القلوب، يريد أن يؤول الآيات والأحاديث حتى توافق المذهب.

فالواجب اتباع الكتاب والسنة، والمذهب إذا خالف النصوص يُطرح، والعلماء يُترحَّم عليهم؛ لأنهم اجتهدوا، لكن أنت إذا عرفت أن المذهب مُخالف للكتاب والسنة، فاترك المذهب وخذ بالكتاب والسنة.

فِيهِ مَسَائِلُ:

* الأولى: تفسيرُ آيةِ النُّورِ.

وهي قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ [النُّور: ٦٣] تحذير من مخالفة أمر الله ورسوله، وأنه يُخشى أن يُبتلى بالشرك - والعياذ بالله - أو العقوق.

* الثانيةُ: تفسيرُ آيةِ براءة.

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التّوبَة: ٣١]، وأن طاعة الأحبار والرهبان الطاعة الخاصة ردة عن الإسلام، وهي طاعتهم في التحليل والتحريم.

* الثالثةُ: التَّنبيهُ علَى مَعْنى العبادةِ التي أنْكَرَها عَدِيّ.

وأنها الطاعة في التحليل والتحريم، وأن هذه عبادة لم يعرفها عدي حتى بيّنها له رسول الله ﷺ.

* الرابعةُ: تَمثيلُ ابنِ عبّاسٍ بأَبي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَتَمثيلُ أحمد بسفيانَ.

إذا تمثّل ابن عباس بأبي بكر وعمر فغيرهم من باب أولى، فإذا كان لا يجوز الأخذ بقول أبي بكر وعمر إذا خالف السنة فغيرهم من باب أولى، وكذلك سفيان مثّل به الإمام أحمد، قال: إذا كان الذي يترك السنة ويأخذ من غير السنة يأخذ برأي سفيان وهو من أئمة الحديث، يُخشى عليه من زيغ القلب، فلا يؤخذ بقول غير سفيان من باب أولى.

* الخامسةُ: تحوُّلُ الأحوالِ إلى هَذهِ الغايةِ، حَتى صارَ عِنْدَ الأكثرِ عِبادَةُ الرُّهبانِ هِيَ أفضلُ الأعمالِ، وتُسمّى الولايةُ.

عبادة الرهبان العُبّاد، أفضل الأعمال عند بعض المشركين،

وتُسمى الولاية، ومن ذلك طاعة الولي عند المتصوفة. أي: طاعتهم الشركية.

وعِبادَةُ الأحبارِ هِيَ العلْمُ والفقْهُ.

هذه عبادة العلماء تُسمى العلم والفقه، فالعلم والفقه أن يتبع قول العالم ولو خالف النصوص.

ثُمّ تغيّرتِ الأحوالُ إلى أنْ عُبِدَ مِنْ دونِ اللهِ مَنْ لَيْس مِنَ الصالحينَ، وعُبِدَ بالمعنى الثاني مَنْ هُوَ مِنَ الجاهلين.

بَابُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا (٦٠)﴾ [النِّسَاء: ٦٠] الْآيَاتِ

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١)﴾ [البَقَرَة: ١١].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

وَقَوْلُهُ: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المَائدة: ٥٠].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ»(١). قَالَ النَّوَوِيُّ: حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَوَيْنَاهُ فِي كِتَابِ «الْحُجَّة» بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ(٢).

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَرَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ خُصُومَةٌ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: نَتَحَاكَمُ إِلَى مُحَمَّدٍ، عَرِفَ أَنَّهُ لَا يَأْخُذُ الرِّشْوَةَ، وَقَالَ الْمُنَافِقُ: نَتَحَاكَمُ إِلَى الْيَهُودِ؛ لَعَلِمَهُ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ الرِّشْوَةَ، فَاتَّفَقَا أَنْ يَأْتِيَا كَاهِناً فِي جُهَيْنَةَ فَيَتَحَاكَمَا إِلَيْهِ، فَنَزَلَتْ ﴿أَلَمْ

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» رقم (١٥).

(٢) «الأربعين النووية»، رقم (٤١)، وقال ابن حجر: «أخرجه الحسن بن سفيان وغيره، ورجاله ثقات». «فتح الباري» (١٣/ ٢٨٩).

تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ [النِّسَاء: ٦٠][(١)].

وَقِيلَ: «نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ اِخْتَصَمَا، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: نَتَرَافَعُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالَ الْآخَرُ: إِلَى كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ، ثُمَّ تَرَافَعَا إِلَى عُمَرَ، فَذَكَرَ لَهُ أَحَدُهُمَا الْقِصَّةَ فَقَالَ لِلَّذِي لَمْ يَرْضَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَكَذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ فَقَتَلَهُ»[(٢)].

الشَّرْح

○ قوله: «باب قولِ اللهِ تعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النِّسَاء: ٦٠]» هذه الترجمة فيها تحقيق شهادة أنّ محمداً رسول الله، والتراجم الأخرى فيها تحقيق شهادة أنّ لا إله إلا الله.

ومقصود المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بهذه الترجمة: وجوب التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأنَّ عدم التحاكم إلى شرع الله من صفات المنافقين، وهذه الآية نزلت في المنافقين.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ والاستفهام للتعجب، أيّ: تعجب يا محمد، من حال هؤلاء الذين يزعمون أنهم

---

(١) أخرجه المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» رقم (٧١١)، والطبري في «التفسير» (٥/ ١٥٢، ١٥٣).وصحح إسناده ابن حجر «فتح الباري» (٥/ ٣٧).

(٢) أخرجه الطبري في «التفسير» (٤/ ١٥٤)، وذكره الثعلبي في «التفسير» (٣/ ٣٣٧).
قال ابن حجر: «وروى - أي: الطبري - بإسناد صحيح آخر صحيح إلى مجاهد أنه كعب بن الأشرف، وقد روى الكلبي في «تفسيره» عن أبي صالح عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية...، وهذا الإسناد وإن كان ضعيفًا لكن تقوى بطريق مجاهد، ولا يضره الاختلاف؛ لإمكان التعدد». «فتح الباري» (٥/ ٣٧، ٣٨).

يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك، ثم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت، ولا يتحاكمون إلى شرع الله، هذه حالة عجيبة، أمران متناقضان؛ دعوى الإيمان بالله وبما أُنزل على الرسول، ثمّ التحاكم إلى الطاغوت، فأحدهما ينقض الآخر.

والزعمّ المراد به: الادعاء الكاذب، **يَزْعُمُونَ** أي: يدّعون دعوى كاذبة تنقضها أفعالهم، هم يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك.

﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾، والطاغوت: صيغة مبالغة كفعلوت، من الطغيان، وهو مجاوزة الحدّ، وهو كل ما تجاوز العبد حده، كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الطاغوت كل ما تجاوز العبد حدّه من معبود أو متبوع أو مطاع[(١)]. والطواغيت كثيرون ورءوسهم خمسة، ومنهم الحاكم بغير ما أنزل الله فهو طاغوت.

وهذه الآية دليل على أن الحكم بغير ما أنزل الله ينافي الإيمان، وأنهما ضدّان، وإذا حكم بغير ما أنزل الله في جميع شؤونه، وفي جميع شؤون الدولة، فإنه قد بدَّل الدِّين، فيكون كافراً، كما قرر ذلك أهل العلم.

ومن ذلك: ما فعله جنكيز خان في الياسق الذي وضعه، فهو خليط من القوانين ومن الشريعة يُحكم به، فكفَّره أهل العلم، فالحكم بغير الله له حالات:

الحالة الأولى: من حكم بغير ما أنزل الله في جميع شؤون الدولة، فقد بدّل الدِّين، كما قرر ذلك الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ٤٠) وقال في مختصر الصواعق المرسلة (ص: ٥٤٥): (والطاغوت اسم لكل ما تعدى حده وتجاوز طوره).

في رسالة تحكيم القوانين[(١)].

الحالة الثانية: إذا حكم بغير ما أنزل الله في بعض الأحكام مستحلّاً له؛ فإنه يكفر أيضاً، ولو لم يُبدِّل الدِّين، وله ثلاث حالات أو ثلاث صوّر:

الحالة الأولى: أن يحكم بغير ما أنزل الله معتقداً أنّ الحكم بغير ما أنزل الله من القوانين والآراء أفضل وأحسن من الحكم بما أنزل الله.

الحالة الثانية: أن يحكم بغير ما أنزل الله معتقداً أنه مُماثل ومُساو للحكم بما أنزل الله.

الحالة الثالثة: أن يحكم بغير ما أنزل الله معتقداً أن الحكم بما أنزل الله أفضل.

هذه ثلاث حالات يكفر بها كفراً أكبر مخرجاً من الملة، مع الحالة الأولى وهي تبديل الدِّين؛ إذا حكَّم بغير ما أنزل الله في جميع شؤون الدولة.

الحالة الثالثة: أن يحكم بالأعراف والسلوم، كما تتحاكم بعض القبائل إلى شيوخها، فمثلاً: إذا زنى أو سرق أحد أفراد القبيلة رفعوه إلى شيخ القبيلة، فحكم عليه بشيء من المال، أو يلزمه أن يذبح ذبائح فيبرئونه من إقامة الحدّ، ويكون هذا مُلزماً، فهذا الحكم بالأعراف أعراف القبائل والسلوم، يُخرج من الملة.

الحالة الرابعة: إذا حكم بغير ما أنزل الله في بعض القضايا؛ طاعة للهوى والشيطان، وهو يعلم أنه عاص، ويعتقد أن الحكم بما

---

(١) رسالة: تحكيم القوانين (ص٥).

أنزل الله واجب، ولكن غلبه الهوى والجشع والطمع، فحكم بغير ما أنزل الله؛ لأجل أن ينفع المحكوم له، أو لأجل أن يضر المحكوم عليه، أو لأجل الرشوة، أو لأجل المال، أو لأجل الخوف، رغبة أو رهبة، فهذا ارتكب كبيرة وكفراً أصغر لا يخرج من الملة.

أما إذا استفرغ الحاكم وسعه، وبذل جهده في التعرف على الحكم الشرعي فأخطأ، وحكم بغير ما أنزل الله خطأً، فهذا له أجر على اجتهاده، وخطؤه مغفور؛ لقول النبي ﷺ: «**إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ**»[١].

فهذه أربع حالات، والله تعالى بيّن في هذه الآية الكريمة أن الحكم بغير ما أنزل الله ينافي الإيمان بالله ورسله، لكن هؤلاء الحكام وإن كان ظاهرهم يستحلّون الحكم بغير ما أنزل الله، لكن ينبغي أن لا يُحكم على الأفراد إلا بعد إقامة الحجة، ولكن هذا إنما هو حكم عام.

أما الأفراد فإنه ينبغي أن تُقام عليهم الحجة احتياطاً لهذا الأمر العظيم، وبراءةً للذِّمة، فالمعيّن - كما قرر أهل العلم كشيخ الإسلام ابن تيمية[٢] وغيره - لا يكفر إلا إذا توفرت الشروط، وانتفت الموانع، وقامت عليه الحُجة، وإن كان الحكم العام يُحكم على من

(١) أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب «أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ»، رقم (٧٣٥٢)، ومسلم، كتاب الأقضية، رقم (١٧١٦) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فإن نصوص "الوعيد" التي في الكتاب والسنة ونصوص الأئمة بالتكفير والتفسيق ونحو ذلك لا يستلزم ثبوت موجبها في حق المعيّن إلا إذا وجدت الشروط، وانتفت الموانع، لا فرق في ذلك بين الأصول والفروع. مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٧٢).

فعل كذا وكذا بالكفر.

والله تعالى بيّن في هذه الآية الكريمة أن الحكم بغير ما أنزل الله يُنافي الإيمان، قال تعالى في الآية التي بعدها: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النِّسَاء: ٦٥].

أقسم ﷻ بنفسه الكريمة وهو الصادق: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ خطاب لرسول ﷺ، ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ في موارد النزاع، ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾: لا بد أن يزول الحرج من حكم الرسول ﷺ، ﴿وَيُسَلِّمُوا﴾ لا بد من الطمأنينة، ثم أكَّد بالمصدر ﴿تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النِّسَاء: ٦٥].

هنا قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ تعجَّب يا محمد ممن هذه حاله، ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ [النِّسَاء: ٦٠]، فالله تعالى أمرهم أن يكفروا بالطاغوت، وهم يتحاكمون إلى الطاغوت، ومع ذلك يزعُمون الإيمان، والزعم يُطلق على الدعوى الكاذبة، وهذه دعوى كاذبة، كيف يدّعون الإيمان ثم يتحاكمون إلى الطاغوت.

وقال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٦] فلا يصحّ الإيمان بالله إلا بأمرين: الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله، فكيف يزعم هؤلاء الإيمان وهم يؤمنون بالطاغوت ويتحاكمون إلى الطاغوت؟! لا يمكن أن يحصل الإيمان إلا بالكفر بالطاغوت والإيمان بالله.

ثم قال: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النِّسَاء: ٦٠]

بيّن أن الحكم بغير ما أنزل الله من إرادة الشيطان، وأنه ضلال، ثم أكّده بمصدر، ثم وصفه بأنه ضلال مبين، بيّن واضح لكل أحد، فهذه أربعة أموره.

ثم أخبر سبحانه عن حال المنافقين، وأنهم معرضون عن التحاكم إلى شرع الله قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النِّسَاء: ٦١] يعرضون؛ لأن من وصْف المنافقين الإعراض عما أنزل الله، وما أنزل على رسوله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [البَقَرَة: ٢٣١]، والإعراض عن التحاكم إلى شرع الله.

ثم قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ [النِّسَاء: ٦٢] فيه: أنّ المنافقين إذا نُصِحوا أو أُمروا أو نُهوا قالوا: نحن نريد التوفيق بين الشريعة وبين القانون، كما يقول الفلاسفة: نريد التوفيق بين الفلسفة وبين الشريعة، وهنا يقولون: نريد التوفيق بين الشريعة والقانون، نوفّق بينهما: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾.

وكذلك الصوفية يريدون التوفيق بين الشريعة واعتقاداتهم الباطلة، والفلاسفة يريدون التوفيق بين الشريعة وبين الفلسفة، وهؤلاء يريدون التوفيق بين الشريعة وبين القوانين، ضدّان لا يجتمعان: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾، قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النِّسَاء: ٦٣] أمر الله بالإعراض عنهم ووعظهم.

○ «وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ

مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البَقَرَة: ١١-١٢]».

هذه الآية في المنافقين أيضاً؛ بيّن الله أنهم يفسدون في الأرض، ويُسمّون إفسادهم إصلاحاً، ومن ذلك الحكم بغير ما أنزل الله، فإنه فساد في الأرض.

○ **قوله**: «وقال ﷻ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٦]».

نهى الله عن الإفساد في الأرض بعد إصلاحها، ومن الإفساد في الأرض بعد إصلاحها الحكم بغير ما أنزل الله.

○ **قوله**: «وقول الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المَائدة: ٥٠]».

بيّن ﷻ أن الحكم بغير ما أنزل الله هو حكم من أحكام الجاهلية، وأنه لا أحسن حكماً من الله، وأحكام الجاهلية كلُّها باطلة فهي ضلال.

○ **قوله**: «عَنْ عَبدِ الله بْنِ عَمْرو أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتى يَكُونَ هَواهُ تَبَعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ». قالَ النوويُّ: حديثٌ صحيحٌ، رَوَيْناهُ فِي كِتابِ «الحُجَّةِ» بإسنادٍ صحيحٍ.

الحديث فيه بعض الضعف، لكن المعنى صحيح، فالحديث له شواهد من النصوص تدلّ على أنه لا يؤمن الإيمان الكامل حتى يكون هواه تبعاً لرسول الله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به**» يعني: لا يؤمن الإيمان الكامل الذي تبرأ به ذِمّته، حتى يكون هواه تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ، فيُحكِّم شرع الله، ويحكم بشرع الله، فإذا كان هواه تابعاً للمال، أو تابعاً للهوى، أو للجاه أو للسلطان؛ فيكون إيمانه ناقصاً ضعيفاً، ولا يؤدي الإيمان الواجب،

فالإيمان الكامل أن يكون هواه تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ، وإن كان هواه تبعاً للمال، أو للجاه، أو للشرف نقص إيمانه وضعف إيمانه.

○ **ذكر المؤلف قصة قال**: «وقالَ الشّعبيُّ: كانَ بَيْنَ رجُلٍ مِنَ المنافقينَ ورَجُلٍ مِنَ اليهودِ خُصومةٌ، فقالَ اليهوديُّ: نَتَحاكَمُ إلى محمدٍ. عَرَفَ أنَّهُ لا يأْخُذُ الرِّشوَةَ. وقالَ المنافقُ: نتحاكمُ إلى اليهودِ. لعلْمِهِ أنَّهُمْ يأخذونَ الرِّشوةَ، فاتفقا أنْ يأْتيا كاهناً في جُهيْنَةَ فيتحاكما إليهِ فنزلَتْ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝٦٠﴾ [النِّساء: ٦٠]».

هذه القصة لا تثبت، سندها منقطع؛ لأن الشعبي لم يدرك عمر، ولكن المعنى صحيح، وهي داخلة في معنى الآية.

ومقصود المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ - وإن لم تثبت هذه القصة - الاستفادة من المعنى، فإن من لم يتحاكم إلى شرع الله تشمله هذه الآية، فإذا اختصم شخصان ولم يتحاكما إلى شرع الله وتحاكما إلى أحكام القوانين الوضعية، فإنهم داخلون في هذه الآية.

وفيها خبث المنافقين، وأنهم أخبث من اليهود، اليهودي يقول: نتحاكم إلى محمد، والمنافق يقول: نتحاكم إلى اليهود.

○ **قوله**: «وَقيلَ: نزَلتْ في رَجُلَيْنِ اختصما، فقالَ أحدُهُما: نترافعُ إلى النبيِّ ﷺ. وقالَ الآخَرُ: إلى كعب بن الأشرفِ. ثُم ترافَعا إلى عُمَرَ فذَكَر لَهُ أحدُهما القِصَّةَ، فقال للَّذي لَمْ يَرْضَ برسولِ اللهِ ﷺ: أكذلِكَ؟ قالَ: نَعَم. فَضَرَبَهُ بالسَّيْفِ فَقَتَلَهُ».

هذا فيه دليل على أنه يُرفع إلى الحاكم الذي لم يرض بحكم الله ورسوله فيُستتاب، فإن تاب وإلا قُتل، فهذه القصة وإن لم تثبت كذلك، فالمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ استفاد من المعنى منها بصرف النظر عن صحتها، فالمعنى صحيح.

فِيهِ مَسَائِلُ:

- الأولى: تَفسيرُ آيةِ النِّساءِ وما فيها مِنَ الإعانةِ على فَهْمِ الطاغوتِ.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [النِّسَاء: ٦٠].

- الثانيةُ: تفسيرُ آيةِ البقرةِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.
- الثالثةُ: تفسيرِ آيةِ الأعرافِ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعرَاف: ٥٦].

وذلك بالمعاصي.

- الرابعةُ: تفسيرُ ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المَائدة: ٥٠].

بالتحاكم إلى الطاغوت.

- الخامسةُ: ما قالَه الشَّعْبِيُّ في سببِ نزولِ الآيةِ الأولى.
- السادسةُ: تفسيرُ الإيمانِ الصَّادقِ والكاذِبِ.

الإيمان الصادق: هو الإيمان الذي يتوافق الظاهر مع الباطن، والكاذب: هو إيمان المنافقين الذين يدّعون الإيمان في الظاهر وهم كاذبون في الباطن.

- السابعةُ: قصَّةُ عُمَر معَ المنافقِ.

وقتله إياه، يدل على أنّ من أظهر النفاق يُقتل.

- الثامنةُ: كوْنُ الإيمانِ لا يَحصُلُ لأحدٍ حَتى يكونَ هواهُ تَبَعاً لِما جاءَ بهِ الرسولُ ﷺ.

كما في الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به».

بَابُ مَنْ جَحَدَ شَيْئاً مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرّعد: ٣٠]الْآيَةِ.

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ[١] قَالَ عَلِيٌّ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟!».

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ[٢] عَنْ مَعْمَرٍ عَنِ ابْنِ طَاوُسٍ عَنْ أَبِيهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً اِنْتَفَضَ لَمَّا سَمِعَ حَدِيثاً عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصِّفَاتِ اِسْتِنْكَاراً لِذَلِكَ، فَقَالَ: مَا فَرَقُ هَؤُلَاءِ؟ يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ، وَيَهْلِكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ؟!» اِنْتَهَى.

وَلَمَّا سَمِعَتْ قُرَيْشٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ أَنْكَرُوا ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرّعد: ٣٠][٣].

الشَّرح

ترك المصنف رحمه الله في هذه الترجمة الحكم على من جَحَدَ شَيئاً مِنَ الأسماءِ والصِّفاتِ - فإن (من) شرطية، ولم يذكر جواب الشرط -؛ ليتأمل طالب العلم، وذلك على عادة البخاري رحمه الله في صحيحه.

والتقدير: من جحد شيئاً من الأسماء والصفات فقد كفر، أو فهو كافر؛ لقول الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب «من خص بالعلم قومًا دون قوم»، رقم (١٢٧).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» رقم (٢٩٦٠).

(٣) جاء هذا عن ابن عباس. انظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص٢٧٣) «زاد المسير» (٤/ ٣٢٩).

إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾ [الرّعد: ٣٠] فمن جحد شيئاً من الأسماء والصفات فهو كافر، بخلاف المتأوِّل، المتأوِّل له شُبْهة، أما الجاحد فهو كافر.

فمنها قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: ٥] من أنكر هذه الآية وجحدها كفر؛ لأنه مكذّب لله، أمّا من أقرّ بها؛ ولكن تأول ﴿ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ بمعنى: الاستيلاء، فهذا متأوِّل له شُبْهة، فلا يكفر، ففرقٌ بين الجاحد والمتأوِّل.

○ **قوله تعالى**: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾ [الرّعد: ٣٠] لأن قريشاً كفرت بالرحمن، فأنزل الله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الرحمن من أسمائه سبحانه وتعالى، ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحقٍّ سواه.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾: اعتمدت وفوّضت أمري إليه، ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾ [الرّعد: ٣٠]: إليه المرجع والمآب.

○ **قوله**: «وَفِي «صحيح البخاريّ»: قالَ عَلِيٌّ: حدِّثُوا الناسَ بِما يَعْرِفونَ؛ أتريدونَ أنْ يُكَذَّبَ اللهُ ورسولُهُ».

وسبب هذه المقالة: أنه كثر القُصّاص والوعّاظ في زمن علي رضي الله عنه، فكانوا يحدِّثون بأحاديث وأشياء لا تبلغها عقول الناس فينكرونها، فيكون سبباً في تكذيبهم وردّهم للأحاديث، فقال علي رضي الله عنه هذه المقالة: حدِّثوا الناس بما يعرفون. يعني: فيما يتعلّق بالدِّين وأحكامه، وببيان الحلال والحرام وما يحتاجه الناس، ولا تحدِّثوهم بشيء تنكره عقولهم، وربما أدّى ذلك إلى تكذيبهم وردِّهم للأحاديث؛ ولهذا قال علي: حدِّثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله.

○ **قوله**: «وَروَى عبدُ الرزاقِ، عَنْ مَعْمَر، عَن ابنِ طاووسٍ، عَنْ أبيهِ، عَنِ ابنِ عباسٍ: أنّهُ رَأَى رجُلاً انتَفَضَ لَمَّا سَمِعَ حَديثاً عَنِ النَّبي ﷺ في الصِّفاتِ؛ استنكاراً لِذلكَ، فقالَ: ما فَرَق هؤلاءِ؟ يَجدونَ رِقَّةً عِندَ مُحْكَمِهِ، ويَهْلِكُونَ عِنْدَ مُتشابِهِهِ. انتهى».

استفهم ابن عباس لأصحابه، يقول: «ما فَرَق هؤلاءِ؟» أي: ما خوَّفهم حينما تتلى الأحكام؟ ذلك أنه يكون عندهم خوف وخشية لله ﷻ، وإذا تليت آيات الصفات انتفضوا استنكاراً لها!! فيحصل عندهم الخوف والرقة والخشية عند المحكم، ويهلكون عند المتشابه، فلا يؤمنون به.

والواجب التسليم والإيمان بما جاء عن الله وعن رسوله ﷺ، فيجب علينا أن نؤمن، وأن نُسلِّم بما جاء عن الله وعن رسوله ﷺ، كما أنه يعمل بالأحكام ويكون عنده رِقّة وخوف من الله ﷻ حين يتكلم عن الأوامر والنواهي، فكذلك آيات الصفات ونصوص الصفات يجب عليه أن يؤمن وأن يسلّم، وأن يؤمن بما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من نصوص الصفات، وأن يؤمن بها، هؤلاء لم يؤمنوا الإيمان الواجب، فإنّ الإيمان الواجب أن يؤمن الإنسان بما جاء عن الله، على مراد الله، كما قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: آمنت بالله، وبما جاء عن الله، على مراد الله، وآمنت برسول الله، وما جاء عن رسول الله، على مراد رسول الله.

○ **قوله**: «وَلَمَّا سمعتْ قريشٌ رسولَ اللهِ ﷺ يَذْكُرُ الرَّحمنَ أنْكَروا ذلِكَ، فأنْزَلَ اللهُ فِيهِم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾ [الرّعد: ٣٠]».

وذلك في صلح الحديبية، لمّا تمّ الصلح، وأُريد كتابة الكتاب،

كتب الكاتب: «**هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ**». **فَقَالَ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ: لَئِنْ كُنْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَاتَلْنَاكَ لَقَدْ ظَلَمْنَاكَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ: هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: دَعْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ نُقَاتِلْهُمْ. فَقَالَ: «لَا، وَلَكِنِ اكْتُبُوا كَمَا يُرِيدُونَ، إِنِّي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ». فَلَمَّا كَتَبَ الْكَاتِبُ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، قَالَتْ قُرَيْشٌ: أَمَّا الرَّحْمَنُ فَلَا نَعْرِفُهُ، وَكَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَكْتُبُونَ: «بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ»، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، دَعْنَا نُقَاتِلْهُمْ، قَالَ: «لَا، وَلَكِنِ اكْتُبُوا كَمَا يُرِيدُونَ»**(١) فالنبي عليه الصلاة والسلام تنازل عن هذه المصلحة حتى شقّ ذلك على الصحابة، ثم بعد ذلك صارت العاقبة حميدة، وسماها الله فتحاً: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفَتْح: ١]، ووَضَعت الحرب أوزارها، واختلط المشركون بالمسلمين، وسمعوا القرآن، وأسلم عدد كثير، وتفرغ النبي لفتح خيبر، ثم بعد سنة نقضوا العهد فغزاهم النبي ﷺ في عُقْر دارهم، وفتح مكة.

«**ولمّا سمعت قريش يذكر الرحمن قالت: من الرحمن؟ فأنزل الله**: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: يجحدون، دلّ على أنّ من جحد شيئاً من أسماء الله وصفاته فهو كافر.

فِيهِ مَسَائِلُ:

- **الأولى: عَدَمُ الإيمانِ بِجحدِ شيءٍ منَ الأسماءِ والصِّفاتِ**».

يعني: من جحد شيئاً من الأسماء والصفات لا يكون مؤمناً،

(١) أخرجه البخاري، كتاب الشروط، باب «الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب»، رقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢) من حديث مروان بن الحكم رضي الله عنه.

يعني: ينتفي الإيمان بجحدِ شيءٍ منَ الأسماءِ والصِّفاتِ، أخذاً من الآية: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الرّعد: ٣٠] فمن جحد شيئاً من الأسماء والصفات فليس بمؤمن؛ ولهذا قال المؤلف: بابُ مَنْ جَحَدَ شَيئاً مِنَ الأسماءِ والصِّفاتِ، يعني: فقد كفر.

- **الثانيةُ: تفسيرُ آيةِ الرَّعدِ.**

﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ۝٣٠﴾ [الرّعد: ٣٠].

- **الثالثةُ: تَرْكُ التَّحديثِ بِما لا يَفْهَمُ السّامعُ.**

لقول علي رضي الله عنه: «**حدِّثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذّب الله ورسوله**».

- **الرابعةُ: ذكْرُ العِلةِ أنَّهُ يُفضِي إلى تَكذيبِ اللهِ ورسولِهِ، وَلَوْ لَمْ يَتَعَمَّدِ المنْكِرُ.**

أتريدون أن يكذّب الله ورسوله، أو أتحبون.

- **الخامسةُ: كلامُ ابْنِ عباسٍ لِمَن اسْتَنْكَرَ شَيئاً مِنْ ذلِكَ وأَنَّهُ أَهْلَكَهُ.**

يعني قوله رضي الله عنه: «**ما فَرَقُ هَؤُلاءِ؟ يَجِدُونَ رِقَّةً عِندَ مُحْكَمِهِ، ويَهْلِكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ، وأنه هلكة**».

بَابُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النّحل: ٨٣] الْآيَةِ

قَالَ مُجَاهِدٌ مَا مَعْنَاهُ: «هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ: هَذَا مَالِي، وَرِثْتُهُ عَنْ آبَائِي»(١).

وَقَالَ عَوْنُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: «يَقُولُونَ: لَوْلَا فُلَانٌ لَمْ يَكُنْ كَذَا»(٢).

وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: يَقُولُونَ: «هَذَا بِشَفَاعَةِ آلِهَتِنَا».

وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ بَعْدَ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الَّذِي فِيهِ: وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ» الْحَدِيثِ(٣)، وَقَدْ تَقَدَّمَ: وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، يَذُمُّ سُبْحَانَهُ مَنْ يُضِيفُ إِنْعَامَهُ إِلَى غَيْرِهِ وَيُشْرِكُ بِهِ(٤).

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: هُوَ كَقَوْلِهِمْ: كَانَتِ الرِّيحُ طَيِّبَةً، وَالْمَلَّاحُ حَاذِقاً. وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ جَارٍ عَلَى أَلْسِنَةٍ كَثِيرَةٍ(٥).

الشَّرح

مقصود المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بهذه الترجمة: وجوب شكر النعمة، بالاعتراف بها بالقلب واللسان، وعدم جحودها وإنكارها، والتحدُّث

---

(١) أخرجه الطبري في «التفسير» (١٤/ ١٥٨).

(٢) أخرجه الطبري في «التفسير» (١٤/ ١٥٨).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٨/ ٣٣).

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٨/ ٣٣).

بها، ونشرها بين الناس، واستعمالها في طاعة الله ومرضاته.

وهذه هي أركان الشكر الثلاثة:

الأول: الاعتراف بالنعمة بالقلب.

الثاني: نسبتها باللسان إلى المنعِم.

الثالث: استعمالها وبذلها فيما يحبه الله ويرضاه بالجوارح.

والله تعالى ذمّ المشركين فقال: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [النّحل: ٨٣] فجمعوا بين النقيضين: يعترفون بنعمة الله، ولكنهم يجحدونها ثم ينكرونها، فلا يتحدّثون بها ولا يشكرونها، ولا يستعملونها في طاعة الله، مع معرفتهم واعترافهم بأن النعمة من الله، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

○ **قوله**: «قالَ مُجاهِدٌ ما مَعْنَاهُ: هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ: هَذا مالي ورِثْتُهُ عَنْ آبائِي».

هذا تفسير للآية، هذا مثال لإنكار النعمة وجحدها.

«هَذا مالي ورِثْتُهُ عَنْ آبائِي»: أنكر نعمة الله عليه، وأن الله هو الذي يسّر له هذا المال، وسهّل له أسبابه، من الذي خلقك أيها الإنسان؟! من الذي أوجدك من العدم؟! من الذي أعطاك العقل والسمع والبصر؟! من الذي أعطاك القدرة على الكسب؟! فكيف تُنكر نعمة الله وتقول: هذا مالي ورثته عن آبائي؟! ورثته عن أب عن جد!

أنكر فضل الله، وأنكر نعمة الله، وأن الله يسّر له الأسباب، فهذا من إنكار النعمة، وهذا مثال، والسلف يذكرون أمثلة في تفسير الآية، وليس المراد الحصر.

○ **قوله**: «وقالَ عوْنُ بن عبدِ الله: يقولونَ: لولا فُلانٌ لَمْ يَكُنْ كَذا».

هذا مثال أيضاً لإنكار النعمة: نسبة النعمة إلى الأسباب، ونسيان المسبِّب وهو الله ﷻ.

«لولا فُلانٌ لَمْ يَكُنْ كَذا»، لولا فلان ما حصلت على الوظيفة، لولا فلان ما حصلت على كذا من المال، لولا فلان ما حصلت على البيع الفلاني، لولا فلان ما حصلت على السيارة، أضاف النعمة إلى السبب، نعم فلان سبب، لكن نسيت أن المسبب هو الله. من الذي يسّر لك الأسباب؟ من الذي حرّك قلب فلان حتى يبيع لك السلعة أو يعطيك كذا أو يستجيب لما طلبت؟ هذا من إنكار النعمة.

○ **قوله**: «وقالَ ابنُ قُتيبةَ: يَقولونَ هَذا بِشفاعَةِ آلِهَتنا».

هذا فيه إنكار النعمة، ونسبتها إلى السبب، مع الشرك بالله ﷻ.

«هَذا بِشفاعَةِ آلِهَتنا»: الآلهة لا تشفع، والله تعالى لا يشفع عنده أحد، قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥] حتى نبينا ﷺ وهو أوجه الناس لا يشفع حتى يأذن الله له، فكيف بالآلهة؟! الآلهة أبعد شيء عن الشفاعة، فهي لا تشفع، هذا من الشرك، فهم جمعوا بين الشرك وبين نسبة النعمة إلى غير الله، أنكروا نعمة الله وأشركوا مع الله.

والمشركون ليس لهم شفاعة: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدَّثِّر: ٤٨] والله لا يأذن إلا لأهل التوحيد.

الشفاعة لا بد فيها من شرطين:

الشرط الأول: إذن الله تعالى للشافع أن يشفع.

الشرط الثاني: رضاه عن المشفوع له.

والله تعالى لا يرضى إلا التوحيد، فلا يرضى عن المشرك، فلا

يشفع له.

فالآلهة أبعد شيء عن الشفاعة، فهم جمعوا بين إنكار النعمة، والشرك بالله ﷻ.

○ **قوله**: «وقالَ أبُو العبّاسِ» أي: ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام الحراني، كنيته أبو العباس.

وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ بَعْدَ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الَّذِي فِيهِ: وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ» الْحَدِيث، وتمامه قَالَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: «**هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟**». قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمَ. قَالَ: «**قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ**».

والشاهد من الحديث: أنّ من قال: مطرنا بالنجم الفلاني فهو كافر بالله؛ حيث نسب النعمة إلى غير الله؛ إن اعتقد أن للنجم تأثيراً في إنزال المطر، فهذا كفر أكبر، وهو شرك في الربوبية، وإن اعتقد أن منزل المطر هو الله، ولكن الكوكب سبب، فهو شرك أصغر.

فهذا الحديث فيه إنكار النعمة، ونسبتها إلى النجوم، والله تعالى لم يجعل النجم سبباً لإنزال المطر، فجمعوا بين الأمرين؛ إنكار النعمة مع الشرك.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعليقاً على هذا الحديث: «**وهَذا كثيرٌ في الكِتابِ والسُّنةِ، يَذُمُّ سبحانَهُ مَنْ يُضيفُ إنعامَهُ إلى غَيْرِهِ ويُشْرِكُ بهِ**».

○ **قوله**: «قالَ بعضُ السَّلَفِ: هُوَ كَقولِهِم: كانَتِ الرِّيحُ طَيِّبةً،

والمَلَّاحُ حاذِقاً، وَنَحْوِ ذلِكَ مِما هُوَ جارٍ علَى ألسِنَةِ كَثيرٍ».

يعني: أنهم إذا ركبوا في السفينة، وسارت سيراً حسناً، ووصلوا في وقتٍ قصير، نسبوا ذلك إلى طيب الريح، وإلى حِذْق الملاح - قائد السفينة - ونسوا المسدي والمولي للنعمة؛ وهو الله ﷻ، فقالوا: إن الريح طيبة ولا توجد عواصف في البحر، والملاح حاذق، فكفروا بنعمة الله، ونسبوا النعمة إلى غير موليها، هذا من الأمثلة التي ذكرها بعض السلف، فهذا من نسبة النعمة إلى غير الله.

ومثل قول بعض الناس: السائق جيد والسيارة جديدة. مثلاً: إذا وصلوا في وقت قصير وقطعوا مسافة ساعة أو ساعتين؛ وذلك لأن السائق جيد والسيارة جديدة، فهذا مثل قولهم: «كانَتِ الرِّيحُ طَيِّبَةً والمَلَّاحُ حاذِقاً».

والواجب أن يقول الإنسان: إن الله سهّل لنا ويسّر لنا الأسباب، ومن الأسباب التي يسّرها الله أن السائق جيد والسيارة جديدة، ولا ينسى المنعم ﷻ، فالواجب إضافة النعمة إلى الله، أما إضافتها إلى السبب ونسيان المنعم، فهذا من إضافة النعمة إلى غير مسديها، ومن كُفْر النعمة.

فِيهِ مَسَائِلُ:

- الْأُولَى تَفْسِيرُ مَعْرِفَةُ النِّعْمَةِ وَإِنْكَارِهَا.

معرفتها بالقلب، وإنكارها: جحودها، وعدم ذكرها باللسان، وعدم استعمالها في طاعة الله.

- الثَّانِيَةُ مَعْرِفَةُ أَنَّ هَذَا جَارٍ عَلَى أَلْسِنَةٍ كَثِيرَةٍ.

وقولهم: «كانت الريح طيبة والملاح حاذقاً»، جار على ألسنة

كثير من الناس، ينسبون الأسباب للسبب، ولا ينسبونها للمسبّب وهو الله.

- **الثَّالِثَةُ تَسْمِيَةُ هَذَا الْكَلَامِ إِنْكَاراً لِلنِّعْمَةِ.**

أنكرها حينما نسبها إلى السبب، والواجب نسبة النعمة إلى مسديها ومموليها وهو الله سبحانه.

- **الرَّابِعَةُ اجْتِمَاعُ الضِّدَّيْنِ فِي الْقَلْبِ.**

الضدان: معرفة النعمة والإنكار ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النّحل: ٨٣].

بَابٌ ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ: «الْأَنْدَادُ هُوَ الشِّرْكُ، أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاةٍ سَوْدَاءَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وَهُوَ أَنْ تَقُولَ: وَاللَّهِ، وَحَيَاتِكَ يَا فُلَانُ، وَحَيَاتِي، وَتَقُولَ: لَوْلَا كُلَيْبَةُ هَذَا لَأَتَانَا اللُّصُوصُ، وَلَوْلَا الْبَطُّ فِي الدَّارِ لَأَتَى اللُّصُوصُ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، وَقَوْلِ الرَّجُلِ: لَوْلَا اللَّهُ وَفُلَانٌ، لَا تَجْعَلْ فِيهَا فُلَاناً، هَذَا كُلُّهُ بِهِ شِرْكٌ»، رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ(١).

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ، وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ(٢).

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «لِأَنْ أَحْلِفَ بِاللَّهِ كَاذِباً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادِقاً»(٣).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١/ ٦٢).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الأيمان والنذور، باب «في كراهية الحلف بالآباء»، رقم (٣٢٥١)، والترمذي، كتاب النذور والأيمان، باب «ما جاء أن من حلف بغير الله قد أشرك»، رقم (١٥٣٥)، وأحمد (٢/ ١٢٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. قال الترمذي: «هذا حديث حسن».

وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه». «المستدرك» (٤/ ٣٣٠).

وقال ابن الملقن: «هذا الحديث صحيح». «البدر المنير» (٩/ ٤٥٨).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣/ ٧٩).

قال المنذري: «رواه الطبراني موقوفًا، ورواته رواة الصحيح». «الترغيب والترهيب» (٣/ ٣٧٢). =

وَعَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ فُلَانٌ؛ وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١) بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

وَجَاءَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ «أَنَّهُ يَكْرَهُ أَعُوذُ بِاللَّهِ وَبِكَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَقُولَ: بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ. قَالَ: وَيَقُولُ: لَوْلَا اللَّهُ ثُمَّ فُلَانٌ، وَلَا تَقُولُوا: لَوْلَا اللَّهُ وَفُلَانٌ»(٢).

الشَّرْح

هذه الجملة من آخر الآية؛ وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البَقَرَة: ٢١-٢٢].

وأول أمر في القرآن الكريم هو الأمر بالتوحيد وأول نهي هو النهي عن الشرك، فبعد أن ذكر في أول سورة البقرة الطبقات الثلاثة: المؤمنون ظاهراً وباطناً في أربع آيات، والكفار ظاهراً وباطناً في آيتين، والمنافقون في ثلاث عشرة آية، ذكر أول أمر وهو الأمر بالتوحيد: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ ثم جاء بعدها أول نهي؛ النهي عن الشرك: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

= وقال ابن القيم: «صحيح من قول ابن مسعود». «بدائع الفوائد» (٣/ ٦١٧).
وقال الهيثمي: «رواه الطبراني في «الكبير»، ورجاله رجال الصحيح». «مجمع الزوائد» (٤/ ١٧٧).

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب «لا يقال: «خبثت نفسي»»، رقم (٤٩٨٠)، وكذا أحمد (٥/ ٣٨٤). وصحح إسناده النووي في «الأذكار» رقم (١٠٨٩).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» مختصرًا (١١/ ٢٧)، وابن أبي الدنيا في «الصمت وآداب اللسان» رقم (٣٤٤).

والأنداد: جمع ندّ، وهو المثيل والنظير. وأراد المؤلف بهذه الترجمة بيان أن التنديد يكون شركاً أكبر، ويكون شركاً أصغر

وما ذكره المؤلف من الآثار كله من الشرك الأصغر، من التنديد الأصغر.

والسلف يستدلّون على الشرك الأصغر بما نزل على الشرك الأكبر، كقوله تعالى في سورة يوسف: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾ [يُوسُف: ١٠٦] وهذه الآية في بيان الشرك -شرك المشركين- وأنّ إيمانهم إيمان بالربوبية، والشرك شرك في العبادة، ومع ذلك أدخل السلف فيها الشرك الأصغر، ولمّا رأى حذيفة رجلاً في يده خيط من الحمّى قطعه، وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾ فأدخل الشرك الأصغر في الشرك الأكبر، كذلك هنا الآية: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾ [البَقَرَة: ٢٢] تشمل التنديد الأكبر والأصغر.

❍ **قوله**: «وعن ابنِ عباسٍ في الآيةِ: الأندادُ: هُوَ الشِّرْكُ أَخْفَى مِنْ دَبيبِ النَّمْلِ علَى صَفاةٍ سوداءَ فِي ظُلْمَةِ الليلِ» يعني: أن الشرك كثير في هذه الأمة، ويشمل الشرك الأكبر، والشرك الأصغر.

«وهُوَ أنْ تَقولَ: واللهِ وحياتِكِ يا فُلانةُ، وحَياتِي، وتَقولَ: لولا كُليبةُ هذا لأتانا اللُّصوصُ. ولولا البطُّ في الدّارِ لأتى اللُّصوصُ».

هذا من التنديد الأصغر، فينسب الأشياء إلى الأسباب، والذي ينبغي أن يقول: لولا الله ثم فلان.

❍ «وقوْلُ الرَّجُلِ لصاحبِهِ: ما شاءَ اللهُ وشئْتَ، وقوْلُ الرَّجُلِ: لولا اللهُ وفلانٌ».

عطف المخلوق على الخالق في المشيئة بالواو، هذا من التنديد.

○ **قوله**: «وعَنْ عُمَرَ بنِ الخطّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أوْ أشرَكَ». رواهُ الترمذيُّ وحسّنهُ، وصحَّحَهُ الحاكِمُ».

الحديث فيه: أن الحلف بغير الله شرك، واختلف في المراد بقوله: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أوْ أشرَكَ» فقيل (أو) بمعنى: و، والمعنى: فقد كفر وأشرك. وقيل: أن هذا شكّ من الراوي.

ففيه: أن الحلف بغير الله شرك، والحلف تعظيم، والتعظيم لا ينبغي أن يكون إلا لله عَزَّ وَجَلَّ.

○ **قوله**: «وقالَ ابنُ مسعودٍ: لأنْ أحلِفَ باللهِ كاذِباً أحَبُّ إليَّ مِنْ أنْ أحلِفَ بِغيْرِهِ صادِقاً».

وذلك لأن الحلف بالله توحيد، والحلف بغيره شرك، فإذا حلف بالله فقد وحَّد الله، وإن كان معه سيئة الكذب، أمّا من حلف بغير الله فقد أشرك، وإن كان فيها حسنة الصدقة، فحسنة التوحيد أقوى من حسنة الصدق، وسيئة الشرك أشدّ من سيئة الكذب، فالحالف بالله كاذباً معه حسنة التوحيد، ومعه سيئة وهي سيئة الكذب، أمّا الحالف بغير الله صادقاً فمعه الشرك، وإن كان معه حسنة الصدق، فالحلف بالله كاذباً توحيد؛ لأنه حلف بالله، وإن كان معه سيئة الكذب، أما الحلف بغيره صادقاً فهذا شرك، وإن كان معه حسنة الصدق.

○ قوله: «وَعَنْ حُذيفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «لا تَقُولوا: ما شاءَ اللهُ وشاءَ فلانٌ. ولَكِنْ قولوا: ما شاءَ اللهُ ثُمَّ شاءَ فلانٌ». رواهُ أبو داودَ بسندٍ صحيحٍ».

التشريك بين الخالق والمخلوق في المشيئة بالواو ممنوع؛ لأن الواو لمطلق الجمع، وهي لا تقبل ترتيباً، ولا تقديماً، ولا تأخيراً، بخلاف إن قال: ما شاء الله ثم شئت. فإن العطف للمشيئة بـ(ثُمّ)

تفيد الترتيب والتراخي، وأن مشيئة المخلوق لا تأتي إلا بعد مشيئة الله، متراخية عنه؛ ولهذا في الحديث: «**لا تَقُولوا: ما شاءَ اللهُ وشاءَ فلانٌ. ولَكِنْ قولوا: ما شاءَ اللهُ ثُمَّ شاءَ فلانٌ**».

فهذا الحديث فيه: النهي عن التشريك بين الخالق والمخلوق بالواو في المشيئة.

○ **قوله**: «وعَنْ إبراهيمَ النَّخَعِيِّ أَنَّهُ يَكْرَهُ: أعوذُ باللهِ وبكَ، ويجوزُ أنْ يقولَ: باللهِ ثُمَّ بِكَ».

يعني: يكره، والمراد بالكراهة كراهة التحريم.

وإبراهيم هو إبراهيم بن يزيد النخعي، تابعي صغير، فهو يقول: يجوز أن تقول: بالله ثم بك، ويكره أن تقول: بالله وبك.

○ **قوله**: «قالَ: ويقولُ: لولا اللهُ ثُمَّ فلانٌ، ولا تقولوا: لوْلا اللهُ وفلانٌ».

لولا اللهُ ثُمَّ فلانٌ عطفت المخلوق بـ(ثمّ).

ويقولُ: لولا اللهُ ثُمَّ فلانٌ، ولا تقولوا: لوْلا اللهُ وفلانٌ: والفرق بينهما واضح؛ لأن (ثم) تفيد الترتيب والتراخي، وأما الواو فإنها لمطلق الجمع والتشريك، ولا تفيد تقديماً ولا تأخيراً.

فِيهِ مَسَائِلُ:

- **الأولى: تفسيرُ آيةِ البَقَرَةِ في الأندادِ.**

﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ [البَقَرَة: ٢٢].

- **الثانيةُ: أنَّ الصحابَةَ يفسِّرونَ الآيةَ النازِلَةَ في الشِّرْكِ الأكبرِ أنَّها تَعُمُّ الأصغرَ.**

ولذا فسّر ابن عباس: (والله وحياتك وفلان)، فسّره بالشرك

الأصغر وإن كانت الآية في الشرك الأكبر، مثل ما فعل حذيفة لمّا رأى رجلاً في يده خيط قطعه، وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يُوسُف: ١٠٦]. أدخل عمله في الآية وهو من الشرك الأصغر، استدلّ بالآية وهي في الشرك الأكبر.

- **الثالثةُ: أنَّ الحِلْفَ بغيرِ الله شِرْكٌ.**

شرك أصغر.

- **الرابعةُ: أنَّهُ إذا حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ صادِقاً فهُوَ أكبرُ مِنَ اليمينِ الغموسِ.**

إذا حلف بغير الله ولو كان صادقاً فهو ذنب أكبر من اليمين الغموس؛ لأنه شرك، وأما إذا حلف بالله كاذباً، فهذه يمين غموس معصية، ولكن إذا حلف بغير الله صار شركاً وهو أعظم.

- **الخامسةُ: الفرقُ بينَ الواوِ وثُمَّ في اللفظِ.**

وأن الواو لمطلق الجمع، وثم للترتيب والتراخي.

بَابُ مَا جَاءَ فِيمَنْ لَمْ يَقْنَعْ بِالْحَلِفِ بِاللَّهِ

عَنْ اِبْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ حَلَفَ بِاللَّهِ فَلْيَصْدُقْ، وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللَّهِ فَلْيَرْضَ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ». رَوَاهُ اِبْنُ مَاجَهْ بِسَنَدٍ حَسَنٍ[(١)].

الشَّرْح

عقد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الباب لذكر ما جاء فيمَنْ لَمْ يَقْنَعْ بالحَلْفِ بالله، أي: ما جاء فيه من الوعيد.

○ **قوله**: «عَنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «لا تَحْلِفُوا بآبائِكُم» فيه: النهي عن الحلف بالآباء؛ وذلك لأنّ الحلف بالآباء من الشرك، وكانوا في الجاهليّة وفي أول الإسلام يحلفون بآبائهم، وقد ثبت أن النبي ﷺ قال: «**لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، وَلَا بِأُمَّهَاتِكُمْ، وَلَا بِالْأَنْدَادِ، وَلَا تَحْلِفُوا إِلَّا بِاللَّهِ، وَلَا تَحْلِفُوا بِاللَّهِ إِلَّا وَأَنْتُمْ صَادِقُونَ**»[(٢)].

وفي الحديث الآخر: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشرَكَ**»[(٣)].

---

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب الكفارات، باب «من حلف له بالله فليرض»، رقم (٢١٠١).
قال البوصيري: «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات». «مصباح الزجاجة» (٢/ ١٣٣).
وحسَّن إسناده ابن حجر في «فتح الباري» (١١/ ٥٣٦).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الأيمان والنذور، باب «في كراهية الحلف بالآباء»، رقم (٣٢٤٨)، والنسائي، كتاب الأيمان والنذور، باب «الحلف بالأمهات»، (٧/ ٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) تقدم تخريجه.

ففي هذا الحديث تحريم الحلف بغير الله، وفيه تحريم الحلف بالآباء، وكذلك يدخل فيه الحلف بالأمانة، أو بالكعبة، أو بحياة فلان، أو بالعرش، أو بالكرسي، أو بلحية فلان، أو بشرف فلان، أو بالنبي، كلّ هذا من المحرمات الشركية.

وبعض المجتمعات يكثر فيها الحلف بالأمانة أو الحلف بالنبي، فينبغي عليهم أن يعوّدوا ألسنتهم الحلف بالله وحده.

وكذلك كانوا في الجاهلية يحلفون باللات، كما جاء في الحديث: «**مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلِفِهِ: وَاللَّاتِ وَالعُزَّى، فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**»[1] يعني: هذه تكفِّر هذه.

«مَنْ حَلَفَ باللهِ فَلْيَصدُقْ» هذا واجب، فالصدق واجب في الحلف وفي غيره، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩]. فيجب على الإنسان أن يصدق في أقواله وأفعاله، وقال سبحانه في وصف المؤمنين: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] ثم قال بعد ذلك: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٥] وقال: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾ [محمد: ٢١] والصدق من خصال أهل البر، فلمّا ذكر سبحانه وتعالى خصال أهل البرّ في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ﴾ ثم قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧]. أهل البرّ من خصالهم

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب «﴿أفرءيتم اللات والعزى﴾»، رقم (٤٨٦٠)، ومسلم، كتاب الأيمان، رقم (١٦٤٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الصدق، فأهل البرّ هم الصادقون: صادقون في أقوالهم، وصادقون في أفعالهم، فالواجب على الإنسان أن يصدق في أقواله، وفي أفعاله، وفي اعتقاده.

فالمنافقون ليس عندهم صدق في اعتقادهم، فهم يخبرون عن أنفسهم أنهم مؤمنون وقلوبهم مكذّبة، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾ [البقرة: ٨]. وقال سبحانه: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾ [المنافقون: ١]. فالمنافقون كاذبون في اعتقادهم، كما أنهم كاذبون في أقوالهم وفي أفعالهم، والواجب الصدق في الاعتقاد، وفي القول، وفي الفعل.

وينبغي أن يكون اعتقاد الإنسان مطابقاً لقوله، فقوله يطابق اعتقاده، فهو ينطق بالشهادتين ويعتقد معناها، يؤمن بها باطناً وظاهراً، هذا هو الصادق، فالمؤمنون هم الصادقون.

أما المنافقون: فإنهم يقولون: لا إله إلا الله. ولا يقولونها عن صدق مانع من النفاق، بل يقولونها وقلوبهم مكذّبة - نعوذ بالله -.

«وَمَنْ حُلفَ لَهُ بالله فليَرْضَ» يعني: تعظيماً لله ﷻ، فليرضَ بِحُكْم الشرع الذي جعل له اليمين على صاحبه إذا لم يكن عنده بينة؛ لأنه هو الذي فرّط في عدم إتيانه بالبينة، وفي عدم طلب البينة، فلما فرّط في عدم إتيانه بالبينة ليس له إلا يمين صاحبه، فعليه أن يرضى بِحُكْم الشرع، وإن لم يرضَ بخصمه الذي جحد حقه، لكنه يرضى بحكم الشرع.

«وَمَنْ لَمْ يَرْضَ فَلَيْسَ مِنَ الله»: هذا فيه الوعيد الشديد.

فالحديث فيه: تحريم الحلف بالآباء، وتحريم الحلف

بغير الله.

وفيه: وجوب الصدق.

وفيه: وجوب الرضا بِحُكْم الله.

وفيه: الوعيد الشديد على من لم يرضَ بِحُكْم الله.

فِيهِ مَسَائِلُ:

- **الأولى: النَّهيُ عنِ الحلِفِ بالآباءِ.**

في قوله ﷺ: «لا تحلفوا بآبائكم».

- **الثانيةُ: الأمرُ للمَحلوفِ لَهُ باللهِ أنْ يرضى.**

في قوله ﷺ: «من حلف له بالله»، وكذلك أمر الحالف بالصدق: «من حلف بالله فليصدق».

- **الثالثةُ: وعيدُ مَنْ لَمْ يَرْضَ.**

في قوله ﷺ: «ومن لم يرض فليس من الله».

بَابٌ قَوْلُ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ

عَنْ قُتَيْلَةَ: «أَنَّ يَهُودِيّاً أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ، تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، وَتَقُولُونَ: وَالْكَعْبَةِ. فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، وَأَنْ يَقُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شِئْتَ». رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَصَحَّحَهُ(١).

وَلَهُ أَيْضاً عَنْ اِبْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، فَقَالَ: «أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدّاً؟ بَلْ مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ»(٢).

وَلِابْنِ مَاجَهْ(٣) عَنِ الطُّفَيْلِ أَخِي عَائِشَةَ لِأُمِّهَا؛ قَال: «رَأَيْتُ كَأَنِّي أَتَيْتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ، قُلْتُ: إِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ، لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ. قَالُوا: وَأَنْتُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ، لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ. ثُمَّ مَرَرْتُ بِنَفَرٍ مِنْ النَّصَارَى فَقُلْتُ: إِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ، لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ. قَالُوا: وَإِنَّكُمْ

---

(١) أخرجه النسائي، كتاب الأيمان والنذور، باب «الحلف بالكعبة»، (٧/ ٦)، وأحمد (٦/ ٣٧١).
ونقل تصحيح النسائي ابنُ حجر في «فتح الباري» (١١/ ٥٤٠).
قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه». «المستدرك» (٤/ ٣٣١).
وقال ابن حجر: «وأخرجه النسائي، وسنده صحيح». «الإصابة» (٨/ ٧٩).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه ابن ماجه، كتاب الكفارات، باب «النهي أن يقال «ما شاء الله وشئت»»، رقم (٢١١٨) مختصرًا، وأحمد (٥/ ٧٢).
قال البوصيري: «هذا اسناد صحيح، رجاله ثقات على شرط مسلم». «مصباح الزجاجة» (٢/ ١٣٧).

لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ. فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَخْبَرْتُ بِهَا مَنْ أَخْبَرْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، قَالَ: «هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحداً؟» قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ طُفَيْلاً رَأَى رُؤْيَا أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ، وَأَنَّكُمْ قُلْتُمْ كَلِمَةً يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا، فَلَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ».

الشَّرْح

مراد المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بقوله: «بابُ قولِ: ما شاءَ اللهُ وشِئْتَ» يعني: ما حكم هذه المقالة؟

○ **قوله:** «عَنْ قُتَيْلَةَ: أنَّ يَهُودِيّاً أتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إنَّكُمْ تُشْرِكُونَ؛ تَقُولُونَ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ. وَتَقُولُونَ: وَالْكَعْبَةِ. فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إذَا أرَادُوا أنْ يَحْلِفُوا أنْ يَقُولُوا: وَرَبِّ الْكَعْبَةِ. وَأَنْ يَقُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شِئْتَ».

هذا الحديث فيه أن النبي ﷺ نهاهم عن الحلف بالكعبة، وكانوا في الجاهلية وفي أول الإسلام يحلفون بغير الله، فأمرهم النبي ﷺ أن يقولوا: وربّ الكعبة. فإذا كانت الكعبة - وهي المشرّفة وهي بيت الله - لا يجوز الحلف بها، فغيرها من باب أولى، وكذلك أمرهم النبي ﷺ أن يقولوا: ما شاء الله ثم شئت. لأنه إذا أتى بكلمة (ثم) يكون المعطوف يأتي بعد المعطوف عليه بتراخي ومهلة؛ لأنّ (ثم) تفيد الترتيب والتراخي والمهلة، والفاء تفيد التعقيب، والواو تفيد الجمع، ولا تقتضي ترتيباً ولا تقديماً ولا تأخيراً؛ ولهذا لا يجوز أن يقول: ما شاء الله وشئت؛ لأنّه هنا عطف مشيئة المخلوق على مشيئة الخالق، فشَرَّك بين مشيئة الخالق

والمخلوق، ولا يجوز أن تُعطف مشيئة المخلوق على مشيئة الخالق، وأن تكون مساويةً له؛ لأنّ مشيئة المخلوق لا تأتي إلا بعد مشيئة الله، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩]، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإنسان: ٣٠] ولهذا أرشدهم النبي ﷺ أن يقولوا: ما شاء الله ثم شئت، فمشيئة الله أولاً ثم تأتي مشيئة المخلوق متراخية ومتأخِّرة عن مشيئة الخالق.

○ **قوله**: «وَلَهُ أيضاً عَنِ ابنِ عَباسٍ: أنَّ رجُلاً قالَ للنبيِّ ﷺ: ما شاءَ اللهُ وشِئْتَ. فقالَ: «أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدّاً؟ بل مَا شاءَ اللهُ وحْدَهُ»».

فيه: أن النبي ﷺ سمى هذا تنديداً، والتنديد نوعان: تنديد أصغر، وتنديد أكبر.

التنديد الأكبر: هو أن يجعل مع الله ندّاً يدعوه ويحبّه كما يحبّ الله، يدعوه، ويذبح له و ينذر له، ويركع له، ويسجد له.

والتنديد الأصغر: كالحلف بغير الله، والتشريك بين الخالق والمخلوق بالواو، فهذا تنديد أصغر، سماه النبي ﷺ ندّاً.

فالأحوال ثلاثة:

الحالة الأولى: أن يقول: ما شاء الله وحده. وهذا أكمل، كما أرشد إليه النبي ﷺ في هذا الحديث والحديث الذي بعده، فهذه حالة كمال.

الحالة الثانية: أن يقول: ما شاء الله ثم شئت. وهذه حالة جواز.

الحالة الثالثة: أن يقول: ما شاء الله وشئت. وهذه حالة منع.

○ **قوله**: «ولابنِ مَاجَهْ: عَنِ الطُّفَيلِ أخي عائِشةَ لأُمِّها رضي الله عنهما

قالَ: رأيتُ» يعني: في المنام «كَأني أتيتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ اليهودِ، فَقُلْتُ: إنَّكُمْ لأَنْتُمُ القَوْمَ» يعني: الممدوحون الذين عندكم عقل، وعندكم أعمال طيبة «لَولا أنَّكُمْ تقولونَ: عُزَيْرٌ ابنُ اللهِ. قالوا: وإِنَّكُمْ لأنتُمُ القومُ لولا أنَّكُم تقولونَ: ما شاءَ الله، وشاءَ مُحَمدٌ. قال: ثُمّ مَرَرْتُ بِنَفَرٍ مِنَ النَّصارى فقُلتُ: إنَّكُمْ لأنتُمُ القومُ» يعني: الممدوحون «لولا أنّكُمْ تقولونَ: المسيحُ ابنُ اللهِ. قالوا: وإنّكُم لأَنْتُمُ القومُ لولا أنَّكُم تقولونَ: ما شاءَ اللهُ وشاءَ مُحَمَّدٌ. ثم أخْبَرتُ بِها مَنْ أخبَرتُ» أخبر بها بعض من أخبر من الصحابة ﷺ «ثُمّ أتَيْتُ النبيَّ ﷺ فأخبرتُهُ، قالَ: «هلْ أخْبَرْتَ بِها أحداً؟». قلتُ: نَعَم. قالَ: فَحَمِدَ اللهَ وأثْنَى عليهِ ثُمَّ قالَ: «أمّا بعدُ.»».

فيه: مشروعية الحمد والثناء لله قبل الخطبة، وقبل الموعظة، وكذلك مشروعية قول: أما بعد. وهي كلمة يؤتى بها للانتقال من الخطبة ومن الموعظة إلى الدخول في صلب الموضوع، وقد كان النبي ﷺ يقولها في خطبه وفي رسائله، فلمّا كتب لهرقل قال: «**مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلَامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ**»[(١)].

واختُلف في أول من قالها، قيل: أول من قالها داود. وقيل: قس بن ساعدة[(٢)].

«فإنَّ طُفَيْلاً رَأى رُؤيا أخْبَرَ بِها مَنْ أخْبَرَ مِنْكُمْ، وإنَّكُمْ قُلتُمْ

(١) أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب «كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ»، رقم (٧)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، رقم (١٧٧٣) من حديث أبي سفيان صخر بن حرب رضي الله عنه.

(٢) انظر: شرح النووي على مسلم (١٥٦/٦).

كَلِمَةً كان يَمْنَعُنِي كَذا وكَذا أنْ أنهاكُمْ عَنها» يعني: كلمة (ما شاء الله وشاء محمد).

جاء في بعض الروايات: أنه يمنعه الحياء، والحياء هذا إنما كان يمنعه؛ لأنه لم يؤمر من قِبَل الله بنهيه، فلمّا أمره الله بالنهي عنها صدع بذلك ولم يمنعه الحياء. والنبي عليه الصلاة والسلام كان أشدّ حياءً من العذراء في خدرها، فإذا انتُهكت حُرُمات الله لا يقوم لغضبه قائم، فهنا كان يمنعه الحياء؛ لأنّ الله لم ينهه وهو يستحي، ولا يريد أن يشرّكوا مشيئته مع مشيئة الخالق، لكن يستحي أن ينهاهم ولم يأمره الله بنهيهم؛ فلهذا كان يستحي؛ لأنّ الأمر فيه سعة وما جاء نهي، فلمّا جاء النهي ما منعه الحياء، بل نهاهم وصدع بذلك؛ ولهذا قال: «فَلَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ».

وهذا الحديث فيه: دليل على المنع من قول: ما شاء الله وشئت. وأنها من الشرك الأصغر، بدليل أنّ النبي ﷺ أقرّ اليهود والنصارى في الرؤيا في قولهم: إنكم تشركون.

فهذا الحديث والذي قبله فيه بيان الكمال.

في حديث قُتَيْلَةَ: «إِنَّكُم تُشْرِكُونَ؛ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ» سماه شركاً وهو شرك أصغر وتنديد أصغر.

وفيه: فَهْم اليهود والنصارى للشرك الأصغر، فهم فهموا الشرك الأصغر، فقالوا: «تقولونَ: ما شاءَ اللهُ، وشاءَ مُحَمَّدٌ».

وفيه: أن الهوى مانع من قبول الحق، فقد انتقدوا على الطفيل قوله: ما شاء الله وشاء محمد. ولكنهم لم يروا العيب الذي هم فيه؛ وهو الشرك الأكبر، وهو أنهم يقولون: عزير ابن الله، والمسيح ابن الله. ففطنوا للشرك الأصغر، وسكتوا عن الشرك الأكبر الذي هم

واقعون فيه.

وفيه: أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحي، كما جاء في الحديث: «**رؤيا المؤمن جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّةِ**»(١).

وفيه: أن الرؤيا قد تكون سبباً لشرع بعض الأحكام، فهذه الرؤيا التي رآها الطفيل كانت سبباً لشرعية هذا الحكم، وهو النهي عن قول: ما شاء الله وشاء محمد. وكان الناس في أول الهجرة يقولون: ما شاء الله وشاء محمد. ويحلفون بغير الله: والكعبة، ويحلفون بآبائهم، ثم بعد ذلك استقرّت الشريعة وكملت، فنهى الله على لسان نبيه ﷺ المؤمنين أن يقولوا: ما شاء الله وشاء محمد. وأن يحلفوا بغير الله، فاستقرّت الشريعة على تحريم الحلف بغير الله، وعلى المنع من قول: ما شاء الله وشئت.

فِيهِ مَسَائِلُ:

❖ **الأولى: مَعْرِفَةُ اليهودِ بالشِّرْكِ الأصغَرِ.**

معرفة اليهود والنصارى كلهم بالشرك الأصغر، وسكوتهم عن الشرك الأكبر.

❖ **الثانيةُ: فَهْمُ الإنسانِ إذا كَانَ لَهُ هَوَى.**

وفيه: أن الإنسان لا يرى عيوب نفسه، ويرى عيوب غيره، وقد يكون ما فيه من العيوب أشدّ من غيره، مثل اليهود والنصارى رأوا عيب المسلمين في التنديد الأصغر، وهم فيهم الشرك الأكبر ولم

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التعبير، باب «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة»، رقم (٦٩٨٧)، ومسلم، كتاب الرؤيا، رقم (٢٢٦٤) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

يروا هذا العيب.

✦ **الثالثةُ: قولُهُ ﷺ: «أَجَعَلْتَني للهِ نِدّاً». فَكَيْفَ بِمَنْ قالَ: ما لِي مَنْ ألوذُ بِهِ سِواكَ. والبَيْتَيْنِ بَعدَهُ؟».**

هذا قول البوصيري:

يا أكرمَ الخلْقِ مالي مَن ألوذُ به سواك عند حدوثِ الحادثِ العَمم
إن لم تكن آخذاً يوم المعاد يدي عفواً وإلا فقل يا زلة القدم

عند حلول الحادث العمم: يعني الحادث الذي يعمّ الناس.

يعني: ليس له أحد يلوذ به يوم القيامة؟!! نسي ربه! لا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم قال:

فإن مِن جودك الدنيا وضَرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

جعله يملك الدنيا والآخرة، ولا حول ولا قوة إلا بالله!! ماذا بقي لله؟!! نعوذ بالله من هذا الغلوّ، فهذا غلوّ عظيم في جناب النبي ﷺ.

✦ **الرابعةُ: أنَّ هَذا ليسَ مِنَ الشِّركِ الأكبرِ؛ لقولِهِ: يَمنَعني كَذا وكَذا.**

لأن الشرك الأكبر لا يمكن أن يقر عليه؛ لأن الأنبياء بعثوا للنهي عن الشرك الأكبر في توحيد الله، فالشرك الأكبر ليس فيه سكوت أبداً، بل لا بد أن يظهر النبي ﷺ النهي عنه والتحذير منه، لكن الشرك الأصغر وسيلة، والوسائل في أول الإسلام ما نهي عنها إلا بالتدريج؛ لأنها حماية ووقاية من الشرك الكبر.

✦ **الخامسةُ: أنَّ الرُّؤيا الصَّالحةَ مِنْ أقْسامِ الوَحْيِ.**

✦ **السادسةُ: أنّها قدْ تكونُ سبباً لِشَرْعِ بعض الأحكام.**

كهذه الرؤيا صارت سبباً، فالرؤيا قد تكون سبباً في تشريع

بعض الأحكام، وكما في حديث: «**أَرَى رُؤْيَاكُمْ قَدْ تَوَاطَأَتْ فِي السَّبْعِ الأَوَاخِرِ، فَمَنْ كَانَ مُتَحَرِّيهَا فَلْيَتَحَرَّهَا فِي السَّبْعِ الأَوَاخِرِ**»(١).
لّما رأوا أنها في السبع الأواخر صارت سبباً في شرعية هذا الحكم.

(١) أخرجه البخاري، كتاب فضل ليلة القدر، باب «التماس ليلة القدر»، رقم (٢٠١٥)، ومسلم، كتاب الصيام، رقم (١١٦٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

بَابٌ مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ فَقَدْ آذَى اللَّهَ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] الآيَةَ.

وَفِي الصَّحِيحِ(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ».

وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ»(٢).

الشَّرْح

هذا الباب مناسبته لكتاب التوحيد: أنّ سبّ الدهر يتضمن الشرك بالله ﷻ؛ لأنّ الدهر هو الزمان، وهو الليل والنهار، والله تعالى هو مصرّفه ومقلّبه، فالسبّ إنما يقع على من دبّره؛ ولهذا ذكر المؤلف ﵀ هذا الباب في كتاب التوحيد.

وسبّ الدهر مثل سبّ الزمان، وسبّ الساعة، كما يحصل عند كثير من الناس اليوم، يلعن الساعة، ويلعن الوقت، ولا يدخل في النهي قول: بأن هذا يوم حار أو يوم بارد؛ لأن هذا وصف لليوم، كما قال الله تعالى عن يوسف ﵇: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ ثم قال: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ [يوسف: ٤٧- ٤٨]. ووصفهن بأنهن سبع شداد، فهذا وصف لها وليس سبّاً، وكذلك: ﴿فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾، رقم (٤٨٢٦)، ومسلم، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، رقم (٢٢٤٦).

(٢) لفظة مسلم.

[فُصّلَت: ١٦] السبع الليالي التي أهلك الله فيها قوم هود وصفه بأنهن نحسات، وهذا وصفٌ للأيام وليس سبّاً لها، كذلك قوله: ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝٧٧﴾ [هُود: ٧٧]، فهذا وصفٌ للأيام النحسات التي أصابت قوم هود، وأما السبّ فهو ذمّ الدهر.

فأخذهم الله: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحَاقَّة: ٧] إنما سبّ الدهر أن يسبّ الدهر، كما قال الحريري:

ولا تأمَنِ الدهْرَ الخؤونَ ومَكرَهُ فكمْ خامِلٍ أخْنى عليهِ ونابِهِ[1]

ومثله أن يقول: قُبْحاً لهذه الساعة، قُبْحاً لهذا الدهر.

○ «**وقولُه اللهِ تعالى**: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٢٤﴾ [الجاثية: ٢٤]».

هذه الآية في بيان حال فلاسفة الدهرية، ومن تبعهم من مشركي العرب الذين أنكروا البعث والمعاد، وقالوا: ليس هناك بعث ولا معاد، وإنما هي أقوام تخلف أقواماً، بطون تدفع بالولادة، وأرض تبلع بالموت، ولا رب ولا نشور. هذا مذهب الدهريين، حكى الله مقالتهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾. والواو في قوله ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ ليست للعطف هنا، والمعنى: نحيا ثم نموت. قدّم الموت على الحياة وهم يقولون: نحيا في هذه الدنيا ثم نموت، وليس بعدها حياة.

﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ﴾ يعني: ما يهلكنا إلا مرور الليالي والأيام، وليس هناك بعث ولا جزاء ولا نشور، فأنكروا البعث.

(١) مقامات الحريري (ص: ٢٠٢).

فردّ الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ يعني: ليس لهم دليل على هذا القول؛ أن الدهر هو الذي يهلكهم، ليس لهم دليل لا من الحس، ولا من العقل، ولا من الفطرة، ولا من الشرع، ومن كان هذا شأنه فلا يلتفت إليه في ميزان العلم؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾. فالعلم هو اليقين.

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية: ٢٤]: يتخرّصون تخرّصات وأوهام، والمقالة لا بدّ لها من دليل.

والأدلة إما من العقل، أو من الشرع، أو من الحس، أو من الفطرة، وما لم يكن من غير دليل فهو ظن.

○ ثم ذكر الحديث القدسي قال: وفِي «الصَّحيحِ»: عَنْ أبي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «قالَ اللهُ تعالى: يُؤْذيني ابنُ آدمَ؛ يَسُبُّ الدَّهْرَ وأنا الدَّهْرُ، أُقلِّبُ الليلَ والنهارَ» وفي زيادة: «**بِيَدِي الأَمْرُ**» .«وفي رِوايةٍ: «لا تَسُبُّوا الدَّهْرَ فإنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ» يعني: خالق الدهر، ومصرّف الدهر، والروايات يفسّر بعضها بعضاً، فإنّ الله هو الدهر؛ ولهذا قال الله: «يُؤْذيني ابنُ آدمَ» فيه: أن سبّ الدهر فيه أذية لله، ولكن لا يلزم من ذلك الضرر.

و(الأذيّة) كما قال الخطابي: هي ما خفَّ أمره، وضعف أثره من الشرّ والمكروه[١].

«يُؤْذيني» يعني: يغضبني، هذا فيه إغضاب لله، ولكنّ الله تعالى لا يضرّه أحد من خلقه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٧٦]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ

---

(١) أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري للخطابي (٣/ ١٩٠٤).

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب: ٥٧].

وهذا الحديث حديث قدسي من كلام الله لفظاً ومعنى، يرويه النبي ﷺ عن ربه ﷻ، والحديث القدسي من كلام الله لفظاً ومعنى مثل القرآن، إلا أن له أحكاماً تختلف عن أحكام القرآن.

فالقرآن يتعبّد بتلاوته، ولا يجوز مسّه إلا على وضوء، وهو مُعْجِز، والحديث القدسي ليست له هذه الأحكام؛ فيجوز مسّه بغير وضوء، ولا يُتعبد بتلاوته، وليس مُعْجِزاً.

يقول الله تعالى: «يَسُبُّ الدَّهْرَ» سبّ الدهر فيه محاذير متعددة:

منها: أنّ السبّ إنما يقع على المدبِّر.

ومنها: أنّ سبّ الدهر من كبائر الذنوب، وقد يكون كفراً إذا اعتقد أنّ الدهر هو المتصرِّف.

ومنها: أن فيه أذية لله ﷻ.

وليس الدهر من أسماء الله، وقد غَلَّط العلماء ابن حزم حينما عدّ الدهر من أسماء الله مستدلّاً بهذا الحديث، وهذا غلط(١).

يقول الله تعالى: «وأنا الدَّهْرُ؛ أُقلِّبُ الليلَ والنهارَ» ففسَّر الدهر وقال: أقلِّب الليل والنهار، والليل والنهار هما الدهر، وفي اللفظ الآخر: «**أُقَلِّبُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ**».

ولفظ: «وأنا الدَّهْرُ» تقديره: أن الله خالق الدهر، ومدبّر الدهر، ومصرّف الدهر؛ ولهذا في نفس الحديث قال: «**يُؤذيني ابنُ**

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر (٨/ ٥٧٥) وطرح التثريب في شرح التقريب (٨/ ١٥٦).

آدمَ؛ **يَسُبُّ الدَّهْرَ وأنا الدَّهْرُ أُقلِّبُ الليلَ والنهارَ**». وفي لفظ: «**بيدي الأمر**». وفي لفظ: «**أقلب ليله ونهاره**». وفي رواية: «**لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر**». يعني: خالق الدهر.

وفي هذا الحديث: النهي عن سب الدهر.

وفيه: أنّ في هذا أذية لله، ولكن لا يضرّه أحد من خلقه.

وفيه: أنّ هذا سبّ للدهر ولو لم يقصد معناه.

وسب الدهر مثل: سبّ الساعة،؛ كأن يقول: لعن الله هذه الساعة، لعن الله هذا اليوم، قبَّح الله هذا الوقت، قبَّح الله هذا اليوم، وكما في قول بعض الذين يسبون الدهر كقول المتنبي(١):

قُبحاً لوجهك يا زمان فإنه وجه له من كل قبح برقع

وكما قال الحريري في مقاماته: «ولا تأمن الدهر الخؤون ومكره»(٢)، فوصفه بالخؤون وبالمكر.

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولى: النَّهْيُ عَنْ سَبِّ الدَّهْرِ.

هذا صريح الحديث: «لا تسبوا الدهر» وفيه دليل على تحريم سب الدهر.

الثانيةُ: تَسمِيَتُهُ أذىً للّهِ.

سبّ الدهر فيه أذية لله؛ لكنه لا يضره أحد من خلقه، فهو يُغضب الله.

(١) شرح ديوان المتنبي (ص ٣٥٤) وانظر: البصائر والذخائر (٨/٢٠٦).
(٢) مقامات الحريري (ص ٢٠٢).

- **الثالثةُ: التأمُّلُ في قولِه: فإنَّ اللّهَ هُوَ الدَّهر.**

أي: أن الله هو المراد مصرّف الدهر.

- **الرابعةُ: أنَّهُ قَدْ يكونُ سابّاً وَلَوْ لَمْ يَقْصِدْهُ بقَلْبِهِ.**

فإذا سبّ الدهر وإن لم يقصده بقلبه، فهو سب لله تعالى، فالإنسان مُؤاخَذ بما يتكلم به.

بَابُ التَّسَمِّي بِقَاضِي الْقُضَاةِ وَنَحْوِهِ

فِي الصَّحِيحِ(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَخْنَعَ اِسْمٍ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلَكَ الْأَمْلَاكِ، لَا مَالِكَ إِلَّا اللَّهَ».

قَالَ سُفْيَانُ: مِثْلُ شَاهَانْ شَاهْ(٢).

وَفِي رِوَايَةٍ «أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَخْبَثُهُ»(٣).

قَوْلُهُ: «أَخْنَعُ» يَعْنِي أَوْضَعَ».

الشَّرْح

موضوع هذه الترجمة: النهي عن التسمي بما هو من خصائص الله، باسم خاص بالله؛ ولهذا قال: باب النهي عن التسمي بقاضي القضاة ونحوه. فلا يجوز التسمي باسم خاص بالله؛ لأن هذا فيه مشاركة لله ﷻ، ومن شارك الله في اسمه يوشك أن يأخذه ويهلكه؛ ولهذا لمّا تسمى مسيلمة برحمن اليمامة، لزمه اسم الكذب، فصار لا يُذكر اسمه إلا ويوصف بالكذب، فيُقال: مسيلمة الكذّاب. فلا يجوز التسمي بالرحمن ولا بالخالق، ولا بالرازق، ولا رب العالمين، ولا بحاكم الحكام، ولا بملك الأملاك، أو سلطان السلاطين.

والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تفقّه في هذه الترجمة على طريقة البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ،

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب «أبغض الأسماء إلى الله»، رقم (٦٢٠٦)، ومسلم، كتاب الآداب، رقم (٢١٤٣).
(٢) مسلم، كتاب الآداب، رقم (٢١٤٣).
(٣) أخرجه مسلم، كتاب الآداب، رقم (٢١٤٣).

فكأنه لمّا قرأ حديث: «إِنَّ أَخنَعَ اسمٍ عِنْدَ اللهِ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكُ الأَمْلاكِ، لا مالِكَ إلا اللهُ». قال: هذا نهي عنه، فهل يُقاس عليه غيره؟

فقيل: نعم يُقاس عليه ما ماثله من معناه، مثل: قاضي القضاة، والله تعالى هو قاضي القضاة، وقد يكون قاضي بمعنى رئيس؛ ولهذا يبدل هذا اللقب: "قاضي القضاة" بـ: رئيس القضاة".

وإذا أُضيف إلى البلد فيكون أخف، ويزول المحذور، فإذا قيل: قاضي قضاة الشام، أو قاضي قضاة مصر، أو قاضي قضاة نجد، أو قاضي قضاة السعودية، فلا بأس إذا أضيف؛ لأنه صار مقيّداً.

○ **قوله**: «قَالَ سُفْيَانُ: مِثْلُ شَاهَانْ شَاهْ» يعني: عند العجم، معنى شاهان شاه: هو ملك الأملاك.

شاهان: الأملاك. شاه: ملك. والعجم يقدّمون الموصوف على الصفة.

○ **قوله**: «وَفِي رِوَايَةٍ: «أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَخْبَثُهُ».

«أَخْنَعُ» يَعْنِي: أَوْضَعَ».

(أغيظ) من صفات الله الفعلية، بمعنى البغض، والمعنى: مبغوض عند الله، ومغضوب عليه، فهو بغيض عند الله، ومغضوب عليه؛ ولهذا لمّا تسمى ملك إيران السابق بـ(شاهان شاه) أذلّه الله وأخزاه، وزال عنه مُلْكه، وأُخرج من مُلْكه ذليلاً حقيراً بسبب تسميته بهذا الاسم؛ تحقيقاً لهذا الحديث.

وفيه: النهي عن التسمي بما هو من خصائص الله ﷻ، ويُقاس

عليه ما في معناه كما قال المؤلف: قاضي القضاة، حاكم الحكّام، سلطان السلاطين، وما أشبه ذلك.

فِيهِ مَسَائِلُ:

◂ الأُولى: النَّهيُ عن التَّسَمِّي بمَلِكِ الأَمْلاكِ.

النهي في قوله: «إِنَّ أَخْنَعَ اِسْمٍ عِنْدَ اللَّهِ» ذم وتحقير، وفيه معنى النهي، فكون النبي ﷺ يقول: أخنع وأوضع عند الله، هذا يدلّ على النهي وتحريم التسمي به.

◂ الثّانِيَةُ: أنَّ ما في مَعناه مِثْلُهُ كما قالَ سُفيانُ.

شاهان شاه، وملك الملوك، وسلطان السلاطين.

◂ الثالثةُ: التَّفَطُّنُ للتَّغليظِ في هذا ونَحْوِهِ معَ القَطْعِ بأنَّ القلبَ لَمْ يقْصِد معناهُ.

لقوله: «إِنَّ أَخْنَعَ» هذا فيه تغليظ، ولو لم يقصد.

◂ الرَّابعةُ: التَّفطُّنُ أنّ هذا لإجْلالِ اللهِ سُبْحانَهُ.

لأجل اختصاص الله سبحانه وتعالى به، وعدم المشاركة.

بَابُ احْتِرَامُ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَغْيِيرُ الِاسْمِ لِأَجْلِ ذَلِكَ

عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ أَنَّهُ كَانَ يُكَنَّى أَبَا الْحَكَمِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ». فَقَالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي، فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ، فَرَضِيَ كِلَا الْفَرِيقَيْنِ. فَقَالَ: «مَا أَحْسَنَ هَذَا، فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ؟» قُلْتُ: شُرَيْحٌ وَمُسْلِمٌ وَعَبْدُ اللَّهِ. قَالَ: «فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟» قُلْتُ: شُرَيْحٌ. قَالَ: «فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ[1].

الشَّرْح

هذا الباب عقده المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى لبيان أنه يجب على المسلم أن يحترم أسماء الله، وأن يُغيّر الأسماء التي فيها مشاركة لله تعالى في أسمائه أو صفاته، ما لم يكن من الأسماء التي أُذِن فيها في المشاركة.

○ **قوله**: «عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ أَنَّهُ كَانَ يُكَنَّى أَبَا الْحَكَمِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ».

فأخبره النبي ﷺ أنّ من أسماء الله: الحَكَم، قال: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ» فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الحَكم وإليه الحُكم، يحكم بين عباده بشريعته التي أنزلها على عباده في كتبه المنزلة، وعلى ألسنة رسله، فهو يحكم بينهم بحكمه العدل، وهو يحكم بين عباده يوم القيامة بالجزاء فيجازيهم؛ فمن أسماء الله: الحَكَم، ولهذا قال له النبي ﷺ:

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب «في تغيير الاسم القبيح»، رقم (٤٩٥٥)، والنسائي، كتاب آداب القضاة، باب «إذا حكموا رجلًا فقضى بينهم»، (٨/ ٢٢٦).

«إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ». وفي حديث آخر: «**اللَّهُ حَكَمٌ قِسْطٌ هَلَكَ الْمُرْتَابُونَ**»(١)، أي: عدل، فالله تعالى هو الحَكم بين عباده في الدنيا والآخرة: في الدنيا بشريعته التي أنزلها، وفي الآخرة بجزائه ومجازاته لعباده.

ثم غيّر النبي ﷺ اسمه، «فقال: «فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ؟». قال: شُرَيْحٌ وَمُسْلِمٌ وَعَبْدُ اللَّهِ. قَالَ: «فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟» قُلْتُ: شُرَيْحٌ. قَالَ: «فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ».

ففي هذا الحديث: احترام أسماء الله تعالى وصفاته، ولو لم يقصد الإنسان المعنى.

وفيه: مشروعية تغيير الاسم لأجل احترام أسماء الله وصفاته.

وفيه: مشروعية تكنية الإنسان بأكبر أولاده الذكور، فإن لم يكن له أولاد كُنّي بأكبر بناته، ويجوز تكنية الإنسان ولو لم يكن له أولاد، ولو كان صغيراً، كما كنّى النبي ﷺ صغيراً قال: «**يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ**»(٢). كنّاه وهو صغير.

والكُنية: ما صُدِّر بأبٍ أو أم، مثل: أبو بكر، أبو حفص.

واللقب: ما أشار بمدح أو ذم؛ كالفاروق، والصدّيق، وزين العابدين.

وظاهر الحديث أن الحَكَمَ من أسماء الله، فالنبي ﷺ غيّر اسمه

(١) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب «لزوم السنة» موقوفًا على معاذ بن جبل رضي الله عنه. قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه». «المستدرك» (٤/ ٥٠٧).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب «الانبساط إلى الناس»، رقم (٦٢٠٣)، ومسلم، كتاب الآداب، رقم (٢١٥٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وكنّاه: أبا شريح، فهل بقي هذا أو أنه منسوخ؟

الجواب: يوجد في بعض الصحابة مثل: الحكم بن عمرو الغفاري، حكيم بن حزام، ومن أسماء الله الحكيم أيضاً.

فيحتمل أنّ هذا التغيير منسوخ، أو أن النبي ﷺ غيّره من باب الأولى والأفضل والأحسن، وأنّ هذا ليس بواجب، وأن هذا من الأسماء المشتركة مثل: العزيز، والسميع، والبصير، والحيّ، كل هذه من الأسماء المشتركة؛ فالله تعالى من أسمائه العزيز، والمخلوق يسمى العزيز: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ [يُوسُف: ٥١] من أسمائه السميع والبصير: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾ [الإنسَان: ٢] فيحتمل أن هذا من الأسماء المشتركة، وأن النبي ﷺ غيَّره من باب الأفضل والأولى والأحسن وليس بواجب، أو أنّ هذا التغيير كان أولاً ثم نُسخ، بدليل أن بعض الصحابة فيهم الحكم بن زيد الغفاري، ولم يغيّره، وحكيم بن حزام، وكل هذا محتمل.

ويحتمل أنه إذا نُظر إلى المعنى وأنّ الحَكم على الحقيقة هو الله فيكون خاصاً بالله، وأما إذا نُظر إلى ذات الاسم ولم يُنظر إلى المعنى فلا بأس بإطلاقه على المخلوق، فلا يكون خاصاً بالله.

وعلى كل حال لا شك أن الأولى تغيير الاسم، كما فعل النبي ﷺ.

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولَى: احْتِرَامُ أَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ، وَلَوْ لَمْ يُقْصَدْ مَعْنَاهُ.

تحترم ولو لم يقصد، ولو لمجرد التسمية، فما دام أنه مشارك لأسماء الله وصفاته، فينبغي أن يحترمه، ولا يتسمى به ولو لم يقصد المعنى، ولو لم يقصد أنه يشارك الله في حكمه.

❖ الثَّانِيَةُ: تَغْيِيرُ الِاسْمِ لِأَجْلِ ذَلِكَ.

النبي ﷺ غيّره، وهل: هو على سبيل الوجوب أو على سبيل الاستحباب؟

الجواب: الأقرب أنه للاستحباب؛ جمعاً بينه وبين تركه ﷺ لبعض الأسماء ولم يغيرها، والقاعدة عند أهل العلم: أنه إذا أمكن الجمع بين الحديثين فلا يرجع إلى النسخ، ولا إلى الترجيح، بل يرجع إلى الجمع أولاً، فنسلك مسلك الجمع، فإن لم يمكن الجمع وتعذّر، وعُرف التأريخ فإن المتأخر ينسخ المتقدَّم، فإن لم يُعرف التاريخ، فإنه يُلجأ إلى الترجيح، فإن لم يُعرف الراجح، يتوقف طالب العلم حتى يتبيّن له.

ومسالك العلماء في النصوص المتعارضة:

أولاً: الجمع إن أمكن فلا بد منه.

ثانياً: النسخ إذا عرف المتأخر.

ثالثاً: الترجيح.

رابعاً: التوقّف.

والآن الجمع هنا ممكن: بأن نقول: أنه محمول على الاستحباب، وترك النبي ﷺ لبعض الصحابة ولم يغير أسماءهم محمول على الجواز.

❖ الثَّالِثَةُ: اخْتِيَارُ أَكْبَرِ الأَبْنَاءِ لِلْكُنْيَةِ.

بَابُ مَنْ هَزَلَ بِشَيْءٍ فِيهِ ذِكْرُ اللَّهِ أَوْ الْقُرْآنِ أَوْ الرَّسُولِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: ٦٥] الْآيَةَ.

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ، وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ، وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَقَتَادَةَ - دَخَلَ حَدِيثُ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ -: أَنَّهُ قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلَاءِ؛ أَرْغَبَ بُطُوناً، وَلَا أَكْذَبَ أَلْسُناً، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ. يَعْنِي: رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ الْقُرَّاءَ. فَقَالَ لَهُ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ، لَأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ. فَذَهَبَ عَوْفٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيُخْبِرَهُ، فَوَجَدَ الْقُرْآنَ قَدْ سَبَقَهُ، فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ ارْتَحَلَ، وَرَكِبَ نَاقَتَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَتَحَدَّثُ حَدِيثَ الرَّكْبِ نَقْطَعُ بِهِ عَنَاءَ الطَّرِيقِ.

قَالَ ابْنُ عُمَرَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ مُتَعَلِّقاً بِنِسْعَةِ نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَإِنَّ الْحِجَارَةَ تَنْكُبُ رِجْلَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ. فَيَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [التوبة: ٦٥] مَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ، وَمَا يَزِيدُهُ عَلَيْهِ»(١).

الشَّرْح

هذه الترجمة لم يأتِ فيها المؤلف رحمه الله بجواب الشرط، وتقدير الجواب: من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول فقد كفر.

---

(١) أخرجه الطبري في «التفسير» (١٠/ ١٧٢)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٦/ ١٨٢٩) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(مَن): شرطية، وجوابها محذوف تقديره: فقد كفر، ولم يذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ جواب الشرط على عادة البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تراجمه؛ حتى يتبصّر وينظر طالب العلم ويُدرك الجواب، والتقدير: باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول فقد كفر؛ وذلك لأنّ الهزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول تنقُّصٌ لله أو للرسول أو للقرآن، وسبٌّ لله أو للرسول أو للقرآن، وسخرية بالله أو بالرسول أو بالقرآن، وهذا كفر.

○ **قوله:** «وقَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦]» أثبت لهم الكفر بعد الإيمان، دلّ على أنّ السخرية والاستهزاء بالله وبكتابه وبرسوله رِدّةٌ عن الإسلام.

○ **قوله:** «عن ابنِ عُمَرَ، ومحمدِ بنِ كعبٍ، وزيدِ بنِ أسلمَ، وقَتادةَ - دخَلَ حديثُ بَعْضِهِم في بَعْضٍ - أنَّهُ قالَ رجُلٌ في غَزْوَةِ تَبوك: مَا رَأَيْنا مِثْلَ قُرّائِنا هَؤلاءِ؛ أرغَبَ بُطوناً، ولا أكْذَبَ ألَسُناً، ولا أجْبَنَ عندَ اللِّقاءِ. يَعني: الرسولَ ﷺ وأَصْحَابَهُ القُرَّاءَ».

فهذا رمى النبي ﷺ وأصحابه القراء بكثرة الأكل، والكذب في الحديث، والجُبْن عند اللقاء، فقال: هم أكذب الناس في الحديث، وأكثر الناس أكلاً في الطعام، وأجبنهم عند ملاقاة العدو. فسمع عوف بن مالك الصحابي الجليل «فقال له: كَذَبْتَ، ولَكِنَّكَ مُنَافِقٌ، لأُخْبِرَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ» هذا فيه إخبار ولي الأمر أو قائد الجيش بمقالة المنافقين؛ لأنّ هذا ضرره عظيم، وليس من النميمة في شيء؛ ولكنه من النصيحة.

والفرق بين النميمة والنصيحة: أن النميمة: نقل الكلام من

شخص إلى شخص، أو من جماعة إلى جماعة على وجه الإفساد، والنصيحة: هي إبلاغ ولي الأمر أو غيره بما فيه خطر ومضرّة على الإسلام والمسلمين أو مفرة على الشخص المُبَلَّغ، ولهذا أبلغ عوف بن مالك النبي ﷺ.

«فَذَهبَ عوْفٌ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ لِيُخْبِرَهُ، فَوجَدَ القُرْآنَ قَدْ سَبَقَهُ» وأنزل الله هذه الآية: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

«فَجَاءَ ذَلكَ الرَّجُلُ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَقَدْ ارْتَحَلَ وَرَكِبَ ناقَتَهُ، فقالَ: يا رَسُولَ اللهِ، إنَّما كُنَّا نَخُوضُ ونَتَحَدَّثُ حَدِيثَ الرَّكْبِ نَقْطَعُ بِهِ عَناءَ الطَّرِيقِ. قالَ ابْنُ عُمَر: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ متعلِّقاً بِنِسْعَةِ ناقَةِ رَسولِ اللهِ ﷺ» النسعة: هي الحبل الذي يكون على بطن الناقة «وإِنَّ الحِجَارةَ تَنْكُبُ رِجْلَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّما كُنّا نَخُوضُ ونَلْعَبُ. فيقولُ لَهُ رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦] ما يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ، وما يَزِيدُهُ عَلَيْهِ».

فدل الحديث: على أن السخرية بالله وكتابه ورسوله ردّةٌ عن الدين، والعياذ بالله.

وفيه: دليل على إثبات الكفر لهم بعد الإيمان، قال: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ هم إيمانهم ضعيف، أو أنهم في حيرة وشك، وليس عندهم ثبات واستقرار، كما قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [التوبة: ٤٤-٤٥] ومن كان عنده إيمان ضعيف لا يثبت عند الشدائد والمحن، بل يرتد

على عقبيه، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [الحَجّ: ١١] يعني: ارتدّ، ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ﴾. فهؤلاء ضعفاء الإيمان، أو عندهم حيرة، وعدم ثبات واستقرار، فلمّا حصل ما حصل ارتدّوا عن الإسلام - والعياذ بالله - وتكلموا بهذا الكلام الكُفريّ.

وفيه: دليل على عظم خطر اللسان، وأنه ينبغي للإنسان أن يحفظ لسانه، وأن يحذر من فلتات اللسان، وقد يبرأ الإنسان من عثرة الرجل، ولا يبرأ من عثرة اللسان، وفي الحديث: «**إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ، مَا يَتَبَيَّنُ فِيهَا، يَزِلُّ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ المَشْرِقِ**»[1]. وفي الحديث الآخر: «**إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالاً، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالاً، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ**»[2]. وفي حديث معاذ: **فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»**[3]. وفي

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب «حفظ اللسان»، رقم (٦٤٧٧)، ومسلم، كتاب الزهد والرقاق، رقم (٢٩٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب «حفظ اللسان»، رقم (٦٤٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي، كتاب الإيمان، باب «ما جاء في حرمة الصلاة»، رقم (٢٦١٦)، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب «كف اللسان في الفتنة»، رقم (٣٩٧٣)، وأحمد (٥/ ٢٣١).
قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».
قال ابن رجب معلقًا على قول الترمذي: «وفيما قاله رحمه الله نظر من وجهين...،» فذكرهما. انظر: «جامع العلوم والحكم» (ص ٢٦٩، ٢٧٠).

الحديث أيضاً: أنّ النبي ﷺ قال: «**وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْراً أَوْ لِيَصْمُتْ**»(١). فالواجب الحذر من فلتات اللسان.

وفيه: الردّ على المرجئة الذين يقولون: إن الكفر لا يكون إلا بالقلب؛ لأن في هذا الحديث: أن هؤلاء كفروا بمقالتهم بألسنتهم، أثبت الله لهم الكفر بعد الإيمان بهذه المقالة: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦]. فكانوا مؤمنين ثم كفروا بهذه المقالة، والمرجئة يقولون: لا يكون الكفر إلا بالقلب، ولا يكون الإيمان إلا بالقلب، قالوا: إن الإنسان إذا تكلم بالكفر أو سجد للصنم، لا يكون كافراً حتى يعتقد بقلبه، وهذا باطل.

وقد يكون الكفر بالاعتقاد: كأن يعتقد أن لله صاحبة أو ولداً، أو يجحد مَلَكاً من الملائكة، أو يجحد البعث.

وقد يكون الكفر بالشكّ أيضاً، كأن يشكّ بالبعث أو بالجنة أو بالنار أوفي ربوبية الله.

وقد يكون الكفر بالرفض والترك؛ كأن يُعرض عن دين الله، فلا يتعلم دين الله ولا يعبد الله، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ [الأحقاف: ٣] فيكون كافراً بهذا الرفض والترك.

فالكفر يكون بالقول، ويكون بالفعل، ويكون بالاعتقاد، ويكون بالشك، ويكون بالرفض والترك، فهذه خمسة أشياء كلها يكفر بها.

فالواجب الحذر من الكفر، وتعلم الخير والابتعاد عن أنواع الشرّ؛ حتى يحذرها، كما كان حذيفة بن اليمان رضي الله عنه يقول: **كَانَ**

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره»، رقم (٦٠١٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (٤٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ؛ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي(١).

وفيه: الفرق بين النصيحة والنميمة.

وفيه: أنّ السخرية والاستهزاء بالله، وبكتابه، وبرسوله، وبشيء من دينه، أو ثوابه، أو عقابه، كفر وردّة، كما دلّ عليه الحديث.

فِيهِ مَسَائِلُ:

- **الأُولى وهِيَ العَظِيمَةُ: أنَّ مَنْ هَزَلَ بِهَذا كافِرٌ.**

من هزل بشيء فيه ذكر الله ورسوله فهو كافر، ولو لم يعتقد بقلبه.

- **الثانِيةُ: أنَّ هذا هُوَ تفسيرُ الآيةِ فِيمَنْ فَعَلَ ذلِكَ كائناً مَنْ كانَ.**

أي: ليس خاصّاً بهؤلاء، بل كلّ من شاركهم في أفعالهم فله حكمهم، كلّ من هزل بشيء فيه ذكر الله أو الرسول فهو كافر؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

- **الثالثةُ: الفرقُ بينَ النَّميمةِ والنَّصيحَةِ للهِ ولرسولِهِ.**

ما فعله عوف نصيحة، حينما أخبر الرسول ﷺ وليس نميمة؛ لأن هذا فيه خطر على المسلمين، والسكوت فيه مضرة، أما النميمة فهي نقل الكلام من شخص أو من أشخاص على وجه الإفساد، وعوف ما قصد الإفساد بل قصد الإصلاح، فهذه نصيحة، وليست نميمة.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب «علامات النبوة في الإسلام»، رقم (٣٦٠٦)، ومسلم، كتاب الإمارة، رقم (١٨٤٧) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

❖ **الرَّابِعةُ: الفرقُ بينَ العفوِ الذي يُحِبُّهُ اللهُ وبينَ الغِلْظَةِ على أعداءِ اللهِ.**

الغلطة على أعداء الله مثل هؤلاء، يغلظ عليهم لأنهم يجاهدون ويقاتلون مع النبي ﷺ وهم كاذبون منافقون، أما العفو فهذا ينظر، الإنسان الذي وقع في زلة وهفوة، وهو من أصحاب الهيئات وليست له عادة، هذا محلّ عفو، كما جاء في الحديث: «**أَقِيلُوا ذَوِي الْهَيْئَاتِ عَثَرَاتِهِمْ**»(١). إذا كان له مكانة في المجتمع ثم زلّت به القدم هذا محلّ عفو، يُعفى عنه أو يؤدب أو يوبخ، ولا يرفع به إلى المحكمة، أما إن كان من أصحاب السوابق، فهذا ليس محلّا للعفو؛ لأنك إذا عفوت عنه تمادى وزاد في الشر.

❖ **الخامِسَةُ: أنَّ مِنَ الاعتِذارِ ما لا يَنْبَغِي أنْ يُقْبَلَ.**

مثل اعتذار هؤلاء المنافقين، فهو اعتذار غير مقبول، ما قبله النبي ﷺ.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الحدود، باب «في الحد يشفع فيه»، رقم (٤٣٧٥)، وأحمد (٦/ ١٨١) من حديث عائشة رضي الله عنها.
قال الصنعاني: «وللحديث طرق كثيرة لا تخلو عن مقال». «سبل السلام» (٤/ ٣٨).
وانظر: «ذخيرة الحفاظ» (١/ ٤٤٣) للمقدسي، و«البدر المنير» (٨/ ٧٣٠ - ٧٣٣)، و«التلخيص الحبير» (٤/ ٨٠).

بَابُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ [فُصِّلَت: ٥٠] الْآيَةَ.

قَالَ مُجَاهِد: «هَذَا بِعَمَلِي وَأَنَا مَحْقُوقٌ بِه»(١).

وَقَالَ اِبْنُ عَبَّاسٍ: «يُرِيدُ مِنْ عِنْدِي»(٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القَصَص: ٧٨].

قَالَ قَتَادَةُ: «عَلَى عِلْمٍ مِنِّي بِوُجُوهِ الْمَكَاسِبِ»(٣).

وَقَالَ آخَرُونَ: عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ أَنِّي لَهُ أَهْلٌ»(٤).

وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مُجَاهِدٍ: «أُوتِيتُهُ عَلَى شَرَفٍ»(٥).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ ثَلَاثَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى، فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكاً فَأَتَى الْأَبْرَصَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ، وَجِلْدٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ بِهِ. قَالَ: فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ، فَأُعْطِيَ لَوْناً حَسَناً، وَجِلْداً حَسَناً. قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْإِبِلُ أَوْ الْبَقَرُ - شَكَّ إِسْحَاقُ - فَأُعْطِيَ نَاقَةً

---

(١) أخرجه البخاري معلقًا، كتاب التفسير، باب ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزُّمَر: ٦٨]، سورة حم والسجدة، ووصله الطبري في «التفسير» (٢٥/ ٣).

(٢) ذكره القرطبي في «التفسير» (١٥/ ٣٧٣).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» (٣/ ١٣٤) رقم (٢٦٣٧).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٩/ ٣٠١٢) رقم (١٧١٢٥) عن السدي.

(٥) أخرجه الطبري في «التفسير» (٢٤/ ١٢).

عُشَرَاءَ، وَقَالَ: بَارِكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا. قَالَ: فَأَتَى الْأَقْرَعَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: شَعْرٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذَرَنِي النَّاسُ بِهِ فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ، وَأُعْطِيَ شَعْراً حَسَناً فقَالَ أَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْبَقَرُ أَوْ الْإِبِلُ، فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلاً، قَالَ: بَارِكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا.

فَأَتَى الْأَعْمَى، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: أَنْ يَرُدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي، فَأُبْصِرُ بِهِ النَّاسَ، فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْغَنَمُ، فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِداً، فَأُنْتِجَ هَذَانِ، وَوَلَّدَ هَذَا، فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الْإِبِلِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْبَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَمِ.

قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ قَدْ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي؛ فَلَا بَلَاغ لِيَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ، وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ، وَالْمَالَ؛ بَعِيراً أَتَبَلَّغُ بِهِ فِي سَفَرِي. فَقَالَ: الْحُقُوقُ كَثِيرَةٌ. فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ! أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ، فَقِيراً فَأَعْطَاكَ اللَّهُ ﷻ الْمَالَ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِراً عَنْ كَابِرٍ. فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِباً فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ.

قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِباً فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ.

قَالَ: وَأَتَى الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ، وَابْنُ سَبِيلٍ قَدْ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي؛ فَلَا بَلَاغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؛ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي.

فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي، فَخُذْ مَا شِئْتَ، وَدَعْ مَا شِئْتَ فَوَاللَّهِ لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ لِلَّهِ. فَقَالَ: أَمْسِكْ مَالَكَ؛ فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ، فَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْكَ، وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ». أَخْرِجَاهُ(١).

الشَّرْح

مقصود المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه الترجمة: بيان وجوب شكر نعمة الله تعالى على العبد، وأنه يجب على العبد أن يشكر نعمة الله تعالى؛ بالاعتراف بالنعمة، ونسبتها إلى المنعِم، واستعمالها في مراضيه ومحابّه.

وأركان الشكر ثلاثة:

الأول: الاعتراف بالنعمة بالقلب.

الثاني: نسبتها باللسان إلى المنعِم.

الثالث: استعمالها وبذلها فيما يحبه الله ويرضاه بالجوارح.

وهذه الآية الكريمة فيها بيان حالة الإنسان الكافر، قال الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ [هُود: ٩] أي: الإنسان الكافر، بدليل قوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ﴾ [فُصّلَت: ٥٠] شكّ في البعث، وهذا هو الإنسان الكافر: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ يعني: سعةً، وصحةً، ومالاً، وولداً، وجاهاً، وسلطاناً ﴿مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ [فُصّلَت: ٥٠]: من بعد شدّةٍ، ومن بعد فقرٍ، ومرضٍ، وعدم وجاهة، ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ [فُصّلَت: ٥٠] يعني: ينسبه إلى نفسه، وإلى حوله وقوّته،

(١) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب «حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل»، رقم (٣٤٦٤)، ومسلم، كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٦٤).

وإلى وراثته عن أبيه وجده، وينسى نعمة الله عليه، فلا يعترف لله تعالى بالنعمة، ولا ينسبها إليه، ولا يستعملها في مراضيه ومحابّه، وهذا هو الكافر؛ ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [فُصّلَت: ٥٠] شكّ في البعث، ومن شكّ في قيام الساعة كفر.

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فُصّلَت: ٥٠] يقول: لو قُدِّر أن هناك بعثاً ستكون النعمة التي حصلت لي في الدنيا موصولة بالنعمة في الآخرة، قال الله ردّاً عليه: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ [فُصّلَت: ٥٠] يعني: سوف نسألهم، ونناقشهم، ويحاسبون حساب العذاب، ومن نُوقش الحساب عُذِّب ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٠﴾ [فُصّلَت: ٥٠]: وهو عذاب النار، وعذاب القبر، والأهوال الشديدة في يوم القيامة - نعوذ بالله -.

وقد نقل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أقوال المفسرين وأقوال العلماء:

«قالَ مُجاهِدٌ: هذا بِعَمَلي وأَنا مَحْقوقٌ بِهِ».

تفسير لقوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ [فُصّلَت: ٥٠]. قال مجاهد: هذا بعملي وأنا محقوق به. يعني: هذا الخير الذي حصل له، وهذا الرخاء، وهذا المال، وهذه السعة بعملي وأنا محقوق به. يعني: جدير به، وأهلٌ له.

«وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: يريدُ من عِنْدي».

يعني: هذا حصل من عندي بجهدي، وفكري، وعملي، وقوّتي، ونشاطي، ينكر نعمة الله عليه.

ثم قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القَصَص: ٧٨]» هذه في قصة قارون، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ

أُوْلِي ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾. نصحه قومه خمس نصائح: ﴿لَا تَفْرَحْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [القَصَص: ٧٦]، ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَاۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القَصَص: ٧٧].

ماذا ردّ؟ قال: «﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القَصَص: ٧٨].

قالَ قَتادةُ: «على عِلْمٍ مِنّي بِوجُوهِ المكاسِبِ».

وقالَ آخَرونَ: «عَلى عِلْمٍ مِنَ اللهِ أنّي لَهُ أَهْلٌ».

وهَذا مَعنى قوْلِ مُجاهِدٍ: «أُوتِيتُهُ علَى شَرَف»».

وهذه المعاني كلها داخلة في معنى الآية، هذه بعض المعاني من معاني الآية، وليس من باب الحصر، والعلماء يفسّرون اللفظ ببعض معناه.

فقارون لمّا نصحه قومه وقالوا: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَاۖ﴾ ولا تفرح فرح الأشر والبطر؛ لأن الفرح فرحان: فرح الأشر والبطر، وهذا هو المذموم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [القَصَص: ٧٦] أي: الأشرين البطرين.

أما الفرح بنعمة الله، وفضله، وخيره، والتوفيق للإسلام، وتعليم القرآن، فهذا مطلوب؛ قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يُونس: ٥٨].

فقارن لمّا نصحه قومه قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القَصَص: ٧٨]. كما قال قتادة: على علم منّي بوجوه المكاسب، وقال آخرون: على علم من الله أني له أهل، أو قال: أوتيته على شرف، يعني: ورثت هذا المال كابراً عن كابر، أباً عن جدّ، أنكر نعمة الله وجحدها.

فالواجب على العبد أن يعترف لله بالنعمة، وأن يعلم حقيقة

نفسه، وأنه عبدٌ مربوبٌ مخلوقٌ، وأن كلّ نعمة حصلت فهي من الله: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: ٥٣].

ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، في قصة الأبرص والأقرع والأعمى.

○ **قوله**: «وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: أنَّ ثلاثَةً مِنْ بَني إسرائيلَ: أبْرَصَ وَأَقْرَعَ وأَعْمَى، فأَرادَ اللهُ أنْ يَبْتَلِيَهُمْ» يعني: يختبرهم ويمتحنهم، فالإنسان مُختبر ومُبتلى في هذه الحياة الدنيا: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [المُلك: ٢]. كل إنسان مُبتلى، ما منّا إلا وهو مبتلى، فالصحيح مُبتلىً بصحّته، هل يستعملها في طاعة الله أو في معصيته، والمريض مبتلىً بمرضه هل يصبر أو يجزع، والغني مبتلًى بِغناه هل يشكر أو يكفر، كما قال الله تعالى عن سليمان لمّا جاءه عرش بلقيس: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النَّمل: ٤٠].

وفيه: إثبات الإرادة لله عَزَّ وَجَلَّ، يعني: أراد الله كوناً وقدراً.

والإرادة إرادتان: كونية، وشرعية، فالله أراد أن يبتليهم؛ لما له في عباده من الحِكَم، والابتلاء يخرج منه المُبتلى صافياً كالذهب الإبريز الصافي بعدما يُمتحن ويخلَّص ويصفو، حتى الأنبياء؛ وهم أفضل الناس ابتلاهم الله، إبراهيم الخليل الذي جعله الله خليلاً، ابتلاه الله بالولد، أعطاه الله الولد على الكبر، قيل: إنه ابن مائةٍ وعشرين لمّا جاءه الولد، فلما شبّ وترعرع وتعلّقت به نفسه، وهو في نهاية الكِبَر، وهو الذي يخلفه، أمره الله بذبحه، من يستطيع هذا! فهو كبير السنّ، وآتاه الله الولد على الكبر، وترعرع الصبي وبلغ،

فهو في وقت محبته، ووقت حاجته، فأمره الله بذبحه حتى تصفو خلّته، وحتى يقدِّم محبة الله على محبة الناس؛ لأنه مالت إليه شعبة من قلبه، فالله تعالى أراد أن يخلّصه ويصفّيه، فامتحنه بذبح الولد، فقدّم أمر الله ومحبة الله على محبة الولد، وقال لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ [الصَّافات: ١٠٢]. فأقدم على ذبحه، وأخرج السكين وأضجعه، وأجرى السكين على حلقه، وبذلك ظهر صدقه، الآن نجح في الامتحان، وصدق مع الله، وخلصت محبته لله، وقدّم محبة الله على محبة جميع الناس، ولده أحبّ الناس إليه، فلمّا نجح في الامتحان عند ذلك نسخ الله الذبح، فسلب الله خاصية السكين، فلم تقطعه! سلب الله خاصيتها، كما أنّه سلب خاصية النار التي أُحرق بها إبراهيم فلم تحرقه، فصارت عليه برداً وسلاماً؛ لأنّ الحكمة حصلت، انتهى المقصود، وفداه الله بذبح عظيم، وظهرت الحكمة، ظهرت ظهور عيان، وإلا فالله يعلم حاله، ويعلم ما في نفسه، ويعلم ما سيؤول إليه أمره؛ فصفت محبّته لله ﷻ، وخلصت ونجح في الامتحان، فاتخذه الله خليلاً.

والنبي ﷺ ابتلي بكفار قريش مدّة طويلة، وابتلي باليهود، وابتلي بالنصارى، وابتلي بمن يخرجه، وكُسرت رباعيته يوم أحد، وشُجّ وجهه، وسقط في حفرة، وصرخ الشيطان: إنّ محمداً قد قُتل، وأوذي إيذاءً عظيماً، وكذلك الرسل أولو العزم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أوذي في الله، وكذلك الأنبياء كلهم، والأخيار يُبتلون بعد ذلك؛ ففي السنن من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: «**الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْباً اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ**

رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ البَلَاءُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»(١). والله تعالى ابتلى المؤمنين بالكفار، وشرع الجهاد في سبيل الله، وابتلى الأخيار بالأشرار، وابتلى الفساق والعصاة بالمطيعين، فلا بدّ من الابتلاء والامتحان: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [المُلك: ٢]. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هُود: ٧] يعني: ليختبركم أيكم أحسن عملاً.

فهؤلاء الثلاثة أراد الله أن يبتليهم ويختبرهم، أبرص وأعمى وأقرع ابتلوا بالضراء، ثم ابتلوا بالسراء، ابتلوا أولاً بالفقر والمرض، ثم ابتلوا بالعافية والمال والسعة، فهذا ابتُلي بالبرص والفقر، وهذا ابتُلي بالقرع والفقر، وهذا ابتُلي بالعمى والفقر.

«فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكاً» أرسل الله إليهم ملكاً في صورة رجل.

وهذا فيه: دليل على أنّ الابتلاء قد يكون بواسطة مَلَك، كما حصل للسابقين، أُرسل ملَك في صورة رجل.

«فَأَتَى الأَبرَصَ، فقالَ: أيُّ شَيءٌ أحبُّ إِلَيْكَ؟ قالَ: لَونٌ حَسَنٌ، وجِلْدٌ حَسَنٌ، ويَذْهبُ عَنِّي الَّذي قَدْ قَذِرني النَّاسُ بهِ. قال: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ قَذرهُ؛ فأُعطيَ لوناً حَسَناً، وجِلْداً حَسَناً. قال: أيُّ المالِ أحبُّ إِلَيْكَ؟» الآن جاءت الصحة، وزال المرض «قال: الإِبِلَ أو

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الزهد، باب «ما جاء في الصبر على البلاء»، رقم (٢٣٩٨)، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب «الصبر على البلاء»، رقم (٤٠٢٣)، وأحمد (١/ ١٧٣). وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

وقال الحاكم: «وهذا حديث صحيح على شرط الشيخين». «المستدرك» (١/ ٩٩).

البَقَر - شكَّ إسحاق - فأُعطِيَ ناقةً عُشَرَاءَ» العشراء هي الحامل، لكن قد تكون تسميتها عشراء؛ لأنه مضى عليها عشرة أشهر على حملها «فقال: بارَكَ اللهُ لكَ فِيها» فاستجاب الله دعاء الملك، فأنزل الله فيها البركة، وأنتجت هذا الحمل وتناسلت وكثر، ومضى سنين حتى صار له واد من الإبل.

«قالَ: فأَتَى الأقرَعَ. فقالَ: أيُّ شيءٍ أحبُّ إلَيْكَ؟ قالَ: شَعْرٌ حَسَنٌ، ويَذْهَبُ عَنِّي الّذي قد قَذِرني الناسُ بِهِ. فَمَسَحهُ فَذَهبَ عنْهُ» أي: ذهب عنه ذلك بإذن الله «وَأُعطِيَ شَعْراً حَسَناً» في الحال؛ لأن الله تعالى قدّر ذلك بواسطة مسح الملَك «قالَ: أيُّ المالِ أحبُّ إليْكَ؟ قالَ: البقرُ أو الإبِلُ، فأُعطِيَ بقَرةً حامِلاً. قال: بارَكَ اللهُ لَكَ فيها» دعا الملك له بالبركة، فاستجاب الله دعاءه، فأنتجت وتناسلت وتوالدت، حتى صار له وادٍ من البقر.

«فأَتَى الأَعْمى. فقالَ: أيُّ شَيْءٍ أحبُّ إلَيْكَ؟ قالَ: أن يَرُدَّ اللهُ إلَيَّ بَصَرِي فَأُبْصِرَ بِهِ النَّاسَ. فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللهُ إلَيْهِ بَصَرَهُ. قالَ: فأيُّ المالِ أحبُّ إلَيْكَ. قالَ: الغَنَم. فأُعطِيَ شاةً والِداً» أي: ذات ولد، ويقال: حامل[(١)] «فأنتَجَ هذان» الأبرص والأقرع، يقال: أنتج في البقر والإبل «وولَد هذا» يعني: الأعمى، ومعنى أنتج وولّد: أنه تولّى إنتاجها وولدتا «فكانَ لِهذا وادٍ مِنَ الإبِلِ، ولهذا وادٍ مِنَ البَقَرِ، ولِهذا وادٍ مِنَ الغَنَمِ» ومضت بعد ذلك سنون طويلة، فالأبرص صار له وادٍ من الإبل، والأقرع صار له وادٍ من البقر، والأعمى صار له وادٍ من الغنم.

ثم ابتلوا مرة أخرى بشكر النعمة «قالَ: ثُمَّ إنّه أتى الأَبْرَصَ في

---

(١) فتح الباري لابن حجر (٦/ ٥٠٢).

صُورَتِهِ وهيْئَتِهِ» أي: جاء الملَك في صورة رجل إلى الأول، إلى الأبرص في صورة أبرص يذكره بحالته السابقة، ابتلاءً وامتحاناً، جاءه في صورة أبرص فقير «فقال: رَجُلٌ مِسْكينٌ، وابنُ سَبيلٍ قَد انقَطَعتْ بيَ الحِبالُ في سَفَرِي هذا، فلا بلاغَ لي اليومَ إلا باللهِ ثُمَّ بكَ، أَسْأَلُكَ بالذي أعطاكَ اللَّونَ الحسَنَ، والجِلْدَ الحسَنَ والمالَ، بعيراً أتَبلَّغُ بهِ في سَفَري».

فيه: جواز السؤال بالله، ويؤيده الحديث: «**مَنْ سَأَلَ بِاَللَّهِ فَأَعْطُوهُ**»[(١)].

وفيه: أنّ الإنسان إذا سأل أن يقول: أسألك بالله ثم بك، ولا يقول: بالله وبك، كما قال الملَك، فالملَك تأدّب، وقال: «**فلا بلاغَ لي اليومَ إلا باللهِ ثُمَّ بكَ**» فهذا جائز، أمّا أن يقول: إلا بالله وبك. فهذا شرك، كما قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البَقَرَة: ٢٢]: قول: الرجل لولا الله وفلان، فهذا شرك، ولكن يقول: لولا الله ثم فلان.

جاء الملك في صورة أبرص وفي صورة فقير، والملك يمكن أن يأتي في صورة آدمي، أعطاه الله القدرة، كما أنّ جبريل أتى كثيراً في صورة دحية الكلبي، ولكن الرجل لم يرع نعمة الله وجحدها وأنكرها.

«فقالَ: الحقوقُ كثيرةٌ» أي: إذا أعطيتك أنت وأعطيت الثاني انتهت الأموال.

«فقالَ لهُ: كَأَنّي أعْرِفُكَ؛ أَلَمْ تَكُنْ أبرَصَ يقذُركَ الناسُ، فقيراً فَأَعطاكَ اللهُ المالَ؟ فقال: لا، إنّما وَرِثتُ هذا المالَ كابِراً عنْ كابِرٍ»

---

(١) يأتي في «باب لايرد من سأل بالله».

أي: عن جد، أنكر وجحد نعمة الله - والعياذ بالله - ورثته كابراً عن كابراً، فدعا عليه الملك.

«قال: إنْ كُنْتَ كاذِباً فَصَيَّرَكَ اللهُ إلى ما كُنتَ».

والظاهر أنها استُجيبت دعوة الملك، وأنه عاد أبرصاً وفقيراً - نسأل الله العافية - كما استجيبت دعوته في الأولى لمّا قال: «بَارَكَ اللَّهُ لَكَ» فأنزل الله فيه البركة، فالأقرب - والله أعلم - أنه استجيبت دعوته مرة أخرى، وعوقب، فرجع إلى حالته الأولى.

«قالَ: وأَتى الأَقْرَعَ في صُورَتِهِ وهيئته» أيضاً فقيراً، يُذكره بحالته السابقة.

«فقالَ لهُ مثلَ ما قالَ لهذا وردّ عَلَيْهِ مِثلَ ما ردَّ عليه هذا. فقالَ له: إنْ كُنتَ كاذِباً فصيّرَكَ اللهُ إلى ما كُنْتَ».

«فَقَالَ لَهُ :كَأَنِّي أَعْرِفُكَ! أَلَمْ تَكُنْ أَقْرَعَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ، فَقِيراً فَأَعْطَاكَ اللَّهُ ﷻ الْمَالَ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِراً عَنْ كَابِرٍ. فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِباً فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ»، والظاهر أنها استُجيبت دعوته، فعاد الأقرع فقيراً.

«قال: وأتى الأعْمى في صُورَتِهِ وهيئَتِه». أتاه على هيئة فقير، يذكّره بحالته السابقة.

«فقالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ، وابنُ سبيلٍ قَد انقَطَعَتْ بِيَ الحِبالُ في سَفَرِي» وفي رواية: الجبال. وفي رواية: الحيال. فالمعنى: الطرق، كلها متقاربة في المعنى(١).

«فلا بلاغَ لي اليومَ إلا باللهِ ثُمَّ بكَ. أَسْأَلُكَ بالذي ردَّ علَيْكَ

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر (٦/ ٥٠٢).

بصَرَكَ شاةً أتَبلَّغُ بها في سَفَري. فقالَ: كُنْتُ أعمى فرَدَّ اللهُ عَلَيَّ بَصَري، فَخُذْ ما شِئْتَ، ودعْ ما شِئتَ» ما قال: خذ شاةً واحدةً. قال له: خذ ما شئت من هذا الغنم، ودع ما شئت.

«فَواللهِ لا أجْهَدُكَ اليومَ بِشيءٍ أخَذْتَهُ للهِ. فقالَ: أمْسِكْ مَالَكَ؛ فَإِنَّما ابتُليتُم، فَقَدْ رَضِيَ اللهُ عنْكَ. وَسَخِطَ عَلى صَاحِبَيْكَ» فيه: إثبات الرضا لله والسخط، وهي من الصفات الفعلية على ما يليق بجلال الله وعظمته.

وهذا الحديث فيه: أنّ الأقرع والأبرص جحدا نعمة الله، فلم يعترفا لله تعالى بالنعمة، ولا بقلبيهما، ولم ينسبا النعمة ويضيفاها إلى الله، ولم يستعملا النعمة في مرضاة الله ﷻ، فلم يقوما بشكر النعمة بأركانها الثلاثة، لم يعترفا بنعمة الله، ولم ينسباها إلى الله، ولم يستعملاها في طاعته.

وأما الأعمى فإنه شكر الله، وأتى بالشكر بأركانه الثلاثة، اعترف لله بالنعمة، ونسبها إلى الله، «فقالَ: كُنْتُ أعمى فرَدَّ اللهُ عَلَيَّ بَصَري» وأيضاً استعملها في طاعة الله، أعطاه، «فَخُذْ ما شِئْتَ، ودعْ ما شِئتَ».

فيكون الثلثان كفرا بنعمة الله - هما الأقرع والأبرص -، والثلث شكر نعمة الله - هو الأعمى -، فيصدق على هذا الحديث أنّ أكثر الناس كافر، وليس بشاكر، قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٢٤٣﴾ [البَقَرَة: ٢٤٣]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٧﴾ [هُود: ١٧]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٧﴾ [الأعراف: ١٨٧]، ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سَبَإ: ١٣]، فالقليل هو الشاكر.

فالواجب على كل إنسان أن يشكر نعمة الله ﷻ بقلبه، بأن

يكون معظِّماً لله تعالى، خائفاً، راجياً، محبّاً له، وأن يصدق مع الله، بأن يعترف لله تعالى بالنعمة بقلبه، ويعظِّم الله ﷻ، ويخافه، ويرجوه، ويحبّه ﷻ، ويضيف النِّعم إلى الله ﷻ، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضحى: ١١]. ينسبها إلى الله، إلى المُنْعم ﷻ، ويستعملها في مرضاة الله ومحبته.

فلا بدّ في شكر النعمة من الاعتراف بالنعمة بالقلب، ولابدّ من الاعتراف بالمُنْعِم وهو الله ﷻ، ولابدّ من نسبة النعمة إلى المُنْعم، ولابد من استعمالها في مرضاة الله ومحابه، كما بين ابن القيم رحمه الله تعالى فقال: من لم يعترف بالنعمة لا يكون شاكراً، ومن اعترف بها ولم يعترف بالمُنْعِم لا يكون شاكراً، ومن اعترف بالنعمة والمُنْعِم ولم ينسبها إلى الله لا يكون شاكراً، ومن اعترف بالنعمة والمُنْعِم ونسبها إلى الله، ولم يستعملها في مرضاة الله ومحابه لم يكن شاكراً(١).

والله تعالى هو المُنْعِم بجميع أنواع العبادة، خلقنا وأوجدنا من العدم، ثم منّ علينا بالإيمان وبالإسلام - نسأل الله أن يثبتنا على ذلك حتى الممات - فهذه أعظم نعمة أنعم الله بها على العبد نعمة الإسلام، فالواجب على المسلم أن يغتبط بهذه النعمة ويفرح بها، ويحافظ عليها ويسأل الله الثبات عليها، نسأل الله الثبات على دينه، والاستقامة عليه حتى الممات.

فيهِ مسائل:

- **الأولى: تفسيرُ الآيةِ.**

يعني: آية فصلت: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ [هود: ١٠].

---

(١) انظر: طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٩٥).

❖ **الثّانيةُ: ما معنى:** ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ [فُصّلت: ٥٠].

كما بيّن ونقل عن مجاهد وغيره: هذا بعملي وأنا محقوق به.

❖ **الثّالِثَةُ: ما مَعْنى قولِه:** ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القَصَص: ٧٨].

كذلك كما نقل عن مجاهد وعن غيره: أوتيته على شرف، وعلى علم مني أني له أهل.

❖ **الرابِعةُ: ما في هَذِهِ القِصّةِ العجيبة مِنَ العِبَرِ العَظيمةِ.**

بَابٌ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ [الأعراف: ١٩٠] الآيَةَ

قَالَ اِبْنُ حَزْمٍ: اِتَّفَقُوا عَلَى تَحْرِيمِ كُلِّ اِسْمٍ مُعَبَّدٍ لِغَيْرِ اَللَّهِ؛ كَعَبْدِ عَمْرٍو، وَعَبْدِ اَلْكَعْبَةِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، حَاشَا عَبْدِ اَلْمُطَّلِبِ(١).

وَعَنِ اِبْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لِمَا تَغَشَّاهَا آدَمُ حَمَلَتْ، فَأَتَاهُمَا إِبْلِيسُ، فَقَالَ: إِنِّي صَاحِبُكُمَا اَلَّذِي أَخْرَجَكُمَا مِنَ اَلْجَنَّةِ، لَتُطِيعَانِّنِي أَوْ لَأَجْعَلَنَّ لَهُ قَرْنَيْ إِيِّلٍ، فَيَخْرُجُ مِنْ بَطْنِكَ فَيَشُقُّهُ، وَلَأَفْعَلَنَّ؛ يُخَوِّفُهُمَا، سَمِّيَاهُ عَبْدَ اَلْحَارِثِ، فَأَبَيَا أَنْ يُطِيْعَاهُ فَخَرَجَ مَيِّتاً ثُمَّ حَمَلَتْ فَأَتَاهُمَا، فَذَكَرَ لَهُمَا، فَأَدْرَكَهُمَا حُبُّ اَلْوَلَدِ، فَسَمَّيَاهُ عَبْدَ اَلْحَارِثِ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾. رَوَاهُ اِبْنُ أَبِي حَاتِمٍ(٢).

وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ قَتَادَة قَالَ: شُرَكَاءُ فِي طَاعَتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي عِبَادَتِهِ(٣).

وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾. قَالَ أَشْفَقَا أَلَّا يَكُونَ إِنْسَاناً(٤). وَذَكَرَ مَعْنَاهُ عَنْ اَلْحَسَنِ وَسَعِيدٍ وَغَيْرِهِمَا(٥).

الشَّرْح

مقصود المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الترجمة: وجوب التعبيد في الاسم

(١) انظر: «مراتب الإجماع» لابن حزم (ص ١٥٤).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٦٣٤) رقم (٨٦٥٤).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٦٣٤) رقم (٨٦٥٩)، وكذا الطبري في «التفسير» (٩/ ١٤٧).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٦٣٣) رقم (٨٦٤٨).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٦٣٣) رقم (٨٦٥٠، ٨٦٥١، ٨٦٥٢).

لله، وتحريم التعبيد في الاسم لغير الله، وأنّ التعبيد لغير الله في الاسم محرّم.

○ **قوله**: «قالَ ابنُ حَزْم: اتّفَقُوا عَلَى تَحْرِيمِ كُلِّ اسْمٍ مُعَبَّدٍ لِغَيْرِ اللهِ؛ كَعَبْدِ عَمْرٍو، وَعبدِ الكَعْبةِ وما أَشْبَهَ ذلك، حاشَا عَبْدَ المطَّلِبِ».

المعنى: أجمعوا على تحريم التعبيد لغير الله؛ كعبد عمرو، وعبد الكعبة، وعبد علي، حاشا عبد المطلب، فإنهم لم يجمعوا على تحريمه، وإنما اختلفوا في تحريمه وذلك لأمرين:

الأمر الأول: أن تسمية عبد المطلب ليس من التعبيد لغير الله، وإنما هي من تعبيد الرِّقّ، وذلك أن شيبة الحمد جَدّ النبي ﷺ جاء به عمّه المطلب من أخواله في المدينة مُرْدِفاً إياه، وكانت الشمس قد غيّرت لونه إلى السواد، فلمّا أقبل به إلى المدينة ظنوا أنه عبده، فقالوا: عبد المطلب. فسمي عبد المطلب، وإلا فهو شيبة الحمد ابن أخيه، فغلبت عليه هذه التسمية، فالتسمية هذه ليست من التعبيد لغير الله، وإنما هو تعبيد الرقّ؛ ولأن المراد بها مجرّد الإخبار، وليس المراد التعبير.

والأمر الثاني: أن في الصحابة من اسمه عبدالمطلب؛ كعبدالمطلب بن ربيعة[(١)]، ولم يغيّره النبي ﷺ، فلذلك استُثني عبدالمطلب، وما عاداه فإنه على التحريم.

○ **قوله**: «وعنِ ابنِ عبّاسٍ في الآيةِ».

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ [الأعراف: ١٩٠] وذكر قصة آدم لما تغشى حواء فحملت وفي

---

(١) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (٤/ ٣١٧).

آخرها لما خوفهما سمياه عبدالحارث، وهذه القصة التي رواها ابن عباس من أخبار بني إسرائيل؛ لأن ابن عباس ﭬ ممن يأخذ عن بني إسرائيل، فهي من أخبار بني إسرائيل، ولا تصحّ، وروى هذه القصة أيضاً الإمام أحمد والترمذي(١) عن سمرة، قال الحافظ ابن كثير: إنّ هذه القصة بهذا السند لها ثلاث علل:

العلّة الأولى: عمر بن إبراهيم متكلَّم فيه.

العلّة الثانية: أنه قد روي من قول سمرة نفسه، ليس مرفوعاً.

العلّة الثالثة: أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا، فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعاً لما عدل عنه، فالحسن رُوي عنه خلاف ما دلّت عليه هذه القصة (٢).

وقد يقال أيضاً علّة رابعة: وهي سماع الحسن من سمرة(٣)، فهناك خلاف في سماع الحسن من سمرة، قيل: لم يسمع عنه مطلقاً، وقيل: سمع منه مطلقاً، وقيل: سمع منه حديث العقيقة فقط، لكن على قول بأنه سمع منه تبقى هذه العلل الثلاث، وعلى هذا فتكون هذه القصة من أخبار بني إسرائيل.

---

(١) «مسند أحمد» (٥/ ١١)، وكذا الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب «ومن سورة الأعراف»، رقم (٣٠٧٧).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٢٦).

وقال الترمذي عقب الحديث رقم (٣٠٧٧): «هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم عن قتادة، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه».

وقال ابن عدي: «ولعمر بن إبراهيم غير ما ذكرت من الأحاديث، وحديثه عن قتادة خاصة مضطرب، وهو مع ضعفه يكتب حديثه». «الكامل في ضعفاء الرجال» (٥/ ٤٣).

(٣) انظر: «نصب الراية» (١/ ٨٩)، و«البدر المنير» (٤/ ٦٨، ٦٩).

وذهب الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أنّ هذه الآية ليست في آدم وحواء، وإنما هي في المشركين، وكذلك ذكر هذا ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ قال: إنها في المشركين أو في أهل الكتاب؛ وذلك لأنّ آدم طهّره الله واصطفاه، فكيف يقع في الشرك؟!(١).

وأما الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ فهو استدلّ بالآية، وذكر ما روي في الآية من الآثار، واستفاد من معنى الآية، واستنبط الأحكام بقطع النظر عن صحة هذه القصة أو عدم صحتها، فإن سياق الآية يدلّ على أنّها في آدم وحواء بقطع النظر عن هذه القصة التي رواها ابن عباس، فهي من أخبار بني إسرائيل، فسياق الآية دلّ على أنها في آدم، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هو آدم، ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ هي حواء، ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ يعني: جامعها، ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ يعني: بشراً سويّاً، مستوي الخلقة ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ [الأعراف: ١٨٩-١٩٠] في التسمية، فالحارث هو الشيطان، وعبد الحارث تعبيد له، فالآية في سياق آدم وحواء.

وقوله: ﴿شُرَكَآءَۚ﴾ يعني: في التسمية بعبد الحارث، والشرك في التسمية معصية وليس كفراً، ولا شركاً أكبراً، فهو من الشرك في التسمية؛ ولهذا قال قتادة: شركاء في طاعته، ولم يكن في عبادته، فهما أشركا في التسمية فأطاعاه في التسمية؛ في تسمية عبد الحارث، ولم يطيعاه في العبادة لغير الله ﷻ؛ ولهذا استنبط الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ أحكاماً - من هذه الآية - قال: **تحريم كل اسم معبد لغير الله.**

(١) انظر: روضة المحبّين (ص:٢٨٩).

○ **قوله**: «عَنْ قَتَادَة قَالَ: شُرَكَاءُ فِي طَاعَتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي عِبَادَتِهِ» أي: لكونهما أطاعاه في التسمية بعبد الحارث، لا أنهما عبداه، فهو دليل على الفرق بين شرك الطاعة وبين شرك العبادة، فالذي وقع من آدم وحواء شرك في الطاعة، وليس شركاً في العبادة، وأن الشرك في الطاعة معصية، والشرك في العبادة شرك أكبر، والذي وقع من آدم الشرك في التسمية، فالأنبياء معصومون من الشرك الأكبر، ولكن ليسوا معصومين من المعاصي؛ ولهذا قال الله لنبيه: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفَتْح: ٢]. وقال عن داود: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ (٢٤)﴾ [صٓ: ٢٤]. وقال عن موسى: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ [القَصَص: ١٦]. وإن كان الذي حصل من موسى قبل النبوة.

«أَشْفَقَا أَلَّا يَكُونَ إِنْسَاناً» أي: خافا آدم وحواء ألا يكون إنساناً، كأن يكون بهيمة.

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأولى: تحريمُ كلِّ اسمٍ معبَّدٍ لِغَيْرِ اللهِ.

هذه استنبطها المؤلف رَحِمَهُ اللهُ تعالى من الآية وليس من القصة، القصة ليست صحيحة.

الثانِيةُ: تفسيرُ الآيةِ.

تفسير الآية، وأنها في آدم وحواء، فسياقها واضح: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ آدم، ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ حواء، ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ آدم تغشّى، يعني: جامع حواء، ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا﴾ آدم وحواء، ﴿ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ يعني: بشراً

مستوي الخلقة، ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ بشراً سويّاً، ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَآ﴾ في التسمية، فسمياه عبد الحارث، انتهى الكلام في آدم وحواء، ثم انتقل من الشخص إلى الجنس، فقال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ [الأعرَاف: ١٨٩- ١٩٠] في الذرية.

❖ **الثالثةُ: أنَّ هذا الشِّركُ في مجرَّدِ تَسْمِيةٍ لَمْ تُقْصَدْ حقِيقَتها.**

مجرد التسمية فقط، لا يقصد أنه عبد لغير الله، حاشا وإنما يقصد أنهما أطاعاه في التسمية فقط، أدركهما حُبّ الولد.

❖ **الرابعةُ: أنَّ هِبَةَ اللهِ للرّجُلِ البِنت السّوية مِنَ النِّعَمِ.**

من قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ يعني: بشراً صالحاً، والبشر يقصد به الذكر والأنثى، فإذا وهب الله الإنسان بنتاً سويّة الخلقة ليس فيها عيوب فهذه من النعم، ولو كانت بنتاً؛ لأن الولد يشمل الذكر والأنثى، وهذا أخذه من قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الأعرَاف: ١٩٠] يعني: مولوداً صالحاً. ومعنى ﴿صَٰلِحًا﴾: مستوي الخلقة ليس فيه عيب، والمولود يشمل الذكر والأنثى، فهبة الله للرجل البنت السوية الخلقة ليس فيها عيب من النعم العظيمة.

❖ **الخامسةُ: ذِكْرُ السَّلَفِ الفرْقَ بَيْنَ الشِّركِ في الطّاعَةِ والشِّركِ في العِبادةِ.**

الشرك في العبادة يخرج من الملة، والشرك في الطاعة معصية، فإذا أطاعه، قال له: اشرب الخمر، وأطاعه صار عاصياً، ما يكون كافراً، لكن إذا قال له: اسجد لصنم. ثم أطاعه، كفر.

فرق بين الشرك في العبادة والشرك في الطاعة، إلا إذا أطاعه في التحليل والتحريم كفر.

بَابُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ﴾ [الأعراف: ١٨٠] الْآيَةَ

ذَكَرَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ(١) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ﴾: «يُشْرِكُونَ». وَعَنْهُ: «سَمَّوا اَللَّاتَ مِنَ اَلْإِلَهِ، وَالْعُزَّى مِنَ اَلْعَزِيزِ(٢)». وَعَنِ اَلْأَعْمَشِ: «يُدْخِلُونَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا»(٣).

الشَّرْح

هذا الباب وهو باب قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ﴾ [الأعراف: ١٨٠] مقصود المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الترجمة: إثبات الأسماء الحسنى لله عَزَّ وَجَلَّ، ودعاؤه بها، والحذر من الإلحاد فيها، ووعيد المُلْحدين، والردّ على من توسَّل بأسماء المخلوقين.

وقد ثبت في «صحيح البخاري»(٤) أنّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً، مِائَةً إِلَّا وَاحِداً، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ**». وفي رواية مسلم زاد: «**إِنَّهُ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ**»(٥) فالله تعالى له أسماء كثيرة.

وهذا الحديث المقصود منه: الحثّ على تتبع هذه التسعة

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٦٢٣) رقم (٨٥٨٦) عن قتادة.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٦٢٣) رقم (٨٥٨٤).
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٦٢٣) رقم (٨٥٨٧).
(٤) أخرجه البخاري، كتاب الشروط، باب «ما يجوز من الاشتراط»، رقم (٢٧٣٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.
(٥) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، رقم (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

والتسعين اسماً من النصوص؛ حتى يحصل هذا الفضل، فمن أحصاها دخل الجنة، وليس المراد الحصر، فإنّ أسماء الله ليست محصورة بتسعة وتسعين، بل أسماء الله كثيرة، يدلّ لذلك حديث ابن مسعود: **«أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ»**(١). ففيه أسماء استأثر الله بها في علم الغيب عنده، حتى قال بعضهم: إنّ لله ألف اسم(٢).

ولم تبيّن هذه الأسماء، بل أخفاها الله تعالى؛ حتى يطلبها الناس، ويبحثون عنها، ويتعرفون عليها مِن الكتاب والسنة؛ ليكثر أجرهم، كما أخفى ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان، وكما أخفى ساعة الجمعة.

وإحصاؤها يشمل: عدّها، وتعدادها، وحفظها، وفهم معانيها، ودعاء الله بها، والتوسل إليه بها، والعمل بمقتضاها، فهذه سبعة أشياء.

وهذه الآية الكريمة: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾. فيها بيان أن أسماء الله كلها حسنى، وأنها بالغة في الحُسْن والكمال منتهاه.

وفيها: أمر العباد بأن يتوسّلوا بها، ويتوسّل إلى الله بما يناسب

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٩١) من طريق أبي سلمة الجهني، عن القاسم بن عبدالرحمن، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود، قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم؛ إن سلم من إرسال عبدالرحمن بن عبدالله عن أبيه؛ فإنه مختلف في سماعه عن أبيه». «المستدرك» (١/ ٦٩٠).

وقال الهيثمي: «رواه أحمد وأبو يعلى والبزار، إلا أنه قال: «وذهاب غمي» مكان «همي»، والطبراني، ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني، وقد وثقه ابن حبان». «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٣٦).

(٢) انظر: زاد المعاد (١/ ٨٦)، وفتح الباري (١١/ ٢٢٠).

حاجته، يا رحمن ارحمني، يا غفار اغفر لي، يا رزاق ارزقني، يا توّاب تُبْ عليّ، يتوسّل إلى الله بما يناسب حاجته.

وفيها: الوعيد على المُلْحدين، قال: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠] ذروا: اتركوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ، ثم توعدهم فقال: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ هذا وعيد للمُلْحِدين، سيجزون على إلحادهم، وسيجزون بعملهم.

والإلحاد: هو الميل والجور عن القصد، ومنه سُمّي اللحد لحداً؛ لميله عن الحفرة إلى جهة القبلة، إذا حُفر القبر للميت فإنّه يُحفر اللحد من جهة القبلة، فسمي لحداً؛ لكونه مائلاً عن سمت القبر.

ومادة (ل - ح - د) تدلّ على الميل والعدول عن الجادة والصواب، والجَور الظلم.

والإلحاد في أسماء الله تعالى أنواع:

منها: إنكارها وجحدها.

ومنها: إنكار حقائقها ومعانيها وتعطيلها.

ومنها: تسمية المخلوقين بأسماء الله، كما يقوله أهل الاتحاد، فالاتحاديون يقولون: إن هذه الأسماء كلها أسماء لمخلوقاته، سواء كانت ممدوحة أو مذمومة.

ومنها: الميل بها عن جهة الصواب، وتأويلها بالتأويلات الباطلة.

ومنها: تسمية الله أباً كالنصارى، فهذا من إلحاد النصارى، يسمون الله أباً، والأب والابن وروح القدس.

ومنها: تسميته علة، كالفلاسفة الذين يسمونه العلّة الغائيّة لحركة الفلك.

فيهِ مسائل:

- الأولى: إثباتُ الأَسماءِ.

خلافاً لمن ألحد فجحد أسماء الله، إنها أسماء، وخلافاً لمن قال: إنها لا معنى لها، أو قال: إنها أسماء لمخلوقين.

- الثانِيَةُ: كوْنها حُسنى.

جمع لأحسن، فأسماء الله بالغة في الحسن منتهاه.

- الثالثةُ: الأمرُ بِدُعائِهِ بها».

كما تقدم في دعاء الله بها، والتوسل إليه بها.

- الرابعةُ: تَرْكُ مَنْ عارَضَ مِنَ الجَاهِلينَ الْمُلحِدينَ.

أي: البعد عن سبيلهم ونفيه وإنكاره، كما في قوله سبحانه: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

- الخامسةُ: تفسيرُ الإلحادُ فيها.

بما أورده المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وكذلك عن الأعمش، وتقدم ذكره.

- السّادِسَةُ: الوَعِيدُ لِمَنْ الحَدَ.

وذلك في قوله تعالى: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠].

بَابٌ لَا يُقَالُ: اَلسَّلَامُ عَلَى اَللَّهِ

فِي «اَلصَّحِيحِ»(١) عَنِ اِبْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ اَلنَّبِيِّ ﷺ فِي اَلصَّلَاةِ؛ قُلْنَا: اَلسَّلَامُ عَلَى اَللَّهِ مِنْ عِبَادِهِ، اَلسَّلَام عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ، فَقَالَ اَلنَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَقُولُوا: اَلسَّلَام عَلَى اَللَّهِ؛ فَإِنَّ اَللَّهَ هُوَ اَلسَّلَامُ»».

الشَّرْح

مقصود المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الترجمة: المنع من قول: السلام على الله؛ لأن الله يُدعى، ولا يُدعى له، فهو المسلِّم لعباده وعلى عباده، وهو الكامل في ذاته وأسمائه وصفاته، وهو النافع الضار، فلا يحتاج إلى أحد، فالذي يُسلَّم عليه هو الضعيف، هو المحتاج، والله عَزَّ وَجَلَّ لا يحتاج إلى أحد، الله تعالى لا يُدعى له، فليس فوقه أحد حتى يدعو له، والذي يُدعى له هو المحتاج الذي فوقه من هو أكمل منه، أما الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فليس فوقه أحد، فلا يُدعى له لكن يُدعى هو.

والسلام: اسم مصدر، سلَّم يُسلِّم تسليماً، المصدر التسليم، وهو دعاء وثناء، متضمن للخبر والإنشاء.

وفي معنى السلام قولان لأهل العلم:

القول الأول: أن السلام هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والمعنى السلام عليكم: نزلت بركته عليكم.

القول الثاني: أن السلام مصدر بمعنى الدعاء.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب «التشهد في الآخرة»، رقم (١٢٠٢)، ومسلم، كتاب الصلاة، رقم (٤٠٢).

السلام اسم الله ﷻ، أو دعاء بالسلامة، فيكون مصدراً بمعنى الدعاء بالسلامة، فهذه التحية التي يلقيها المسلم على أخيه، هي تحية المؤمنين، فالسلام تحية المؤمنين في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ﴾ [الأحزاب: ٤٤]. السلام هو الله نزلت بركته عليكم، أو دعاء بالسلامة، وهو المطلوب بالتحية.

والسلام من خصائص المؤمنين مع ما أكرمهم الله تعالى به في الدنيا والآخرة، ولا تلقى هذه التحية على الكافر؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**لَا تَبْدَءُوا الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَى بِالسَّلَامِ، فَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ فَاضْطَرُّوهُ إِلَى أَضْيَقِهِ**»(١) فلا يلقى السلام على الكافر لا ابتداءً ولا ردّاً، فلا يقال للكافر: السلام عليكم. وإنما يقال: السلام على من اتبع الهدى. وكتب النبي ﷺ إلى هرقل: «**سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ**»(٢)، فلا يسلم عليهم ابتداءً، وإذا سلموا فيقول: وعليكم ولا يكمِّل، وعليكم تردّ تحيتهم عليهم، قال ﷺ: «**إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَقُولُوا: وَعَلَيْكُمْ**»(٣).

وإذا احتاج إلى أن يقابل الكافر بذلك يسأله: كيف حالك يا فلان، يا أبا فلان كيف حالك، كيف أنت أو صباح الخير أو مساء الخير، ولا يقول: السلام عليكم، فالسلام تحية شريفة عظيمة خاصة بالمؤمنين.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب السلام، رقم (٢١٦٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الاستئذان، باب «كيف يرد على أهل الذمة السلام؟»، رقم (٦٢٥٨)، ومسلم، كتاب السلام، رقم (٢١٦٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وعلى هذا يكون معنى السلام، إما أن يُقال السلام: اسم من أسماء الله، أو أنه مصدر بمعنى السلامة.

فِيهِ مَسَائِلُ:

- الأولى: تَفسيرُ السَّلامِ.

تفسير السلام وأن له معنيين: أن السلام اسم الله بمعنى: نزلت بركته عليكم، أو دعاء مصدر بمعنى السلامة، وهو المطلوب في التحية.

- الثَّانِيةُ: أنّهُ تحِيَّةٌ.

تحية المؤمنين في الدنيا وفي الجنة.

- الثَّالِثَةُ: أنَّها لا تَصْلُحُ للهِ.

ما يُلقى السلام على الله، ولا يقال: السلام على الله؛ لأن الله يُدعى ولا يُدعى له.

- الرّابعةُ: العِلَّةُ في ذلِكَ.

هذه العلة أنه يُدعى ولا يُدعى له.

- الخامِسَةُ: تَعليمُهُم التَّحِيَّةَ الّتي تصْلُحُ للهِ.

التحيات لله والصلوات والطيبات قال: «**لَا تَقُولُوا: السَّلَامُ عَلَى اللهِ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ، وَلَكِنْ قُولُوا: التَّحِيَّاتُ للهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ**». هذه التحية.

بَابُ قَوْلُ: اَللَّهُمَّ اِغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ

فِي «اَلصَّحِيحِ»(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: اَللَّهُمَّ اِغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اَللَّهُمَّ اِرْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، لِيَعْزِمِ اَلْمَسْأَلَةَ؛ فَإِنَّ اَللَّهَ لَا مُكْرِهَ لَهُ».

وَلِمُسْلِمٍ(٢): «وَلْيُعَظِّمْ اَلرَّغْبَةَ؛ فَإِنَّ اَللَّهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ».

الشَّرْح

هذا الحديث قصد به المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: النهي عن الاستثناء في الدعاء، وعدم تقييد المغفرة بالمشيئة، والأمر بعزم المسألة؛ لأمرين:

الأمر الأول: أن الله لا مكره له، وأن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه.

الأمر الثاني: أن الاستثناء في الدعاء وتقييد المغفرة بالمشيئة؛ يُشعر بعدم الرغبة، وعدم الحاجة إلى المسئول عنه، وأن حاجته إليه ضعيفة، وأن وجوده وعدمه مستويان، إن حصل أو لم يحصل فالأمر سيَّان.

وهذا لا يتناسب مع حاجة العبد الشديدة إلى ربه، وعدم

(١) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب «ليعزم المسألة فإنه لا مكره له»، رقم (٦٣٣٩).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، رقم (٢٦٧٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

استغنائه عنه، وكمال فقره، وأنه لا يستغني عن ربه طرفة عين، ولا يتناسب مع كمال غنى الرب ﷻ، وكمال كرمه وجوده وإحسانه.

ولهذا قال النبي ﷺ في هذا الحديث: «**لا يَقُولَنَّ أحَدُكُمْ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي إنْ شِئْتَ، اللهُمَّ ارْحَمنِي إنْ شِئْتَ. لِيعْزِمِ الْمَسْأَلةَ؛ فإنَّ اللهَ لا مُكْرِهَ لَهُ**». وفي رواية لمسلم: «**وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ؛ فَإِنَّ اللهَ لا يَتَعاظَمُهُ شَيْءٌ أعْطاهُ**».

وفي هذا الحديث من الفوائد:

النهي عن الاستثناء في الدعاء.

وفيه: الأمر بعزم المسألة.

وفيه: بيان تعليل هذا الحكم وهذا النهي؛ وهو أن الله لا مكره له، لا يتعاظمه شيء أعطاه.

وفيه: الأمر بإعظام الرغبة.

فِيهِ مَسَائِلُ:

- **الأولى: النَّهْيُ عَنِ الاستِثْناءِ في الدُّعاءِ.**

النهي عن الاستثناء في الدعاء فلا يقول: إن شئت، بل يجزم ويقول: اللهم اغفر لي، اللهم ارحمني؛ لأن هذا كما سبق:

أولاً: أن الله لا مكره له.

والثاني: أنه يدل على أن السائل غير مهتم بسؤاله، وأنه إن حصل أو لم يحصل فهما متساويان، وهذا لا يليق بكرم الرب ﷻ، وأنه أجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، ولا يليق بفقر العبد وحاجته إلى الله، فلا ينبغي للإنسان أن يستثني.

- **الثّانِيةُ: بَيانُ العِلَّةِ في ذلِكَ.**

العلة لأن الله لا مكره له، بينها في الحديث: «فإن الله لا مكره له، وإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه».

- **الثّالِثةُ: قولُه: لِيعْزِمِ الْمَسْأَلةَ.**

يعزم ويجزم ولا يستثني.

- **الرّابِعةُ: إعْظامُ الرَّغْبَةِ.**

كما في قوله: «ولْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ».

- **الخامِسَةُ: التعليلُ لهذا الأَمْر.**

التعليل في قوله: «فَإِنَّ اللهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أعْطَاهُ».

بَابُ لَا يَقُولُ: عَبْدِي وَأَمَتِي

فِي «اَلصَّحِيحِ»[١] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ، وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي وَمَوْلَايَ، وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وَأَمَتِي، وَلْيَقُلْ: فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي».

الشَّرْح

○ **قوله:** «بابٌ لا يَقولُ: عَبْدِي وأَمَتي».

مقصود المؤلف ﵀ بهذه الترجمة: نهي السيد أن يقول لعبده: عبدي وأمتي، ونهي العبد أن يقول لمولاه: سيدي ومولاي، ونهي أن يُقال للعبد: أطعم ربك، وضِّئ ربك؛ لما فيه من الإيهام بالمشاركة في الربوبية، فنهي عنه أدباً مع جناب الربوبية، وحماية لجناب التوحيد.

واختلف العلماء في هذا النهي: هل هو للتحريم أو للتنزيه؟ على قولين، واختُلف أيضاً في الجمع بين هذا الحديث: «**لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ**»، مع قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه عمر بن الخطاب ﵁ في أشراط الساعة قال: «**أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا**»[٢]. وفي قوله تعالى عن يوسف: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ [يوسف: ٢٣] أي: أطلق على السيد رباً.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب العتق، باب «كراهية التطاول على الرقيق»، رقم (٢٥٥٢)، ومسلم، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، رقم (٢٢٤٩).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، رقم (٨) من حديث عمر بن الخطاب ﵁.

فقيل في الجمع بينهما:

الوجه الأول: أن قوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ [يُوسُف: ٢٣] هذا في شرع من قبلنا، وفي هذا الحديث: «**لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ**» في شرعنا، ففي شرع من قبلنا كان ذلك جائزاً، أن يقول أحدهم: ربي، أما في شرعنا - وهي الشريعة الكاملة - فالله تعالى نهى عن ذلك على لسان رسوله ﷺ.

الوجه الثاني: أن النهي محمول على التنزيه، فقوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾.

الوجه الثالث: أن الجواز خاص في الأنثى «**رَبَّتَهَا**»، والمنع إنما هو في الذكر ﴿رَبِّيٓ﴾ ، فيكون ممنوعاً في الذكر أن يقول: ﴿رَبِّي﴾؛ لما فيه من الإيهام بالمشاركة في الربوبية، ويكون جائزاً في الأنثى: «**رَبَّتَهَا**»؛ لزوال المحذور، فيكون في الذكر ممنوعاً، وفي الأنثى جائزاً.

الوجه الرابع: أن حديث «**أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا**»، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ من باب الخبر والوصف، بخلاف قوله: «**أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ**»، فهو من باب التسمية، وباب التسمية من بابِ الإنشاء، وبابُ الخبر والوصف يُتوسع فيه ما لا يُتوسع في الإنشاء.

الوجه الخامس: أن الجواز محمول على الإضافة، والمنع في الإطلاق، فإذا أضاف فقال: (ربي)، فهذا محمول على الإضافة، وقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ﴾ [النُّور: ٣٢] أضاف فلم يطلق، والنهي محمول على الإطلاق، فـ«الرب» يطلق على الله، وهذا اختيار البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيحه»، واستدل بقوله: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ﴾، فإذا كان بالإضافة فهو جائز ويُعبد به، فيقال:

عبد الرب، كما قال في الآية: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾، وإذا كان بغير إضافة فهو ممنوع.

الوجه السادس: أن النهي محمول على الإكثار من ذلك، وأن يكون الأغلب، فالنهي محمول على ما إذا أكثر من قول: ربي، وعبدي، وأمتي، أما إذا لم يكثر من ذلك وقاله في بعض الأحيان فلا بأس، فيكون النهي محمولاً على الكثرة والغلبة، والجواز محمولاً على ذكره في بعض الأحيان.

فهذه كلها أقوال قيلت فيها، والأقرب - والله أعلم - قولان:

الأول: أن النهي محمول على التنزيه، والإطلاق محمول على الجواز.

الثاني: أن المنع في الإطلاق، والجواز في الإضافة، مع اختلاف النهي، فالنهي في الإطلاق نهي تحريم، بخلاف النهي مع الإضافة فهو للتنزيه.

فِيهِ مَسَائِلُ:

- **الأُولى: النَّهْيُ عَنْ قَوْلِ: عَبْدي وَأَمَتي.**

النهي أن يقول: عبدي وأمتي، هذا النهي للأدب والتنزيه.

- **الثَّانِيةُ: لا يَقولُ العَبدُ: رَبِّي، وَلا يُقالُ لَهُ: أَطْعِمْ رَبَّكَ.**

وكذلك لا يقول العبد: ربي، ولا يقال له: أطعم ربك، من باب التنزيه.

- **الثَّالِثَةُ: تعليمُ الأَوَّلِ قولَ: فَتايَ وفَتاتِي وغُلامِي.**

تعليمه بدل أن يقول: عبدي وأمتي، بأن يقول بدلها: فتاي وفتاتي وغلامي.

❖ **الرَّابِعةُ: تعليمُ الثَّانِي قولَ: سَيِّدي ومَوْلايَ.**

تعليم الثاني بدل أن يقول: ربي. يقول: سيدي ومولاي.

❖ **الخامِسَةُ: التَّنْبيهُ للمرادِ وهُوَ تحقيقُ التَّوحيدُ حتّى في الألْفاظِ.**

فتحقيق التوحيد حتى في الألفاظ، وهذا من مناسبة الباب للترجمة.

بَابٌ لَا يُرَدُّ مَنْ سَأَلَ بِاللَّهَ

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ، وَمَنِ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِيذُوهُ، وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ؛ وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفاً فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ، فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالنَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ[1].

الشَّرْح

○ **قوله**: «بَابٌ لَا يُرَدُّ مَنْ سَأَلَ بِاللَّهَ»

مقصود المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بهذه الترجمة: تعظيم الله وإجلاله أن يُسأل به في شيء ثم لا يجاب السائل إلى سؤاله ومطلوبه.

وهذا الحديث اشتمل على جملة من الأوامر:

الجملة الأولى: إعطاء السائل.

الجملة الثانية: إعاذة المستعيذ.

الجملة الثالثة: إجابة الدعوة.

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الزكاة، باب «عطية من سأل بالله»، رقم (١٦٧٢)، والنسائي، كتاب الزكاة، باب «من سأل بالله ﷻ»، (٥/ ٨٢)، وأحمد (٢/ ٦٨) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين، ولم يخرجاه للخلاف الذي بين أصحاب الأعمش فيه». «المستدرك» (٢/ ٧٣).

وقال النووي: «حديث صحيح، رواه أبو داود والنسائي بإسناد الصحيحين». «المجموع» (٦/ ٢٤١).

الجملة الرابعة: المكافأة على الصنيعة.

الجملة الخامسة: الدعاء عند عدم القدرة على المكافأة.

الجملة السادسة: قوله: حتى تروا أنكم قد كافأتموه.

أما الجملة الأولى: وهي إعطاء السائل سؤله قال: «مَنْ سأَلَ باللهِ فَأَعْطوهُ» هذا أمر، والأصل في الأوامر الوجوب، ويدل على وجوب إعطاء السائل سؤله، وأن من سأل بالله فإنه يعطى ويجاب سؤاله ويعطى ما سأل؛ تعظيماً لله وإجلالاً له.

لكن هذا مقيد بما إذا لم يسأل شيئاً لا يحق له سؤاله؛ لأن النصوص يضم بعضها إلى بعض، فإذا سأل شيئاً لا يحق له سؤاله فلا يجاب سؤاله، فإذا سأل من الزكاة وهو غني فلا يعطى؛ لأنه سأل ما لا يحق له سؤاله، وإذا سأل شيئاً لا يحل له، سأل أن يعطى مالاً لا يحل له، سألك أن تعطيه مال فلان أو مال زيد أو مال الأيتام، فلا يعطى؛ لأنه سأل شيئاً لا يحق له، سأل أن يوصى له بالتركة وهو وارث فلا يجاب؛ لأنه لا يجوز أن يوصى لوارث.

فيجاب سؤال السائل تعظيماً لله وإجلالاً له إذا سأل بالله، وقال: أسألك بالله أن تعطيني وهو مضطر، فيعطى ما يدفع ضرورته، ولو كان الإنسان ليس عنده مال، أو كان عنده أقل من الكفاية، فتعطيه وتدفع ضرورته، أما إذا سأل من عنده فضل مال فيعطيه بعض الشيء، وكذلك إذا سأل حقاً له من بيت المال، أو حقّاً له من الإرث، أو حقّاً له في الزكاة وهو مستحق، أو حقّاً له في مال، فإنه يعطى في هذه الحالة، فمن سألك أن تعطيه حقه، أو تقضيه دينه، أو تدفع عنه مظلمة الظالم وأنت تستطيع، فيجب أن تعطيه سؤله؛ تعظيماً لله تعالى وإجلالاً.

والله تعالى أمر بالإنفاق؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [البَقَرَة: ٢٦٧]، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البَقَرَة: ٢١٩] أي الفضل، قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٧٤]. وقال عليه الصلاة والسلام: «**مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ العِبَادُ فِيهِ، إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكاً تَلَفاً**»(١). وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سَبَإ: ٣٩]. فهذه الأدلة التي تدل على الإنفاق عامة، ومن سأل بالله يدخل فيها دخولاً أوليّاً.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَثَلَ البَخِيلِ وَالمُتَصَدِّقِ، كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ، قَدِ اضْطُرَّتْ أَيْدِيهِمَا إِلَى ثُدِيِّهِمَا وَتَرَاقِيهِمَا، فَجَعَلَ المُتَصَدِّقُ كُلَّمَا تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ انْبَسَطَتْ عَنْهُ، حَتَّى تَغْشَى أَنَامِلَهُ وَتَعْفُوَ أَثَرَهُ، وَجَعَلَ البَخِيلُ كُلَّمَا هَمَّ بِصَدَقَةٍ قَلَصَتْ، وَأَخَذَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ بِمَكَانِهَا**». **قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَأَنَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ بِإِصْبَعِهِ «هَكَذَا فِي جَيْبِهِ، فَلَوْ رَأَيْتَهُ يُوَسِّعُهَا وَلَا تَتَوَسَّعُ**»(٢). فهذه الجبة كلما أنفق المتصدق فإنها تتوسع حتى تستر جسده، وحتى تعفو أثره، وأما البخيل إذا هَمَّ بالإنفاق قلصت الجبة عليه. فلا تتوسع حتى تلتصق بجلده.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب «قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾﴾ [اللَيْل: ٥-٦]، رقم (١٤٤٢)، ومسلم، كتاب الزكاة، رقم (١٠١٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب اللباس، باب «جيب القميص من عند الصدر وغيره»، رقم (٥٧٩٧)، ومسلم، كتاب الزكاة، رقم (١٠٢١).

الجملة الثانية: «مَنِ اسْتعاذَ باللهِ فأَعِيذوهُ» فيها دليل على أنه يُعاذ بمن استعاذ بالله؛ تعظيماً لله تعالى وإجلالاً له، فإذا استعاذ من شيء فإنه يعاذ، أعيذك بالله أن تظلمني، أعيذك بالله أن تُلزمني هذا الشيء، فلا يلزم بهذا الشيء، ولما أدخلت ابنة الجون على النبي ﷺ قَالَتْ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ، فَقَالَ: «قَدْ عُذْتِ بِمَعَاذٍ»[١]. فأعاذها وطلقها، فإذا استعاذ بالله فإنه يُعاذ؛ تعظيماً لله تعالى وإجلالاً له، استعاذ أن يولَّى عملاً وهو يشق عليه، فيُعاذ فلا يولَّى هذا الأمر، إلا إذا استعاذ من شيء منع منه الشرع أو من شيء ألزمه به الشرع، فمثلاً: وجب عليه الحد ثم استعاذ بالله أن لا يُقام عليه الحد، فيُقام عليه الحد؛ لأن هذه الإستعاذة بالله مقيدة بما لم يمنع منه الشرع، والنصوص يُضم بعضها إلى بعض، فإذا قال للقاضي: أعوذ بالله أن تُقيم عليّ الحد، ما يعيذه، بل يُقيم عليه الحد، إذا ثبت عليه الحد، وإلا لو كان على إطلاقه كان كل من أراد أن يبطل الحق الذي عليه قال: أعيذك بالله.. وهكذا.

الجملة الثالثة: قال: «ومَنْ دعاكُمْ فأجِيبوهُ» فيه: إجابة الدعوة، وهو دليل على إجابة دعوة أخيك إذا دعاك.

ومن العلماء من خص الوجوب بدعوة العرس، قال: من دعاك لوليمة العرس تجب الإجابة، وما عداها من الدعوات فهي مستحبة، هذا الذي ذهب إليه الجمهور، قالوا: إجابة الدعوة في وليمة العرس واجبة، وفي غيرها مستحبة.

وظاهر الأدلة العموم ما لم يمنع مانع، إذا منع مانع أو كان لا يستطيع، فله أن يعتذر من أخيه فيقبل عذره.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الطلاق، رقم (٥٢٥٥) من حديث أبي أسيد الساعدي رضي الله عنه.

فإذا وجد مانعاً من إجابة الدعوة كأن يكون هناك منكر ولا يستطيع إزالته، أو وجد منكراً وأنكر فلم يزل المنكر فإنه ينصرف، أو كان هناك مشقة أو ضرر مثل السهر الكثير الذي يضر به وبصحته، ويؤثر عليه في صلاة الفجر أو في ورده أو غير ذلك، فهذا عذر له؛ لأن بعض الدعوات يحصل فيها تأخير كثير، بعضها بعد منتصف الليل أو الساعة الواحدة أو الساعة الثانية وبعضها إلى الثالثة، سمعت أن في بعض الدعوات في الحجاز ما يأتي الناس إليها إلا بعد الساعة الثانية عشرة ليلاً! وبعضهم ما يأتي إلا الساعة الواحدة، يجلسون في بيوتهم بعد العشاء أربع ساعات أو ثلاث ساعات ثم تكون إجابة الدعوة بعد الساعة الواحدة أو الساعة الثانية! فهذا فيه ضرر عظيم.

ولا يلزم الأكل، إذا دعاه إلى وليمة يأتي، فإذا كان لا يستطيع الأكل أو يشق عليه الأكل أو محتجماً أو منعه طبيب من أنواع من الأكل فلا يأكل، أو كان صائماً فإنه يأتي ويدعو لهم وينصرف، ولهذا جاء في الحديث ما معناه: «**إذا دعي أحدكم فليجب، فإن كان مفطراً فليطعم، وإن كان صائماً فليصل**». يعني: فليدعو لهم ولينصرف.

الجملة الرابعة: قال: «وَمَنْ صنَعَ إِلَيْكُمْ مَعروفاً فَكَافِئوهُ» كان النبي ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها، فإذا صُنع إليك معروف فإنك تكافئه وتثيبه عليها، وإلا فلا تقبل الهدية، إلا إذا كان صاحب الهدية لا يريد الإثابة عليها فلا بأس؛ لأن الهدية نوعان:

هدية يريد صاحبها الإثابة، هذه حكمها حكم البيع، إذا قبلت الهدية، فهو يعطيك الهدية ويريدك أن تعطيه مثلها أو أكثر، فهذه الهدية ينبغي للإنسان أن يثيب عليها، وإلا فلا يأخذها مطلقاً؛

لقوله: «ومَنْ صنَعَ إلَيْكُمْ مَعروفاً فَكَافِئوهُ».

أما الهدية التي لا يريد صاحبها الإثابة عليها فهذا لا بأس.

الجملة الخامسة: أن الدعاء يقوم مقام المكافأة، عند عدم القدرة على المكافأة يدعو له، ولهذا قال: «فإنْ لَمْ تَجِدوا ما تُكافِئوهُ فادْعوا لَهُ» فالدعاء يقوم مقام المكافأة على الصنيعة عند عدم القدرة على المكافأة.

الجملة السادسة: يقول: «حتّى تُرَوا أَنَّكُمْ قَدْ كافأْتموهُ» حتى تَروا، أو حتى تُروا،حتى تَروا بالفتح، أي: حتى تعلموا: وبالضم، أي: حتى تظنوا.

حتى تظنوا أو يغلب الظن أنكم قد كافأتموه، وحتى تَروا أي: تعلموا، جاء في حديث: «**حَتَّى تَعْلَمُوا**»(١). وهذا يرجح رواية الفتح؛ حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه.

فِيهِ مَسَائِلُ:

◆ **الأولى: إعاذَةُ مَنِ اسْتَعاذَ باللهِ.**

إعاذة من استعاذ بالله؛ لقوله: «فأَعِيذوهُ»، وهذا أمر.

◆ **الثَّانِيةُ: إعطاءُ مَنْ سألَ باللهِ.**

لقوله: «مَنْ سأَلَ باللهِ فَأَعْطوهُ».

◆ **الثَّالِثَةُ: إجابةُ الدّعْوَةِ.**

لقوله: «ومَنْ دعاكُمْ فأجِيبوهُ».

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب «في الرجل يستعيذ من الرجل»، رقم (٥١٠٩)، والنسائي، كتاب الزكاة، باب «من سأل بالله ﷻ»، (٥/ ٨٢)، وأحمد (٢/ ٦٨) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

- **الرَّابِعةُ: الْمُكافَأَةُ علَى الصَّنيعَةِ.**

لقوله: «وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفاً فَكَافِئُوهُ».

- **الخامِسَةُ: أنَّ الدُّعاءَ مُكافَأَةٌ لِمَنْ لم يَقْدِرْ إلا عَلَيْهِ.**

لقوله: «فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُوهُ فَادْعُوا لَهُ».

- **السَّادِسَةُ: قولُهُ: حتّى تُروا أنَّكُمْ قَدْ كافأْتموهُ.**

يعني: يدعو له حتى يرى أنه قد كافأه.

بَابُ لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اَللَّهِ إِلَّا اَلْجَنَّةُ

عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ «لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اَللَّهِ إِلَّا اَلْجَنَّةُ»، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١).

الشَّرح

○ **قوله**: «بَابٌ لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اَللَّهِ إِلَّا اَلْجَنَّةُ»، مقصود المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بهذه الترجمة: تعظيم الله وإجلاله، وإكرام وجهه أن يُسأل به إلا غاية المطالب؛ وهي الجنة وما هو وسيلة إليها؛ كالعمل الصالح، والاستعاذة به من غضبه ومن النار.

○ **قوله**: «عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ «لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اَللَّهِ إِلَّا اَلْجَنَّةُ» هذا الحديث ضعيف؛ فيه سليمان بن معاذ، ولكن المؤلف أورده لتقوِّيه بالشواهد، ومن الشواهد التي يتقوى بها قوله ﷺ: **«أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمَرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ، أَوْ تُحِلَّ عَلَيَّ سَخَطَكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، لَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»**(٢). وكذلك حديث: **«أَعُوذُ بِاللَّهِ**

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الزكاة، باب «كراهية المسألة بوجه الله تعالى»، رقم (١٦٧١).
قال المزي: «قال الزينبي عن ابن شاهين: «تفرد به الحضرمي، ولا أعلم حدَّث به إلا القلوري، وهو حديث غريب». «تهذيب الكمال» (٣٤/ ٢١).

(٢) أخرجه الطبراني في «الدعاء» رقم (١٠٣٦).
قال الهيثمي: «رواه الطبراني، وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات». «مجمع الزوائد» (٦/ ٣٥).

الْعَظِيمِ، وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»(١).

والحديث الصحيح: عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَعُوذُ بِوَجْهِكَ**»، **قَالَ**: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، **قَالَ**: «**أَعُوذُ بِوَجْهِكَ**» ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥] **قَالَ رَسُولُ اللَّهِ** ﷺ: «**هَذَا أَهْوَنُ - أَوْ هَذَا أَيْسَرُ -**»(٢).

فهذه الأدلة وهذه النصوص يتقوى بها هذا الحديث، والمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أتى به لأنه له شواهد، ولما فيه من تعظيم الله تعالى وإجلاله.

وفي هذا الحديث: النهي عن أن يُسأل بوجه الله إلا غاية المطالب؛ وهي الجنة وما هو وسيلة إليها كالعمل الصالح، والاستعاذة به من غضبه ومن النار.

وفيه: إثبات الوجه لله عَزَّ وَجَلَّ كما يليق بجلاله وعظمته، والأدلة على إثبات الوجه كثيرة، كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، وقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٧]. ومنها: «**أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ**»، و«**أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ**».

وفيه: الرد على من أنكر الصفات وتأولها من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة، فإنهم لا يثبتون لله وجهاً، فالأشاعرة أثبتوا له سبع صفات ليس منها الوجه.

---

(١) أخرجه أبوداود، كتاب الصلاة، باب «فيما يقوله الرجل عند دخوله المسجد»، رقم (٤٦٦).
قال النووي: «حديث حسن، رواه أبو داود بإسناد جيد». «الأذكار» رقم (٨٢).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب «قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾ [الأنعام: ٦٥]، رقم (٤٦٢٨).

فيهِ مسائل:

- الأولى: النَّهْيُ عنْ أنْ يُسْأَلَ بِوَجْهِ اللهِ إلّا غايةَ المَطالِبِ.

وهي الجنة، وما هو وسيلة إليها.

- الثَّانِيةُ: إثباتُ صِفةِ الوجْهِ.

بَابُ مَا جَاءَ فِي اللَّوْ

وَقَوْلُ اَللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عِمرَان: ١٥٤] اَلْآيَةَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾ [آل عِمرَان: ١٦٨] اَلْآيَةَ.

وَفِي «اَلصَّحِيحِ»(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «اِحْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاَللَّهِ وَلَا تَعْجَزَنْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ؛ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا، لَكَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اَللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ اَلشَّيْطَانِ».

الشَّرْح

هذا الباب قصد منه المؤلف رحمه الله التحذير من قول (لو) ؛اعتراضاً على القدر، وبيان ما جاء من الوعيد والنهي عن ذلك، وأنّ الواجب على العبد الإيمان بالقدر، والصبر على المصائب، والتسليم للقدر، والقيام بالعبودية الواجبة.

أمّا قول (لو) في غير الاعتراض على القدر، كما في تمنّي الخير، فهذا ليس من هذا الباب، فلا يحرم بل هو جائز، وقد جاء هذا في الكتاب السنة؛ فقد قال عليه الصلاة والسلام: «**وَلَوْ أَنِّي اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا أَهْدَيْتُ، وَلَوْلَا أَنَّ مَعِي الهَدْيَ**

(١) أخرجه مسلم، كتاب القدر، رقم (٢٦٦٤).

لأَحْلَلْتُ»[١]. وكذلك لا بأس بقول لولا: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ [النُّور: ١٦].

وقد جاء أيضاً في القرآن الكريم بعض الآيات في استعمال (لو) في غير الاعتراض على القدر: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٤]، ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعرَاف: ١٨٨].

○ **قوله**: «وقوْلُ اللهِ تَعالَى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عِمرَان: ١٥٤]».

هذا القول حكاه الله عن المنافقين في غزوة أحد، قال الله ردّاً عليهم: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٥٤].

وفي الآية الأخرى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾ [آل عِمرَان: ١٦٨]. قال الله ردّاً عليهم: ﴿قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٦٨]. فالموت لا بدّ منه، ولا تستطيعون دفعه.

○ قوله: «في «الصَّحيح» عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «احْرِصْ عَلَى ما يَنْفَعُكَ، واسْتَعِنْ باللهِ ولا تَعْجَزَنَّ، وإنْ أصابَكَ شَيءٌ فلا تَقُلْ: لَوْ أنِّي فَعَلتُ كَذا لَكانَ كَذا وكَذا. ولكنْ قُلْ: قَدَرُ اللهُ وَما شَاءَ فَعَلَ. فإنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيطانِ».

المؤلف اختصر الحديث وأصله: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ**

---

(١) تقدم تخريجه.

إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، اِحْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاَللَّهِ وَلَا تَعْجَزَنْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ؛ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا، لَكَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اَللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ اَلشَّيْطَانِّ» هذا حديث عظيم، المؤمن القوي هو الذي يتعدّى نفعه للآخرين، فالمؤمن القوي كالمجاهد في سبيل الله، قوي ببدنه فيجاهد في سبيل الله، والمؤمن القوي قوي بماله ينفقه في المشاريع الخيرية، والمؤمن قوي بشفاعته وتوجيهه وإرشاده، ويحمل الكَلّ، ويعين على نوائب الخير، ويصل الرحم، ويعين المحتاج، فهذا المؤمن القوي خير وأحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف الذي يقتصر على أفعال نفسه.

«**وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ**» يعني: كلاهما اشتركا في الخيرية في أصل الإيمان، ولكن المؤمن القوي أحبّ إلى الله.

وفيه: إثبات المحبة لله، والردّ على من أنكرها من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة.

وفيه: أنّ المحبة تتفاوت، وأنّ بعض الأعمال أحبّ إلى الله من بعض، وكذلك بعض الأشخاص والصفات تتفاضل، وكلام الله يتفاضل بعضه أفضل من بعض.

ثم قال النبي ﷺ: «اِحْرِصْ»: هذا أمر بفعل الأسباب «عَلَى ما يَنْفَعُكَ» من الخير، فافعل الأسباب الشرعية - الدينية - والدنيوية.

«واسْتَعِنْ باللهِ ولا تَعْجَزَنَّ» في فعل الأسباب؛ لأنه لا قُدْرة للإنسان في فعل شيء إلا بمعونة الله؛ ولهذا شُرع للمسلم في إجابة المؤذِّن إذا قال: حيَّ على الصلاة. أن يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله.

«واسْتَعِنْ باللهِ» في فعل ما ينفعك «ولا تَعْجَزَنَّ» نهيٌ عن العجز، والعجز هو أن يترك الإنسان الشيء مع القدرة عليه، يترك الأسباب التي يقدر عليها؛ كسلاً وتهاوناً، واستعاذ منه النبي ﷺ فقال: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ العَجْزِ وَالكَسَلِ، وَالجُبْنِ وَالهَرَمِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ**»(١).

«وإنْ اصابَكَ شَيءٌ فلا تَقُلْ: لَوْ أنِّي فَعَلتُ كَذا لَكانَ كَذا وكَذا» فيه: النهي عن قول (لو) اعتراضاً على القدر، والتحسّر على القدر، وهذا هو الشاهد للترجمة.

«ولكنْ قُلْ: قَدَرُ اللهُ وَما شَاءَ فَعَلَ» هذا إرشاد إلى القول السليم.

ففي هذا الحديث من الفوائد: الأمر بالحرص على فعل الخير، والاستعانة بالله ﷻ في فعل الأسباب النافعة، والحرص على الأسباب النافعة الدينية والدنيوية.

وفيه: النهي عن الاعتراض على القدر: «فلا تَقُلْ: لَوْ أنِّي فَعَلتُ كَذا لَكانَ كَذا وكَذا.. فإنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطانِ».

وفيه: بيان التعليل، وأنّ ذلك يفتح عمل الشيطان.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب «ما يتعوذ من الجبن»، رقم (٢٨٢٣)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، رقم (٢٧٠٦) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

قال ابن القيم رحمه الله: والإنسان مندوب إلى استعاذته بالله تعالى من العجز والكسل؛ فالعجز عدم القدرة على الحيلة النافعة، والكسل عدم الإرادة لفعلها؛ فالعاجز لا يستطيع الحيلة، والكسلان لا يريدها. إعلام الموقعين عن رب العالمين (٣/ ٢٦١).

فيهِ مسائل:

- الأولَى: تفسيرُ الآيَتَيْنِ في آلِ عِمْرانَ.

﴿يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ﴾ [آل عِمرَان: ١٦٨]، ففيهما اعتراض على القدر، بخلاف ما إذا كان في تمني الخير فهذا لا بأس به.

- الثَّانِيَةُ: النَّهْيُ الصَّريحُ عنْ قولِ: (لوْ) إذا اصَابَكَ شَيْءٌ.

لا تقل: لو أني فعلت...

- الثَّالِثةُ: تعليلُ الْمَسأَلةِ بأنَّ ذلِكَ يفْتَحُ عَمَلَ الشّيطانِ.
- الرَّابِعَةُ: الإرشادُ إلَى الكلامِ الحَسَنِ.

أن يقول: قدر الله وما شاء فعل.

- الخامِسَةُ: الأمْرُ بالحِرْصِ عَلَى ما يَنْفَعُ معَ الاسْتِعانةِ باللهِ.

احرص على ما ينفعك، واستعن بالله.

- السَّادِسةُ: النَّهيُ عنْ ضدِّ ذلِكَ وهُوَ العجزُ.

بَابُ اَلنَّهْيُ عَنْ سَبِّ اَلرِّيحِ

عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَسُبُّوا اَلرِّيحَ؛ فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ فَقُولُوا: اَللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ اَلرِّيحِ، وَخَيْرِ مَا فِيهَا، وَخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ اَلرِّيحِ، وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ». صَحَّحَهُ اَلتِّرْمِذِيُّ[(١)].

الشَّرْح

○ **قوله:** «بَابُ اَلنَّهْيُ عَنْ سَبِّ اَلرِّيحِ» المقصود من الترجمة: التأدّب بالآداب الشرعية في عدم سبّ الريح؛ وذلك لأنها مأمورة، وهي إنما تهبّ عن إيجاد الله وخلقه لها وأمره، فهي مسخّرة، فسبّها مسبّة للفاعل وهو الله عز وجل.

وفي هذا الحديث من الفوائد: النهي عن سبّ الريح، وفيه الإرشاد إلى أن الذكر والقول السليم عند هبوب الريح، وهو أن يقول: **«اللهُمَّ إنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ، وخَيرِ مَا فِيها، وخَيْرِ ما أُمِرَتْ بِهِ، ونَعوذُ بِكَ مِنْ شرِّ هَذِهِ الرِّيحِ، وشرِّ ما فِيها، وشرِّ ما أُمِرَتْ بِهِ»**.

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الفتن، باب «ما جاء في النهي عن سب الرياح»، رقم (٢٢٥٢)، وأحمد (٥/ ١٢٣).
قال الترمذي: «حديث حسن صحيح».
وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه». «المستدرك» (٢/ ٢٩٨).

وفيه: بيان أنّ الريح مأمورة.

وفيه: أنها تؤمر بالخير، وتؤمر بالشرّ، وجاء في الحديث الآخر الإرشاد إلى أن يقول: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا رِيَاحاً، وَلَا تَجْعَلْهَا رِيحاً**»(١)، والحديث وإن كان ضعيفاً فإنه يذكر للاستئناس، فالرياح: بالجمع رحمة، والريح: بالإفراد عذاب، فقد أُهلكت عاد بالريح، قال تعالى: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾. ولهذا أرشد النبي ﷺ في الحديث الآخر قال: «**اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً**».

وكذلك الحديث الآخر: «**نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ**»(٢). الصبا: ريحٌ شرقية، والدبور: ريحٌ غربية.

ومناسبته لكتاب التوحيد: أنّ سبّ الريح مما ينافي كمال التوحيد، فإن كمال التوحيد أن يتأدّب المسلم بالآداب الشرعية، وألا يسبّ الريح التي سخّرها الله، فإنّها مسخّرةٌ مأمورة، وسبّها مسبّة للخالق، وهو ينافي كمال التوحيد.

فيهِ مسائل:

- **الأُولَى: النَّهْيُ عنْ سبِّ الرِّيحِ.**

---

(١) روي من حديث ابن عباس، وله طريقان:
الأول: أخرجه الشافعي في «الأم» (١/ ٢٥٣)، قال ابن حجر: «العلاء بن راشد عن عكرمة، وعنه إبراهيم بن أبي يحيى، لا تقوم بإسناده حجة، قاله الحسيني». «تعجيل المنفعة» (٢/ ٩١).
والثاني: أخرجه أبو يعلي في «المسند» رقم (٢٤٥٦)، وأعله بحسين بن قيس، ونقل تضعيفه عن أحمد والنسائي.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الإستسقاء، باب «قول النبي «نصرت بالصبا»»، رقم (١٠٣٥)، ومسلم، كتاب صلاة الإستسقاء، رقم (٩٠٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

لا تسبوا الريح.

- **الثَّانيَةُ: الإِرشادُ إلَى الكلامِ النَّافِعِ إذا رَأَى الإِنسانُ ما يَكْرَهُ.**

وهو قوله: «اللهُمَّ إنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ، وخَيرِ مَا فِيها، وخَيْرِ ما أُمِرَتْ بِهِ، ونَعوذُ بِكَ مِنْ شرِّ هَذِهِ الرِّيحِ، وشرِّ ما فِيها، وشرِّ ما أُمِرَتْ بهِ».

- **الثالِثَةُ: الإِرشادُ إلَى أنَّها مأْمورةٌ.**

مأمورة لأنها خلقٌ مسخّر، تجري بأمر الله.

- **الرَّابِعةُ: أنّها قدْ تُؤمَرُ بِخَيرٍ وقدْ تُؤمَرُ بِشَرٍّ.**

نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ، وخَيرِ مَا فِيها، وخَيْرِ ما أُمِرَتْ بِهِ، ونَعوذُ بِكَ مِنْ شرِّ هَذِهِ الرِّيحِ، وشرِّ ما فِيها، وشرِّ ما أُمِرَتْ بهِ». **هي** تؤمر بالخير، وتؤمر بالشرّ.

بَابُ قَوْلُ اَللَّه تَعَالَى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ اَلْآيَةَ

وَقَوْلُهُ: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفتح: ٦] اَلْآيَةَ.

قَالَ اِبْنُ اَلْقَيِّمِ فِي اَلْآيَةِ اَلْأُولَى: فُسِّرَ هَذَا اَلظَّنُّ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ، وَأَنَّ أَمْرَهُ سَيَضْمَحِلُّ، وَفُسِّرَ بِأَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ بِقَدَرِ اَللَّهِ وَحِكْمَتِهِ.

فَفُسِّرَ بِإِنْكَارِ اَلْحِكْمَةِ، وَإِنْكَارِ اَلْقَدْرِ، وَإِنْكَارِ أَنْ يُتِمَّ أَمْرَ رَسُولِهِ ﷺ، وَأَنْ يُظْهِرَهُ عَلَى اَلدِّينِ كُلِّهِ.

وَهَذَا هُوَ ظَنُّ اَلسَّوْءِ اَلَّذِي ظَنَّهُ اَلْمُنَافِقُونَ وَالْمُشْرِكُونَ فِي سُورَةِ اَلْفَتْحِ.

وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا ظَنَّ اَلسُّوءَ؛ لِأَنَّهُ ظَنُّ غَيْرِ مَا يَلِيقُ بِهِ سُبْحَانَهُ، وَمَا يَلِيقُ بِحِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ، وَوَعْدِهِ اَلصَّادِقِ.

فَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُدِيلُ اَلْبَاطِلَ عَلَى اَلْحَقِّ إِدَالَةً مُسْتَقِرَّةً يَضْمَحِلُّ مَعَهَا اَلْحَقُّ، أَوْ أَنْكَرَ أَنَّ مَا جَرَى بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، أَوْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ قَدَرُهُ لِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ يَسْتَحِقُّ عَلَيْهَا اَلْحَمْدَ، بَلْ زَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ لِمَشِيئَةٍ مُجَرَّدَةٍ؛ فَذَلِكَ ظَنُّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ اَلنَّارِ.

وَأَكْثَرُ اَلنَّاسِ يَظُنُّونَ بِاَللَّهِ ظَنَّ اَلسَّوْءِ فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ، وَفِيمَا يَفْعَلُهُ بِغَيْرِهِمْ، وَلَا يَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَرَفَ اَللَّهَ وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ، وَمُوجَبَ حِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ.

فَلْيَعْتَنِ اَللَّبِيبُ اَلنَّاصِحُ لِنَفْسِهِ بِهَذَا، وَلْيَتُبْ إِلَى اَللَّهِ، وَلْيَسْتَغْفِرْهُ مِنْ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ ظَنَّ اَلسَّوْءِ.

وَلَوْ فَتَّشْتَ مَنْ فَتَّشْتَّ، لَرَأَيْتَ عِنْدَهُ تَعَنُّتاً عَلَى اَلْقَدَرِ، وَمَلَامَةً لَهُ، وَأَنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَذَا وَكَذَا؛ فَمُسْتَقِلٌّ وَمُسْتَكْثِرٌ، وَفَتِّشْ نَفْسَكَ هَلْ أَنْتَ سَالِمٌ؟

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخَالُكَ نَاجِياً[(١)].

الشَّرْح

هذا بابٌ عظيم يتعلّق بالظنون التي تكون كامنة في النفوس، وهذا من الأبواب العظيمة، وكلّ الكتاب كتاب عظيم، ينبغي لكلّ مسلم أن يعتني بهذا الكتاب، ويتدبّره ويتفهمه، ويقرأه كثيراً.

فمقصود المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بهذه الترجمة: وجوب حُسْن الظنِّ بالله، والحذر من الظنون السيئة التي تكون من المنافقين وضعفاء الإيمان.

يقول المؤلِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: بابُ قولِهِ تعالَى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٤] فالضمير يعود على المنافقين في غزوة أحد، فهذه مقالة عبد الله بن أُبيّ، قال: ليس لنا من الأمر شيء ولا استشارنا، يأخذ برأي الصبيان ولا يأخذ برأينا.

فردّ الله عليه: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٤]. ليس لكم الأمر، فالأمر كله لله، الله تعالى هو الذي يُشِّرع، وهو الذي يوحي لرسوله ﷺ.

والمسلم مؤتمر لأمر الله، كما قال تعالى: ﴿يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٤] يعني: المنافقون، يظهرون الإسلام،

---

(١) انظر: «زاد المعاد» لابن القيم (٣/ ٢٠٥).

ويظهرون أنهم يريدون النصح، والمشورة الناصحة، وأنهم يريدون أن يكسبوا المعركة، وأن لا تكون الدائرة عليهم، لكن قلوبهم مخالفة لما يظهرونه؛ لأنهم ليس عندهم إيمان يمنعهم، فهم يودّون القضاء على الإسلام والمسلمين؛ ولهذا يتمالئون مع اليهود.

﴿يُخْفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَۖ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٤] بعد غزوة أحد لمّا استشهد سبعون، قال المنافقون: على ما نقتل أنفسنا؟ ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَاۗ﴾ ردّ الله عليهم بأنّ الموت محدَّد، والآجال مُقدّرة، ومن كتب الله عليه أن يموت بأرض فلابدّ أن يبرز لهذا المكان حتى يموت فيه: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْۖ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ ليختبر ما في صدوركم فيظهر ما في الصدور، وما في دفائن النفوس من النفاق؛ ليعرف المؤمنون عدوّهم من صديقهم ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٥٤﴾ [آل عِمرَان: ١٥٤]، وفي الآية الأخرى، قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۖ﴾ دائرة السوء تدور عليهم، فعلى الباغي تدور الدوائر ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ٦﴾ [الفَتْح: ٦]، هؤلاء المنافقون والمشركون الذين يظنّون بالله ظنّ السوء، الله تعالى له الحكمة في ذلك، ومن الحكمة تعذيبهم، وحلول الغضب عليهم واللعنة، واستحقاقهم لجهنّم.

وفيه: إثبات الغضب لله ﷻ على ما يليق بجلاله وعظمته، وأنه من صفاته الفعلية، يغضب على الكفار ويلعنهم.

وفيه: أن المنافقين والمشركين مخلّدون في النار، وأنّ لهم جهنّم وساءت مصيراً.

«قالَ ابنُ القَيِّم في الآيَةِ الأولَى، وهي قوله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٤]: فُسِّرَ هذا الظَّنُّ بأَنَّهُ سُبحانَهُ لا يَنْصُرُ رسولَهُ، وأَنَّ أَمْرَهُ سيضْمَحِلُّ»، هذا هو تفسير الظن؛ وهو: أنّهم يظنّون بالله غير الحقّ ظنّ الجاهليّة، لمّا حصلت النكسة والهزيمة على المؤمنين في غزوة أحد ظنّ المنافقون أنّ الله لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل، ويذهب جملة حتى لا يبقى له أثر ويباد أهله، وأنها تكون الفيصلة والنهاية.

«وفُسِّرَ بأنّ ما أصابَهُ لَمْ يَكُنْ بِقَدَرِ اللهِ وحِكْمَتِهِ، ففسِّرَ بِإنكارِ الحِكْمةِ، وإنكارِ القَدَرِ، وإنكارِ أنْ يَتِمَّ أمرُ رسولِهِ، وأنْ يُظهِرَهُ الله علَى الدِّينِ كلِّهِ، وهذا هُوَ ظنُّ السَّوءِ، الّذي ظنَّ المنافِقونَ والمشْرِكونَ في سورَةِ الفتْحِ».

في قوله: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفَتْح: ٦]، فعلى هذا يكون الظنّ الذي ظنّه المنافقون والمشركون في سورة الفتح هو الظنّ الذي ظنّه المنافقون في غزوة أحد، وقد فُسِّر بأحد أمرين:

الأول: أنّهم ظنّوا أنّ الله لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل، وأن النكسة التي حصلت للمسلمين هي النهاية، وأن هزيمة المسلمين هزيمة مستمرة، وأنه سيُقضى على الإسلام والمسلمين، ولا تقوم للإسلام قائمة.

والثاني: فُسِّر بإنكار القدر، وإنكار الحكمة، وأنّ ما وقع لم يكن قدّره الله، وليس له فيه حكمة.

وكلٌّ من التفسيرين هو ظنّ السوء، الذي ظنّه المنافقون والمشركون في سورة الفتح.

«وَإنّما كانَ هذا ظنّ السَّوء؛ لأنَّهُ ظنُّ غيرِ ما يَليقُ بِهِ سبحانَهُ،

وما يليقُ بحِكمَتِهِ وحمْدِهِ ووعْدِهِ الصَّادِقِ، فمَنْ ظنَّ أنّ الله يُدِيلُ الباطِلَ علَى الحقِّ إدالةً مستقِرةً يضمحِلُّ مَعها الحقُّ» يعني: مَن ظنّ أنه سيُقضى على الإسلام والمسلمين، ولا تقوم للإسلام قائمة، فقد ظنّ ظنّ السوء.

«أوْ انْكَرَ أنْ يكونَ ما جَرَى بِقضائِهِ وقَدَرِهِ» ومشيئته وأن الله قدَّره وشاءه؛ فهذا ظن السوء.

«أوْ أنكَرَ أنْ يكونَ قدَرُهُ لحكمةٍ بالغةٍ يستحِقُّ علَيها الحمدَ، بلْ زَعمَ أنّ ذلِكَ لمشيئةٍ مجرّدةٍ، فذلِكَ ظنّ الذينَ كفروا، فويلٌ للذين كفروا من النَّارِ» هذه كلها ظنون السوء، قال ﷺ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ**»[(١)]، من ظنّ أن الإسلام ينتهي، وأنه لا يبقى إلا الكفرة في الأرض قبل قبض روح المؤمنين في آخر الزمان[(٢)]، فقد ظنّ بالله ظنّ السوء، وكذلك من أنكر أن يكون ما جرى يوم أحد، وكذلك ما يجري من الأقدار لم يكن بمشيئة الله وقدرته، فقد ظنّ بالله ظنّ السوء، وكذلك من أنكر أن يكون قدر الله ليس لحكمة بالغة، يستحقّ عليها الحمد، بل لمجرد المشيئة، فقد ظنّ بالله ظنّ السوء، ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [صٓ: ٢٧].

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَأَكثَرُ الناسِ يظنُّونَ باللهِ ظنَّ السَّوْءِ فيما يختصُّ بِهم، وفيما يَفْعَلُهُ بغيرِهِم» يعترض على الله فيما يختصّ به وفيما يفعله بغيره، فتجده يكون عنده اعتراض على القدر، وعنده ظنون

(١) تقدم تخريجه.

(٢) كما جاء في حديث النواس بن سمعان في ذكر الدجال عند مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، رقم (٢١٣٧).

سيئة، لماذا أنا كذا؟! لماذا لم أوفّق لكذا؟! اعتراض على القدر، فتجده يظنّ بالله ظنّ السوء فيما يختصّ به، وفيما يفعله بغيره.

«**ولا يَسْلَمُ مِنْ ذلِكَ إلا مَنْ عَرَفَ اللهَ وأسماءَهُ وصفاتِهِ، وموجَبِ حِكْمَتهِ وحمْدِهِ**» الموجَب - بالفتح - هي الثمرة، أما الموجِب - بالكسر - فهي العلة والسبب، والمراد هنا الثمرة، لا يسلم من الظنون السيئة إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته، وأنه الحكيم العليم، وأنّ له الحكمة البالغة، وأنه ﷻ عليم بأحوال عباده، وأنه حكيم يضع الأشياء بمواضعها، وأن حكمته ورحمته اقتضت نصر المؤمنين، وأنه لابد من الابتلاء: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١﴾ [غافر: ٥١]، ﴿ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ﴾ [محمد: ٤] فهذه هي الحكمة، قد يتحقق النصر، وقد يقع ضره إبتلاء وامتحاناً.

وفي سورة آل عمران ذكر الله الحِكَم: ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤١﴾ [آل عمران: ١٤٠-١٤١].

فلا يسلم من الظنون السيئة - كما يقول المؤلف رحمه الله - إلا من عرف الله وعرف أسماءه وصفاته، وموجَب حكمته وحمده، هذا هو الذي يسلم من الظنون السيئة، ومن كان بالله أعرف كان منه أخوف، فإذا عرف الله وعرف أسماءه وصفاته، وجمع بين النصوص، وعرف أنّ الله حكيم، وأنّ الله عليم، وأنّ الله ﷻ ينصر أولياءه، وأنه يبتلي أولاً ثم تكون العاقبة للمتقين، وأنه لا بد من الابتلاء والامتحان، ولا بد أيضاً من ظهور ما يترتّب على هذا الابتلاء والامتحان

من الحِكَم والأسرار.

ثم قال رحمه الله: «فليعتَنِ اللَّبيبُ النَّاصِحُ لنفسِهِ بهذا» اللبيب: العاقل، الناصح لنفسه يعتني بهذا الأمر، ويعلم حكمة الله، ويعلم أن ربه حكيم، وأنه عليم، ويعرف أسماء الله وصفاته، وموجَب حكمته وحمده، هذا هو اللبيب العاقل الذي يريد نجاة نفسه «ولْيَتُبْ إلَى اللهِ ولْيَسْتغْفِرْهُ مِنْ ظَنِّهِ بربِّهِ ظَنَّ السَّوءِ» يستغفر دائماً، ويتب إليه من ظنّه بربه ظنّ السوء.

ثم قال رحمه الله: «ولوْ فَتَّشتَ مَنْ فتَّشْتَ؛ لرأيتَ عِندَهُ تَعنُّتاً علَى القَدَرِ، وملامَةً لهُ، وأنّه كانَ ينبَغي أنْ يكونَ كذا وكذا» عنده تعنّت وملامةً له، واعتراض على الله «فمُستَقِلٌّ ومُستَكْثِرٌ، وفَتِّشْ نَفسَكَ هلْ أنتَ سالِمٌ؟» فتِّش في نفسك عن دخائن نفسك، فإن النفس تَكْمُن على الاعتراض على الله، فإذا حُرِّكَت ظهر ما فيها، كالزند الذي إذا حُرِّك أخرج النار، ففتِّش مكامن النفس.

«فإنْ تنجُ منها تَنْجُ مِنْ ذي عظيمةٍ وإِلَّا فإني لا أخالُكَ ناجياً»(١)

إن نجوت من هذه الظنون بعد تفتيش النفس وتمحيصها، والبحث في مكامنها، إن نجوت نجوت من أمر عظيم، وإلا فإني لا أظنك ناجياً.

في هذا الباب من الفوائد: تفسير الظنّ في سورة آل عمران، وتفسير الظنّ في سورة الفتح.

وفيه: أنّ الظنون السيئة أنواع كثيرة لا تنحصر؛ ظنّ اعتراض

(١) رواه الإمام أحمد في الزهد (ص٢٠٧) عن صلة بن أشيم، وابن سعد في الطبقات (٧/ ١١٢) ونسبه لعسعس بن سلامة، وعند ابن مبارك في الزهد كذلك (ص٧٩)، ونسبه في طبقات فحول الشعراء (١/ ١٨٢) للفرزدق.

على الله في حكمه بكذا، في إعطائه الملك لفلان، اعتراض على الله في إعطائه المال لفلان، اعتراض على الله في إعطاء العقل لفلان، واعتراض على الله فيما يقع وفيما يُقِّدره، واعتراض على الله في شرعه.

وفيه: أنّه لا يسلم من الظنون السيئة إلا من عرف الأسماء والصفات، وحقائقها ومعانيها، وعرف نفسه.

فيهِ مسائل:

- الأولَى: تفسيرُ آيَةِ آلِ عِمرانَ.

﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٤].

- الثانيَةُ: تفسيرُ آيَة الفَتْحِ.

﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ﴾ [الفَتْح: ٦].

- الثالثةُ: الإخبارُ بأنَّ ذلِكَ أنواعٌ لا تُحصَرُ.

أي: ظن السوء أنواع لا تنحصر.

- الرابِعةُ: أنّه لا يَسْلَمُ مِنْ ذلِكَ إلَّا مَنْ عَرَفَ الأسماءَ والصِّفاتِ وعرَفَ نَفْسَهُ.

فلا يسلم من ظن السوء إلا من عرف الله بأسمائه وصفاته بأنه سبحانه عليم حكيم، عليم بما يصلح خلقه، حكيم بما قدره وشرعه، وعرف نفسه بأنه مخلوق لطاعة الله وعبادته.

بَابُ مَا جَاءَ فِي مُنْكِرِي اَلْقَدَرِ

وَقَالَ اِبْنُ عُمَرَ: وَاَلَّذِي نَفْسُ اِبْنِ عُمَرَ بِيَدِهِ، لَوْ كَانَ لِأَحَدِهِمْ مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَباً، ثُمَّ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اَللَّهِ مَا قَبِلَهُ اَللَّهُ مِنْهُ، حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، ثُمَّ اِسْتَدَلَّ بِقَوْلِ اَلنَّبِيِّ ﷺ: «اَلْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاَللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ اَلْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[1] رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَعَنْ عُبَادَةَ بنِ اَلصَّامِتِ أَنَّهُ قَالَ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ، إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ اَلْإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اَللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اَللَّهُ اَلْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اُكْتُبْ. فَقَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اُكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ اَلسَّاعَةُ». يَا بُنَيَّ، سَمِعْتُ رَسُولَ اَللَّهِ ﷺ يَقُولُ: مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي»[2].

وَفِي رِوَايَةٍ لِأَحْمَدَ[3]: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اَللَّهُ تَعَالَى اَلْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اُكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ اَلسَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ اَلْقِيَامَةِ».

وَفِي رِوَايَةٍ لِابْنِ وَهْبٍ[4] قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ: «فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ أَحْرَقَهُ اَللَّهُ بِالنَّارِ».

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، رقم (٨).
(٢) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب «في القدر»، رقم (٤٧٠٠).
(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣١٧).
(٤) أخرجه عبدالله بن وهب في «القدر» رقم (٢٦).

وَفِي «اَلْمُسْنَدِ» و«اَلسُّنَنِ» عَنِ ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ قَالَ: «أَتَيْتُ أُبَيَّ بْنِ كَعْبٍ فَقُلْتُ: فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ اَلْقَدَرِ؛ فَحَدِّثْنِي بِشَيْءٍ لَعَلَّ اَللَّهَ يُذْهِبُهُ مِنْ قَلْبِي. فَقَالَ: لَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً، مَا قَبِلَهُ اَللَّهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَوْ مِتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَكُنْتَ مِنْ أَهْلِ اَلنَّارِ. قَالَ: فَأَتَيْتُ عَبْدَ اَللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ وَحُذَيْفَةَ بْنَ اَلْيَمَانِ وَزَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، فَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي بِمِثْلِ ذَلِكَ عَنْ اَلنَّبِيِّ ﷺ». حَدِيثٌ صَحِيحٌ، رَوَاهُ اَلْحَاكِمُ فِي «صَحِيحِهِ»[1].

الشَّرْح

مقصود المؤلف رحمه الله بهذه الترجمة: بيان ما ورد في منكري القدر من الوعيد والنصوص التي تدلّ على كُفْر منكري القدر، وأنّ توحيد الربوبية لا يتمّ إلا بإثبات القدر، والإيمان به.

والمراد بمنكري القدر: الذين أنكروا علم الله السابق، فقالوا: إن الله تعالى لا يعلم الأشياء حتى تقع، هؤلاء الكفار، كما قال الشافعي رحمه الله: ناظروا القدرية بالعلم؛ فإن أقرّوا به خُصموا، وإن أنكروه كفروا[2].

إن أقرّوا بأنّ الله يعلم ما يشاء، يُقال لهم: إنّ الله تعالى عَلِمَ الأشياء قبل كونها، ويوقعها على مقتضى علمه، وإن أنكروا العلم كفروا، فهؤلاء القدرية الأولى الذين ظهروا في عصر الصحابة، أنكروا علم الله والكتابة، فهم كفار، هم الذين جاءت فيهم النصوص، وهم الذين كفّرهم ابن عمر.

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب «في القدر»، رقم (٤٦٩٩).
(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٢٣/ ٣٤٩)، وشرح الطحاوية لابن أبي العز (ص ٣٠٢).

وأما القدرية المتأخرون - وهم المعتزلة - فإنهم يثبتون العلم، ويثبتون الكتابة، لكن ينكرون عموم المشيئة، وعموم الخلق، فينكرون عموم المشيئة، فقالوا: إنها لا تشمل أفعال العباد، لم يشاءها الله، وكذلك قالوا: إن الله ما خلق أفعال العباد؛ لشبهة عرضت لهم.

○ **قوله**: «وقالَ ابنُ عُمرَ: والَّذي نفسُ ابنِ عُمَرَ بيدِهِ، لوْ كانَ لأَحَدِهِم مثْلُ أُحُدٍ ذَهَباً، ثُمَّ أَنْفَقَهُ في سَبيلِ اللهِ ما قَبِلَهُ اللهُ مِنْهُ حتَّى يُؤمِنَ بالقَدَرِ، ثمَّ استَدلَّ بقوْلِ النّبيِّ ﷺ: «الإيمانُ أنْ تُؤْمِنَ باللهِ، وملائِكَتِهِ، وكُتُبِهِ، ورُسُلِهِ، واليَومِ الآخِرِ، وتُؤمِنَ بالقَدَرِ خيْرِهِ وشرِّهِ» رواهُ مسلمٌ.

هذا فيه: أن ابن عمر حكم على منكر القدر بالكفر؛ لأن الذي لا يقبل عمله هو الكافر، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ۝٥٤﴾ [التوبة: ٥٤] فابن عمر حكم على منكر القدر بأنه لا تقبل أعماله، وأنه لو أنفق مثل أحد ذهباً ما قبله الله منه، فدلّ على كفره، وأن ابن عمر يرى كفره وهو كذلك؛ لأنه أنكر أصلاً من أصول الدين، فمن أنكر القدر كفر، من قال: إن الله لا يعلم الأشياء حتى تقع. هذا كافر، يجمعهم القدرية الأولى الذين ظهروا في زمن ابن عمر، فعَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ، قَالَ: كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدَرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبَدٌ الْجُهَنِيُّ، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عبدالرحمن الْحِمْيَرِيُّ حَاجَّيْنِ - أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ - فَقُلْنَا: لَوْ لَقِينَا أَحَداً مَنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَدَرِ، فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلاً الْمَسْجِدَ، فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ، وَالْآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ، فَقُلْتُ: أَبَا عبدالرحمن، إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ

يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ، - يعني: يطلبون العلم - وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لَا قَدَرَ، وَأَنَّ الْأَمْرَ أُنُفٌ، - يعني: مستأنف وجديد لم يسبق به علم الله - قَالَ: «فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي»، وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُاللهِ بْنُ عُمَرَ: «لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً، فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ». ثم روى الحديث عن عمر أن النبي ﷺ جاءه جبريل فسأله عن الإسلام، وعن الإيمان، وأنه لمّا سأله على الإيمان قال: **«أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»**.

○ **قوله**: «وعَنْ عُبادةَ بنِ الصَّامتِ أنّه قالَ لابنِهِ: يا بُنيّ إنَكَ لَنْ تجِدَ طعمَ الإيمانِ حتَّى تعلَمَ أنّ ما أصابَكَ لَمْ يَكُنْ ليُخطِئَكَ، وما أخْطأَكَ لَمْ يكُنْ لِيُصيبَكَ».

وهذا تفسير للقدر ببعضه، فهذا من القدر.

والنبي ﷺ قال: **«لوْ أنفقتَ مِثلَ أُحُدٍ ذَهَباً ما قبِلهُ اللهُ مِنكَ حتَّى تُؤمِنَ بالقَدَرِ، وتعلَمَ أنَّ ما أصابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخطِئكَ، وما أخْطأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصيبكَ وَلَوْ مِتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَكُنْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»**.

فهذا الحديث مرفوع عن أبي ابن كعب، وحذيفة بن اليمان، وزيد ابن ثابت، وعبد الله ابن مسعود، كلهم رفعوا هذا الحديث، وهو يدلّ على كفر منكري القدر؛ لأنّ الذي لا تُقبل أعماله هو الكافر.

وهذا الحديث فيه من الفوائد: بيان وجوب الإيمان، وأنه يجب على الإنسان أن يؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وأن الإيمان بالقدر ركن من أركان

الإسلام.

وفيه: بيان أن من الإيمان بالقدر: أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك.

وفيه: أن كل شيء مكتوب؛ فقد جرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة.

وفيه: أن من لم يؤمن بالقدر لا تقبل أعماله.

وفيه: الرجوع إلى العلماء وسؤالهم في إزالة الشبهة، فإن ابن الديلمي قال: **فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ القَدَرِ، فَحدِّثني بشيءٍ لعلَّ اللهُ يُذْهِبُهُ مِنْ قَلْبِي.**

وفيه: أن العلماء يزيلون الشبهة بذكر الحديث عن رسول الله ﷺ، ويقتصرون على ذكر الحجّة والدليل.

فيهِ مسائلُ:

- **الأولَى: بيانُ فرضِ الإيمانِ بالقَدَرِ.**

لأنه أصل من أصول الإيمان، وأنه لا بد منه.

- **الثانيَةُ: بيانُ كيفيَةِ الإيمانِ بهِ.**

وهو أن يؤمن بعلم الله، وكتابته، ومشيئته، وإرادته، ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن لصيبه، هذا تفسير باللازم؛ قال عبادة بن الصامت لابنه: أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، وهذا من كيفية الإيمان بالقدر، جزء من الإيمان بالقدر، تفسير للشيء ببعضه.

- **الثالثةُ: إحباطُ عَمَل منْ لَمْ يُؤمِنْ بهِ.**

الدليل أنه قال: «لو أنفقت مثل أحد ذهباً ما قبله الله منك»،

هذا قاله ابن عمر، وقاله النبي ﷺ في حديث ابن الديلمي.

◆ الرابِعةُ: الإخبارُ أنّ أحداً لا يجِدُ طعْمَ الإيمانِ حتَّى يُؤْمِنَ بهِ.

هذا قاله عبادة بن الصامت: «يا بني، إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك».

◆ الخامِسَةُ: ذكرُ أوَّل ما خَلَقَ اللهُ.

أول ما خلق الله القلم، على خلاف في خلق العرش والقلم أيهما أول قولان، أصحهما: أن العرش كان قبل القلم؛ لما ثبت في الصحيح من حديث عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء». ومعنى حديث الباب: أنه عند أول خلق الله القلم قال له: اكتب. بدليل رواية أبي داود، بنصب (أوّل) على الظرفية، ونصْب (القلمَ) على المفعولية؛ فالأولية بالنسبة للكتابة.

◆ السَّادِسَةُ: أنّه جَرَى بالْمَقادِيرِ في تِلْكَ السَّاعةِ إلَى قِيامِ السَّاعةِ.

أي: القلم.

◆ السَّابِعةُ: بَراءَتُهُ ﷺ مِمَّنْ لَمْ يُؤْمِنْ بهِ.

النبي ﷺ يقول: «مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي». هذه براءة؛ تبرَّأ منه النبي ﷺ، وهذا يدل على أنه مرتكب لكبيرة عظيمة.

◆ الثَّامِنةُ: عادةُ السَّلَفِ في إزالةِ الشُّبْهةِ بسؤالِ العلماءِ.

لما جاء عبد الله بن فيروز قال لأبي بن كعب: في نفسي شيء من القدر، فحدثني بشيء لعل الله يذهبه عني.

ففيه: أن السلف يأتون يسألون العلماء في إزالة الشبهة.

❖ **التَّاسِعةُ: أنّ العلماءَ أجابُوهُ بما يزيلُ شُبْهَتَهُ؛ وذلِكَ أنّهُم نَسَبوا الكلامَ إلَى رسولِ اللهِ ﷺ فقطْ.**

أبّي بن كعب رضي الله عنه ساق له الحديث عن النبي ﷺ فتزول الشبهة بسياق الحديث، فالناس يرجعون إلى العلماء في إزالة الشبهة، والعلماء يبينون لهم ويزيلون الشبهة بالنصوص من الكتاب والسنة.

بَابُ مَا جَاءَ فِي المُصَوِّرِينَ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي؛ فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيْرَةً». أَخْرَجَاهُ[(١)].

وَلَهُمَا[(٢)] عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ القِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهِئُونَ بِخَلْقِ اللَّهِ».

وَلَهُمَا[(٣)] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ. يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْساً يُعَذَّبُ بِهَا فِي جَهَنَّمَ».

وَلَهُمَا[(٤)] عَنْهُ مَرْفُوعاً: «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ وَلَيْسَ بِنَافِخٍ».

وَلِمُسْلِمٍ[(٥)] عَنْ أَبِي الهَيَّاجِ قَالَ: قَالَ لِي عَلِيٌّ: «أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب «قول الله تعالى: «والله خلقكم وما تعلمون»»، رقم (٧٥٥٩)، ومسلم، كتاب اللباس والزينة، رقم (٢١١١).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب اللباس، باب «ما وطئ من التصاوير»، رقم (٥٩٥٤)، ومسلم، كتاب اللباس والزينة، رقم (٢١٠٧).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب البيوع، باب «بيع التصاوير»، رقم (٥٩٦٣)، ومسلم، كتاب اللباس، رقم (٢١١٠).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب اللباس، باب «من صور صورة كلف يوم القيامة أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ»، رقم (٥٩٦٣)، ومسلم، كتاب اللباس، رقم (٢١١٠).

(٥) أخرجه مسلم، كتاب الجنائز، رقم (٩٦٩).

مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ أَلَّا تَدَعَ صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا، وَلَا قَبْراً مُشْرِفاً إِلَّا سَوَّيْتَهُ».

الشَّرْح

هذا الباب قصد منه المؤلف رحمه الله تعالى بيان ما جاء في المصورين من الوعيد الشديد، من عظيم عقوبة الله وعذابه؛ لما فيه من المضاهاة بخلقه. والوسيلة إلى الشرك، وإذا كان هذا في المصوِّر، فكيف بمن سوَّى غير الله بالله من المخلوقين، وأشركهم مع الله، وصرف إليهم نوعاً من أنواع العبادة؟!

والمصوِّر أساء الأدب مع الله، وضاهى الله بخلقه، وعمله وسيلة إلى الشرك.

فمن سوَّى غير الله بأحد من المخلوقين، وأشركه مع الله، وصرف إليه نوعاً من أنواع العبادة، كان ذنبه أعظم وأشد؛ لأنه الذنب الذي لا يُغفر.

○ **قوله**: «عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «قال اللهُ تعالَى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقي، فلِيَخْلُقُوا ذَرَّةً أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعيرةً».

هو حديث قدسي، أضافه النبي ﷺ إلى الله تعالى، قال: قال الله تعالى. والحديث القدسي من كلام الله لفظاً ومعنى، بخلاف الحديث الغير قدسي؛ فإنه من الله معنىً، ومن الرسول لفظاً؛ لأن السنة وحي ثان؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النّجم: ٣-٤]. فالسنة وحي من الله إلا أن اللفظ من الرسول ﷺ، والمعنى من الله.

أما القران فلفظه ومعناه من الله، وكذالك الحديث القدسي

لفظه ومعناه من الله؛ ولهذا أضافه النبي إلى الله، كما في حديث أبي ذر: «**قال الله تعالى: يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً، فَلَا تَظَالَمُوا**»(١). وهذا كذلك: قال رسول الله ﷺ: «**قال اللهُ تعالَى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقي، فلِيَخْلُقُوا ذَرَّةً أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعيرةً**».

وفيه: أن المصوّر يعذّب؛ لأنه يؤمر فيقال: «**فلِيَخْلُقُوا ذَرَّةً أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعيرةً**». وهذا تعجيزٌ له.

○ **قوله**: «**ولَهُما عَنْ عائِشَةَ رضي الله عنها أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذاباً يَومَ القِيامةِ الّذينَ يضاهئونَ بخَلْقِ اللهِ»**» فيه: دليل على شدة ذنب العاصي، وعظم جرم هذا المصور، وأنه من أظلم الناس.

وفي هذا الحديث: بيان العلة في تحريم الصور؛ وهي المضاهاة بخلق الله، والتشبّه بالله في الخلق بالتصوير على مثال الحيوان.

ومن العلة أيضاً في تحريم التصوير: أنه وسيلة إلى الشرك كما حصل للأمم السابقة، وكما حصل لقوم نوح، فإنهم صوروا صور الصالحين الذين ماتوا في زمن واحد، ثم عكفوا على قبورهم، ثم عبدوهم؛ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، كما ثبت في «صحيح البخاري»(٢) في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢٣]. قال: هذه أسماء رجال صالحين في قوم نوح، فلما ماتوا حزنوا عليهم وصوروهم، ثم نصبوا صورهم، فلما طال عليهم الأمد دبّ عليهم الشيطان، وقال: إن آباءكم صوروا هؤلاء؛ لأنهم يستسقون بهم المطر، فعبدوهم.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، رقم (٢٥٧٧).
(٢) تقدم تخريجه.

فالتصوير من وسائل الشرك.

فتكون العلة في تحريم التصوير أمور:

أولاً: المضاهاة لخلق الله، والتشبه بالله بالخلق بالتصوير على مثال الحيوان.

ثانياً: أن التصوير وسيلة إلى الشرك. وعبادة غير الله.

ثالثاً: أن صور النساء والولدان وسيلة إلى الزنا، وانتشار الفواحش.

ومن ذلك صور الرؤساء والملوك، فالفتنة بهم أشد وأعظم؛ لأنه وسيلة إلى تعظيمهم.

وفي حديث ابن عباس الوعيد للمصورين قال: «**ولَهُما عنِ ابنِ عبَّاسٍ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «كلُّ مصوِّرٍ في النَّارِ يُجْعَلُ لَهُ بكلِّ صورةٍ صوَّرها نَفْسٌ يعَذَّبُ بها في جهَنَّمَ». ولَهما عَنهُ مرفوعاً: «مَنْ صَوَّرَ صورةً في الدُّنيا كُلِّفَ أنْ يَنْفُخَ فيها الرُّوحَ ولَيْسَ بنافِخٍ**».

وأنه يُجعل له في كل صورة صورها نفس يعذَّب بها في جهنم.

○ **قوله**: «**ولِمُسْلِمٍ عنْ أبي الهَيَّاجِ قالَ: قالَ لي عليٌّ: ألا أبْعَثُكَ علَى ما بَعَثَني عَلَيْهِ رسولُ اللهُ ﷺ؟ أنْ لا تَدَعَ صُورةً إلَّا طمَسْتَها، ولا قَبْراً مُشْرِفاً إلَّا سَوَّيْتَهُ**».

وفيه: وجوب طمس الصور.

ويؤخذ من هذه الأحاديث أحكام ومسائل ذكرها المصنف رحمه الله:

منها: الوعيد الشديد على المصورين.

ومنها: بيان العلة في التصوير؛ وهي ترك الأدب مع الله؛ لقوله: «**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقي**»، وهي جزء علة كما

سبق ذكر علل تحريم والتصوير.

ومنها: بيان قدرة الله وعجزهم؛ لقوله: «فَلِيَخْلُقُوا ذَرَّةً أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعيرةً».

ومنها: أن المصورين أشد الناس عذاباً يوم القيامة.

ومنها: أن الله يخلق بعدد كل صورة صوَّرها نفساً يعذب بها في جهنم.

ومنها: أن المصوِّر يكلّف بنفخ الروح، وهذا تعجيز له، وتعذيب له.

ومنها: الأمر بطمس الصور إذا وجدت.

○ **قوله**: «عَنْ أَبِي الهَيَّاجِ قَالَ لِي عَلِيٌّ: «أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ أَلَّا تَدَعَ صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا وَلَا قَبْراً مُشْرِفاً إِلَّا سَوَّيْتَهُ»» دليل على تحريم الصور المجسمة وغير المجسمة، التي لها ظل أو التي ليس لها ظلّ.

أما الصور المجسمة التي لها جسم ولها ظل؛ كأن يصور صورة من خشب أو من طين أو من حجر أو غيرها، فهذه حرام بإجماع العلماء من غير خلاف، والمراد صور ذوات الأرواح، فالحديث يدل على تحريم صور ذوات الأرواح من الحيوانات والآدميين والطيور والحشرات والحيتان، فإذا صور صورة لها ظل ولها جسم فهذه حرام بإجماع العلماء.

أما إذا صور صورة لا ظل لها، كالصور التي تكون في الورق أو في القماش أو في الجدران، فهذه حرام عند جماهير العلماء، ومذهب الأئمة الأربعة.

ويدل على ذلك حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، **قال**: كَانَ قِرَامٌ لِعَائِشَةَ،

سَتَرَتْ بِهِ جَانِبَ بَيْتِهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَمِيطِي عَنَّا قِرَامَكِ هَذَا، فَإِنَّهُ لَا تَزَالُ تَصَاوِيرُهُ تَعْرِضُ فِي صَلَاتِي**»(١).

ومنها حديث مسلم هذا الذي ذكره المؤلف عن أبي الهيَّاج: «أنْ لا تَدَعَ صُورةً إلَّا طمَسْتَها»، والطمس إنما يكون في الصور التي لا ظل لها.

ومنها: ما ثبت في الحديث: **عَنْ جَابِرٍ، قَالَ**: «**كَانَ فِي الْكَعْبَةِ صُوَرٌ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَنْ يَمْحُوَهَا، فَبَلَّ عُمَرُ ثَوْباً وَمَحَاهَا بِهِ، فَدَخَلَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَمَا فِيهَا مِنْهَا شَيْءٌ**(٢)».

ومنها: أنه في الحديث قال: «**كُلِّفَ أنْ يَنْفُخَ فيها الرُّوحَ ولَيْسَ بنافِخٍ**». وهذه علة عامة تدل على تحريم الصور سواء كان لها ظل أو ليس لها ظل.

ورُوي عن بعض التابعين إباحة الصور التي ليس لها ظل، وهم محجوجون بالأدلة.

ومن المعاصرين من فرَّق بين الصور الشمسية والصور الفوتوغرافية، وقال: الصور الفوتوغرافية والصور الشمسية هذه ليست صورة؛ لأنها عكس وحبس للظل، وإنما الصورة هي التي يصورها الإنسان وينقشها بالرسم أو باليد.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب «إن صلى في ثوب مصلب أو تصاوير، هل تفسد صلاته؟ وما ينهى عن ذلك؟»، رقم (٣٧٤).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب اللباس، باب «ما جاء في الصور»، رقم (٤١٥٦)، وأحمد (٣/ ٣٩٦).
وأخرجه الترمذي، كتاب اللباس، باب «ما جاء في الصورة»، رقم (١٧٤٩) دون قصة عمر.
وقال: «حديث حسن صحيح».

أما الصورة الفوتوغرافية يضغط الزر ثم يصور، فهذه صور شمسية وفوتوغرافية، وليست صورة وإنما هي عكس وحبس للظل!

وهذا باطل يردّه حديث أبي الهياج الأسدي: «أنْ لا تَدَعَ صُورةً إلَّا طمَسْتَها»، و«صورة» نكرة في سياق النهي، والقاعدة الأصولية: أن النكرة في سياق النهي أو النفي أو الشرط تعمّ، فتعمّ كلّ ما يسمى صورة، والصورة الفوتوغرافية هل تسمى صورة أو لا تسمى صورة؟ تسمى صورة، إذاً: هي داخلة في النهي.

وقد سئل سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ﷺ عمن فرّق بين الصور الفوتوغرافية والشمسية وقال: أنها حبس وعكس؟ قال: هذه مكابرة للواقع، يعني: أن قوله: أنها ليست صورة مكابرة.

فالصواب: أنها محرمة ولا يستثنى إلا ما كان للضرورة، قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعَام: ١١٩]. كالصورة التي في الأوراق النقدية لا حيلة للإنسان فيها.

وكذلك الصورة التي تكون في رخصة القيادة، وفي جواز السفر، أو في الشهادة العلمية، أو صور المجرمين.. هذه مستثناة، لأنها مما دعت الضرورة إليه، وما عدا ذلك فهو ممنوع، ما يفعله بعض الناس من كونه يصور نفسه وأولاده، ويضعها في برواز في البيت يقول: للذكرى، وينصبها للذكرى، فهذا محرم.

وقوم نوح إنما عبدوا الصور لما صوروا للذكرى، ليتذكروا الصالحين وعبادتهم، فعبدوهم من دون الله.

فينبغي للإنسان نبذ الصور، وأن يحاول طمسها من الجرائد والعلب وغيرها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وإذا كانت مغلقة أسهل مما لو كانت مفتوحة.

وأما تصوير غير ذوات الأرواح كأن يصور نهراً أو شجراً أو بيتاً ليس فيه إنسان ولا حيوان ولا دابة ولا طير ولا حوت.. فهذا فيه خلاف ضعيف من بعض العلماء.

والصواب أنه جائز، ولا بأس به.

ولهذا لما جَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، فَقَالَ: إِنِّي رَجُلٌ أُصَوِّرُ هَذِهِ الصُّوَرَ، فَأَفْتِنِي فِيهَا، فَقَالَ لَهُ: ادْنُ مِنِّي، فَدَنَا مِنْهُ، ثُمَّ قَالَ: ادْنُ مِنِّي، فَدَنَا حَتَّى وَضَعَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ، قَالَ: أُنَبِّئُكَ بِمَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ، يَجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْساً فَتُعَذِّبُهُ فِي جَهَنَّمَ**». وقَالَ: «**إِنْ كُنْتَ لَا بُدَّ فَاعِلاً، فَاصْنَعِ الشَّجَرَ وَمَا لَا نَفْسَ لَهُ**».

فيهِ مسائل:

- الأولَى: التغليظُ الشّديدُ في الْمُصَوِّرينَ.

في قوله: «أشد الناس عذاباً...»؛ وذلك أنه ضاهى الله بانفراده بالخلق.

وفي قوله: «من أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي»، والثالثة: أنه وُجِّه إليه بالتعجيز: «فليخلقوا ذرة..».

- الثانيَةُ: التنبيهُ علَى العِلَّةِ؛ وهيَ تَرْكُ الأَدبِ معَ اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقي».
- الثالِثةُ: التنبيهِ علَى قدرته وعجزهم؛ لقوله: «فلِيَخلقوا ذرة أوْ حبّةً أوْ شَعيرةً».
- الرَّابعةُ: التصريحُ بأنّهُم أشدّ النَّاسِ عذاباً.
- الخامِسَةُ: أنّ اللهَ يخلُقُ بعددِ كلِّ صورةٍ نفساً يُعذِّبُ بها

المُصَوِّرَ في جهنَّمَ.

- السَّادِسةُ: انَّهُ يُكلَّفُ أنْ يَنْفُخَ فيها الروحَ.
- السَّابِعةُ: الأمرُ بطمْسِها إذا وجُدِتْ».

❊ ❊ ❊

بَابُ مَا جَاءَ فِي كَثْرَةِ اَلْحَلِفِ

وَقَوْلُ اَللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [المَائدة: ٨٩].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اَللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «اَلْحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ». أَخْرَجَاهُ(١).

وَعَنْ سَلْمَانَ أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمْ اَللَّهُ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: أُشَيمِطٌ زَانٍ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ، وَرَجُلٌ جَعَلَ اَللَّهَ بِضَاعَتَهُ؛ لَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ، وَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ». رَوَاهُ اَلطَّبَرَانِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ(٢).

وَفِي «اَلصَّحِيحِ»(٣) عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَينٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ: «خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ اَلَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ اَلَّذِينَ يَلُونَهُمْ -قَالَ عِمْرَانُ: فَلَا أَدْرِي أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثاً؟- ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْماً يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذِرُونَ وَلَا

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب البيوع، باب «يمحق الله الربا ويربي الصدقات»، رقم (٢٠٨٧)، ومسلم، كتاب المساقاة، رقم (١٦٠٦).

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٦/ ٢٤٦) رقم (٦١١١)، و«المعجم الأوسط» رقم (٥٥٧٧)، و«المعجم الصغير» رقم (٨٢١).
قال المنذري: «ورواته محتج بهم في الصحيح». «الترغيب والترهيب» (٢/ ٣٦٧).
وقال الهيثمي: «ورجاله رجال الصحيح». «مجمع الزوائد» (٤/ ٧٨).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي، باب «فضائل أصحاب النبي»، رقم (٣٦٥٠)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، رقم (٢٥٣٥).

يُوفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمْ اَلسِّمَنُ».

وَفِيهِ[١] عَنِ اِبْنِ مَسْعُودٍ: أَنَّ اَلنَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «خَيْرُ اَلنَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ اَلَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ اَلَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ».

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: كَانُوا يَضْرِبُونَنَا عَلَى اَلشَّهَادَةِ وَالْعَهْدِ وَنَحْنُ صِغَارٌ»[٢].

الشَّرْح

مقصود المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بهذه الترجمة: بيان ما جاء في كثرة الحلف من النهي والوعيد؛ لما فيه من الاستخفاف وعدم التعظيم لله عَزَّ وَجَلَّ، وذلك ينافي كمال التوحيد الواجب أو ينافي كماله بالكلية.

○ **قوله:** «وقولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾ [المَائدة: ٨٩]».

أمر الله تعالى بحفظ اليمين، وروي عن السلف في معنى حفظ اليمين ثلاثة أقوال[٣]:

الأول: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾ أي: لا تحلفوا.

الثاني: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾ أي: عن الحنث فلا تحنثوا.

الثالث: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾ أي: عن تركها بلا تكفير. أي: اليمين المحنوث فيها بلا تكفير.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الشهادات، باب «لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد»، رقم (٢٦٥٢)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، رقم (٢٥٣٣).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الشهادات، باب «لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد»، رقم (٢٦٥٢)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، رقم (٢٥٣٣).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٠/ ٥٦٢)، وتفسير ابن كثير (٣/ ١٧٧)، وتفسير القرطبي (٦/ ٢٨٥).

وهذه الأقوال متلازمة؛ لأنه يلزم من كثرة الحلف الحنث، ويلزم من الحنث عدم التكفير، فإذا أكثر من الحلف حنث، وإذا حنث قد لا يكفِّر.

فينبغي للإنسان أن يقلل من الحلف بقدر المستطاع؛ ولهذا قال الشاعر يمدح من يقلل الحلف:

قَلِيلُ الْأَلَايَا حَافِظٌ لِيَمِينِهِ وَإِنْ بَدَرَتْ مِنْهُ الْأَلِيَّةُ بَرَّتِ(١)

(**قَلِيلُ الْأَلَايَا**): يعني: الحلف.

(**حَافِظٌ لِيَمِينِهِ ... وَإِنْ بَدَرَتْ مِنْهُ الْأَلِيَّةُ**): يعني الحلف.

(**بَرَّتِ**): تكون مبرورة، مكفرٌ عنها.

○ **قوله**: «عنْ أبي هُرَيْرَة ﵁ قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «الحَلْفُ مَنْفَقةٌ للسِّلْعةِ، مَمْحَقَةٌ للكَسْبِ»».

هذا الحديث فيه: أن الحلف في البيع والشراء منفقة للسلعة يعني: يروّجها ويدرّجها، فإذا حلف أنه اشتراها بكذا وكذا صار هذا مدعاة إلى تدريجها، فيغتر المشتري ويزيد، ولكن هذا البيع ممحوق البركة، لا يبارك الله في هذا البيع، وقد يكون هذا الحلف سبباً في ضياع هذا المال، وفي تلفه.

○ **قوله**: «وعَنْ سَلمانَ أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «ثَلاثَةٌ لا يُكلِّمُهُمُ اللهُ، ولا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُم عَذابٌ أليمٌ: أُشَيْمِطٌ زانٍ، وعائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ، ورَجُلٌ جَعلَ اللهَ بِضاعَتَهُ لا يَشْتَري إلَّا بيَمينِهِ، ولا يبيعُ إلَّا بِيَمينِهِ»».

هذا وعيد شديد يدل على أنه من الكبائر، والمراد بقوله: «لا يُكلِّمُهُمُ اللهُ» يعني: يوم القيامة.

---

(١) ديوان كثير بن أبي جمعة (ص ٥٨).

وفيه: إثبات الكلام لله ﷻ، والمعنى: لا يكلمهم الله كلام رضا، وإنما يكلمهم كلام سخط.

إذاً: الكلام صفة كمال، والكلام قائم بالله، فالله يتكلم متى شاء، إذا شاء كيف شاء؛ ولهذا قال أهل السنة والجماعة: إن الكلام صفة قديمة النوع، حادثة الآحاد.

فنوع الكلام قديم، لكن آحاد الكلام حادثة، فالله يتكلم متى شاء، يكلم ملائكته، يكلم رسله، يكلم أنبياءه، يكلم المؤمنين في الموقف، ويكلم المؤمنين في الجنة، أفراد الكلام حادثة، ونوع الكلام قديم، وهو قائم بالله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فإذا قالوا لنا يعني: النفاة: فهذا يلزمه أن تكون الحوادث قائمة به. قلنا: ومن أنكر هذا قبلكم من السلف والأئمة؟ ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك مع صريح العقل. ولفظ الحوادث مجمل، فقد يراد به الأعراض والنقائص، والله تعالى منزه عن ذلك، ولكن يقوم به ما يشاء من كلامه وأفعاله ونحو ذلك مما دل عليه الكتاب والسنة. والقول الصحيح: هو قول أهل العلم والحديث الذين يقولون: لم يزل الله متكلماً إذا شاء، كما قال ابن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما من أئمة السنة. اهـ[(١)].

إن قلتم يا أهل البدع: هل يقوم الكلام بالله؟ قلنا نحن: يقوم الكلام بالله، ولكنه لا يلزم من ذلك كما يقولون: أن الحوادث تقوم بالله، فالله لا يقوم بشيء من مخلوقاته، وإنما يقوم به الكلام الذي هو من صفاته، يتكلم بمشيئته واختياره.

---

(١) منهاج السنة النبوية (٢/ ٣٨٠).

وقد عاب الله تعالى بني إسرائيل الذين عبدوا العجل بأنه لا يتكلم، واستدل به على أن العجل لا يصلح إلهاً وهو لا يتكلم، قال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٨] يعني: العجل، ﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأعراف: ١٤٨] كيف يتخذونه إلهاً وهو لا يتكلم؟!

وقال في الآية الأخرى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه: ٨٩] فدل على أنّ عدم رجوع القول نقص يستدل به على عدم ألوهية العجل، فكيف يكون إلهاً وهو لا يستطيع أن يتكلم؟!

○ **قوله**: «لا يُزَكِّيهِمْ» أي: لا يطهرهم من الذنوب والمعاصي «وَلَهُم عَذابٌ أليمٌ» هذا وعيد شديد يدل على أن كل واحدة من هذه الثلاثة من كبائر الذنوب.

○ **قوله**: «أُشَيْمِطٌ»: الذي شمطه الشيب أي: أن شعره خالطه الشيب، «زان»: يعني: هذا الشيخ ضعفت همته، ومع ذلك يقع في الفاحشة، هذا يدل على محبته للفجور، وضعف إيمانه، وقلة ديانته، الشاب قد يكون عنده داع الزنا وقد يتوب، لكنَّ الشيخ يقدم على الزنا وقد ضعفت همته! فدل على حبّه للفواحش، وعلى أن قلبه أُشرِب حب الفواحش والجريمة، فهو يقع في الزنا مع ضعف الداعي.

○ **قوله**: «وعائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ»: العائل: الفقير، «مُسْتَكْبِرٌ»: ليس هناك داع يدعوه إلى الكبر، صاحب الأموال وصاحب الجاه قد يكون هناك ما يدعوه إلى الكبر، لكن هذا فقير ومع ذلك يتكبر، هذا يدل على أن الكبر صفة راسخة فيه، كاملة في نفسه، ويدل على ضعف إيمانه، وإلا فكيف يتكبر وليس هناك داع يدعوه للكبر؟!

فدل على أن المعصية تعظم مع قلة الداعي، والزنا حرام لا يجوز لا من الشيخ ولا من الشاب.

○ **قوله**: «ورَجُلٌ جَعلَ اللهَ بِضاعَتَهُ لا يَشْتَري إلَّا بيَمينِهِ، ولا يبيعُ إلَّا بِيَمينهِ» يعني: يدرج السلعة؛ كأن اليمين هي السلعة من كثرة الحلف، فإذا باع قال: والله ما بعت لأحد أكثر من هذا، دائماً يدرّج سلعته باليمين، وجعل الله بضاعته لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه - نسأل الله السلامة والعافية -، فهذا يدل على ضعف إيمانه، وأنه مستخف باليمين.

○ **قوله**: «وفي الصَّحيحِ عَنْ عِمرانَ بنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسولُ اللهُ ﷺ: «خيرُ أُمَّتي قَرْني، ثُمَّ الذينَ يلونَهُمْ، ثمّ الذينَ يلونَهم». قالَ عِمرانُ: «فلا أدري أذَكَرَ بَعدَ قرْنِهِ مرّتينِ أوْ ثلاثاً»».

المحفوظ أنه ذكر مرتين، فتكون القرون المفضلة ثلاثة، كما يدل عليه حديث ابن مسعود بعده.

قال: «ثُمَّ إنَّ بَعدَكُم قومٌ يَشْهَدونَ ولا يُسْتَشْهدونَ».

هذا فيه ذم اللذين يَشهدون ولا يُستشهدون، وهذا يدل على ضعف إيمانهم، فقوله: «يَشهدون»: يسارعون إلى أداء الشهادة قبل طلبها، ويُستثنى من هذا إذا كان المشهود له لا يعلم بالشهادة ثم يأتي الشاهد ويخبره، فيقول: عندي لك شهادة إذا طلبتها.

وهذا هو الجمع بينه وبين الحديث السابق، وفي الحديث الآخر: **«أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الشُّهَدَاءِ الَّذِي يَأْتِي بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا»**(١). فهذا محمول على ما إذا كان المشهود له لا يعلم بالشهادة، ثم جاء وأخبره

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الأقضية، رقم (١٧١٩) من حديث خالد بن زيد الجهني رضي الله عنه.

بأن عنده شهادة له متى ما طلبها فهي موجودة.

«ويَخُونُونَ ولا يُؤتَمنون»: هذا فيه ذمّ الذين عندهم خيانة في الأمانة.

«ويَنذُرونَ ولا يُوفونَ»: يقول: لله عليّ كذا ثم لا يفي بنذره.

ويَظهَرُ فيهمُ السِّمَنْ»: المعنى: لقلة رغبتهم في الآخرة، رغبوا في الدنيا وأقبلوا عليها، وأقبلوا على مآكلهم ومشاربهم فركبتهم الشحوم؛ بسبب إقبالهم على الدنيا ولذاتها وشهواتها.

وقد تركب الشحوم بعض الناس وإن كان تقيّاً؛ خلقةً لا من أجل إقباله على الدنيا، فهذا لا يُذمّ، فقد يكون مستقيماً، فإن من الصحابة عتبان بن مالك رضي الله عنه كان رجلا ضخماً[(١)].

○ **قوله**: «وفيهِ عن ابنِ مسعودٍ أنّ النبيَّ ﷺ قال: «خيرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمّ الذينَ يَلونَهُم، ثُمَّ الذينَ يلونَهُم»».

هذا فيه أنه لم يذكر إلا قرنين بعد قرنه، فدلّ على أن القرون المفضلة ثلاثة.

«ثُمَّ يَجيءُ قومٌ تَسْبقُ شِهادةُ أحدِهِم يمينَهُ ويمينُهُ شهادَته»: بعد القرون المفضلة يأتي هؤلاء القوم الذين هذا وصفهم؛ تسبق الشهادة يمينه وتسبق يمينه شهادته؛ لضعف إيمانهم، وقلة ديانتهم، لا يُبالون بالشهادة ولا باليمين، يستخفون بأمرها، فهو لا يبالي هل سبقت شهادته اليمين أم يمينه الشهادة، وليس عنده تورع.

○ **قوله**: «قال إبراهيمُ» هو النخعي، من صغار التابعين «كانوا»

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب « هل يصلي الإمام بمن حضر؟ وهل يخطب يوم الجمعة في المطر؟»، رقم (٦٧٠).

يعني: أصحاب عبد الله بن مسعود، وهم التابعون «يَضْرِبوننا عَلَى الشّهادةِ والعَهْدِ ونحنُ صغارٌ» وهذا يدل على كثرة علم التابعين، ورغبتهم في الآخرة، وقيامهم بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله.

وفيه: تمرين الصغار وتأديبهم وتعليمهم الخير، ولو بالضرب، لكنه ضرب تأديب وتعليم، وليس ضرباً مبرحاً، كما قال النبي ﷺ في الحديث: «**مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ**»(١). فيُضرب للصلاة لعشر من باب التأديب والتمرين، لا ضرب إيذاء وجرح، ضربٌ لا يكسر عظماً ولا يجرح، وإنما ضرب تأديب وتعليم.

فكان التابعون يضربون الصغار على الشهادة والعهد من باب التمرين والتأديب، فإذا حلف كاذباً ضربوه حتى يتأدب، وإذا شهد زوراً ضربوه حتى يتأدب، فلا يشهد الزور ويتمرّن على هذا منذ الصغر فيصبح ذلك خُلقاً له، وصار بعد ذلك يتحاشى الشهادة من غير حق، فيتحاشى ذلك في المستقبل؛ لأنه مُرِّن وتأدب على ذلك.

فيهِ مسائل:

❖ **الأولَى: الوصيَةُ بحفْظِ الأيمانِ.**

لقوله تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المَائدة: ٨٩].

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الصلاة، باب «متى يؤمر الغلام بالصلاة»، رقم (٤٩٥)، وأحمد (٢/ ١٨٠) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
قال النووي: «رواه أبو داود بإسناد حسن». «المجموع» (٣/ ١١).
وقال ابن الملقن: «هذا الحديث صحيح». «البدر المنير» (٣/ ٢٣٨).

- الثانِيَةُ: الإخبارُ بأنّ الحلفَ منفَقةٌ للسِّلعةِ ممحَقةٌ للبركةِ.
- الثَّالثة: الوعيدُ الشّديدُ فيمن لا يبيعُ ولا يَشْتَري إلَّا بيَمينِهِ.

فهو من الكبائر، من الثلاثة الذين لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم.

- الرابعة: التّنبيهُ علَى أنّ الذّنبَ يعظُمُ معَ قِلَّةِ الدَّاعي.

الذنب مع قلة الداعي مثل الأشيمط الزاني، والعائل المستكبر، والملك الكذاب.

- الخامِسَةُ: ذمّ الذينَ يَحلِفونَ ولا يُسْتَحْلَفونَ.

يتهاونون في اليمين.

- السَّادسةُ: ثناؤُهُ ﷺ علَى القرونِ الثّلاثَةِ أو الأربعةِ وذكرُ ما يحدُثُ بعدهم.
- السابعةُ: ذمّ الذينَ يشْهَدونَ ولا يُسْتَشهَدونَ.
- الثامنةُ: كوْنُ السّلفِ يضربونَ الصِّغارَ علَى الشّهادةِ والعهْدِ.

وفيه: فضل علم السلف، وقيامهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

بَابُ مَا جَاءَ فِي ذِمَّةِ ٱللَّهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النّحل: ٩١] الْآيَةَ.

عَنْ بُرَيْدَةَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ ٱللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيراً عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ بِتَقْوَى ٱللَّهِ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ خَيْراً.

فَقَالَ: «اُغْزُوَا بِسْمِ ٱللَّهِ، فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِٱللَّهِ، اُغْزُوَا، وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيداً، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ، فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ -أَوْ خِلَالٍ-، فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ، فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ٱدْعُهُمْ إِلَى ٱلْإِسْلَامِ فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، ثُمَّ ٱدْعُهُمْ إِلَى ٱلتَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ ٱلْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى ٱلْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ ٱلْمُسْلِمِينَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ ٱللَّهِ تَعَالَى، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي ٱلْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ ٱلْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا، فَاسْأَلْهُمُ ٱلْجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ، فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكَفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا، فَاسْتَعِنْ بِٱللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ.

وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ، فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ ٱللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ ٱللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنِ ٱجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ أَنْ تَخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تَخْفِرُوا ذِمَّةَ ٱللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ، فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ ٱللَّهِ، فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ ٱللَّهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى

حُكْمِكَ؛ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ فِيهِمْ حُكْمَ اَللَّهِ أَمْ لَا». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(١)].

الشَّرْح

مقصود المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بهذه الترجمة: وجوب تعظيم ذمة الله وذمة نبيه، وعدم إخفارهما أي: نقضهما والغدر فيهما.

○ «وَقَوْلِهِ: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [النّحل: ٩١]» في هذه الآية أمر الله تعالى بالوفاء بالعهود والمواثيق، وحفظ الأيمان المؤكدة.

قوله: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ لا ينافي الأمر بحفظ الأيمان والأمر بالكفارة إذا حنث؛ لأن المراد بالأيمان الداخلة في العهود والمواثيق.

أما الأيمان التي يحلف بها الإنسان على ترك فعل برّ وما أشبه ذلك، فإن هذه هي المأمور بحفظها.

أما الأيمان الداخلة في العهود والمواثيق، فهذه هي التي نهى الله تعالى عن نقضها: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾، فتوعد على نقضها.

﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ﴾ يعني: إذا أخذتم العهد والميثاق وأبرمتم عهداً وميثاقاً، فالله كفيل؛ ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [النّحل: ٩١] يعني: سيجازيكم على نقضكم

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجهاد والسير، رقم (١٧٣١).

الأيمان الداخلة في العهود والمواثيق، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ ختم الآية بالتهديد والوعيد، فدل على أنه لا يجوز نقض الأيمان الداخلة في العهود والمواثيق.

أما الأيمان التي يحلفها الإنسان فيما بينه وبين إخوانه، فهذه هي التي أمر الله بحفظها، وهي التي إذا حلف على ترك برٍّ، فله أن يحنث ويكفّر.

○ **قوله**: «وَعَنْ بُرَيْدَةَ»: هو بريدة بن الحصيب.

«قال: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ امِيراً عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ» فيه: مشروعية تأمير الأمراء على الجيوش والسرايا من قبل الإمام، ويجب عليهم السمع والطاعة.

وفيه: مشروعية الجهاد في سبيل الله، وإرسال البعوث والسرايا.

وكلمة (كان) تُشعر بالاستمرار والدوام، قال العلماء: إن الجهاد يجب على الأمة كلهم مع القدرة أن يجاهدوا ولو في العام مرة، وإلا فإنهم إذا تركوا الواجب غُزُوا، إذا تركوا غزو الكفار غزاهم الكفار، كما هو الواقع، فالكفار الآن غزوا المسلمين، ولكن نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفق المسلمين لاتحاد الكلمة، وتصحيح العقيدة، واجتماع الصف، وإلى التحاكم إلى شرع الله، فنسأل الله تعالى أن يعلي كلمته، ويرفع علم الجهاد، وينصر المسلمين على أعدائهم.

أما الشخص فلا يكون الجهاد واجباً عليه إلا في ثلاث حالات:

الحالة الأولى: إذا داهم العدو بلداً من بلاد المسلمين، فيجب عليهم أن يدافعوا عن أنفسهم، ولا يحتاج إذن الوالدين ولا غيرهما، الرجال والنساء، فإن لم يندفع وجب على من حولهم من البلدان.

الحالة الثانية: إذا استنفر الإمام شخصاً أو أشخاصاً يكون

فرض عين.

الحالة الثالثة: إذا وقف في الصفّ فليس له أن يفرّ ويخذل إخوانه.

ففي هذه الحالات يكون الجهاد بالنسبة للأشخاص فرض عين، وما عداه فإنه سنة مستحبة، مرغّب فيها، وهو ذروة سنام الإسلام.

«أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ، وَبِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْراً» فيه: مشروعية وصية الإمام للسرية والجيش الذي يعقده، فيوصيهم بتقوى الله، ويحذرهم من المعاصي؛ فإن المعاصي التي تصدر من أفراد الجيوش هي سبب تسليط الأعداء عليهم، كما قال الله تعالى في أفضل وأعظم جيش، وفيهم رسول الله ﷺ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ [آل عمران: ١٦٥] فإذا كان أفضل جيش وفيهم رسول الله وهم أفضل الناس يقال لهم هذا، فكيف بغيرهم؟!

«فَقَالَ: «اغْزُوا بِسْمِ اللهِ، قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ» فيه: أن الغزو والقتال إنما هو لإعلاء كلمة الله؛ ولذا قال: في سبيل الله. وليس من أجل التشفّي، ولا من أجل ابتزاز أموالهم، ولا من أجل تحرير الأرض، ولا من أجل العصبية للدم ولا للعرق ولا للون، وإنما هو في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، كما في حديث أَبِي مُوسَى رضي الله عنه، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ الرَّجُلُ: يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ، فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ قَالَ: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**»(١) فلابد أن يكون القتال لإعلاء كلمة الله؛ ولهذا قال: «**اغزوا بسم الله**». يعني: مستعينين باسم الله.

---

(١) تقدم تخريجه.

وفيه: الاستعانة باسم الله وذكره، كما قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٤٥﴾ [الأنفَال: ٤٥] فلا بد من الإكثار من ذكر الله، ولا بد من الاستعانة بالله، والاستعانة باسمه سبحانه.

«قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ مَنْ كَفَرَ بِاللهِ».

قاتلوا: أمر، والعلة قوله: من كفر بالله، فعندنا حكم، وعندنا علة؛ فالحكم: الأمر بالقتال، والعلة من كفر أنه يقاتل.

والقاعدة الأصولية: أن تعليق الحُكْم بوصف مشتق يؤذن بالعلِّية، فعلّق الحُكْم وهو القتال بالكفر، فدل على أن العلة في القتال هي الكفر، فالقتال إنما هو لأجل الكفر لا لأجل شيء آخر، نخرجهم من الظلمات إلى النور؛ لأجل أن يؤمنوا بالله ورسوله، فلا نقاتلهم من أجل أموالهم، ولا من أجل ديارهم، ولا من أجل مقاصد أخرى، إنما نقاتلهم دفعاً للكفر.

وهذا فيه الردّ على بعض الكُتّاب والمعاصرين الذين يقولون: إن الجهاد إنما شُرع للدفاع فقط. فهذا باطل، فإن الجهاد شُرع للدفاع، وشُرع أيضاً بدْءاً وطلبا وهجوماً.

وشرعية الجهاد على ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: الإذن بالقتال، وهذا بعد الهجرة للمدينة، ففي مكة كان النبي ﷺ منهيٌ عن القتال، ومأمور بالصفح: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ﴾ [المَائدة: ١٣]، ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ۝٨٥﴾ [الحِجر: ٨٥]، ﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾ [آل عِمرَان: ٢٠٠] لأنه ليس لهم قدرة، وليس لهم قوة، ليس هناك جيش، ولا يستطيعون مقابلة الكفار، ولهذا أمر بالصفح والصبر: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٠٦﴾ [الأنعَام: ١٠٦].

هذه المرحلة الأولى الإذن بالقتال فقط، السماح والإذن والرخصة.

ثم لمّا هاجر إلى المدينة، وتكوّن الجيش، وصارت البلد بلد إسلام، جاءت مراحل الجهاد.

المرحلة الثانية: الأمر بالقتال للدفاع عن النفس؛ قتال من قاتل، والكفّ عمن لم يقاتل: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾ [البقرة: ١٩٠] ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ٩٠﴾ [النِّسَاء: ٩٠] إذا اعتزلوكم وتركوكم فليس لكم أن تقاتلوهم.

المرحلة الثالثة: القتال بدْءاً وهجوماً، قتالهم وغزوهم في بلادهم بدءاً وهجوماً، كما في هذا الحديث: «**قاتلوا من كفر بالله**». وكما في الآية: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ﴾ [البَقَرَة: ١٩١]. وكما في قوله ﷻ: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [التّوبَة: ٥]. وقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ﴾ [التّوبَة: ٣٦] هذه المرحلة الثالثة؛ شُرع بدْءاً وهجوماً.

وهذا فيه الردّ على المعاصرين وبعض الكُتّاب الذين يريدون أن يصانعوا المشركين ويوافقوهم ويتقربوا إليهم، فيقولون: الجهاد ما شُرع إلا للدفاع ولم يشرع للهجوم، والإسلام ما يتشفى ولا يريد الدماء، الإسلام حينما يغزو المشركين ويقاتلهم فهذا فيه خير لهم؛ لأن من أُسر منهم وأسلم خير له ولا شك، وفي الحديث الصحيح: «**عَجِبَ اللَّهُ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ فِي السَّلَاسِلِ**»(١). قال العلماء: هؤلاء هم الكفار، حين يأسرهم المسلمين وهم كفار، ثم بعد ذلك

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب «الأسارى في السلاسل»، رقم (٣٠١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يمنّ الله عليهم بالإسلام فيدخلون الجنة، فهم أُسروا وهم كفار ودخلوا الإسلام، فدخلوا الجنة بالسلاسل، فنحن نغزوهم ونقاتلهم، وهذا فيه خير لهم.

فمن أسلم ففيه تخليص له من النار، وتخليص له من الشرك، ومن لم يسلم وقتل فهذا تخفيف له من العذاب؛ لأنه لو استمر على كفره زاد عذابه، فإذا قُتل خفّ عذابه، فالقتال فيه خير له.

«اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيداً».

«وَلَا تَغُلُّوا»: فيه تحريم الغلول، والغلول هو الأخذ من الغنيمة قبل أن تقسم، فيسرق بعض أفراد الجيش من الغنيمة شيئاً قبل أن تُقسم، هذا من كبائر الذنوب، في قصة العبد الذي مات في غزوة خيبر، فقال الناس: هنيئاً له الجنة. فقال ﷺ: «**كَلَّا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ الشَّمْلَةَ الَّتِي أَخَذَهَا يَوْمَ خَيْبَرَ مِنَ المَغَانِمِ، لَمْ تُصِبْهَا المَقَاسِمُ، لَتَشْتَعِلُ عَلَيْهِ نَاراً**»(١). الشملة قطعة قماش أخذها قبل أن تقسم صارت تشتعل عليه ناراً، سرقها من الغنيمة.

ومثله: السرقة من بيت المال، هذا مثل الغلول، أو السرقة من أموال جُمعت لأجل أوقاف أو أعمال خيرية، ثم جاء بعض الناس يسرق منه، هذا غلول.

«وَلَا تَغْدِرُوا»: فيه تحريم الغدر، حتى لو كان كافراً، لا يجوز الغدر، ولا يجوز نقض العهود، وإذا أراد أن يقاتل الكفار ينبذ إليهم عهدهم، يقول: الآن ما بيننا وبينكم عهد: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨] إذا خفت منهم نقض عهد انبذ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب «غزوة خيبر»، رقم (٤٢٣٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (١١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إليهم وأخبرهم، قل: ما بيننا وبينكم عهد الآن، ما بيننا وبينكم إلا القتال الآن؛ حتى يكون هو على استعداد، وأنت على استعداد، أما الغدر فلا يجوز، تغدر به وبينك وبينه أمان وعهد وميثاق، ثم تهجم عليه وهو غافل على أنه بينك وبينه عهد هذا الغدر، لا يجوز، لا بد أن تنبذ إليه عهده إذا أردت أن تقاتله.

«وَلَا تُمَثِّلُوا»: تحريم التمثيل، والتمثيل هو قطع بعض أطراف الميت.

«وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيداً»: كذلك لا يقتلون الصبيان؛ لأنهم لا يُقاتِلون، ومثله النساء كما جاء في الحديث: **عَنِ ابْنِ عُمَرَ** ﵄، **قَالَ: وُجِدَتِ امْرَأَةٌ مَقْتُولَةً فِي بَعْضِ مَغَازِي رَسُولِ اللَّهِ** ﷺ، «**فَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ** ﷺ **عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ**»[(١)]، والأولاد لا يُقتلون، وكذلك الشيخ الفاني، الذي لا تأثير له في القتال لا يُقتل، وكذلك الراهب في الصومعة - العابد - لا يقتل؛ لأن هؤلاء ليس لهم تأثير في القتال، ومن كان له تأثير في القتال يقتل، إذا شارك الصبي من الكفار في القتال يُقتل، أو شاركت المرأة، أو كان الشيخ رجلاً فانياً لكن له تدبير في الحروب، وله رأي، مثل دريد ابن الصمّة، «**فإن النبي** ﷺ **لما فرغ من حنين بعث أبا عامر على جيش أوطاس، فلقي دريد بن الصمة، وقد كان نيف على المائة، وقد أحضروه ليدبر لهم الحرب، فقتله أبو عامر ولم ينكر النبي** ﷺ **ذلك عليه**»، كما ثبت في الصحيحين[(٢)] من حديث أبي موسى، والقصة معروفة.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب «قتل الصبيان في الحرب»، رقم (٣٠١٤)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، رقم (١٧٤٤) من حديث ابن عمر ﵁.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب «غزوة أوطاس»، رقم (٤٣٢٣)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، رقم (٢٤٩٨).

«وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ -أَوْ خِلَالٍ- فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ».

خصال أو خلال بمعنى واحد، وقد بينها في الحديث: الإسلام، والجزية، والقتال.

«وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» واليهودي مشرك، والنصراني مشرك، والوثني مشرك، **وقد** احتج الإمام مالك بهذا على أن الجزية تؤخذ من جميع أصناف الكفرة من العرب وغير العرب، ومن الكتابيين وغير الكتابيين.

فادعهم إلى هذه الخصال الثلاث.

وذهب الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ والإمام أحمد والجمهور: إلى أن هذا العموم مخصص بالآية الكريمة، مخصص بأهل الكتاب، وأن الجزية لا تؤخذ إلا من أهل الكتاب؛ لقول الله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التوبة: ٢٩].

ودلت السنة على إلحاق المجوس أيضاً، وأنه تؤخذ منهم الجزية؛ لقول النبي ﷺ: «**سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ**»(١). فجمهور من الشافعية والحنابلة وغيرهم ذهبوا إلى: أن الجزية خاصة بأهل الكتاب، وأما الإمام مالك فقال: إنها عامة، تؤخذ الجزية من أهل الكتاب وغير أهل الكتاب؛ أخذاً بعموم الحديث، والإمام أبو حنيفة

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» (١/ ٢٧٨) رقم (٦١٦) من حديث عبدالرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
قال ابن حجر: «وهذا منقطع، مع ثقة رجاله». «فتح الباري» (٦/ ٢٦١).

قال: تؤخذ الجزية من كل أحد إلا من مشركي العرب، فهؤلاء لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف، سواء كانوا أهل كتاب أو غير أهل كتاب، والصواب التخصيص، وفيه دليل على أن القرآن يخصص السنة، والسنة تخصص الكتاب.

«ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ».

كلمة «ثُمَّ» جاءت في «صحيح مسلم»، وليست في «سنن أبي داود»، والصواب سقوطها[1].

«فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ» يعني: إذا استجابوا للإسلام فاقبل منهم.

«ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُم أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ».

هذا فيه الأمر بالهجرة، يعني: من مكة إلى المدينة، وهذا في أول الأمر، فكان يجب الهجرة إلى المدينة على كل من دخل في الإسلام، وبعد أن فتحت مكة سقط الوجوب، واستمرت الهجرة باقية من بلد الشرك إلى بلد الإسلام.

فإذا تحولوا إلى دار المهاجرين صار لهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين.

«فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا» يعني: إن أبوا أن يتحولوا من دارهم إلى دار المهاجرين فبقوا في بلدانهم.

---

(١) قال النووي: هكذا هو في جميع نسخ صحيح مسلم «ثم ادعهم». قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: صواب الرواية: «ادعهم» بإسقاط «ثم»، وقد جاء بإسقاطها على الصواب في كتاب أبي عبيد، وفي سنن أبي داود وغيرهما؛ لأنه تفسير للخصال الثلاث وليست غيرها، وقال المازري: ليست «ثم» هنا زائدة بل دخلت لاستفتاح الكلام. شرح النووي على مسلم (١٢/ ٣٨).

«فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ تَعَالَى، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ».

فإذا أسلموا يأمرهم بالتحول إلى دار المهاجرين، فإن استجابوا صار لهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، وإن أبوا أخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، وليس لهم في الغنيمة والمال شيء إلا أن يجاهدوا، وهذا يدلّ على أن الهجرة باقية من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، ولعل هذا في السنة التاسعة بعد فتح مكة.

«فَإِنْ هُمْ أَبَوْا» - الإسلام - «فَاسْأَلْهُمُ الْجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا» - عن دفع الجزية - «فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ».

هذه الثلاثة: الإسلام، ثم الجزية، ثم القتال.

«وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ؛ فَإِنَّكُمْ إِنْ تَخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تَخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ».

«تَخْفِرُوا» يعني: تنقضوا العهد والذمة، من أَخْفَرَ يَخْفِرُ - من الرباعي - إذا نقض العهد، والنقض هو الغدر، أما خَفَرَ - الثلاثي - بمعنى صان أو حمى، فالفرق بين الاثنين هو الهمزة، إذا زدت الهمزة صار معناها: الغدر ونقض العهد، وإذا حذفت الهمزة صار معناها: الصيانة وحفظ العهد، من الأضداد[1].

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٥٢).

فالرسول عليه الصلاة والسلام يقول: إذا حاصرت حصناً وقالوا لك: ننزل على ذمة الله وذمة نبيك، فلا تعطهم ذمة الله وذمة نبيه، وإنما أعطهم ذمتك وذمة أصحابك؛ والسبب أنه لو نقض العهد أحد من الجيش، فكونه ينقض عهدك وعهد أصحابك أهون من كونه ينقض عهد الله وعهد نبيه.

وفيه دليل لمسألة ارتكاب أخفّ الضررين، وهو دليل القاعدة المشهورة أنه إذا وجد مفسدتان لا يمكن تركهما، فإنه ترتكب المفسدة الصغرى لدفع الكبرى، وإذا وجدت مصلحتان لا يمكن فعلهماو فإنا نفعل المصلحة الكبرى وإن ضاعت الصغرى؛ ولهذا قال لهم النبي ﷺ: «وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ»، ثم بين العلة فقال: «فَإِنَّكُمْ إِنْ تَخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تَخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ» التقدير: فإن إخفار ذممكم وذمة أصحابكم أهون من إخفار ذمة الله وذمة نبيه.

«وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ، فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ؛ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ فِيهِمْ حُكْمَ اللهِ أَمْ لَا».

وهذا فيه دليل على أنه إذا حاصر الحصن وأرادوه أن ينزل على حكم الله فلا ينزلهم، وإنما ينزل على حكمه وحكم أصحابه، وعلل فقال: «فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ فِيهِمْ حُكْمَ اللهِ أَمْ لَا» ففيه: دليل على القاعدة الأصولية: أن المصيب واحد، وأن الحق واحد لا يتعدد، فإذا كانت المسألة لا يعلم فيها الإنسان الحُكْم الشرعي يجتهد،

والمجتهد المصيب واحد، والباقي مخطئون، لكن من اجتهد فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد.

وفيه من الفوائد كما استنبط المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ من المسائل: الفرق بين ذمة الله، وذمة نبيه، وذمة المسلمين.

وفيه: أن الغزو يكون لإعلاء كلمة الله، مستعينين بالله: «**اغْزُوا بِسْمِ اللهِ، قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ**».

وفيه: الفرق بين حُكْم العلماء وحُكْم الله ورسوله.

وفيه: أن الصحابي قد يحكم في مسألة لا يدري أيصيب حُكْم الله عليه.

فِيهِ مَسَائِلُ:

- اَلْأُولَى: اَلْفَرْقُ بَيْنَ ذِمَّةِ اَللَّهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ، وَذِمَّةِ اَلْمُسْلِمِينَ.

في قوله: «وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ، فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ؛ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ فِيهِمْ حُكْمَ اللهِ أَمْ لَا».

- اَلثَّانِيَةُ: اَلْإِرْشَادُ إِلَى أَقَلِّ اَلْأَمْرَيْنِ خَطَراً.

في قوله: «فَإِنَّكُمْ إِنْ تَخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تَخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ».

- اَلثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ: اُغْزُوَا بِسْمِ اَللَّهِ فِي سَبِيلِ اَللَّهِ.

في ذلك الإخلاص (فِي سَبِيلِ اَللَّهِ)، والاستعانة (بسم الله).

- اَلرَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاَللَّهِ.

العلة في الغزو وأنها الكفر، فلا يقاتل الفسقة.

- اَلْخَامِسَةُ: قَوْلُهُ: اِسْتَعِنْ بِاَللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ.

الاستعانة بالله في فعل الأوامر.

- اَلسَّادِسَةُ: اَلْفَرْقُ بَيْنَ حُكْمِ اَللَّهِ وَحُكْمِ اَلْعُلَمَاءِ.
- اَلسَّابِعَةُ: فِي كَوْنِ اَلصَّحَابِيِّ يَحْكُمُ عِنْدَ اَلْحَاجَةِ بِحُكْمٍ لَا يَدْرِي أَيُوَافِقُ حُكْمَ اَللَّهِ أَمْ لَا؟

لأنه قال: «فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ فِيهِمْ حُكْمَ اللهِ أَمْ لَا» فحكم الله نص يجب العمل به على كل حال، وأما حكم العلماء فيجب عند خفاء حكم الله وحكم رسوله ﷺ.

بَابُ مَا جَاءَ فِي الإِقْسَامِ عَلَى اللّهِ

عَنْ جُنْدُبِ بنِ عَبْدِاللَّهِ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ رَجُلٌ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ. فَقَالَ اللهُ ﷻ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟ إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: «أَنَّ الْقَائِلَ رَجُلٌ عَابِدٌ». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ، أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ»(٢).

الشَّرح

المقصود من ترجمة هذا الباب: بيان ما جاء في الإقسام على الله من الوعيد؛ لما فيه من إساءة الظنّ بالله، والتحجُّر على رحمة الله، والتألّي على الله، والجُرْأة عليه.

○ **قوله**: «عَنْ جُنْدُبِ بنِ عَبْدِ اللَّهِ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ رَجُلٌ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ. فَقَالَ اللَّهُ ﷻ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أنْ لَا أغْفِرَ لِفُلَانٍ؟»

التألّي هو الحلف، والأليّة هي الحلف، ومنه قول الشاعر:

قَلِيلُ الْأَلَايَا حَافِظٌ لِيَمِينِهِ ... وَإِنْ بَدَرَتْ مِنْهُ الْأَلِيَّةُ بَرَّتِ(٣)

(**قَلِيلُ الْأَلَايَا**): يعني الحلف.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، رقم (٢٦٢١).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب «في النهي عن البغي»، رقم (٤٩٠١)، وأحمد (٢/ ٣٢٣).

(٣) سبق في بَابُ مَا جَاءَ فِي كَثْرَةِ الْحَلِفِ.

(حَافِظٌ لِيَمِينِهِ . . . وَإِنْ بَدَرَتْ مِنْهُ الْأَلِيَّةُ): يعني الحلف.

(بَرَّتِ): تكون مبرورة، مكفرٌ عنها.

هذا الحديث قدسي من كلام الله لفظاً ومعنى، لمّا قال هذا الرجل: «وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ. فَقَالَ اللهُ ﷻ: «مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ» - ويحجر علي - أَنْ لَا اغْفِرَ لِفُلَانٍ؟ إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ» يعني: لهذا الرجل، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ» يعني: القائل.

○ **قوله:** «وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ الْقَائِلَ رَجُلٌ عَابِدٌ».

وجاء في سنن أبي داود: «**كَانَ رَجُلَانِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَوَاخِيَيْنِ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ، وَالْآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ، فَكَانَ لَا يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الْآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ فَيَقُولُ: أَقْصِرْ، فَوَجَدَهُ يَوْماً عَلَى ذَنْبٍ فَقَالَ لَهُ: أَقْصِرْ، فَقَالَ: خَلِّنِي وَرَبِّي أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيباً؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ، أَوْ لَا يُدْخِلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ، فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَقَالَ لِهَذَا الْمُجْتَهِدِ: أَكُنْتَ بِي عَالِماً، أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدِي قَادِراً؟ وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلْآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ**».

هذا فيه من الفوائد كما استنبط المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: تحريم التألي على الله، والإقسام على الله؛ لما فيه من التحجّر على الله، والجرأة عليه، وإساءة الظن به.

وفيه أيضاً: أن النار أقرب إلى الإنسان من شِراك نعله، والجنة أقرب إلى الإنسان من شِراك نعله، لحديث: «**الجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ**»(١) كلمة واحدة تكلم بها

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك»، رقم (٦٤٨٨) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

دخل النار، إذاً النار قريبة وليست بعيدة! والجنة قريبة، ليس بينهما وبين الإنسان إلا أن يقال: فلان مات، إذا مات على التوحيد نُقلت روحه إلى الجنة، تتنعّم ولها صلة بالجسد، وإذا مات على الكفر نُقلت روحه إلى النار، ولها صلة بالجسد والعياذ بالله.

وفيه من الفوائد: أن الرجل ليتكلم بالكلمة يهوي بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب.

وفي الحديث الآخر: «**إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالاً، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالاً، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ**». وفي رواية: «**إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ، مَا يَتَبَيَّنُ فِيهَا، يَزِلُّ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ المَشْرِقِ**»(١). نعوذ بالله.

وفي حديث معاذ أن النبي ﷺ قال له: «**كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا**»: **فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ**: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ**»(٢).

وفيهك: أنه يجب الحذر وحفظ اللسان، قال عَبْدُاللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ: «**وَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مَاعَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ شَيْءٌ أَحَقُّ لِطُولِ سِجْنٍ مِنْ لِسَانٍ!**»(٣). فاللسان هو أحق من يسجن، جعل الله لك

(١) تقدم تخريجه. (٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٥/ ٣٢٠) رقم (٢٦٤٩٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٩/ ١٤٩) رقم (٨٧٤٤ ـ ٨٧٤٧).

قال المنذري: «رواه الطبراني موقوفًا بإسناد صحيح». «الترغيب والترهيب» (٣/ ٣٣٧). =

عليه حواجز، عندك الشفتين والأسنان كلها تمنع من الكلام، واللسان بعد ذلك، فينبغي أن يسجن اللسان، **والكلام له ثلاثة أحوال:**

الحالة الأولى: ما تبينت فيه مصلحة، هذا يتكلم فيه الإنسان.

الحالة الثانية: ما تبينت مضرته، هذا يمسك عنه الإنسان.

الحالة الثالثة: ما لم يتبين فيه مصلحة ولا مضرة، فهو مخير.

فالمؤلف يقول ﵀: هذا الحديث فيه شاهد لحديث: «إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ، مَا يَتَبَيَّنُ فِيهَا، يَزِلُّ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ المَشْرِقِ».

وفيه من الفوائد: إطلاق الكلمة على الجُمل، فالجُملة تسمى كلمة، وقد تسمى الخطبة كلها كلمة، فيقال: فلان ألقى كلمة، وهي خطبة كلمات كثيرة، فالكلمة تُطلق على الكلام.

○ **قوله:** «قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ» أذهبت دنياه وآخرته وهي قوله: «وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لَكَ، أَوْ لَا يُدْخِلُكَ اللهُ الْجَنَّةَ» فالواجب الحذر من فلتات اللسان.

وفيه من الفوائد: أن الإنسان قد يدخل الجنة بسببٍ هو مِن أكره الأمور إليه، فهذا العاصي دخل الجنة بسبب أن هذا دعاه وهو يكرهه، وقال له: اترك المعصية، فلما قال له: والله لا يغفر الله لك. دخل الجنة بسبب هو يكرهه.

فالإقسام على الله من إساءة الظن بالله، وهو غير الإقسام على

= وقال الهيثمي: «رواه الطبراني بأسانيد، ورجالها ثقات». «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٠٣).

الله الذي هو من باب إحسان الظن بالله؛ فهناك إقسام على الله من باب إحسان الظن بالله، مثل قوله عليه الصلاة والسلام: «**رُبَّ أَشْعَثَ، مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ**»(١) يعني: ليس له مكانة في المسلمين، أشعث شعره، لا يدهنه ولا يكدّه، ولا يسرّح شعره، بل هو أغبر، ثيابه ليست نظيفة لفقره، مدفوع بالأبواب ليس له مكانة في المجتمع، لكن له مكانة عند الله بسبب عمله الصالح، فلو أقسم على الله لأبره، فهذا حاله عند الناس لا قيمة له، لكن له قيمة عند الله، لو أقسم على الله لأبرّ الله قسمه لكرامته على الله، ولمنزلته عنده بسبب عمله الصالح، وإخلاصه وتوحيده، وصدقه مع الله، واستقامته على أمر الله، ووقوفه عند حدود الله؛ فلهذا لو أقسم على الله لأبره.

ومن ذلك: أن البراء بن مالك كان مستجاب الدعوة، وكان يقسم على الله، فإذا التقت الصفوف، وقابلوا الكفار قالوا له: يا براء، أقسم على ربك أن ينصرنا على أعدائنا. فيقسم على الله فينصرون(٢)، فهذا من باب إحسان الظن بالله.

ومن ذلك قصة **الرُّبَيِّعَ، وَهْيَ عَمَّةُ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ** وأخت **أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ**، أنها كسرت **ثَنِيَّةَ** جارية متعمدة، فرفع أهل الجارية الحكم إلى النبي ﷺ، فأمر النبي ﷺ بأن يقتص من الرُّبَيِّعَ، وتكسر ثنيتها قصاصاً، فجاء أنس بن النضر إلى النبي ﷺ فقال: **أَتُكْسَرُ ثَنِيَّةُ الرُّبَيِّعِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، لَا تُكْسَرُ ثَنِيَّتُهَا، فَقَالَ**: «**يَا**

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ٣٣١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه».

أَنَسُ، كِتَابُ اللهِ القِصَاصُ»، فالله ﷻ ليّن قلوب أهل الجارية، فعفوا فأخذوا الدية. **فَرَضِيَ القَوْمُ وَعَفَوْا، فَقَالَ النَّبِيُّ** ﷺ: «**إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ**»[(١)] فهذا الإقسام من باب حسن الظن بالله، لا من باب التحجّر والتألّي على الله.

ولكن مع ذلك ينبغي للإنسان أن يتأنّى حتى ولو كان يرى أنه أهل لذلك، فلا ينبغي أن يتسرّع في مسألة الإقسام على الله، فلا يقسم على الله في أمر من الأمور إلا بعد التأمل والتروّي والتأكّد؛ حتى لا تزلّ به القدم.

فِيهِ مَسَائِلُ:

- الأُولَى: التَّحْذِيرُ مِنَ التَّأَلِّي عَلَى اللَّهِ.
- الثَّانِيَةُ: كَوْنُ النَّارِ أَقْرَبَ إِلَى أَحَدِنَا مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ.
- الثَّالِثَةُ: أَنَّ الجَنَّةَ مِثْلُ ذَلِكَ.
- الرَّابِعَةُ: فِيهِ شَاهِدٌ لِقَوْلِهِ: إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ إِلَى آخِرِهِ.
- الخَامِسَةُ: أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ يُغْفَرُ لَهُ بِسَبَبٍ هُوَ مِنْ أَكْرَهِ الأُمُورِ إِلَيْهِ».

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الديات، باب «الصلح في الدية»، رقم (٢٧٠٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

بَابُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه، نُهِكَتِ الْأَنْفُسُ، وَجَاعَ الْعِيَالُ، وَهَلَكَتِ الْأَمْوَالُ، فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبَّكَ، فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ، وَبِكَ عَلَى اللَّهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «سُبْحَانَ اللَّهِ! سُبْحَانَ اللَّهِ!»، فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ ثُمَّ قَالَ: «وَيْحَكَ! أَتَدْرِي مَا اللَّهُ؟ إِنَّ شَأْنَ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ». وَذَكَرَ الْحَدِيثَ، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١).

الشَّرْح

هذا الحديث رواه أبو داود، والمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ اختصر الحديث ورواه بالمعنى، وفي هذا الحديث: أن الأعرابي جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، هلكت الأموال، وهلكت الأنفس، فاستسق لنا ربك، فإننا نستشفع بالله عليك، وبك على الله. فقال الرسول ﷺ: «سُبْحَانَ اللَّهِ! سُبْحَانَ اللَّه»، وما زال يسبح حتى عُرِفَ ذلك في وجوه أصحابه، فقال النبي ﷺ: «**ويحك أتدري ما الله؟ إنَّ عرشه فوق السماء هكذا؛ وأشار بيده مثل القُبّة ثم قال: وأنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب**»، رواه أبو داود.

المقصود من الترجمة: النهي أن يستشفع بالله على أحد من خلقه؛ لكمال ربوبيته وملكه وتصرفه، وأن ذلك ينافي كمال التوحيد،

(١) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب «في الجهمية»، رقم (٤٧٢٦).

والحديث الذي رواه أبو داود مُتكلمٌ فيه سنداً ومتناً، أما سنداً فهو من روايات جُبير بن محمد بن جُبير بن مُطعِم، وهو ضعيف من جهة حفظه، قال فيه الحافظ: مقبول، وفيه محمد بن إسحاق وقد عنعن، وأما من جهة المتن فضعيف من جهتين:

الأولى: قوله: «نَسْتَشْفِعُ بِاَللَّهِ عَلَيْكَ»، حيث أنكر النبي ﷺ قولهم «نَسْتَشْفِعُ بِاَللَّهِ عَلَيْكَ» وقد ثبت في الصحيحين من حديث الأبرص والأقرع أن الملك قال للأبرص: أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن، والمال بعيراً، وقال للأقرع: أسألك بالذي أعطاك الشعر الحسن، والمال بقرة، وقال للأعمى: أسألك بالذي ردَّ عليك بصرك، والمال شاة، وهذا نوع استشفاع بالله على خلقه، وكذلك قول النبي ﷺ: «**من سأل بالله فأعطوه**». فهذا نوع استشفاع بالله على خلقه.

الثانية: قوله: «**ويحك أتدري ما الله؟ إنَّ عرشه فوق السماء؛ وأشار بيده مثل القُبّة ثم قال: وأنه ليئط أطيط الرحل بالراكب**» وهذا يُشعِر بأن الربّ محتاج للعرش، وهذا فاسد؛ فإن الله تعالى لا يحتاج لأحد من خلقه، فالله هو الحامل للعرش ولحملته بقوته وقدرته، وهو الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا، لكن هذا الحديث وإن كان فيه ضعف من جهة سنده إلا أن له شواهد تُقَويه، كما ذهب إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، والذهبي، قالوا: إنَّ إسناده حَسَن، وله شواهد تقويه، فيكون حسناً، فيجمع بين حديث الأقرع والأبرص وحديث: «**من سأل بالله فأعطوه**»، وحديث: «لَا يُسْتَشْفَعُ بِاَللَّهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ»: بأن النهي هنا محمول على التنزيه، وبأنَّ سؤال الأبرص والأقرع، ومن سأل بالله

فأعطوه، محمول على الجواز، فإذا جاء النهي وجاءت الإباحة فإن الإباحة تحمل على الجواز، والنهي يُحمَل على التنزيه، فيكون الاستشفاع بالله على أحدٍ من خلقه جائز، ولكن الأفضل تركه، فيحمل النهي على التنزيه، فلا يستشفع بالله على أحد من خلقه تنزيهاً، وإن كان جائزاً، فالنهي عن الاستشفاع للتنزيه، فيكون محمولاً على الجواز، ويكون مثل ما مر في باب قول: (عبدي وأمتي)، فالنهي محمول على التنزيه إذا جاء ما يدل على الجواز، كقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ﴾ [النُّور: ٣٢]، وقوله ﷻ: ﴿وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ﴾ [يُوسُف: ٢٥]، وما جاء من النهي في قوله ﷺ: «**لا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي**». فهذا محمول على التنزيه، فينهى أن يقول: عبدي وأمتي تنزيهاً؛ وإن كان جائزاً، وكذلك هنا «لَا يُسْتَشْفَعُ بِاَللَّهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ» للتنزيه وإن كان جائزاً، وأما قوله: «**ليئط به أطيط الرحل بالراكب**» فيحمل على عظمة الرب وقوته وقدرته، ولا يشعر بحاجة الرب إلى العرش؛ بل إن شيخ الإسلام ابن تيمية ذكر في بيان تلبيس الجهمية أن **في حملة العرش قولان لأهل العلم**:

القول الأول: أنَّ حَمَلَة العرش يحملون العرش، ولا يحملون الله.

القول الثاني: أنهم يحملون العرش ويحملون من فوقه؛ لأن الله تعالى أقدَرَهم على ذلك، وعلى هذا يكون الأطيط لا يشعر بحاجة الله إلى العرش، بل يدل على عظمة الرب وقوته وقدرته، والعلماء اختلفوا في هذا الحديث؛ منهم من حسَّنه، ومنهم من ضعّفَه، وممن حسنه شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، والذهبي،

وجمع، وهناك من ضعفه، ومن حسنه قال: حسنه بشواهد.

وأدلة العلو كثيرة لا حصر لها، وأما الأطيط فيحمل على معنى يليق بالرب، وهو أنه يدل على عظمة الرب وقوته وقدرته، ولا يشعر بحاجة ربه إلى العرش، وبهذه الترجمة يكون الاستشفاع بالله على أحد من خلقه منهيٌّ عنه بغرض التنزيه، وتأدُباً مع جناب الربوبية؛ فالأولى ألا يُستشفع بالله على أحد من خلقه، وإن استشفع فلا حرج؛ فهو جائز.

فِيهِ مَسَائِلُ:

- اَلْأُولَى: إِنْكَارُهُ عَلَى مَنْ قَالَ: نَسْتَشْفِعُ بِاَللَّهِ عَلَيْكَ.

إنكار النبي ﷺ على الأعرابي قوله: إنَّا نستشفع بالله عليك.

- اَلثَّانِيَةُ: تَغَيُّرُهُ تَغَيُّراً عُرِفَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ مِنْ هَذِهِ اَلْكَلِمَةِ.

أن النبي ﷺ تَغَير تَغَيُّراً واضحاً، عُرِفَ في وجوه أصحابه من أجل هذه الكلمة.

- اَلثَّالِثَةُ: أَنَّهُ لَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ قَوْلَهُ نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى اَللَّهِ.

أن النبي ﷺ لم يُنكِر عليهم قول: «نستشفع بك على الله».

- اَلرَّابِعَةُ: اَلتَّنْبِيهُ عَلَى تَفْسِيرِ سُبْحَانَ اَللَّهِ!.

تفسير معنى قوله: سبحان الله؛ تنزيهاً لله عما لا يليق به.

- اَلْخَامِسَةُ: أَنَّ اَلْمُسْلِمِينَ يَسْأَلُونَهُ ﷺ اَلاسْتِسْقَاءَ.

أن المسلمين يسألون النبي ﷺ الاستسقاء، وهو يدعو ويؤمّن.

بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ ٱلنَّبِيِّ ﷺ حِمَى ٱلتَّوْحِيدِ، وَسَدِّهِ طُرُقَ ٱلشِّرْكِ

عَنْ عَبْدِ ٱللَّهِ بْنِ الشِّخِّيرِ رضي الله عنه قَالَ: اِنْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ ٱللَّهِ ﷺ. فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا. فَقَالَ: «اَلسَّيِّدُ ٱللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى». قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلاً، وَأَعْظَمُنَا طَولاً. فَقَالَ: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمْ ٱلشَّيْطَانُ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ(١).

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه: أَنَّ نَاساً قَالُوا: يَا رَسُولَ ٱللَّهِ، يَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا، وَسَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا. فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ، قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ ٱلشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ ٱللَّهِ وَرَسُولُهُ، مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي ٱلَّتِي أَنْزَلَنِي ٱللَّهُ عز وجل». رَوَاهُ ٱلنَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ(٢).

الشَّرح

مقصود المؤلف رحمه الله بهذه الترجمة: حماية النبي ﷺ حمى التوحيد عما يشوبه من الأقوال والأعمال، التي تتضمن نفي التوحيد ونقضه أو نفي كماله الواجب، والفرق بين هذه الترجمة والترجمة

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب «في كراهية التمادح»، رقم (٤٨٠٦)، وأحمد (٤/ ٢٤).

قال ابن مفلح: «إسناده جيد». «الآداب الشرعية» (٣/ ٤٣٨).

وقال ابن حجر: «رجاله ثقات، وقد صححه غير واحد». «فتح الباري» (٥/ ١٧٩).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٥٣)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٦/ ٧١).

السابقة - وهي باب ما جاء في حماية الـمُصطفى ﷺ جناب التوحيد، وسدِّه كلِّ طريق موَّصِل إلى الشرك - الفرق بينهما من وجهين:

الوجه الأول: باب ما جاء في حماية المُصطفى ﷺ جناب التوحيد، والجناب هو ما يكون داخلاً في الشيء، فإن الرسول ﷺ حمى التوحيد عمَّا يكون داخلاً فيه من الأقوال والأعمال، وأما هذه الترجمة فهي باب ما جاء في حماية المُصطفى ﷺ حِمَى التوحيد، وحِمَاه هو ما يدور حوله وليس داخلاً فيه، فيكون الرسول ﷺ حَمَى حِمى التوحيد عما يدور حوله وليس داخلاً فيه من الأقوال والأعمال، وتكون هذه الترجمة أبلغ من الترجمة السابقة؛ لأن الترجمة السابقة حماية الرسول ﷺ جناب التوحيد مما يكون داخلاً فيه من الأقوال والأعمال، والجناب: هو الجانب، والجانب ما يكون داخلاً في الشيء، وهذه الترجمة حماية المصطفى ﷺ حمى التوحيد ما لم يكن داخلاً فيه ما يحوم حوله، فيكون الرسول صلى الله عليه و سلم حمى حِمى التوحيد عما يشوبه من الأقوال والأعمال مما لم يكن داخلاً فيه.

الوجه الثاني: أن الترجمة الأولى أن حماية المصطفى جناب التوحيد خاصة بالأفعال، وهذه الترجمة حماية المُصطفى ﷺ حِمَى التوحيد خاصة بالأقوال، فتكون الترجمة السابقة باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد عما يشوبه من الأفعال؛ كالبناء على القبور، ودعاء الميت، والعكوف عند القبور، واتخاذ القبور أعياداً، والبناء عليها، وغير ذلك من الأعمال. وهذه الترجمة حماية المُصطفى ﷺ حِمَى التوحيد حماه عما يشوبه من الأقوال، كما جاء

في الحديث كقول: يا سيدنا، وابن سيدنا، يا خيرنا، وابن خيرنا، فنهاه حماية لجناب التوحيد من الأقوال؛ لكن الوجه الأول أبلغ، فتكون الترجمة الأولى حماية النبي ﷺ جناب التوحيد عمَّا يكون داخلاً فيه من الأقوال والأعمال، وهذه الترجمة حماية النبي ﷺ حمى التوحيد عما يشوبه ويحوم حوله مما لا يكون داخلاً فيه من الأقوال والأعمال، مثل: النهي عن الصلاة بعد صلاة العصر وصلاة الفجر، قوله: «**لا صلاة بعد العصر حتى تغرُبُ الشمس، ولا صلاة بعد الفجر حتى تطلع الشمس**»، حمايةً للتوحيد من أن يُصلى عند غروب الشمس، والنهي مؤول بعد صلاة العصر والفجر؛ سدًّاً لذريعة مشابهة المشركين الذين يُصلّون ويسجدون للشمس عند غروبها وعند طلوعها، فالنبي ﷺ حمى التوحيد، فنهى عن الصلاة بعد العصر سداً للذريعة، وإن كان الأصل وقت العصر ساعتين أو ثلاث، فنهى عن أول صلاة العصر؛ سداً لذريعة مشابهة المشركين الذين يسجدون للشمس عند غروبها، ونهى عن الصلاة بعد الفجر سداً لذريعة مشابهة المشركين الذين يسجدون للشمس عند طلوعها؛ حماية للتوحيد عما يشوبه، وسداً للذريعة.

ومن ذلك: أيضاً النهي عن مشابهة المشركين في الظاهر؛ حماية لجناب التوحيد عن مشابهتهم في الأقوال والاعتقاد، قال: «**من تشبه بقوم فهو منهم**». نهى عن مشابهة المشركين في الظاهر حمايةً لجناب التوحيد عن مشابهتهم في الأفعال والاعتقاد.

وفي هذا حديث عبد الله بن الشخير أنَّهم عندما قالوا: أنت سيدنا. قال: «اَلسَّيِّدُ اَللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى»، النبي ﷺ نهاهم عن قول: أنت سيدنا. حتى وإن كان هو السيد عليه الصلاة والسلام؛ لكن سدًّاً

للغلو، منعاً للغلو، سداً لذريعة الغلو، وكراهة أن يواجهوه بالمدح، خشية لقربهم من الغلو، وإن كان هو السيد عليه الصلاة والسلام، كما في الحديث الصحيح: «**أنا سيد ولد آدم و لا فخر**»، ولكنهم لما قالوا: أنت سيدنا. قال: «اَلسَّيِّدُ اَللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى». كره أن يواجهوه بالمدح، حتى لا يقربوا من الغلو، فإن مواجهة المادح بالممدوح مما يُحبُه الشيطان؛ لأن مدح المادح في نفسه يفضي به إلى التعاظم، ولهذا قال النبي ﷺ: «**إذا رأيتم المدَّاحين، فاحثوا في وجوههم التراب**»، وقال النبي ﷺ لمن مدح: «**ويحك قد قطعت عُنق صاحبك**»، فمواجهة الممدوح بالمدح يُفضي به إلى الغلو، ويفضي به إلى التعاظم، وذلك ينافي كمال التوحيد، فإن العبادة لا تقوم إلا بأصليها اللذين هما قُطُب رحاها، وهما غاية الذُّل، في غاية المحبة، هذان أصلا الإسلام اللذان هما قطب رحاها: غاية الذل، وغاية المحبة، كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[1]:

وعبادة الرحمن غاية حبِّه ... مع ذلّ عابده هما قطبانِ

وعليهما فلك العبادة دائرٌ ... ما دار حتى قامت القطبانِ

ومداره بالأمر أمر رسوله ... لا بالهوى والنفس والشيطانِ

وغاية الذل تقتضي الاستكانة والخشية والخضوع، وألا يرى الإنسان نفسه إلا في مقام الذم لها، والمعاتبة لها في حق الله ﷻ، والمدح ينافي ذلك، كما أنَّ غاية المحبة تقتضي محبة ما يُحبُه الله، وكراهة ما يكرهُهُ الله، وموافقة الله في الإرادات والأقوال والأفعال، فالمحبة تقتضي هذا، أمَّا من يحب ما يكرهه المحبوب فإنَّه ليس صادقاً في دعواه المحبة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ

(١) القصيدة النونية لابن القيم (ص ٣٥).

فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عِمرَان: ٣١].

ومواجهة الممدوح بالمدح ينافي كمال الذل، ويوقع التعاظم في نفس الإنسان، كما أن كراهة ما يحبه المحبوب، ومحبة ما يكرهه، تنافي كمال المحبة.

○ **قوله** ﷺ: «اَلسَّيِّدُ اَللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى» السيد من أسماء الله تعالى المشتركة، مثل: العزيز، واختلف العلماء في إطلاقه على الإنسان، أيُطلَق السيد على المخلوق أو لا يُطلق؟ قولان لأهل العلم:

القول الأول: أنه لا يُطلَق على المخلوق، ونُسِبَ ذلك إلى الإمام مالك، واستدل بهذا الحديث: **أنَّه عندما قيل للنبي عليه الصلاة والسلام: السيد، قال**: «اَلسَّيِّدُ اَللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى».

القول الثاني: الجواز، وأنَّه يجوز أن يُطلَق على المخلوق؛ واستدلوا بقول النبي ﷺ لمَّا جاء سعد بن معاذ رضي الله عنه قال: «**قوموا إلى سيدكم**». وقد ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال في قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾ [الأنعَام: ١٦٤] قال: إلهاً وسيداً، وكذلك في تفسير الله الصمد، قال: السيد الذي كَمُل في السؤدد.

والصواب التفصيل في هذه المسألة؛ وأنه يجوز إطلاق السيد على رئيس القوم وفقيههم ونبيهم، فالسيد يطلق على النبي، وعلى الفقيه، وعلى الرئيس، ولا يُطلق على كل أحد، ولا يواجه به الإنسان مواجهة، ولكن إذا وُوجِه به الإنسان أو أُطلِقَ على كل أحد كره كراهة تنزيه سدًّاً للذريعة؛ لأنه ورد في بعض النصوص إطلاق السيد على بعض المخلوقين، فيكون هذا دليلاً على الجواز، والنهي يحمل على التنزيه، فيطلق على رئيس القبيلة والفقيه؛ لكن لا يواجهه

به، فلا يقال: «أَنْتَ سَيِّدُنَا»، فإن وُوجه به فهو مكروه كراهة تنزيه؛ سداً لذريعة الغلو.

واختلف العلماء في علة المنع من قول: «أنتَ سيدُنا»:

القول الأول: إن النبي ﷺ نهاهم عن ذلك؛ سدًّاً لذريعة الغلو.

القول الثاني: إن هذا كان أولاً قبل أن يقول: «**قوموا إلى سيدكم**»، والصواب هو الأول؛ أنه نهاهم سدًّاً لذريعة الغلو، وإلا فهو جائز، وبهذا تجتمع الأدلة، فيكون إطلاق لفظ السيد جائز، ولكن الأولى ألا يُواجه به، وألا يطلق على كل أحد، وأما ما جاء من قول ﷺ للحسن: «**إن ابني هذا سيد**»، وقال في سعد بن معاذ لما جاء ليحكم في يهود بني قريظة قال للأنصار: «**قوموا لسيدكم**»، وقال: «**مَن سيد بني فلان؟**» فهذا إذا لم يواجه به الشخص، أو أنه محمول على الإضافة، والنهي محمول على القطع عن الإضافة.

فِيهِ مَسَائِلُ:

- الْأُولَى: تَحْذِيرُ النَّاسِ مِنَ الْغُلُوِّ.
- الثَّانِيَةُ: مَا يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَ مَنْ قِيلَ لَهُ: «أَنْتَ سَيِّدُنَا.

بأن يقول: السيد الله تبارك وتعالى.

- الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ: «لَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ» ومَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا إِلَّا الْحَقَّ.

معنى «يستجرينكم الشيطان» أي: يجعلكم دعاة وأنصاراً ورُسُلاً له، أي: لا يجرُكُم الشيطان، ومنه ما جاء في قصة إبراهيم عليه السلام، عندما وضع ابنه وزوجته هاجر، جاء جبريل وغمز الماء، فيمرَّ قوم من جرهم من بعيد، فرأوا طيوراً تحوم حول الماء، فقالوا: إن هذه

الطيور لا تحوم إلا حول الماء، ولعهدنا بهذا المكان أنه ليس به ماء، وأرسلوا جرياً أو جريين يعني: رسولاً أو رسولين يأتي لهم بالخبر، فالجري هو الرسول.

◆ اَلرَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: «مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي».

فقد قال عليه الصلاة والسلام: «**إِيَّاكُم والغلو؛ فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو**». وقال عليه الصلاة والسلام: «**لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبدُ الله ورسوله**».

بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزُّمَر: ٦٧] الْآيَةَ

عَنْ اِبْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: «جَاءَ حَبْرٌ مِنَ اَلْأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اَللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اَللَّهَ يَجْعَلُ اَلسَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ اَلْخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا اَلْمَلِكُ. فَضَحِكَ اَلنَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ؛ تَصْدِيقاً لِقَوْلِ اَلْحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزُّمَر: ٦٧]» اَلْآيَةَ(١)، وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ(٢): «وَالْجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ فَيَقُولُ: أَنَا اَلْمَلِكُ أَنَا اَللَّهُ»، وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ(٣): «وَيَجْعَلُ اَلسَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ اَلْخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ».

وَلِمُسْلِمٍ(٤) عَنْ اِبْنِ عُمَرَ مَرْفُوعاً: «يَطْوِي اَللَّهُ اَلسَّمَاوَاتِ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ اَلْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا اَلْمَلِكُ، أَيْنَ اَلْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ اَلْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي اَلْأَرَضِينَ اَلسَّبْعَ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب «قوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ رقم (٤٨١١)، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، رقم (٢٧٨٦).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، رقم (٢٧٨٦).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب «قوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾، رقم (٤٨١١).

(٤) أخرجه مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، رقم (٢٧٨٨).

بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا اَلْمَلِكُ، أَيْنَ اَلْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ اَلْمُتَكَبِّرُونَ؟».

وَرُوِيَ عَنْ اِبْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: «مَا اَلسَّمَاوَاتُ اَلسَّبْعُ، وَالْأَرْضُونَ اَلسَّبْعُ فِي كَفِّ اَلرَّحْمَنِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ»[1]، وَقَالَ اِبْنُ جَرِيرٍ[2]: حَدَّثَنِي يُونُسُ، أَخْبَرَنَا اِبْنُ وَهْبٍ، قَالَ: قَالَ اِبْنُ زَيْدٍ: حَدَّثَنِي أَبِي، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ: «مَا اَلسَّمَاوَاتُ اَلسَّبْعُ فِي اَلْكُرْسِيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فِي تُرْسٍ». قَالَ: وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ رضي الله عنه: سَمِعْتَ رَسُولَ اَللَّهِ ﷺ يَقُولُ: مَا اَلْكُرْسِيِّ فِي اَلْعَرْشِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْ فَلَاةٍ مِنَ اَلْأَرْضِ».

وَعَنْ اِبْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «بَيْنَ اَلسَّمَاءِ اَلدُّنْيَا وَالَّتِي تَلِيهَا خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ وَسَمَاءٍ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ اَلسَّمَاءِ اَلسَّابِعَةِ وَالْكُرْسِيِّ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ اَلْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَالْعَرْشُ فَوْقَ اَلْمَاءِ، وَاَللَّهُ فَوْقَ اَلْعَرْشِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ». أَخْرَجَهُ اِبْنُ مَهْدِيٍّ عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ عَنْ عَاصِمٍ عَنْ زِرٍّ عَنْ عَبْدِ اَللهِ[3]. وَرَوَاهُ بِنَحْوِهِ اَلْمَسْعُودِيُّ عَنْ عَاصِمٍ عَنْ أَبِي وَائِلٍ عَنْ عَبْدِ اَللَّهِ[4]، قَالَهُ اَلْحَافِظُ اَلذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اَللَّهُ تَعَالَى. قَالَ: وَلَهُ طُرُقٌ[5]، وَعَنْ اَلْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ اَلْمُطَّلِبِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ: «هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ اَلسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟» قُلْنَا: اَللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السنة» رقم (١٠٩٠).

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في «التفسير» (٣/ ١٠).
قال الذهبي: «هذا مرسل، وعبد الرحمن ضعيف». «العلو للعلي الغفار» رقم (٣١٣).

(٣) أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٣٩٣) من طريق ابن مهدي به.

(٤) أخرجه ابن خزيمة في «التوحيد» رقم (٥٩٤) من طريق المسعودي به.

(٥) قال: «وإسناده صحيح». «العلو للعلي الغفار» رقم (١٧٣).

قَالَ: «بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ، وَمِنْ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ، مَسِيرَةُ خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ، وَكِثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَبَيْنَ ٱلسَّمَاءِ ٱلسَّابِعَةِ وَالْعَرْشِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ كَمَا بَيْنَ ٱلسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَٱللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَوْقَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ». أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ(١).

الشَّرْح

أورد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الباب الأحاديث والآثار في توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات؛ لأن توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات دليلان على توحيد الألوهية، ففي هذه الترجمة إثبات التوحيد بأنواعه الثلاثة: توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، كما أن التراجم السابقة فيها إثبات توحيد الألوهية.

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ يعني: وما عظّم المشركون الله حقّ تعظيمه، حيث عبدوا معه غيره، وهو العظيم لا أعظم منه، فهو المستحقّ للعبادة لعظمته وكماله، وعظمةِ أسمائه وصفاته، وعظيمِ إحسانه وإنعامه على عباده، فهو المستحق للعبادة ولا يستحقها غيره، ففي الآية إثبات توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب «في الجهمية»، رقم (٤٧٢٣)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب «ومن سورة الحاقة»، رقم (٣٣٢٠)، وابن ماجه، في المقدمة، باب «فيما أنكرت الجهمية»، رقم (١٩٣)، قال الترمذي: «حديث حسن غريب»، وإسناده ضعيف؛ تفرَّد به سماك عن عبد الله، وعبدالله فيه جهالة كما قال الذهبي في «العلو» (ص ٦٠)، وعبد الله بن عميرة لا يُعلم له سماع من الأحنف، قاله البخاري كما في «الضعفاء» للعقيلي (٢/ ٢٨٤).

○ **قوله**: «عن اِبْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «جَاءَ حَبْرٌ مِنَ اَلْأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اَللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟...» فيه: إثبات الأصابع لله عَزَّ وَجَلَّ كما يليق بجلاله وعظمته، وهي صفة من صفاته، ويثبت أن لله خمسة أصابع.

وفيه: قبول الحقّ لمن جاء به ولو كان كافراً؛ فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صدَّق قول اليهودي.

وفيه: أن اليهود يعرفون الحق؛ ولكنهم لا يعملون به.

وفيه: دليل على أن ليس كل من عرف الحقّ يكون مؤمناً، بل لا بد من الاتباع والعمل، فلا يكفي المعرفة، قال الله تعالى عن اليهود: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾ [البَقَرَة: ١٤٦]، وقال عن فرعون: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ [النَّمل: ١٤].

وفيه: الردّ على المرجئة الذين يقولون: إن الإيمان هو مجرد التصديق بالقلب، فهؤلاء اليهود مصدّقون بقلوبهم، فلا يكفي التصديق بالقلب، بل لا بد أن يكون مع التصديق حركة من عمل، فالتصديق الذي في القلب لا بد له من عمل يتحقق به، وإلا صار كإيمان إبليس وفرعون وإيمان اليهود، كما أن العمل كالصيام والصلاة لا بد له من إيمان يصححه، وإلا صار كإسلام المنافقين.

فهؤلاء اليهود يعرفون الحقّ؛ ولكنّهم لمّا لم يتبعوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم ينقادوا لشرع الله ودينه، لم يكونوا مؤمنين، فلا يكفي التصديق بالقلب، بل لا بد من تصديق واتباع، والاتباع يتحقّق بالعمل.

○ **قوله**: «وَلِمُسْلِمٍ عَنْ اِبْنِ عُمَرَ مَرْفُوعاً: «يَطْوِي اَللَّهُ اَلسَّمَاوَاتِ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ اَلْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا اَلْمَلِكُ، أَيْنَ اَلْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ اَلْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي اَلْأَرْضِينَ اَلسَّبْعَ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ

بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا اَلْمَلِكُ، أَيْنَ اَلْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ اَلْمُتَكَبِّرُونَ؟»
فيه: إثبات اليدين لله ﷻ، وأن لله يدين، كما قال: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقال: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: ٧٥].

وفيه: إثبات أن لله يميناً وشمالاً؛ لقوله: «يَأْخُذُهُنَّ بِشِمَالِهِ» ولكن كلتا يديه سبحانه يمين. يعني: من جهة الفضل والشرف، والبركة وعدم النقص، وإلا فله يمين وشمال، بخلاف المخلوق؛ فإن الشمال يكون بها ضعف ونقص، أمّا الخالق سبحانه وتعالى فلا يلحقه نقص، بل كلتا يديه يمين، كما في الحديث الصحيح: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ ﷻ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا»**(١).

ومنهم من طعن في رواية مسلم: **«ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِشِمَالِهِ»**(٢)، فطعن بعض الحفّاظ قال: تفرد بها عمر بن حمزة عن سالم، وقالوا: إنها لا تشبه الشمال، ولا تسمى شمالاً؛ بل كل منهما يمين، وفي الأحاديث الأخرى: قال: **«وَبِيَدِهِ الأُخْرَى»**(٣). ولهذا أنكروا أن يكون لله شمال.

لكن الصواب: أن له يميناً وشمالاً، كما ذهب إلى هذا واعتمده المؤلف الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وغيره وجمع من أهل العلم منهم شيخنا سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله، وهو على طريقة

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، رقم (١٨٢٧) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
(٢) انظر: الأسماء والصفات، للبيهقي (٢/ ١٣٩)، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (٣١٣٦).
(٣) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب «﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾»، رقم (٧٤١٩)، ومسلم، كتاب الزكاة، رقم (٩٩٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الفقهاء والأصوليين، وإن كان كل منهما يمين يعني: في الشرف والفضل، والبركة وعدم النقص.

وأما رواية ابن عباس: **قَالَ**: «**مَا ٱلسَّمَاوَاتُ ٱلسَّبْعُ وَالْأَرْضُونَ ٱلسَّبْعُ فِي كَفِّ ٱلرَّحْمَنِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ**». فلم يذكر الشارح عبدالرحمن بن حسن سند هذه الرواية، ولكن ذكر الشيخ سليمان بن عبد الله في بعض حواشيه سندها، وقال: ورواه معاذ بن هشام الدستوائي، ثنا أبي عن عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء عن ابن عباس قال... ثم ذكر الأثر، وقال: وهذا الإسناد في نقدي صحيح. اهـ[1]، ومثل هذا لا مجال للرأي فيه، وعلى هذا ففيه إثبات الكفّ للربّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

«وَقَالَ ٱبْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي يُونُسُ، أَخْبَرَنَا ٱبْنُ وَهْبٍ، قَالَ: قَالَ ٱبْنُ زَيْدٍ: حَدَّثَنِي أَبِي، قَالَ: قَالَ رَسُولُ ٱللَّهِ ﷺ: «مَا ٱلسَّمَاوَاتُ ٱلسَّبْعُ فِي ٱلْكُرْسِيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فِي تُرْسٍ» فيه: بيان عظمة الكرسي، وأن الكرسي مخلوق عظيم، وهو موضع لقدمي الربّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما جاء عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «**الْكُرْسِيُّ مَوْضِعُ قَدَمَيْهِ وَالْعَرْشُ لَا يُقْدَرُ قَدْرُهُ**»[2]. وهذا ثابت عن ابن عباس، ومثل هذا لا يقال بالرأي، فالكرسي مخلوق عظيم وهو كالمرقاة بالنسبة للعرش.

«قَالَ: وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: سَمِعْتَ رَسُولَ ٱللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا ٱلْكُرْسِيِّ فِي ٱلْعَرْشِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْ فَلَاةٍ مِنَ

(١) إبطال التنديد (ص ١٧٠).

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السنة» رقم (٥٨٦).
قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه». «المستدرك» (٢/ ٣١٠).

ٱلْأَرْضِ» فيه: عظمة العرش، فالكرسي مع أنه عظيم بنسبة السماوات والأرض إليه وأنهن كدراهم سبعة ألقيت في ترس، إلا أنه مع هذه العظمة للكرسي، فإن العرش أعظم منه بكثير، فنسبة الكرسي إلى العرش كحلقة من حديد ألقيت في صحراء، ماذا تكون نسبة الحلقة إلى الصحراء؟

لا نسبة، فكذلك هذه نسبة الكرسي إلى العرش.

وفيه: دليل أن الكرسي غير العرش، وقال بعض العلماء: أنهما شيء واحد. وهو قول ضعيف(١).

والكرسي هو: موضع قدمي الرب ﷻ، كما سبق عن ابن عباس، وهو الصحيح، وقيل: الكرسي هو العلم، لكن هذا قول باطل غير صحيح(٢).

○ **قوله**: «وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَٱلَّتِي تَلِيهَا خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ وَسَمَاءٍ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْكُرْسِيِّ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَٱلْمَاءِ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَالْعَرْشُ فَوْقَ الْمَاءِ، وَٱللَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ».

هذا الأثر موقوف على ابن مسعود رضي الله عنه، وقد دلّت النصوص الأخرى على ما ذكره، فدلّت على أن بين كل سماء وسماء خمسمائة

---

(١) وهذا القول مروي عن الحسن البصري، فقد روى ابن جرير بسنده عن جويبر عن الضحاك قال: كان الحسن يقول: الكرسي هو العرش. تفسير الطبري (٥/ ٣٩٩)، وجويبر ضعيف. وانظر: تفسير ابن كثير رحمه الله (١/ ٦٨١).

(٢) وهو قول الجهمية، فقد أوّلوا الكرسي بمعنى العلم، كما أولوا العرش بمعنى الملك؛ فراراً منهم عن إثبات علو الله واستوائه على عرشه، وانظر: مجموع الفتاوى (٥/ ٦٠)، والرد على بشر المريسي (ص٧١)، والعرش للذهبي (١/ ٣٣٧).

عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام، وبين الكرسي والعرش خمسمائة عام، ومثل هذا له حكم الرفع؛ لأنه لا مجال للرأي فيه.

○ **قوله**: «وَعَنْ الْعَبَّاسِ ابْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ، وَمِنْ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ، وَكِثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْعَرْشِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَوْقَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ»».

فهذا الحديث فيه بعض الضعف، لكن له شواهد، وهو من الشواهد والمتابعات، والقاعدة: أنه يتسامح في الشواهد والمتابعات ما لا يتسامح في الأصول.

وأدلة العلو أفراده تزيد على ألف دليل[١]، فهذا شاهد، ولكن المستنكَر منه ما جاء في الأوعال في هذا الحديث قال: «**ثُمَّ فَوْقَ السَّابِعَةِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ مِثْلُ مَا بَيْنَ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ، ثُمَّ فَوْقَ ذَلِكَ ثَمَانِيَةُ أَوْعَالٍ بَيْنَ أَظْلَافِهِمْ وَرُكَبِهِمْ مِثْلُ مَا بَيْنَ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ، ثُمَّ عَلَى ظُهُورِهِمُ الْعَرْشُ مَا بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ مِثْلُ مَا بَيْنَ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ، ثُمَّ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَوْقَ ذَلِكَ**»

والعرش كما دلّت النصوص أنه يحمله أربعة، وفي يوم القيامة ثمانية[٢]: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحاقَّة: ١٧].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٥/ ١٢)، ودرء تعارض العقل والنقل (٧/ ٢٦)، والصواعق المرسلة (١/ ٣٦٨) (٤/ ١٢٧٩).

(٢) انظر: العرش للذهبي (١/ ٣٣٧).

وفي هذا الحديث: أن بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام، وهذه مسافة طويلة، وهذا من فضل الله تعالى، وإحسانه على عباده؛ لأنه لو كانت السماء قريبة لصار هناك مشقة على من يصعد فوق الجبل أو فوق الشجر، ولما يعلمه الله مما سيحصل في آخر الزمان من الطائرات والمركبات الفضائية التي تخترق الأجواء، فلو كانت السماء قريبة لما تمكنوا من اختراق الأجواء؛ ولئلا يختنقوا من ضعف الهواء.

وفيه: دليل على أن السماوات غير شفافة؛ لأنه في حادثة الإسراء والمعراج لمّا عرج بالنبي ﷺ معه جبريل فاستفتح، **قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ جِبْرِيلُ: قِيلَ: مَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ**(١)، فلو كانت السماء شفافة لرأوه ولم يقولوا: **مَنْ هَذَا؟**

وهذا الحديث وإن كان فيه بعض الضعف، إلا أنه ينجبر بالشواهد والمتابعات الكثيرة.

مسألة: جاء في الحديث الآخر: «**إِنَّ بُعْدَ مَا بَيْنَهُمَا إِمَّا وَاحِدَةٌ أَوِ اثْنَتَانِ أَوْ ثَلَاثٌ وَسَبْعُونَ سَنَةً**»(٢). ويُجمع بينه وبين هذا الحديث: «**بينهما خمسمائة سنة**» باختلاف السير، فيُحمل قوله: «**واحدة وسبعون سنة**» على سير البريد؛ لأنه سريع، وقوله: «**بينهما خمسمائة سنة**» على سير القافلة، والسير على الأقدام، ودبيب الأحمال، فإن السير على البريد يكون سريعاً؛ ولهذا يقال مثلاً: إن بين المدينة وبين الشام مسيرة شهر، بدبيب الأحمال، وأما سير البريد فإنه يقطع

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب «ذكر الملائكة»، رقم (٣٢٠٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (١٦٤) من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه.
(٢) وهو حديث العباس بن عبد المطلب، وتقدم تخريجه.

المسافة في ثلاثة أيام.

فِيهِ مَسَائِلُ:

◄ **الأُولَى: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزُّمَر: ٦٧].**

وأن الله ﷻ يقبض الأرض بيده، ففيه إثبات القبض لله تعالى، وهو من الصفات الفعلية، وإثبات اليد من الصفات الذاتية.

◄ **الثَّانِيَةُ: أَنَّ هَذِهِ الْعُلُومَ وَأَمْثَالَهَا بَاقِيَةٌ عِنْدَ الْيَهُودِ الَّذِينَ فِي زَمَنِهِ ﷺ لَمْ يُنْكِرُوهَا وَلَمْ يَتَأَوَّلُوهَا.**

«جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى أَصْبَعٍ، وَالأَرَضِينَ عَلَى أَصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى أَصْبَعٍ، وَالثَّرَى عَلَى أَصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى أَصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ».

فهذه العلوم باقية عند اليهود ولم يحرفوها، حتى جاء الجهميون فحرفوها، وصاروا أشد من اليهود، فبقيت هذه العلوم عند اليهود، وأثبتوا هذه الصفات، أثبتوا اليد، وأثبتوا الأصابع ولم يحرفوها، أما الجهمية والفِرق الضالة فحرفوها.

◄ **الثَّالِثَةُ: أَنَّ الْحَبْرَ لَمَّا ذَكَرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ صَدَّقَهُ، وَنَزَلَ الْقُرْآنُ بِتَقْرِيرِ ذَلِكَ.**

ففيه: قبول الحق ممن جاء به ولو كان كافراً.

◄ **الرَّابِعَةُ: وُقُوعُ الضَّحِكِ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَمَّا ذَكَرَ الْحَبْرُ هَذَا الْعِلْمَ الْعَظِيمَ.**

كما جاء في الحديث: «تصديقاً لقول الحبر».

- **الْخَامِسَةُ: التَّصْرِيحُ بِذِكْرِ الْيَدَيْنِ، وَأَنَّ السَّمَاوَاتِ فِي الْيَدِ الْيُمْنَى، وَالأَرَضِينَ فِي الأُخْرَى.**
- **السَّادِسَةُ: التَّصْرِيحُ بِتَسْمِيَتِهَا الشِّمَالَ.**

كما في رواية مسلم؛ وإن طعن بعضهم فيها بالتفرد، ولكن الصواب ثبوتها، ولا يلزم من ذلك نقص الشمال كما يلزم من يد المخلوق، فالشمال عند المخلوق يكون فيها ضعف، وأما يد الرب ﷻ فكلها يمين مباركة في الشرف والفضل، وعدم النقص.

- **السَّابِعَةُ: ذِكْرُ الْجَبَّارِينَ وَالْمُتَكَبِّرِينَ عِنْدَ ذَلِكَ.**

أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ لما وضعها.

- **الثَّامِنَةُ: قَوْلُهُ: كَخَرْدَلَةٍ فِي كَفِّ أَحَدِكُمْ».**

السماوات السبع يعني: نسبتها كخردلة، والخردلة: حبة صغيرة في يد الإنسان، فهذه السماوات العظيمة والأرضون نسبتها في كف الرحمن كخردلة في يد الواحد منا.

- **التَّاسِعَةُ: عِظَمُ الْكُرْسِيِّ بِالنِّسْبَةِ إِلَى السَّمَاءِ.**

الكرسي مخلوق عظيم، وهو موضع قدمي الرب سبحانه، وبيان عظمته أن نسبة السماوات إليه كسبعة دراهم ألقيت في ترس، أو فلاة من الأرض.

- **الْعَاشِرَةُ: عِظَمُ الْعَرْشِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْكُرْسِيِّ.**

لأن العرش بالنسبة للكرسي كحلقة من حديد ألقيت في فلاة من الأرض.

- **الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ الْعَرْشَ غَيْرُ الْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ.**
- **الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: كَمْ بَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ.**

مسيرة خمسمائة عام.

- **الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْكُرْسِيِّ.**

مسيرة خمسمائة عام، كما في حديث ابن مسعود.

- **الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: كَمْ بَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ.**

مسيرة خمسمائة عام أيضاً، كما في حديث ابن مسعود.

- **الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ الْعَرْشَ فَوْقَ الْمَاءِ.**

في الآية الكريمة: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هُود: ٧].

- **السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ اللهَ فَوْقَ الْعَرْشِ.**

وهذا أدلته كثيرة: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ في سبعة مواضع.

- **السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ.**

مسيرة خمسمائة عام، كما سبق.

- **الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: كِثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ مِائَةُ سَنَةٍ.**

الكثف يعني: الغلظ.

- **التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ الْبَحْرَ الَّذِي فَوْقَ السَّمَاوَاتِ أَسْفَلُهُ وَأَعْلَاهُ خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ، وَاللهُ أَعْلَمُ.**

فهرس الموضوعات

الموضوع رقم الصفحة

الموضوع رقم الصفحة